بقلم : أديث سوندرز
ترجمة : يحيى حقي

الأب الضليل

قصة حياة فنان مغامر

روايات الهلال

روايات الهـــلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٥٨ – يونية ١٩٧٠ – ربيع الثاني ١٣٩٠

No. 258 - June 1970

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – من الكميات المرسلة بالطائرة – فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحاد البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ – فى سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية – فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج.ع.م » – والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة تليفون « ٢٠٦١٠ » « عشرة خطوط »

الغلاف بريشة الفنان : حلمى التونى

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشـــة
الفنان حلمى التونى

الأب الضلّيل

قصة حياة
فنان مغامر



أديث سوندرز

ترجمة
يحيى حقي

دار الهلال

مقدمة المترجم

كل من عاني تأليف سيرة انسان ليجعله بطل كتاب ـ سواء أكان بطلا فى الحياة أم لم يكن ـ يؤمن بداهة أول الامر ان الهدف المنشود يقتضيه ، ان أراد العدل والصدق ، أن يجعل شخصية هـذا البطل تملأ اللوحة كلها وتستأثر بجميع الاضواء ، فاذا مضى فى هـذا السبيل أحس وهو قلق أن اللوحة ، رغم امتلائها بشخصيـة البطل تظل فارغة جوفاء ، وانه مرسوم بغير ابعاد ، فكأنه انسـان وهمى ، لاندرى أهو حى أم خرافى ، مدور أم مسطح ، لابد اذن ان يقوم بجانبه شيء آخر يحدد أبعاد البطل وخطوطه ويجعله ينطق بالصدق ـ وان كان صدقا غير مطلق ـ بفضل النسبة التى قامت بين البطل وهـذا الشيء الآخر . حينئذ تأتى شخصيات ثانوية فى محيط البطل،وتتقدم قليلا .. قليلا حتى تبلغ مقدمة الصفوف ، فاذا بلغتها أحس المؤلف،وهو مغتبط ، انه يعدل عن رسم فرد فى لوحة صغيرة الى رسم جيل فى لوحة كبيرة ، ووجد أن شخصية البطل تتضاءل قليلا بسبب اتساع اللوحة ، فلا يغضب لذلك بل لعله يفرح به ، لانه ينجيه من المغـالاة فى الابتعاد عن الصدق والنسبة الصحيحة ..

ولكنه مع هذا كله يرتاع حين يحس ان الحركة فى اللوحة قد ماتت من شدة الازدحام واختلاط الكبير بالصغير ، فيتأمل اللوحة ليرى ماذا هو فاعل من أجل أن تدب فيها الحركة والنمو ، فلا يجد له مخرجا الا أن يجعل جميع الشخصيات تدور حول محور . فمن يكون هـذا المحور ؟ أيكون هو البطل ؟ كلا . فانه لو فعل ذلك فلن يسلم أن يقع مرة أخرى فى خطر انعدام النسبة بينه وبين بقية اللوحة . حينئـذ يلجأ المؤلف الى حيلة فنية فى صنعـة التأليف ، هى أن يجعـل شخصيات اللوحة كلها ـ والبطل من بينها ـ تدور حول شخصيـة ثانوية ، ينتزعها من الهامش ليضعها فى المركز ، فاذاشخصيةالبطل، وهى تتحول الى الاطراف ، قد أصبحت أكثر وضوحا وصدقا ، بل انها بسبب هذا الوضوح والصدق تطغى على اللوحة من جـديد طغيانا لا يضر ولا يفسد ، هى التى ستبقى فى ذاكرة القارىء بعد أن يفرغ من الكتاب ، أما الشخصية الثانوية التى جعلها المؤلف مـدار

الكلام فانها ستزول عن ذاكرته سريعا مع أنها محور الكتاب · وهذه الحيلة الفنية تعين المؤلف كذلك على تبيان مافي حياة العامة وحياة الناس الذين يتحدث عنهم خاصة من حظوظ ومفارقات عجيبة . انها تشبه الرمز بحرف السين في مسـائل الجبر ، نسـتعيرها مؤقتا – وهى وهم من الاوهام – للوصول الى حل ، فاذا تحقق لنا الحـل نسيناها كل النسيان وان كانت هى صاحبة الفضل .

هذا مافعله دستويفسكي فى كتابة روايته الشهيرة «الابله». فالابله فى هذه الرواية هو حرف السين فى مسائل الجبر . لم يكن للأبله علاقة بمشاكل أشخاص الرواية ، بل هو عنها غريب ، ومنها بريء، ولكن كان يكفي ظهوره بين نفر منهم لأن تتبين هذه المشاكل وتتجمع ثم تنحل . واظن أن الحياة لا تخلو من امثلة كثيرة لهذا الابله ، فيالـه من قدر عجيب .

وقد لجأت الى هذه الحيلة السيدة أديث سوندرز مؤلفـة الكتاب الذى يسرنى أن أقدمه اليك · كان همها الاول أن تروى لنا سـيرة الاب الضليل الكسندر دوماس الكبير مؤلف الفرسان الثلاثة والكونت دى مونت كريستو وغيرهما من مئات القصص والمسرحيات وكتب الرحلات ، فلما مضت قليلا برزت شخصية ابنه غير الشرعى الكسندر دوماس الصغير مؤلف مسرحية غادة الكاميليا الشهيرة ، ثم تقاطرت شخصيات جانبية كثيرة فازدحمت اللوحة ، فلم تجد المؤلفة مخرجا لها الا أن تجعلها تدور على محور تتخذه من شخصية ثانوية هى غادة الكاميليا .

ولم تكن غادة الكاميليا الا محظية للرجال لا وزن لها فى ذاتها ولكن فى تجمع علاقات كثيرة من شخصيات الكتاب فى بيتها · وانتقلت المؤلفة كذلك من كتابة سيرة الكسندر دوماس الكبير وحده الى رسم لوحة عريضة تضم عصر الرومانسية فى فرنسا كلها ، تضاءلت معها جميع الشخصيات ، وان زادت وجوههم افصـاحا بالصـدق ونبضا بالحيـاة .

وقد اخترت لك هذا الكتاب لانه – أولا – مثل حسن لفن السيرة وكيف ينبغى أن تكتب ، ولانه – ثانيا – دليل رائع على الجهد الذى ينبغى أن يبذله الكاتب من قبل أن يمتشق قلمه · ان مراجعها لاتقل عن مائة كتاب ، ليس فى مؤلفها واقعة أو قول أو خبر ليس لها عليه دليـل موثوق به ، بل انها تحرص على الرجوع لاسعار الحاجيات فى الزمن الذى تتحدث عنه لتقدم لنا صورة صادقة متماسكة الاجزاء للواقـع

كمـــا كان .

وهذا الكتاب - ثالثا - يؤرخ لفترة من أهم الفترات التى قامت فيها المعارك الحامية بين المذاهب الادبية : بين المذهب الاتبـــاعى والمذهب الرومانسى

من الخير أن نقوم فى هذه الايام بترجمة هذا الكتاب ليكون دليـلا على أن المذاهب الادبية ليست مجرد أفكار تنقل وتستعار من كتـاب أو من أفواه النقاد ، بل هى نتاج تحولات اجتماعية بكل مافى هـذه الكلمة من عناصر سياسيةواقتصادية ومكتشفات علمية ونمو حضارى، فان الكلام عن المذاهب الادبية عنـدنا ينفصل فى بعض الاحيـــان عن هـــذه الحقائق

وأشهد أن المؤلفة قد نجحت الى درجة مذهلة فى أن تجعلنانعيش فى العصر الذى نتحدث عنه ، نشم عطره ، ونسمع ضجته ، ونمشى فى شوارعه وأزقته ، ونشترى بضائعه بثمنها دون أن يضحك علينا بائع ، نخالط ملوكه وأمراءه وعامة ناسه ، نعيش فى جوه السياسى ونشهد معاركه الادبية ليلة افتتاح مسرحية فيكتور هـــوجو زعيم الرومانسية وماذا جرى فيها من قتال بين أنصار المـذهبين ، كيف وقفت الرقابة ضد مسرحية غادة الكاميليا ، ثم كان لابد أن تسقط حكومة وتأتى أخرى لتفرج عنها ، كيف تحتد المناقشـــة فى مجلس النواب لان مسرح الكوميدى فرنسيز العتيق قدممسرحيةرومانسية، ماذا قال الملك لويس فيليب لمن ثاروا ضد دوماس ، ماذا حـــدث حينما وفدت فرقة تمثيل من انجلترا لتقدم فى فرنســـا أعمـال شكسبير ، وماذا فعل فيكتور هوجو بعد أن شاهد مسرحية هاملت..

كما سيحملك هذا الكتاب على أن تصدر حكمك فى قضية لعلهامن مشاغلنا الادبية تنفجر أحيانا ثم تخمد وهى : ماهو الفارق الاخلاقى والفنى بين الحلال والحرام فى استعانة كاتب كبير بما يقدمه له أديب ناشىء مغمور أجير عنده أو غير أجير من بحوث ودراسات ومشاريع وأفكار ، فيأخذ كل هذا ثم يتخير منه ما يشاء ويجرى فيه رأيه وقلمه ثم ينشره منسوبا الى نفسه دون أى ذكر عن نصيب هذا الشاب فى هذا العمل زاعما أن تنقيته للنص قد أضفى عليه من روحه هوقيمته الادبية بحيث لايبقى للشبح المختفى أى فضل . ولعل هذه القضية لم تتقد مثل اتقادها فى الجدل الكبير الذى دار حول ما فعله الابالضليل الكسندر دوماس كما ستراه مشروحا بالتفصيل فى هذا الكتاب .

يجعلنا هذا الكتاب أيضا نخالط عن قرب جميع أبطالالرومانسية

في مختلف الفنون : برليوز وليست وشوبان ، بل يجعلنا ننفذ الى عالم المسرح ونعرف جوه وأدق أسراره ونخالط عن قرب كبار ممثليه وممثلاته ، المدموازيل جورج ، ومارس ، وراشيل ، وفردريك لومتر، وغيرهم كثير ، الى جانب هؤلاء طائفة من المغامرين والمغامرات هم من أعجب الناس ..

لن تجد في هذا الكتاب انسانا هو مجرد اسم ، أو حتى مجرد شبح ، بل كل من تحدث عنهم أشخاص ينبضون بالحياة . يروى هذا الكتاب أخلاقهم ونزواتهم ، فضلهم وحمقهم ، جانبهم البطولي وصغائر طبعهم . ان هذا الكتاب يفيض بوصف العواطف الانسانية المختلفة ، من حب ومقت ، ونبل وخسة ، وسمو وضعة ، من كرم وحسد وغيرة ونفاق ، فهو ان تحدث عن عصر مضى ، فهو يؤرخ للانسان كانسان في كل زمان ومكان .

وأشهد أنني لم أتأثر من شيء أكثر من تأثري لقراءة وصف العذاب الذي لقيه الكسندر دوماس الابن وهو صبي صغير حين دخل المدرسة على يد رفقائه بسبب مولده غير الشرعي ، اذ وصف جهاد أمه من أجل تربيته بعد أن أهمله أبوه ، كما وصف يوم نزعته فيه الشرطة من يدها

من أجل هذا ينبغي أن نغفر لهذا الكتاب ، ولا نحمل عليه بسبب ذكره لكثير من الفضائح والنزوات والعلاقات الشاذة ، فقد كان العصر الذي يتحدث عنه عصر نزق وطيش ، ومع ذلك لم تنزل الفضيلة رغم كل شيء عن مكانتها . فاقرأ هذا كله وانت تبتسم لضعف الانسان وهوانه ولو كان على رأسه هالة من المجد .

انني واثق ان هذا الكتاب سيحرك همة كل اديب ناشيء عندنا ويبصره بالفن والجمال ، ومافي الحياة من متناقضات وعواطف متضاربة ، سيجعله يلمس بيديه أن الفن هو أيضا نجاة للنفوس وتطهير لها . سيعرف ان الفقر ليس عيبا ، بل العيب كل العيب أن يكف عن الجهاد من أجل خدمة الفن الذي يملك عليه نفسه .

وغاية ما أستطيع أن أقوله انني بذلت في الترجمة جهدا كبيرا فقد التزمت أصل الكتاب الانجليزي كل الالتزام ، بحيث يكون بين يديك أيها القاريء العزيز صورة عربية تطابق نصه تمام المطابقة .

مقدمة المؤلفة

فى مقبرة مونمارتر بباريس جدث تهوى اليه أفئدة أناس بحنان خاشع يثير العجب ، انه يضم رفات ألفونسين بليسيس وهى محظية رجال عاشت فى عصر لويس فيليب وماتت سنة ١٨٤٧ . هى بطلة مسرحية « غادة الكاميليا» التى كتبها الكسندر دوماس الابن ، وبطلة أوبرا «الترافياتا» من تلحين فردى . لقد مر أكثر من قرن على تأليف « غادة الكاميليا » ، ومع ذلك لا يزال هذا الجدث مزارا يطاف به الى اليوم . سحرت هذه المسرحية قلوب أهل باريس فى فجر الامبراطورية الثانية ، وكانت فى ذلك العصر ، الذى جمع بين التأنق والتنزق والضلال ، تقتعد قمة النجاح بين المسرحيات الدرامية . وجذبت أوبرا « الترافياتا » شهيرات المغنيات من مثيلات كريستين نيلسون وأداليتا باقى ، فخلبن بفضلها الالباب فى العالم كله ، وبدأ الاشياع الخاشعون يطوفون بهذا الجدث الثاوى فى مقبرة مونمارتر لا ينقطع نثرهم عليه زهور الكاميليا لئلا يبقى معطلا منها ولو يوما واحدا . فى مقدمة الاشياع فتيات من الطبقة التى تنتمى اليها نشأة الفونسين ــ عاملات محال تفصيل أزياء النساء ــ يجدن على القبر بزهرة من اليد ، وبزفرة من القلب ، حسرة على موت هذه المحظية . وقال أحد كتاب ذلك العصر : « هيهات أن تكف العيون عن ذرف الدموع الغزيرة على هذا القبر الذى آل اليه قلب أطبقت عليه كآبة الصمت وقسوة وحدة ظالمة »

وجاء عصر الجمهورية الثالثة فتجدد شباب هذه المسرحية بفضل سارا برنار ، وما تتمتع به من موهبة خارقة ، وساق سحرها الطاغى مزيدا من الاشياع للطواف بالقبر . لم يعهد الناس من قبل منظرا تخفق له القلوب مثل منظر موت غادة الكاميليا على خشبة المسرح وهى تبوح بتعاستها وغرامها من فم هذه الممثلة الرائعة وبصوتها المدرب الذى لامثيل له . واحتل القبر أرفع مكانة له فى قلوب أشياعه ، حتى أن جوهانس جرو كاتب سيرة ألفونسين بليسيس ذكر أن الكونتيسة نيرا دى لاجونشير واظبت سنين عديدة على زيارة القبر كل يوم . لاريب أن نبوغ سارا برنار هو الذى أجج عاطفة الحنان فى قلب هذه

الزائرة ومثيلاتها ، ولعل بكاءهن كان أيضا من حسرتهن على أن هـذه المثلة العظيمة مصيرها ككل كائن حي الى الفناء

والآن وقد جاوز القرن العشرون منتصفه فلا يزال هذا القبر يجد من يزوره . وقد قادتني اليه الصدف حين كنت في مونمارتر منـذ سنتين تقريبا ، كنت انزل لدى بعض الاصدقاء فصادفت عشية يوم بوابة المنزل وهي خارجة في ابهى حلة ، وفي يدها باقة من الزهور. هي امراة مطبوعة على التجهم واللؤم ، لاتحرك ساكنا ـ ولو كان هذا الساكن لسانها ـ الا اذا أحست بالنقود تدس في يدها ، وكنت أحتملها وأتملقها وأسترضيها برشوة لئلا تنغص على حياتي بالصغائر أو لئلا تحتجز بريدي ، فكانت تبدي لي شيئا من الود ، وقابلتني عصر ذلك اليوم بابتسامة تكرمت بها علي ، وبادرتني بالتحية :

ـ طاب مساؤك يا سيدتي

ـ فأجبتهـا

ـ طاب مساؤك يا مدام روزالي . ما أبدع هذه الزهور التي أراها في يـدك ! ..

ـ أصبت ، فاني ذاهبة الى المقبرة .

ـ تزورين ضريح قريب لك ؟

أجابتني مدام روزالي :

ـ كلا ، بل هذه الزهور هي لقبر « غادة الكاميليا » ، فاني أزوره بعد ظهر كل يوم أحد اذا ما اعتدل جوه ، ومن عادتي أن أحمـل اليه بعض الزهور .

لم أكد أفتح فمي قائلة بدهشة : « غادة الكاميليا ! » حتى كانت قد مضت في سبيلها ، وبقيت أرقبها وهي تهبط الطريق المنحـدر بخطواتها المتثاقلة ومشيتها القبيحة وسارت في شارع كولانكور حتى بلغت امتداده الذي يشق المقبرة وهو غير مزدحم بالناس عادة، فتسنى لي ان أتتبعها بنظري الى أن انعرجت الى اليسار وهبطت عـددا من الدرج ثم غابت عن ناظري .

وبعد قليل وجدتني أسير في أثرها . حملني الفراغ على أن أطلق لفكري العنان فلا أصد له شهوة للتطلع وتفحص هذه التيارات الخفية التي ربطت روزالي بغادة الكاميليا . كانت قد انصرفت من القبر حين بلغته ولكنني وجدت زهورها تتألق وسط زهور أخرى فوق الحجر المرمري المستطيل الذي يغطي الجدث ، وبينما انا واقفة اليه جاء عـدد من النسوة لالقاء نظرة عليه ووضعت امراة منهن وردة واحدة فوقه .

ما اعجب سلطان ألفونسين بليسيس على الاحياء . ماعسى أن تكون هذه النوازع الخفية التى تقود امراة مثل روزالى الى هذا الجدث ؟ ان مسحة من الهوان تخيم على هذه المقبرة التى اكتظت بالاجداث بغير عناية أو نظام ، فليست هى بالمكان الذى يحلق فيه الخيال بجناحين، ومع ذلك لم يفارقنى وأنا واقفة الى القبر احساس مفاجىء بأن رفات ألفونسين كانت فى سالف الآيام طليقة من قبضة الثرى ، تزخر بالحياة وتزهو بنعمة العقل ، وأن هذا الشىء الغامض المتأبى على الفهم هذا الماضى الذى ولى وانقضى كأن لم يكن، كان لا يقل فى وضوحه ونطقه عن الزمن الحاضر الذى يصرف معيشتى وأفكارى . وكان هذا الاحساس الذى استحوذ على قلبى فى لحظة عابرة . وكذلك عجبى من طواف الناس بهذا الجدث ، مبعث اعتزامى أن أنقب عن تاريخ الكسندر دوماس الأبن ومسرحيتــــه

ولم أجد مشقة كبيرة فى الاهتداء اليه ، لان المؤلف كتب « غادة الكاميليا » فى صدر شبابه . حقــــا قد عرف عن الكسندر دوماس الصغير بأنه شديد التحفظ يخفى حياته عن الناس ، يحذر أشــد الحذر من أن يترك وراءه سجلا ينم عليه فينتهبه كتبة سيرته ، ولكنه لم يلتزم هذا التحفظ الا بعد أن بلغ مرحلة الرجولة وذاق نعمـــة الاستقلال . أما قبل ذلك فقد كان فى صدر شبابه وثيق الصــلة بأبيه . وكان هذا الاب لايطيق كتم الكلام فى صدره ، لاشىء أحب اليه من أن يعرض حياته بحلوها ومرها على الناس جميعـــا . ولم لا ؟ أليسوا به من المعجبين ؟ لذلك روى عنه الكثيرون وكتب عنه العديدون . فكان لا مفر من أن يذكروا أيضا أشياء عن ابنه الذى كان يعاشره . وفوق ذلك فان دوماس الابن ، وان كتم حياته عن الناس فى مرحـلة الرجولة ، كان هو نفسه يضعف بين الحين والحين ويتحــدث عن شبابه . وخلف كذلك فى كتاباته أشياء تكشف عن ماضيه ، فترى صورة له وهو صبى تعيس فى كتابه « قضية كليمنسو » وصورة له وهو شاب فى مسرحية «غادة الكاميليا» ومؤلفاته الاخرى مثل «ديان دى ليس » و « أنصاف الحرائر » و « الابن غير الشرعى » و « الاب الضليل »، وهو قد كشف أيضا فى المقدمات التى كتبها لمسرحياته عن مدى مطابقة هذه الصور لواقع حياته ، ووصف بنفســه كيف كتب مسرحية غادة الكاميليا ، ونجد ذخيرة من المعلومات القيمة عن تمثيل هذه المسرحية لاول مرة فى كتابات نفر من المؤلفين هم هنرى دالميرا وبردال دى لابوميراى وهنرى ليونيه ، وكذلك نستطيع بفضــل

البحوث الدقيقة التي قام بها جوهانس جرو أن نرى رأى العين صورة تسجل هذا العمر القصير الذى عاشته ألفونسين بليسيس أو مارى دوبليسيس كما كانت تسمى عادة .

ان ملامح الصورة تتبين بوضوح بفضل هذه المراجع ، غير انه يحسن بنا أن نتقبل باحترام وعناية كلام الكسندر دوماس الابن الذى قصد دائما أن يلجم السنة كتبة سيرته . قال :

« أواه لو علم الناس كم تحدثت عن نفسي في مؤلفاتي ، وكم أعرت أبطالها تجاربي الذاتية ، وكم ضمنتها ما في حياتي من تيارات باطنة . ولكن الانسان لا يستطيع أن يبوح بكل شيء ، ولو بالهمس ولو في كتب لا يطبع منها الا عدد محدود » ، وهذه الاشياء التي لا يبوح بها هي أصدق دليل على حياته وأغرب شيء فيها ، لذلك فان كلام كتبة السير هو كقاعدة عامة محض ادعاء ..

ومع ذلك فقد وجدت في اعترافاته وفرة كافية تغريني بتأليف هذا الكتاب وان ساقني تحذير دوماس الى أن أقر بقصورى ، وقد زاد هذا الاغراء حين زرت قصر مونت كريستو الذى أقامه الكسندر دوماس الأب بفخفخة لا مثيل لها فان جدرانه شهدت صدر شباب الابن . ان هذا القصر المتين المشيد على هيئة مربع ومن طراز عهد النهضة لا يزال الى اليوم قائما فى حى بوابة مارلى بباريس . لقد دأب جميع كتبة سيرة دوماس الاب على الازدراء بهذا القصر وبذوق صاحبه ، ومع ذلك فأن منظره لم تقتحمه عيناى ، بل ألفيته دارا تطيب بها السكنى . وقد كان خاليا عندما زرته غير أن حجراته لم ينطق خلاؤها بمعاناتها لريب الدهر وصروفه شأن كل مسكن قديم مهجور ، واستروحت فيه جوا من الأنس والترحيب كأنما لا تزال تتردد فيه انفاس هذا الرجل الذى شيده وفق مزاجه . ومن حسن الحظ أن جميع من آلت اليهم ملكيته خلال قرن من الزمان حرصوا على احترامه وابقائه على حاله ، فبقيت على صورتها الاولى تلك الحجرة الشهيرة ذات الطراز الأندلسي التى أعدها دوماس الأب لنفسه بعد عودته من رحلته لحضور الزفاف الملكى فى أسبانيا سنة ١٨٤٦ . وبقى كذلك فى ركن من الحديقة المهملة هذا البناء الذى يقلد فى صورة مصغرة « قصر أيف » الوارد ذكره فى قصة الكونت دي مونت كريستو ، وكان دوماس يأوى اليه ليكتب مؤلفاته . وجدت هذا البناء الرشيق المهجور الذى يعد لعبة من اللعب تظلله الاشجار وتنعكس صورته فى خندق أمامه على مياهه الراكدة

المزججة ، سلمه الحلزونى المثبت على جدرانه من الخارج والمصنوع من الحديد لا يزال درابزينه مكسوا بالقطيفة وان عبثت بها غوائل الزمن والتعرض لتقلبات الجو ، والأستار المسدلة على النوافذ من الداخل لينعم دوماس بخلوته باقية الى اليوم وان حال لونها كثيرا وكذلك النافورات المسرفة فى التلاعب بمخارج المياه لا تزال تعمل ان راق لزائر أن يدير مفتاحها ، ويقع فوق الطريق محراب مهجور كان دوماس يتخذ منه اصطبلا ، ولا تزال منقوشة فوق حظائر مفككة اسماء جياده بورتوس وأتوس وأراميس وهم اسماء ابطال قصته : الفرسان الثلاثة

فمن الذى يتأمل كل هذا ولا يود ــ ان عجز عن رؤية الاشباح ــ أن يرد الى الحياة بعض مشاهد هذا العالم المفقود .

الفصل الأول

غادة الكاميليا

فى مسرح بوابة سان مارتان بباريس اجتمع حشد من أناس تدل شمائلهم وأناقة ملبسهم على أن العهد عهد رخاء وسلام . جاءوا ليشهدوا بعثا جديدا لمسرحية « غادة الكاميليا » من تمثيل سارا برنار . ها هى ذى ماثلة أمامهم تخلبهم بفتنتها الساحرة وهى واقفة فى الفصل الثانى تستمع الى أرمان دوفال يبثها لواعج قلبه . وكان الكسندر دوماس الصغير ــ مؤلف المسرحية ــ جالسا فى مقصورته، فمال الى الوراء ليحتمى بظلالها وهو بارد القلب غير منفعل ، فهذا اليق برجل يرقب انكشاف سجل حبه الاول كما رواه بنفسه ، انه قد نسى منذ عهد طويل هذه العواطف التى هزت قلبه يوما ودفعته الى تأليف هذه المسرحية الغرامية . ولكن ذكرى هذا الحب بقيت فى نظر الناس مرتبطة به باعتباره مؤلف هذه المسرحية ، ذلك لأنهم يعلمون حق العلم أنه كتبها عن تجربة ذاتية . فمرجريت جوتيه بطلة المسرحية هى صورة صادقة لمحظية اسمها مارى دوبليسيس ، عرفها فى صدر شبابه وأحبها ، فهو ايضا فى المسرحية ماثل فى شخص أرمان دوفال ، بل ان بعض أفراد جيله لا يزالون يذكرون رؤيتهم له فى صحبتها . كان يومئذ شابا له هوس بالاناقة والشهرة بها ، يسهر الليالى ويغشى النوادى والمقاهى والمحافل ، لا تخطىء العين وسامته ورشاقته ، يشار اليه بالبنان ويهمس الهامس قائلا هذا هو ابن الكسندر دوماس ذائع الصيت مؤلف قصة « الكونت دى مونت كريستو » التى كان يقرؤها الناس جميعا فى ذلك العهد . أما مارى دوبليسيس فقد ماتت وهى فى زهرة العمر سنة ١٨٤٧ ولما كتب دوماس الابن مسرحيته « غادة الكاميليا » بعد ذلك بقليل آمن الناس أنه باق على حبها الى الابد ، وقيل انه لم يغفل مرة واحدة عن أن يزين جدثها بزهور الكاميليا فى اليوم الثالث من شهر فبراير وهو ذكرى يوم وفاتها . وسيان ان فعل أو لم يفعل فان هذا القبر لم يبق عاطلا من الزهور فى يوم من الايام اذ أصبح مزارا يطوف به كل من سحرتهم هذه المسرحيـــة أو نسختها الغنائيـــة أوبرا

« الترافياتا »

وأخذت سارا برنار تتنقل فوق المسرح تلفها لف سحابة رقيقة غلالة موهومة من جمال فى عز شبابه ، ينساب من فمها صوت موسيقى حنكه القاؤها لأبيات الشعر فى المسرحيات القديمة وعرفت صاحبته كيف تحكم ضبطه وتهذيبه وقيادته فأصبح له سحر هيهات أن ينساه من سمعه . وأنصت لها الحاضرون ثم صفقوا لها تصفيقا شديدا

ومع ذلك فلا نكران أن الفصل الاول علاه جو من البرود ولم يجذب اليه الحاضرين ، اذ كانت الحفلة مقامة يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ ابان عاصفة ثلجية هوجاء تجتاح شمال فرنسا منذ ثلاثة أيام وتسبب أضرارا كبيرة ، فانحصر فى أنبائها اهتمام المشاهدين بل كان يصل الى آذانهم عويل هذه الرياح الغربية وهى تكتسح الطريق خارج المسرح ومرت فترة استأثر فيها بسمعهم وصرفهم عن متابعة التمثيل . وكذلك لم يسلم جمهور المشاهدين قيادهم للمسرحية بسبب يتعلق بسارا برنار نفسها . ان حياتها مليئة بحوادث مثيرة للعجب والدهشة ، ولكن انشغال الناس بأخبارها قد زاد فى الايام الاخيرة بفضل مارى كولومبيه زميلتها وصديقتها منذ الصبا ورفيقتها فى جولة حديثة بالولايات المتحدة ، اذ كانت قد نشرت عن سارا برنار منذ أسبوعين تقريبا كتابا أطلقت فيه لسانها بالهزء والسخرية بها وجعلت عنوانه « سارا بارنوم » وبارنوم هو اسم صاحب سيرك شهير .. فتلقفت الايدى هذا الكتاب بابتهاج أو بغيظ وبيعت منه طبعة ذات عشرة آلاف نسخة فى ثلاثة أيام . فكانت فضيحة لذيذة لم يفز الناس بمثيل لها من قبل . وقيل ان سارا برنار هى التى جنت على نفسها واستحقت كل ما نشره هذا الكتاب من سباب لأنها كانت قد أوصت زميلتها بدهان للرأس فلما استعملته سقط شعرها كله . ولم يكد يصدر هذا الكتاب حتى اصطحبت سارا ابنها موريس والكاتب جان ريشيان ومضت الى مسكن مارى كولومبيه فاقتحمته عنوة وفى يد لها سوط وفى يد خنجر ، وأخذت تندفع كالعاصفة المدمرة من حجرة الى اخرى تمزق الملابس بخنجرها ، وتقلب الأثاث ، وتجذب اللوحات وتتلفها، وتلقى بالتحف الى الارض وتحطمها . ونجت من الدمار لحسن الحظ لوحة لمارى كولومبيه من رسم ادوار مانيه . أما غريمتها فقد استطاعت أن تختبىء وراء ستارة . فلم يكن مجىء الحاضرين تلك الليلة الا ليشهدوا أصلا بطلة هذه الفضيحة ، ولكن ما لبثوا

يسيرا حتى سحرتهم سارا بتمثيلها فنسوا حياتها الخاصة ولم يروا فيها الا بطلة تلك المسرحية التى ابتدعها فن دوماس وصفقوا لها بعطف كبير

رأى الحاضرون فى الفصل الأول كيف أن أرمان دوفال قابل مرجريت جوتيه فى حفلة ساهرة أقامتها بدارها ، وكيف ارتضته عشيقا لها . ثم فى الفصل الثانى الذى كان يعرض عليهم رأوه يعانى آلام الغيرة واليأس ، اذ تبين له أنه واحد بين عشاق عديدين تفتح لهم مارى بابها . هى محظية للرجال يهيم كل مترف أن يرتبط اسمه باسمها لتسلط عليه الأضواء ، أما هو فشاب رقيق الحال قليل المال ؛ فهو لا يزيد فى اعتبارها عن أن يكون « حبيب القلب » فلا يمنعها ذلك من أن تعقد علنا صلتها الوثيقة بنفر عديد من عشاق اغنياء ومن الطبقة الراقية ينفقون باسراف للفوز بحبها . واخذت مرجريت تقرأ على المسرح نص رسالة لها من حبيب القلب :

« لا يليق بى القيام بهذا الدور السخيف المهين حتى ولو من اجل المرأة التى أحبها . لم أكد أخرج من دارك حتى رأيت الكونت دى جيراى يدخلها ، فاغفرى لى ذنبى الوحيد انى لست مليونيرا ، ودعينا ننسى اننا تعارفنا من قبل وظننا أن الذى يجمع بين قلبينا هو الحب . حين تصلك هذه الرسالة أكون قد غادرت باريس »

« أرمان »

ومع ذلك فان أرمان لم يكن قد غادر باريس ، بل عاد لعشيقته ليقول لها انه لا يقوى على العيش الا فى رفقتها وحين يقترب الفصل الثانى من ختامه تمر لحظة تطغى على مرجريت فيها عاطفته المشبوبة فتبادله صادق الحب . وهنا لم تلجأ سارا برنار الى المبالغة بل التزمت الاعتدال وان نمت ملامحها أنها تعانى هزة عنيفة مكتومة وجعلت الحاضرين يدركون أنها اسلمت قيادها عن يد صاغرة لحب مستبد بقلبها تعلم أنه سيقودها فى النهاية الى فاجعة . ما هو السر فى مقدرة سارا برنار على التعبير عن اتقاد جذوة الحب ؟ ساد الصمت فى المسرح وغلب التأثر على الحاضرين وتطلعت الانظار الى سارا وهى فى ثوبها الابيض الرقيق وشعرها الأصهب اللامع وقد ارتسم شخصها بوضوح على عتمة الستائر الخلفية للمسرح وبفضل الثياب السود التى يرتديها أرمان ، وكان يضمها بين ذراعيه وهى غارقة فى لهفتها على ألا تفارقه أبدا . كان من الجلى أن سارا تفوقت فى فهم قلب الانسان على « راشيل » وهى ممثلة أكبر منها مقدرة . ومهما تكن مشاغل ذهنها فى تلك اللحظة وهى مستسلمة

لضمة حبيبها فى حنان يثير الشجن (ولا تخسر اذا راهنت أن الذى كان يشغلها حينئذ هو حنقها على مارى كولومبيه) فان نظرة واحدة اليها تكفى أن تجعل ملقيها يحس بأن الدنيا غير خالية من حب لا حد له ، وان كان نادرا . ولما هبط الستار أغرق تصفيق المشاهدين أصداء زمجرة الرياح المنطلقة على المسرح

تفوقت سارا برنار تفوقا كبيرا على كل ممثلة أدت دور مرجريت جوتيه ، ولكن دوماس الابن ، وان رآها ترفع بتمثيلها من قدر مسرحيات عديدة له ، وقف منها موقف المعارض حين أرادت أن تقوم بدور « غادة الكاميليا » . ثم تبين أنه أصبح ألمع أدوارها ولكن دوماس كان يؤمن أنها ستخفق فيه . لقد قام بهذا الدور من قبل شهيرات الممثلات فى أيامهن روز شيرى وديسكليه وتلانديرا فنجحن فى تمثيله . أما هو فيذكر قبل كل شىء تمثيل أيوجينى دوش التى قامت بهذا الدور سنة ١٨٥٢ حين ارتفع الستار عن مسرحيته لأول مرة . كان يؤمن أنها خير من تصلح لدور غادة الكاميليا وبالأخص لانها ذات جمال رائع . وهذه الممثلة أيرلندية المولد ومن جيل دوماس الابن وكانت قد اعتزلت المسرح منذ بضع سنين ، فلما عهد اليها بالدور مثلته أكثر من ستمائة مرة أثناء قيام الامبراطورية الثانية فى فرنسا ، وكانت عيناها فى ذلك الوقت زرقاوين صافيتين لامعتين وكان شعرها ذهبيا غزيرا ناعما وكان لها جمال مادى ينطق به جسدها . أما جمال سارا برنار ، وان أثار شجن معجبيها ، فقد كان يتأبى على مقاييس أهل الأرض . هذه الممثلة الملائكية ، ان فاتها جمال الملامح والجسد ، فقد عوضت عنهما بنعمتين : وجه درامى وشفافية تلفها من الرأس الى القدم ، انها لا تعيش الا فى عالم الأرواح والعواطف ، حياتها اتقاد وخيال وفن ، امرأة انطلقت من قيد الوجود الملموس ، حتى قال عنها ذات يوم لوسيين جيترى الممثل الشهير : « رأيت الساعة عربة فارغة تصل الى المسرح ، هى العربة التى تحتلها سارا برنار » . لذلك كانت سارا برنار قادرة على أن توحى بما فى الجمال من سر أصيل، واضفت من ذخيرة روحها على مسرحية « غادة الكاميليا » فيضا من المعانى الصادقة العميقة ، وكان لتمثيلها وقع كوقع السحر . وها هى ذى مرجريت فى الفصل الثالث تعاشر أرمان فى مسكن ريفى ، كيانها يتوهج بالجذل ، واستطاعت سارا أن تجعل الحاضرين يشعرون بما تحس به هى من سعادة خالصة صادقة نجدها أحيانا

عند الاطفال ، سعادة تثير الشجن والأسى فى قلب من يشاهدها ، وهو مدرك أنها لا بد أن تتحطم حين تصطدم سريعا بحقائق الحياة .
وأخذت سارا تتنقل بخفة على المسرح ، لها ثوب من الموسلين عليه رسم أزهار ، وفوق رأسها قبعة عريضة من القش ، والمسرح كله يغمره نور أبيض متوهج للدلالة على أن ضوء الشمس يتدفق من الأبواب والنوافذ ، وتلمح العين عبر النوافذ منظرا بهتا لتلال تكسوها الأشجار ، وتحت سماء زرقاء حديقة للمنزل غنية بورود هيهات للأرض أن تنبت زهورا تماثلها فى عنفوان لونها القرمزى

ارتفع الستار عن الفصل الرابع . سارا برنار واقفة وحدها فوق المسرح ، ثم يظهر على أحد الأبواب رجل متوسط العمر يتريث على العتبة لحظة وقبعته فى يده . هذا هو الممثل لافونتين يقوم بدور مسيو دوفال والد أرمان . أقلقه تواتر أنباء عن مسلك ابنه فى الحياة ، فجاء ليباعد بين ابنه وعشيقته مهما كان الثمن ، ووجه كلامه الى أول شخص يقابله سائلا أين تكون الآنسة مرجريت جوتيه . أجابته سارا برنار :

ـ انها أنا يا سيدى ، مع من أتشرف بالحديث ؟

حينئذ يضع لافونتين على رأسه قبعته العالية الحريرية بحركة تنم عن العزم وبدء الهجوم ، وقال لها أنه والد أرمان ، وبدأ وقبعته فوق رأسه يصب عليها قوارع اللوم ، فسادت الدهشة بين المشاهدين وتململوا فى مقاعدهم ، اذ كان احتفاظه بقبعته اهانة سمجة لمرجريت . وثارت ثائرة فرنسيسك سارسى الناقد الفني لصحيفة « الطان » من شدة حنقه على لافونتين ، وأخذ يتحرق شوقا لأن يكتب رأيه فى مقال يندد فيه بوقاحة هذا الوغد .

وكان مسيو دوفال حينئذ يتهم مرجريت باهدار مستقبل ابنه . اما هى فقد ذهلت أول الأمر وأبت أن تصدق أذنيها ثم ثابت لنفسها وبدأت تنصت لكلامه . واستطاعت سارا أن تعبر ، وهى صامتة لا تتكلم ، عن تنقل مرجريت بين عديد من العواطف المتباينة الى أن أسلمتها الى اصدار قرارها بأن ترضى بالتضحية الكبرى التى تحطم كل شىء فى حياتها ، فوعدت مسيو دوفال أن تفارق ابنه فراقا أبديا . وانصرف مسيو دوفال وجلست مرجريت تجاهد لكتابة رسالة تخبر فيها أرمان أن حبها له قد انقضى . هز هذا المشهد بفضل تمثيل سارا برنار قلوب المشاهدين وأثار لواعج أشجانهم

واقترب الفصل من ختامه ، وهربت غادة الكاميليا تـــودع الى الأبد هذا المسكن الريفى الذى ذاقت فيه طعم السعادة . وتحول نور المسرح من ضوء الشمس الى أشـــعة زرقاء . ووقف أرمان وحده ونظره شاخص الى رسالة عشيقته . وكانت العاصفة خارج المسرح لا ينقطع عويلها الحزين فزاد من وقع الفجيعة على قلوب المشاهدين بفضل براعة سارا فى التمثيل

ونزل الستار على هذا المشهد ليرتفع عن بقية المسرحية فى فصلها الرابع وحوادثه الكئيبة العنيفة التى انتهت بتحد للمبارزة . وبلغ من حماس المشاهدين أنهم حين نزل الستار هبوا واقفين يصفقون ويهتفون طويلا

***

لم ينتظر دوماس الابن المشهد الأخير الذى تموت فيه مرجريت جوتيه وهى محطمة القلب وغادر المسرح عند الفاصل بين المشهدين . وكان فرنسيسك سارسى قد غادره أيضا فى الوقت ذاته ، هـــذا الرجل القصير القامة المتجهم الغضوب ذو اللحية الصغيرة هو من جيش المعجبين بسارا برنار . خرج وهو لا يزال ثائرا من فعـلة لافونتين فى احتفاظه بقبعته فوق رأســـه ، انها فى نظره اهانة شخصية لأنبغ امرأة فى فرنسا ، انه متلهف على أن يمسك بالقلم ليهدم هذا الممثل جزاء وقاحته . ومشى مسرعا فوق الرصيف المبتل منشغل الذهن مهتاج الأعصاب غير مبال بالرياح وهى تناوشه

والواقع أن الممثل الذى جلب على نفسه حنق هذا الناقد لم يكن مسئولا عن فعلته ، انه احتفظ بقبعته فوق رأسه اطاعة لرأى المؤلف . وكتب دوماس الابن بعد بضعة أيام مقـــالا يرد فيه على هجوم سارسى قال فيه :

« لو كنت فى مثل الظروف التى أحاطت بمسيو دوفال لفعلت ما فعله وأنا الباريسى المهذب المؤدب ، كنت أرفع أول الأمر قبعتى حين أرى أمامى امرأة ، ثم أضعها ثانية فوق رأسى حتى تدرك حق الادراك اننى بعد أن أديت واجب الاحترام لجنسها قد تحولت الى مسلك الرجل الذى يأنف من الطريقة التى أهدرت بها كرامة جنسها فباعت نفسها بيع السلع .. أن لافونتين غير مسئول عن حكاية القبعة ، فاننى أنا الذى رسمت له حركته »

هذا هو اعتقاد دوماس الذى عبر عنه سنة ١٨٨٤ ، أما قبـــل ذلك بأربعين سنة فانه هو الذى سعى الى لقاء مارى دوبليسيس

ورآها جديرة بحبه ، ولكنه أصبح خلال هـذه السنين من دعاة الاصلاح والمدافعين عن الفضـائل ، فألف مسرحيات هادفة ، وكتيبات تعالج المشاكل الاجتماعية . وأهم مشكلة كانت تثير عنده غيظا مسرفا هى بالأخص مشكلة المرأة الفاسدة ، فحارب البغاء ، وطالب فى كل وقت ، بمناسـبة وبغير مناسبة ، بضرورة التزام تعاليم الدين المسيحى فى العلاقات الجنسية

***

خرج دوماس الابن من المسرح الى طريق سان مارتان . السماء قاتمة يدنيهـا الى الارض عبء سحب زاخرات بالمطر جوابة ، تطاردها الرياح، والعاصفة تكتسح الطريق ويختلط عويلها بأصوات ارتجاج النوافذ وتساقط قرميد الأسقف ، ونور مصابيح الغـاز هبط الى وضع أفقى ، هسيسها الخافت ضائع وسط الضجة ، وضوؤها الحزين ينعكس على أرصفة مبتـلة مهجورة . سارع دوماس الابن واستقل عربته ودفع السائق بابها عليه ، ثم قاده الى مسكنه فى شارع دى فيليه حيث يجد الدفء والراحة وأناقة الترف

نعود الى الوراء لمسرح سان مارتان ، حيث كان يعرض الفصل الأخير . هذه هى ذى سارا برنار أمام المشاهدين فى المشهد المؤثر الذى تموت فيه مرجريت . تنطلق من أرمان صرخة تعبر عن يأسه وتزلزل القلوب ، فصفق الحاضرون بحماس شديد . وهناك فى مقبرة مونمارتر على بعد ميلين تقريبا يثوى جثمان «غادة الكاميليا» التى عرفها الناس فى مطلع حياتها باسم ألفونسين بليسيس ثم حين واتتها الشهرة باسم مارى دوبليسيس . القبر منقوش عليـه :
« هنا ترقد ألفونسين بليسيس ــ ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٢٤ وماتت فى ٣ فبراير سنة ١٨٤٧ ــ ترحموا عليها »

الرياح الهوج فى تلك الليلة تزمجر فى أرجاء المقبرة التى لفها البرد والصقيع ، فتسقط الى الطين ورق الاعشاب المستخذية ، وتقتلع النباتات المتسلقة ، وتسطو على زهور الكاميليا التى نثرها على القبر أشـياعه فتبعثرها وتطير بها فوق ضريح قريب يضم جثمان ألفريد دى فينى ثم تضيع فى تيه فضاء يخيم عليه زمهرير الشتاء

فى هذه المقبرة التى تكتسحها الرياح ترقد ألفونسين . لم ينقطع عند الناس ذكرها ، ولا هانت فى قلوبهم مكانتها ، وها هى ذى سارا برنار تردها الى الحياة ساعات قلائل فوق المسرح ، تنطـق بين

الحين والحين بكلمات سبق أن صدرت حقا من فمها ، وتجدد وقع سحر مفيب بسحر لها حاضر يفوقه . أين سارا برنار الآن ؟ لقد ابتلعها العدم هي الأخرى

ودلف دوماس الصغير الى حجرة مكتبه ، ورأسه يموج بذكريات شبابه ، وأخرج من درج رسالة أخذ يتأملها وهو غائب عن الدنيا مستغرق فى أفكاره . انها آخر رسالة بعث بها الى مارى دوبليسيس ، كتبها ذات ليلة فى شهر أغسطس ١٨٤٥ ، وكانت قد بيعت فاشتراها ليحتفظ بخط يده :

« عزيزتى مارى

لا أبلغ من الثراء حدا يتيح لى أن أحبك كما أريد ، ولا أبلغ من الفقر حدا يتيح لك حبى كما تريدين . دعينا اذن ننسى : تنسين أنت اسما هو ولا ريب غير كبير القدر عندك فلا مبالاة لك به ، وأنسى أنا هناء غير متاح لى .

ولا حاجة بى من أن أقول لك كم أنا حزين فأنت تعلمين جيدا مقدار حبى لك . فالوداع اذن ..... فان رقة قلبك تجعلك تدركين لماذا أكتب هذا الخطاب ، والذكاء الذى يمتاز به عقلك يحملك على أن تغفرى لى كتابته

مع آلاف الذكريات

ا . د . »

وهذه الرسالة مقاربة فى المعنى للرسالة التى تسلمتها مرجريت فى الفصل الثانى من المسرحية ، ولكنها ، كما وردت فى القصة التى كتبها المؤلف أولا ثم استمد منها مسرحيته بعد ذلك ، أشد مطابقة لنصها الأصيل . ولعل دوماس الابن كان ، وهو فى حجرة مكتبه ، حائرا لا يدرى ماذا يفعل بهذه الرسالة الباقية عنده ، أيطوح بها الى النار أم يحتفظ بها فيناقض بذلك شهرته كمصلح اجتماعى وموقفه من مسألة قبعة الممثل لافونتين ؟ ولكنه ظل من قبل يرضخ لهذا التناقض ، فقد شن أغلب حياته حملات قاسية لمحاربة البغاء ، ولكن قلبه كان يداعبه الغرور كلما رأى أن قبر حبيبته مزار يطوف به الناس . وقد كشف عن سريرته هذه فى المقدمة التى كتبها سنة ١٨٦٧ لطبعة جديدة للقصة . انخبر هذه الرسالة مشهور بين الناس ، لذلك استقر رأيه تلك الليلة على أن يهديها لسارا برنار تعبيرا عن اعجابه لتمثيلها دور مرجريت جوتيه

وتلقت منه سارا برنار فى أوائل الاسبوع التالى نسخة من الطبعة

الاولى لقصة « غادة الكاميليا » وهى محلاة برسوم من ريشة المصور جافارنى . داخل الكتاب الرسالة المعهودة مرفقة بخطاب من المؤلف :

« عزيزتى سارا

اسمحى لى أن أهدى اليك نسخة من قصة « غادة الكاميليا » من طبعة أصبحت الآن نادرة . وهذه النسخة فريدة لأنك ستجدين داخلها مقابل الصفحة ٢١٢ أصل الرسالة التى كتبتها بخط يدى، وهى مطابقة للنص المطبوع فى تلك الصفحة . هذه الرسالة كتبها أرمان دوفال الذى كنته منذ أربعين عاما تقريبا خلعت عنه برد الشباب ولكنه كان حينئذ فى عمر يتساوى وعمر ابنك اليوم

وهذا الخطاب هو جزء صغير ملموس من قصة لا تزال باقية حتى وقتنا الحاضر فيتراءى لى أنه من الحق أن يكون فى حوزتك أنت التى بعثت الحياة والشباب لماض ولى وانقضى

احفظيه ، على كل حال ، كذكرى لأدائك البارع على المسرح ليلة السبت الماضى ، وكتعبير عاجز عن اعجابى الشديد وامتنانى العميق

وأصفق لك أيضا بكل قوتى واحييك بكل قلبى »

٢٨ يناير ١٨٤٤

الفصل الثانى

دوماس الأكبر

اذا نظرنا نظرة شاملة الى حياة دوماس الصغير نجدها حياة سعيدة هنية فوق ما يتصور لها . صار فى بحبوحة من العيش عند بلوغه الثلاثين من عمره، وعين عضوا بالاكاديمية وهو صغير السن نسبيا، وكان يقر له فى عهده بزعامة كتاب المسرح . حياته الزوجية سعيدة فى الحدود المعقولة ، وصحته طيبة ، وأمواله تتيح له أن يشبع هواه لمختلف فنون الثقافة . انه جمع ثروته وحده بجهده ولكنه كان جهدا محببا لا تضيق به نفسه ، فلم يكتب الا ما يمليه عليه وجدانه فأمده عمله بسعادة كبيرة . ولكنه حين يراجع شبابه ، كما يحدث له أحيانا وهو يشهد أو يقرأ من جديد « غادة الكاميليا » تطالعه صورة قاتمة حزينة وطفولة أذاقته أمر ماعاناه، من تعاسة وبؤس

كان مولده فى باريس سنة ١٨٢٤ وهى السنة التى مات فيها الشاعر بيرون ، فأحاطه من كل جانب فى السنوات الاولى من عمره جو الهيام بالرومانسية الناشئة كمذهب جديد فى الادب . فتح عينيه أول مافتحهما على مثل فذ لنابغة يصارع الحياة فى حجرة صغيرة حقيرة تحت حنية السقف . انها المسكن التقليدى لكل فنان مجاهد وفى يوم مولده لم يكن أبوه الكسندر دوماس الاكبر قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، وكان يبذل أعنف الجهد من أجل أن يهيىء نفسه لاحتلال مكانة بارزة بين قادة المذهب الرومانسى . ومثل هذه الخطوات الاولى ، وان كانت تمهد لمستقبل باهر ، لايخلو حاضرها من منغصات كثيرة . وأول ذكرى فى ذهن دوماس الابن عن أيام طفولته هى عن فعلة لابيه لاينساها ، كان قد ضاق ذرعا بمضايقاته ذات ليلة فجذبه وطوح به الى نهاية الحجرة .

هى ليلة من ليالى صيف قائظ ، وكان يقيم فى حجرة متواضعة تحت حنية السقف فى دار بميدان « الايطاليين » الذى يسمى اليوم ميدان «بوالديو» . هو راقد فى المهد يتأبى عليه النوم ، وأبوه معه فى الحجرة يعمل فى صمت تحت ضوء شمعة ، وأمه منشغلة فى خياطة ثوب . الاب جالس يخط بقلمه ، وأمامه تل من الكتب. يتسلل من النافذة الصغيرة هواء خانق مشبع بالرطوبة ، وأصوات ضجة

بعيدة . لم تكن عظمة أبيه قد لحظها الناس بعد . كان يشغل حينئذ وظيفة « نساخ وثائق » تستغرق نهاره ، فاذا أتى الليل عكف على الدراسة والتأليف ولا يذوق النوم الا غرارا . وأخذ الطفل يتململ ويتقلب فى مهده على الجنبين وعلا بكاؤه ، فنحت أمه كاترين لوباى عن يدها الثوب الذى تخيطه وحملته بين ذراعيها وجلست تنشد له أغنية ينام عليها .

صمت الطفل برهة وجيزة ثم عاد من جديد الى البكاء ، فزجره أبوه بحدة وأمره أن يلزم الهدوء ويقفل فمه ، فعبست الام بحنق وان لم تنقطع عن أغنيتها . حينئذ أحس الكسندر الصغير بفضل فرط حساسيته ان لا وئام بين والديه ، فانخرط فى النحيب من قلب هصره الحزن حقا ، وارتفع عويله . حاول دوماس الاكبر أن يتغافل عن هذه الضجة ولكن الهامه انقطع وافكاره شردت ، فاذا به لشدة تعبه وارهاقه ينتزع الطفل من حضن أمه ويطوح به فى غضب الى الفراش فى ركن الحجرة

رقد الطفل وهو صامت قد غلبته الدهشة وأخذ يجيل بصره بين والديه . الاب يرفع ذراعه ويلوح بالريشة التي يكتب بها ، ويهدد ساخطا لان أفكاره قد طارت من رأسه ، والام واقفة أمامه تنهال عليه باللوم والتقريع فارتد الاب الى مكتبه وخطف أوراقه واندفع هاربا من الحجرة ، لوقع أقدامه صوت مسموع وهو يهبط الدرج العارى دورا بعد دور ، ثم خفت شيئا فشيئا واختفى . حملت كاترين طفلها بين ذراعيها واخذت ترشفه بقبلاتها وأحنت رأسها عليه وسالت الدموع من مآقيها ، وهدأ الكسندر الصغير قليلا ... قليلا ، ولكن أثر هذا المشهد لم ينمح قط بعد ذلك من قلبه

لا نعلم فى أى يوم وقع هذا الحادث . لعله وقع سنة ١٨٢٧ حين جاءت الى باريس من لندن فرقة مسرحية لتمثيل أعمال شكسبير قوامها نفر من كبار ممثلى انجلترا هم كينى وماكريدى وكمبل ، فهرع الى مسرحهم بهيام متلهف جميع الفنانين فى باريس وحشر دوماس نفسه بينهم وهو غريب عنهم ، وتحايل على اقتراض مايلزم من المال ليحضر جميع الحفلات . كان حينئذ يؤلف مسرحيته الاولى « كريستين » على هدى من مسرحية « هاملت » ، وكرس نفسه لعمله بحماس وهياج حتى نسى من أجله أعمال وظيفته وواجبات أسرته وبدأ يطول غيابه عن ميدان الايطاليين .

ولكنه عاد فى اليوم التالي وهو نادم يحمل فى يده شمامة يتذرع

بها لطلب الصلح . لاريب أن ابنه استقبله بفرح وبلا حفيظة شأن الاطفال . كان يضمر كل الحب والاعجاب لهذا الاب الذى لايدانيه عادة أحد فى بشاشته وقدرته على اكتساب قلوب الناس . انه لايخيب أمله اذا طلب اليه ابن يلاعبه ، فيفعل وهو يهدر بالضحك فيشيع المرح من حوله . كلما أتى لزيارتهما بين الحين والحين بدا فى صورة مخلوق شبيه بالملائكة يهبط من السماوات العلا الى الطفل الصغير الذى عودته أمه على حياة يسودها الهدوء والتواضع والعمل الشاق ، أما أبوه فيدخل عليهما وهو يتأجج بالمرح ، ويختال ، كما يليق بشاعر رومانسى ، فى ثياب مسرفة فى الفخفخة والالوان ،يمد لهما يده بشمامة أو بكيس من الحلوى ، على حين كانت كاترين لوباى تشقى أشد الشقاء من أجل ان توفر للبيت أقل زاد يلزمه . وظل دوماس الصغير يذكر بحنان عن أبيه صورته الاولى المشرقة حتى بعد ان أدرك حين كبر كم اخطأ هذا الاب فى حقه . وكان دوماس الاكبر يحيط نفسه بهالة من البطولة ، فلا عجب أنه كان يلهب خيال ابنه منذ نشأته ويؤثر فيه تأثيراً شديدا بفضل قوة شخصيته واعتزازه بذاته وهيامه بالسيطرة على غيره

قال ميشليه عن دوماس الاكبر انه كان قوة من قوى الطبيعة . لا أحد يماثله فى جريان قلمه بسهولة ولا فى وفرة ماخلفه من مؤلفات كان رغم انهماكه الايام الطوال فى العمل يعرف كيف يصيب من اللهو الصاخب مالا يصيبه المترفون العاطلون . كان طويل القامة يتمتع بقوة جسدية جبارة ، ويجرى فى عروقه شيء من دم زنجي، فجده لابيه هو المركيز ديفى دى لا بايترى ، أما جدته فزنجية اسمها مارى دوماس ، وولد لهما ابن غير شرعى هو أبوه الجنرال دوماس الذى اشتهر بفرط قوته وشجاعته . دخل جيش نابوليون جنديا بسيطا ثم اخذ يرقى الدرجات حتى بلغ رتبته الرفيعة ، مخلفا سجلا باهرا من البطولة فى ميادين الحرب . ولكنه فقد فى النهاية رضا رؤسائه ، فاعتكف فى ذلة ومات فى شدة الفقر . وانحدر الحال بأرملته ، وهى بنت صاحب فندق صغير ، فاضطرت الى الارتزاق من بيع التبغ فى دكان صغير فى موطنها قرية فيلار ، كوتريت . وكان من نصيب ابنهما الكسندر دوماس الذى ولد سنة ١٨٠٢ انه لم يتلق من الدراسة الا مايوفره مكتب القرية للفقراء ، أى تعلم القراءة والكتابة وليس غير . هذه الدراسة كانت أفضل شيء له ، اذ لم تشوش خياله الخصب ولا أوهنت من موهبته الفائقة على رواية القصص والحكايات

فنجا من الشكوك ونقد النفس . وهكذا صان القدر للقرن التاسع عشر أقدر رجل على خلب ألباب أهل زمنه بفضل قصصه .

ورحل الكسندر دوماس الى باريس وهو في سن الحادية والعشرين طلبا للمجد فى دنيا الادب . وصلها وهو مفلس خالى الوفاض، تقتحم العيون منظره . حقا انه لم يرث عن أبيه من سواد البشرة قــدرا تلحظه الابصار ، ولكن شعره بقى كثا مجعدا كومه له حلاق القــرية فوق رأسه كأنه جمة كبيرة سوداء ، ولم يكن حظه على يد ترزى القرية أفضل من حظه على يد حلاقها ، فقد هاله حين وصل الى باريس أن سترته السيئة التفصيل أطول بمقدار قدم على الاقل من السترة التى يلبسها الناس فى ذلك العهد . وسكن فى حجرة صغيرة تحت حنية سقف ، ثم لجأ الى زميل لابيه طيب القلب فعطف عليه وتوسط له حتى ألحقه بوظيفة كاتب فى دائرة الدوق دى أورليانز . لم يلبث الا قليلا حتى عرف كيف يلبس وفقا لذوق أهل العاصمة ، وكيف يسرح شعره المكوم فيعدله الى مكانه فوق رأسه . أصبح ولاريب شابا وسيما جذابا حلو الحديث

عثر على وظيفة ، وعدل شكله وهندامه ، فلم يبق له من هم الا أن يبحث عن خليلة . لم يجد فى هذا البحث كبير مشقة ، اذ تسكن أمام حجرته شابة جميلة لطيفة لا صلة لها بأحد . هذه هى الخياطة كاترين لوباى . انها مثله غريبة فى باريس ، وهى تكبره بسنين قليلة . وتقول بعض الروايات أنها شقيت من قران سابق انتهى بالانفصال بين الزوجين . هى الآن وحيدة فى الدنيا ، حديثة العهد بالاقامــة فى باريس ، جاءتها سعيا وراء الرزق . انها تسكن ، تحت حنيــة السقف ، حجرتين أمام حجرة دوماس ، فكان كثيرا مايصادفها وهو طالع نازل ، لكل منهما وجه باسم ، سرعان ماتوثقت الصداقة بينهما، وما هى الا خطوة قصيرة بين الصداقة والحب ، اذ كان كل منهمــا ترهقه وحدة قاسية

عرفا السعادة معا أول الامر ، ولكن مولد ابنهما حطم وفاقهما ، اذ ضاق بهما الحال ، وزادت حاجتهما للمــال . دوماس مضطر لاعالة أمه ، وكان قد وعدها أن يستدعيها الى باريس حالما يجد فيها حياة مستقرة ، فلما جاءت منذ عهد قريب أسكنهـــا حجرتين متواضعتين فى ضاحية سان دنيس ، فهيهات أن يكفى دخله نفقة بيتين ، وكان قد اشتد به الطموح لان يصبح كاتبا مشهورا ، وبدأ فعلا خطواته الاولى فاشترك مع نفر من ناشـئة المؤلفـين فى تأليف

مسرحيات هزلية ، ولكنه لم يصل بعد الى تحقيق أول هدف فى حياته وهو كتابة مسرحيات درامية . وكان الاوان قد آن ليشد من عزمه ويبذل غاية جهده ، ولكن مولد ابنه قلب مسكنه لسوء حظه الى حال لاتصدقها عينه . هيهات له الآن أن يستمتع كما كان يفعل من قبل بهدوء أمسيات طوال ، يفرغ فيها الى عمله وكاترين جالسة الى جواره تخيط الثياب وترعاه بحنان . وطارت ربات الفنون التى طالما أنست الى حجرته . انها فيما يبدو تضيق ذرعا بالاطفال . هذا الابن الذى فرض مجيئه عليه ان ينجح فى عمله ليقوم بأوده هو نفسه الذى يجعل هذا العمل مستحيلا

وتغيرت كاترين هى الاخرى كثيراً منذ ولادة ابنها . كانت فى يوم نعم الرفيقة لدوماس ، يسعدها أن تخرج معه ، وتضحك لنزواته « اذ كان من دأبه ألا يبالى قط بالنقود » . تقبل على الانصات اليه والانبهار بكلامه حين يحدثها عن دانتى او شيللر ، ثم تجلس صامتة حين يفزع الى عمله . اما الآن فانها تقيس كل شىء فى العالم بالنسبة الى ابنها . محور حياتها الاوحد هو الكسندر الصغير ، هذا الطفل صاحب العينين الزرقاوين الصافيتين والشعر الاصفر الناعم مثل شعرها . لا تتحدث الا عن شهيته وأول سن برزت له ، وعن ثيابه وغسيلها ، وحكايات لاحصر لها تدل على ذكائه وفطنته والاعيبه . انها الآن لاتقبل على الانصات لدوماس حين يفتح لها قلبه ويكشف عن همومه لعل سمعها لم تطرقه من قبل اسماء أصحاب هذه القصائد التى يتلو عليها رفيقها بعض أبياتها ، فاذا حدثها اليوم عنهم قاطعته بأسئلة لاتمت للشعر بصلة ، انها تلومه أشد اللوم لانه لايوفر كل قرش لا تلجئه الضرورة القصوى لصرفه حتى يسد مطالب ابنه . وأحس دوماس بالاختناق فى مسكنه الذى انقلب الى حجرة طفل ، وحل الخصام محل الوئام ولم تنقطع بينهما المناقرة والشجار

وكان لامفر من أن يسلم كل منهما قياده لجذب تيار يباعد بين أحدهما والآخر حتى تتم الفرقة . دوماس يجاهد ليشق طريقه الى الميدان الذى ينتمى اليه ، ميدان الادب ، هيهات لخياطة جاهلة فقيرة أن تقوى على اللحاق به . وزادت حدة الخلاف بينهما وقت ان جاءت الفرقة الانجليزية الى باريس لتمثيل مسرحيات شكسبير . يصرف دوماس نقوده من أجل أن يذهب كل ليلة ليشاهدها على مسرح الاوديون ، وزاد أيضا صلفه واستهانته بوظيفته فجر عليه المتاعب من جراء غضب رؤسائه . أما كاترين فالمستقبل وحده هو الذى

يقلقها ، يحكمها طبع من الحرص جبل عليه الفرنسيون عامة ، فهى تؤمن ان دوماس ينبغى أن يهلك نفسه للعمل من أجل طفله وان ينظر نظرة الجد الى وظيفته ويخلص فى الوفاء بواجبها ، لا يجعل له هما الا ارضاء رؤسائه فيستحق الترقية الى وظيفة كاتب أول توطئه لان يشغل ، حين يتقدم به العمر ، وظيفة المدير العام . هكذا رسمت له حياته ،اما هو ففى المسرح ليلة بعد ليلة . انه قصد بذهابه اليه ان يمرن نفسه على كتابة المسرحيات ، ولكن كاترين لاترى فيه الا رجلا يجرى وراء المتعة والتسلية اضرارا بابنه

كانت مسرحيات شكسبير فى نظر دوماس وغيره من ناشئةالكتاب فى باريس فتحا جديدا يحول منهجهم من طريق الى طريق ، اذ رأى لاول مرة مسرحيات تتحدث عن عواطف صادقة ، فاستمد منهـــا ذخيرة مسرحياته . ان فاته ان يهتز طربا لبلاغة شعر شكســـبير « ولعل أحدا من الحاضرين لم يختلف عنه » الا انه تأثر أشد التأثر بهذه المسرحيات التاريخية الرومانسية المليئـــة بالمواقف الاخاذة ، والمتحررة من قيود المذهب الاتباعى ، فكتب مسرحيتــه الاولى على هدى من هذه الحفلات العديدة التى شهدها فى مسرح الاوديـــون . والواقع ان كثيرا من المؤلفات فى تلك الفترة كانت مدينة بالفضــل الى موسم مسرحيات شكسبير ، لان اغلب من شهدها هم أصـــحاب موهبـــة أدبية فائقـــة

واظب ناشئة الكتاب من أنصار الحركة الرومانسية على حضـــور هذه الحفلات ليلة بعد ليلة ، وتأجج هيامهم بها الى حـــد فريد من الوله هيهات ان نتصوره اليوم فى عهدنا الـــــذى يميل الى كبح العواطف وبرودها . كان فيكتور هوجو حينئذ فى سن الخامســـة والعشرين ، ويوشك أن يصدر مسرحيته الاولى « كروموبل » ،فلما حضر مسرحية «هاملت» عاد الى داره مسرعا ليكتب لمسرحيتهمقدمة يدعو فيها بحماس جميع اتباع الحركة الرومانسية الى النهـــوض والتساند . وكذلك وقع برليوز فى حب الممثلة التى تقوم بـــدور أوفيليا فى مسرحية هاملت . ووجد الرومانســـيون فى هـــذا الحب أنموذجا رائعا لهم ، كما وجدوا فى مقدمة هوجو نداء يحثهم على العمل وخوض المعركة . ذلك ان برليوز اخذ يعرض نفســـه على الناس كصاحب روح معذبة يضنيها حب لا أمل فيه ، تتناهبه بالتناوب ساعات يغيب فيها عن الوجود وهو مستغرق فى أفكاره الكئيبة ، وساعات يتأجج فيها حماسه للعمل بوحى من ربة الموسيقى

فيلحن هذه الانغام البديعة التى تعزف اليوم فى الحفلات الموسيقية فيستمع لها الناس بخشوع واحترام • ضرب برليوز لشباب عصره مثلا للحب الصادق الاوحد كيف ينبغى أن يكون ، فتشبه به كثيرون

لكن هذا الانبهار كله لا ينفذ الى الحجرة الفقيرة تحت حنيةالسقف فى ميدان « الايطاليين » ، فحين يريد دوماس أن يثير اهتمام كاترين بمسرحيات شكسبير ، يجدها تنأى عنه وتشيح بوجهها • الجهد الذى يبذله يرهقها . ليس فى جيوب خدينها من المال ما يصرفه لسد حاجتها ، فتعمل الى منتصف الليل فى خياطة الثياب . وهبهامولدها فى فرنسا ، شأن الكثيرات من نسائها ، طبعا يتميز بالذوق الجميل والهمة فى العمل والحرص على المال . انها تستخدم فتاتينلمساعدتها فى العمل . وكانت قبل مولد طفلها قد رتبت لها معيشة متواضعة بغير جهد كبير ، ولو أن المنافسة فى مهنتها قاسية ، والاجور تلك الايام زهيدة لاتقيم الاود ، أما اليوم فقد زادت مطالبها وتضاعف عملها فى خدمة البيت . كل نقطة ماء هى فى حاجة اليها تقتضيها أن تنزل بالجردل وتشتريه من باعته ، ثم تصعد السلم كله . طفلها يشغلها . ينبغى ان يمتد سهرها بالليل ليزيد مكسبها بقدر كاف ولو حرمت نفسها من النوم • الكسندر الصغير يبكر فى ايقاظها فتبدأ يومها وهى مكدودة متعبة ميالة الى الغم والنكد ، يقلقها التفكيرالدائم فى نفقات المعيشة ، وتراها باهظة وان كانت هينةعلىالاغنياءوالطبقة الوسطى ، فرطل الخبز بخمسة عشر سنتيما ، وملء جردل منالماء بخمسة سنتيمات « ويزيد السعر اذا كان الماء مرشحا » والكيلوجرام من البطاطس بثلاثين سنتيما ، والبيضة الواحدة بخمسة سنتيمات، ويبقى بعد ذلك ثمن الشمع واجرة البيت ومرتب الفتاتين ، نفقة ينخلع لها قلبها اذا قاستها بالمال الذى تملكه . انها لاتكف عن العمل على حين أن دوماس يصرف نقوده فى شراء تذاكر المسرح واقتناء الكتب وعلى أصدقائه من رجال الادب الذين يقابلهم على أرصفة المقاهى • فلم يكن مفر من أن تتم القطيعة بينهما •

أهمل دوماس كل واجباته بغير اكتراث ، فاستطاع ان يندمج فى الاوساط الفنية فى باريس ويعيش فى جو المسرح ، وان يحشد كل همته لكتابة مسرحيته الاولى «كريستين» انه جهد يتطلب منه أن يبذل له كل ذرة من قوته وعزمه . ووجد هذا الجهد جزاءه ،فقبلت الكوميدى فرانسيز تمثيل مسرحيته

ولكن ظهورها على المسرح تأخر بعض الوقت ، اذ اختلفت الآراء

فى الحكم عليها . ثم تقدم مؤلف ذو نفوذ بمسرحية تعالج الموضوع ذاته ففضلتها الكوميدى فرانسيز وقدمتها قبل مسرحية دوماس. ولكن هذه العوائق هينة اذا قيست بروعة الظفر الذى ناله جهده ، اذ لم يكن من السهل على صاحب وظيفة صغيرة مثل وظيفته ، وليس له مقام فى المجتمع ، أن ينفذ الى الكوميدى فرانسيز . وهكذا وجد دوماس عالم الادب والمسرح يفتح له ذراعيه ويلتفت اليــــه ويرى فيه مؤلفا تنعقد عليه الامال. وفى سبتمبر سنة ١٨٢٨ قبلت الكوميدى فرانسيز كذلك مسرحيته الثانية « هنرى الثالث وبلاطه » ومثلتها فى مطلع سنة ١٨٢٩ ، وبها ثبت اسمه فى عالم الادب والمسرح

ظل دوماس زمنا يبحث عن انسان يقدمه الى البارون تايلور مدير الكوميدى فرانسيز ، فتجرأ ذات يوم وكتب رسالة الى رجل عرف فى أيامه برعايته للأدباء هو شـــارل نوديه . وكان شفيعه الوحيد فى كتابته لهذه الرسالة أنه كان قد جلس بجواره ذات ليلة فى المسرح ودار بينهما الحديث . وكان أغلب الاحتمال أن مثل هذه الرسالة لا يجاب عليها وتلقى فى سلة المهملات ، ولكن شارل نوديه كان رجلا عطوفا لا يبالى بالمظاهر والتقاليد فأرســل الى دوماس كتاب التوصية الذى طلبه ودعوة مفتوحة لحضور الحفلات التى يقيمها فى داره كل يوم أحــد . وكان نوديه من زعماء الحــركة الرومانسية فى فرنسا ، لا تفارقه أينما ذهب نسخة من قصـــة « آلام فرتر » لجوته مجلدة بالحرير الاسود . هو ذاته مؤلف ولكنه أخذ على نفسه أيضا أن يبذل كل ما فى طاقته ليشجع ويعـــين المؤلفين الشبان من أشياع الحركة الرومانسية . صالونه الادبى يتردد عليه كل من فيكتور هوجو وسان بيف وألفريد دى فينى وألفـريد دى موسيه ، وهو أيضا ملتقى الشبان من الشـــعراء والفنانين والموسيقيين

والحركة الرومانسية هى رفض ثورى للدعائم الاصيلة للمدنيـــة وتجاربها الطويلة (انها أحلت المرض محل الصحة ، هكذا وصفها جوته بالرغم من أن قصته آلام فرتر كانت من أوائل منابع هــذه الحركة) انها أيضا تحل الانطلاق والافصاح عن القلب محل الهدوء وضبط النفس ، وتحيد عن المأساة الى الميلودراما . وكانت هذه الحركة حينئذ تدخل مرحلتها المتقدة فى عالم الفكر فى فرنســا . وصفت بأنها طاعون يفتك بروح الانسان وأنها « علة العصر » التى تستشرى فى المدنية الغربية . هذه الحركة باعتبارها بدعة تستهوى

الناس بطرافتها لم تعش الا سنين قليلة ، ولكن بعض مبادئها لاتزال سائدة بيننا الى اليوم . حقـا لم نعد نقرأ عن الخرائب والأطلال تحت ضوء القمر ، ولا عن عزف « الهارب » السحرى ، ولـكن قصص اليوم لا تزال تمجد المجرمين والبغايا حفدة أبطال القصص الرومانسى فى مطلعه من أمثال جان سبوجار وهان دى أيسـلند ومانون ليسكو .

ولم يتأخر دوماس طويلا عن تقليد الرومانسيين الفرنسيين فى مسلكهم وملبسهم . وانه اليوم لقادر على أن يضفى على شخصه آخر مسحة لازمة لأن تؤهله للتميز فى مجتمعه . ألوان ثيـابه الصارخة تطابق ذوق الاوساط الفنية ، انه يهيم بالمعطف الفضفاض والقبعة العريضة والصديرى المزركش ، ولكنه كان عاجزا عن أن يقلد الوضع الذى يتخذه الرومانسيون عن مخالطتهم للناس . حقا انه كان فى ذلك العهد من شبابه صاحب قامة نحيلة ممشـوقة ، ولم يشق عليه أن يبدو كأنه حليف أفكار وهموم وشجن وأن يحمل نفسه بين الحين والحين على الانهدام من نوبة سعال ، تشوق جيلا ، أكبر اعجاب له هو بالموت فى عز الشباب من مرض السل . ولكن دوماس كان بطبعه بشوشا محبا للدعابة ، متلهفا على تذوق مباهج الحياة . لذلك جاهد جهاد الابطال من أجل أن يتخذ سمة الحزن الكئيب المعهود عن بيرون ، فانها هى وحدها التى تليق بالأديب الرومانسى . أما آخر شيء ينقص عتاده الادبى فهو وقوعه فى براثن حب يفجعه بمأساته

وكان الحب فى ذلك الوقت ديانة وعبادة . لا يشغل الرومانسيين فى ذلك العهد حرب ولا غلاء ، لذلك صرفوا حياتهم فى طلب الحب والجرى بجنون للفوز بغرام مثالى أبدى . أما دوماس فقـد كان أحكم رأيا ، انه لا يصدق أن ارتباطا جنسيا يقوى على الاحتفاظ طويلا بمتعته ، ومع ذلك فقد انساق فى مضمار هذه اللعبة بشغف شديد ، يكربه أن يسبقه غيره فى سباق ما ، فاهتدى الى خليلة تفى بجميع مطالب الرومانسى ، هى ميلانى والدور ، زوجة ضابط يخدم فى ثكنة بالارياف ، اذ كانت شاعرة مثقفة نحيلة متقدة العواطف ، تكبره — شأن كاترين — ببضع سنين ، ولكنها فيما عدا ذلك تختلف عنها كل الاختلاف ، فهى امرأة خفيضة الصـوت ، منطوية على نفسها ، تستجيب بشغف محبب لأكثر أنغام العشق تعبـيرا عن مأساته ، انها تعيش أيامها فى خشية من أن يبلغ خبر الفضيحة

بين لحظة وأخرى سمع زوجها فيعود ليقابل غريمه فى مبارزة لا بد منها . وهكذا وجد فيها دوماس كل مطالب الحب الرومانسى الأصيل

ومع ذلك فقد عمد دوماس ، طلبا للتخفف قليلا من عبء هذا الحب ، الى مغازلة صبايا الممثلات الصغيرات فى مسرح الكوميدى فرانسيز ، بل والى مغازلة كبار الممثلات أيضا ، اذ أن المدموازيل مارى أول ممثلات المسرح فى ذلك العهد لم تكن غير جذابة فى نظره

وعلمت كاترين لوباى بطبيعة الحال نبأ هذه المغامرات . وكان دوماس قد اتخذ من مسكن ضاحية سان دنيس مقـــره الرئيسى ، لا يزور ميدان الايطاليين الا كل حين وحين، وكلما دخل على كاترين انصبت على رأسه عاصفة شديدة ، ولولا ابنه الذى يهيم به لما ذهب اليها . وكان العراك بينها وبينه يثير فى قلب الطفل المسكين شدة القلق والاضطراب ، وحين يرى الدموع تسيل من عينى أمه ينخرط هو فى البكاء صارخا من فرط ألمه وحزنه

واستطاع دوماس بعد تمثيل مسرحيته « هنرى الثالث وبلاطه » أن يفك عن حياته عقدها . قد لقيت مسرحيته نجاحا رائعا قاطعا لا ريب فيه ، ولكن كان قد بقى على كتاب هذا العهد من الشبان فى ثورتهم على قيود المذهب الاتباعى أن يقتحموا المسرح بمذهبهم الجديد . لقد كان انتصار دوماس على المسرح الوطنى فوزا للمذهب الرومانسى ، اذ كانت مسرحيته أول مسرحية رومانسية أصيلة تنتزع من الناس اقرارهم بنجاحها . أصبح دوماس بطل الساعة فى نظر زملائه وكذلك فى نظر الجمهور . صافحه فيكتور هوجو بحرارة بعد الحفلة الاولى وقال له « الآن جاء دورى » ، اذ كان ينبغى للرومانسية أن تشن هجمـــات أخرى على المسرح الوطنى — مسرح موليير — حتى يتحقق لها غزوه . دار اسم دوماس على كل لسان فى العاصمة وتساوى مقامه ومقام فيكتور هوجو وألفريد دى فينى ، وحضر الدوق دورليانز الحفلة الاولى ثم استـــدعى هـــذا المستخدم الصغير فى دائرته وهنأه وعرض عليه أن يسند اليـــه منصب مساعد لأمين مكتبة القصر ، وهو منصب لا يتطلب عملا بل يراد به تشريف شاغله . وهكذا حق للكاتب الناشىء أن يطمئن على مستقبله واحس أن الأوان قد آن ليبتر صلته بخليلته الاولى، فاستأجر منزلا صغيرا فى ضاحية « باسى » وأسكن به كاترين لوباى وابنها ، وهيأ لهما معيشة مريحة . وضاحية « باسى » تقع غرب

باريس ، وهى حى جميل ، وفوق ذلك فانها بعيدة عن مجالسه ، مقاهى قلب العاصمة وشوارعها الرئيسية ، وفى نيته ولا ريب أن يتكفل بنفقات معيشتهما . وتدفقت منه الوعود المعسولة ، ولكن كاترين لوباىأصبحت ، بفضل تجاربها ، تعرف طبعه حق المعرفة ، فاحتفظت بمهنتها ونقلت معها الفتاتين المساعدتين . أما دوماس فقد استأجر لنفسه دورا كاملا فى منزل وجيه بشارع الجامعة ، وأثثه ببذخ ليهيىء لنفسه ما يصبو اليه من حياة مترفة تليق برجل مثقف مثله .

وكان دوماس الصغير فى الخامسة من عمره حين انتقل الى ضاحية « باسى » الجميلة ، فطابت له الحياة فيها . انه شديد التعلق بأمه ، يحبها من كل قلبه وبكل جوارحه ، حبا لم يخمد أواره على مدى الايام . لا شىء يفسد هناء الطفل ويذيقه طعم التعاسة الا رؤيته لأمه وهى تبكى كلما غلبها التأثر بين الحين والحين فصدر أنينها مما تعانيه من ظلم وسوء حظ ، فدوماس لايأتى لزيارتهم الا نادرا . قد نسى جميع وعوده باعالتهما ، وتمنعها الكبرياء من أن تذكره بهذه الوعود ، فلم يبق لها الا أن تفنى نفسها فى العمل لتوفر لها ولابنها معيشة متواضعة . ولكن الحياة فى عمومها لم تتجهم للطفل الصغير . انه فائز بأكبر حب وتدليل على يد أمه والفتاتين المساعدتين والخادم العجوز التى ترعى شئون البيت ، ووجد فى هدوء الريف بضاحية باسى أصلح جو له ، فشب صبيا فائق الوسامة والقوة البدنية . أمه ترهق نفسها فى العمل حتى لا تنتبه لوحدتها ولا ريب ، ولكن حين يأتى المساء وتخرج الفتاتان وينام الطفل ، ينصرف ذهنها الى التفكير فى الانباء التى يصل صداها اليها من حياة المقاهى وعن هؤلاء السادة الذى يصرفون مالهم باقبال وأسراف على نساء جشعات يطلبن هذا المال جهرا ولا يتورعن ، أما الهجران والبخل منهم فنصيب نساء لا يسألنهم شيئا . انها تسمع أن دوماس أصبح بفضل شهرته محاطا بالنساء ، أما هى فنعم الرفيقة له حين كان مستخدما فقيرا ، فاذا أصبح كاتبا مرموقا مشهورا فضل أن يشرك فى مسراته نساء ، لو بقى فقيرا مغمورا لما تكرمت واحدة منهن بالقاء نظرة عليه من طرف عينها . ومع ذلك فان عشرتها له فى السنين الماضية خلقت فى قلبها حبا صادقا له . لقد صار فى نظر هذه المرأة البسيطة بطلا لا يقل عن أبطال العالم ، هيهات لرجل آخر أن ينافسه ، ووجدت فى هذا

الاعجاب مقنعا لها يغنيها عن قيام صلة بينه وبينها ، وأخذت تتبع دوران نجمه فى فلكه بلهفة واهتمام ، وربت ابنها على احترام نبوغ أبيه

فى تلك الشوارع البعيدة عنها الف دوماس أن يمشى مشية الخيلاء ، مزهوا بأناقته ، شهيرا بها ، يرتدى صديريا مزركشا وبنطلونا محزقا ، على عينيه نظارة ، وفى يده عصا رشيقة . اعجابه بنفسه لا حد له ، ومع ذلك يجذب اليه القلوب بفضل ما ينطوى عليه من سماحة وبراءة ، فلم ينفر منه الناس ولم يروا فيه الا طفلا يزهو بنفسه بسذاجة محببة . حقا ان كثيرا من زملائه الكتاب كانوا يحتقرون فيه هذا الغرور العبقرى ، وكان بلزاك ، بالأخص، يمقته هذا مع أن بعض المحتقرين له لايقلون عنه غرورا ، ولكنهم يسترون هذا الغرور تحت قناع من الصمت والتحفظ ، هكذا نضجوا على تقاليدهم المتوارثة ، اما دوماس فله مسلك الاطفال ، ولا عجب، ففى عروقه دم زنجى ، فهو لايعرف الكبت . تعلق بالأدب ولكنه لم يعرف حين واتته الشهرة الا أن يسرف فى الهيام به الى حد يستسخفه الناس ، والا أن يغالى فى التعبير لزملائه عن اعجابه بهم من صميم قلبه ، أما هم فيعمدون الى القصدوالتحفظ عند اعجابهم به . وكان من عادة الشعراء وكتاب المسرح فى تلك الايام أن يقرأوا أعمالهم الجديدة على زمرة من أصدقائهم الأدباء ، فكان دوماس يحضر هذه الاجتماعات ، لهفته متأججة ولسانه منطلق بالمدح والاعجاب . وكذلك كان يلفت الأنظار بضجته فى المسرح يهز عصاه فى الهواء ويهتف بصوت عال رنان باعجابه أو سخطه . أصبح جذب الانظار اليه مشغلة من مشاغل يومه

ولم تن الصحف اليومية عن تشجيع ميله لاستعراض النفس ، فهى لا تكف عن ترديد أنبائه ، لأن نجاح مسرحيته فتح أعين أعداء الرومانسية على الخطر الذى يتهدد المسرح . ونشبت معركة أدبية : من رأى أنصار المذهب الأتباعى أن مسرح الكوميدى فرانسيز هو ملك خالص لأعمال كورنيل وراسين وموليير ولمن حذا حذوهم من المحدثين ، وانتهى الأمر بأن اجتمع نفر من هؤلاء الغاضبين ، هم رجال كانت لهم شهرة فى أيامهم ثم لم يعد لهم ذكر اليوم ، وكتبوا عريضة ... شكوى الى الملك شارل العاشر ، ولكن الملك رد بأنه عاجز عن أن يصد تيارا أدبيا جديدا ، وانه هو نفسه ، شأنه فى ذلك شأن بقية أفراد الشعب ، لا يملك من الحق الا أن يشغل

مقعدا فى الكوميدى فرانسيز ويتساوى وبقية المتفرجين .

ولم تخل هذه المعركة الادبية بين الرومانسية والاتباعية من صبغة سياسية ، اذ كان أنصار الرومانسية يميلون الى أسرة بونابرت او الى النظام الجمهورى ، أما أنصار الأتباعية فيدافعون عن النظام الملكى ويرون فوق ذلك أن الملك يستمد سلطانه من الله لا من البشر . لذلك ترقب الناس فى توتر شديد تمثيل المسرحية الرومانسية التالية وكانت هى مسرحية « هرنانى » من تأليف فيكتور هوجو . اذ كان المعسكران المتخاصمان على بينة من أن الوقت وقت بت فى قضية هامة . ومثلت مسرحية « هرنانى » فى اول حفلة فى مسرح تسوده ضجة شديدة حتى عرفت تلك الليلة باسم « معركة مسرحية هرنانى »

وأعد هوجو جماعة تصفق له أول ليلة بأن وزع اربعمائة دعوة على انصاره فى الحى اللاتينى ، وعمد طلبة احدى مدارس الفنون الى تحطيم نموذج لتمثال فينوس دى ميلو قبل ذهابهم الى المسرح، وزاد بين الحاضرين عدد لابسى المعاطف الفضفاضة والشعور المسترسلة والقبعات العريضة ، وابتدع تيوفيل جوتييه من أجل ملبسه فى هذه المناسبة صديريا جعله مزركشا ومن لون أحمر ، ظل باقيا فى ذاكرة الناس بعد موته بسنين عديدة على حين نسوا ما كان يرتديه كتاب المذهب الاتباعى فى تلك الليلة . وبكر الفنانون الشبان فى الحضور ثم تلاهم الأدباء أصدقاء فيكتور هوجو ، وجاء فى أثرهم جمع المتفرجين ، آخرهم أناس يحتفظون بوقارهم . هم أعضاء الاكاديمية الفرنسية وانصارهم من أشياع المذهب الأتباعى . وتقاطر الى المسرح أيضا أغلب أصحاب الأسماء الناشئة فى عالم الفنون ، من بينهم برليوز وسانت بيف وبروسبير مريميه وأونوريه دى‌بلزاك والفريد دى فينى . وكان‌الدوق أرنست أوف ساكسبورج وبنجامين كونستان من بين الذين ساقهم الى المسرح كذلك حب التطلع . اما معسكر الاتباعية فقد تزعمه المؤلف المسرحى سكريب وهو أشهر كتاب المسرح حينذاك .

لم تنقطع الضجة طوال المسرحية . أنصار الرومانسية لاينقطعون عن الهتاف والتصفيق، فيرد عليهم‌أنصار الأتباعية بالصفير وأصوات التحقير والاستخفاف . قذف الاهانات متبادل بين الجانبين ، بل انتقل الخصام الى تبادل اللكمات بين الحين والحين . مظاهرة حامية تثبت توقد شباب الحركة الرومانسية وهيام أهل باريس بقضايا

الفكر . وأسفرت المعركة عن فوز الرومانسية بمكانتها فوق المسرح

وحدث بعد ذلك بقليل أن قدم مسرح الأوديون مسرحية « كريستين » التى ألفها ألكسندر دوماس . ومضت الحفلة الاولى أيضا فى ضجة شديدة ، ولكنها أثبتت انتصار المؤلف . وقامت المدموازيل جورج بدور كريستين فأدته بنجاح باهر . وكانت المدموازيل مارس والمدموازيل جورج أقدر ممثلتين فى ذلك العهد . حين دخلت عليهما سنة ١٨٣٠ كانت الاولى قد جاوزت الخمسين بسنة واحدة والثانية جاوزت الأربعين بثلاث سنوات . وكانت المدموازيل مارس قد داومت على العمل بانتظام فى مسرح الكوميدى فرانسيز ، أما المدموازيل جورج فقد بدأت حياتها التمثيلية على هذا المسرح أيضا واشتهرت بقيامها بالأدوار التراجيدية ، ولكن الاضواء حادت عنها حين هوى نجم نابليون . اذ كانت خليلته فى فترة من الوقت ابان توليه منصب القنصل الاول ، وظلت تفصح عن ولائها له ولنظام حكمه حتى فى الوقت الذى كان فيه مثل هذا الافصاح يعرضها للخطر ، وفصلها مسرح الكوميدى فرانسيز سنة ١٨١٧ فرحلت عن فرنسا وعملت خارجها بضع سنين ، ثم عادت الى باريس سنة ١٨٢٠ فقبلها مسرح الاوديون وهو ثانى مسارح الدولة

وفى أثناء تمثيل مسرحية « كريستين » نشأت صلة بين دوماس وممثلة أخرى شهيرة هي مارى دورفال . كان يعبر ذات ليلة ميدان الأوديون فمرت به عربة وتوقفت عنده ، وأطلت منها امرأة جميلة سألته هل هو المسيو دوماس (ربما تم اللقاء الاول على صورة أخرى ، ولكن أقل ما يرضى دوماس هو أن يروى لنا خبره فى مذكراته على النحو الذى يزعمه) فلما رد بالايجاب دعته صاحبة العربة الى الركوب بجانبها ومنحته ثغرها ليقبله . وهكذا أصبحت خليلته لفترة من الوقت ، وأصبحت صديقته فى كل الأوقات . وقد وجد دوماس فى هذه الصداقة التى يسرتها له الاقدار مصدر نفع كبير له ، لأن هذه الممثلة الموهوبة كانت ستقوم بدور فى مسرحيته الجديدة المسماة « أنتونى » فحشدت لنصرته كل قواها وهيأت له بعونها أسباب أكبر نصر له . ولكن قبل أن يتحقق له ذلك دهمته ثورة سنة ١٨٣٠

فقد سقط الملك شارل العاشر وسافر الى المنفى ، واعتلى الدوق دورليانز العرش باسم الملك لويس فيليب ، ونشب القتال فى شوارع باريس ثلاثة أيام ابان هذه الثورة التى عرفت باسم ثورة شهر

يوليو ، فألقى دوماس نفسه فى خضم المعركة باعتباره من أشـد المتحمسين للنظام الجمهورى . وكانت مساهمته فى الثورة تنم عن الاندفاع والجرأة وحبه لجذب الأنظار ، فكأنما هو فيها يقوم بدور مسرحى ، من الأدوار التى يحب أن يكتبها فى مسرحياته ، يقـابل بالتصفيق . وكانت مغامرته الوحيـدة هى قيامه منفردا أو يكاد بالاستيلاء على مخزن بارود . وجد دوماس فى اشتراكه فى هـذه الثورة لذة كبيرة تنتشى لها نفسه ، فبدأ يهتم بالسـياسة ونسى ما يغنمه ، بفضل مطامعه الادبية ، من نشوات أقل ضراوة ، وسافر ليقوم بجولة فى مقاطعة لافانديه تنفيذا لمهمة وهمية اخترعهـا له لافاييت مكافأة له على خدماته فى ثورة يوليو ، وأسفرت هذه المهمة عن لا شىء ، ولو أنها أتاحت له أن ينعم بأجازة بديعة وأن يرتدى زيا عسكريا رسمه هو بنفسه لنفسه

وبذل مديرو المسارح كل جهدهم لينتزعوه من هذه المشـاغل ويردوه الى معاودة الكتابة والتأليف . لم ينجح منهم الا هاريل مدير مسرح الأوديون . لجأ الى الحيلة وناشد دوماس أن يكتب مسرحية عن نابليون . ومثلت هذه المسرحية فى مطلع سنة ١٨٣١ وأسند الدور الرئيسى فيها الى فردريك لومتر ، فأداه بنجاح منقطع النظير . انها مسرحية طويلة ، معيبة الشكل ، مكتوبة على عجل وتلبية لطلب . لم تظفر بنجاح الا بسبب موضوعها ومصـادفتها لزمن تحتد فيه الخلافات السياسية ، وأخيرا بسبب تمثيل لومتر ، وكان فى نظر بعض الناس أكبر ممثل فى فرنسا . أما مسرحيـة دوماس التالية ، مسرحية « أنتونى » فتختلف عن ذلك اختـلافا كبيرا ، حيث كتبها لامتاع نفسه أولا ، وفى نشوة حبه لميلانى والدور ، فبلغت هذه المسرحية أتم نجاح ودام عرضـها زمنا طويلا ، تفوقت فيها مارى دورفال ، وتناقل الناس خبر النجاح الباهر الذى لقيه دور « انتونى » على يد بوكاج ، وهو ممثل ناشىء متوتر الاعصاب شديد الانفعال متقلب الأهواء

وحضرت ميلانى والدور الحفلة الاولى لمسرحية « انتونى » . وجهها يجد جماله فى تعبيره عن الشحوب والمأساة ، وجلست ترهف سمعها الى بوكاج وهو يقوم بدور فى مأساة هى صورة صـادقة لمأساة هذا الحب الذى جمع بينها وبين دوماس . أما المؤلف فجالس بعيدا عنها فى مقصورته وهو يبتسم ، بجانبه ممثلة ناشئة مبتسمة أيضا ، هى بل كريبسامر . بين الاثنين علاقة حب ترجع الى سنة

مضت ، وكان قد ولد لهما منـذ عهد قريب بنت اسـمها ماری الكسندر ، وكان دوماس قد هجر منذ زمن غير قصير خليلته مدام والدور فانصرفت الى قرض الشعر لتسرى عن نفسها ما أمكنها ، هى حينئذ فريسة للوحدة ، شأنها فى ذلك شأن كاترين لوباى . وغادرت المسرح بمفردها فى نهاية التمثيـل وعيناها مغرورقتـان بالدموع

وحضرت كاترين لوباى الحفلة أيضا . هى جالسة لايعرفها ولايحس بها أحد . ابنها الصغير الكسندر بجانبها . انها لا تخرج أبدا الا اذا كان فى صحبتها ، تمكنت فيما بعد ان تملك المعطف الاخضر الذى لبسه دوماس فى الحفلة الاولى وكذلك المكتب الذى جلس اليه وهو يؤلف مسرحية « أنتونى » . لم تملك الا معطفا ممزقا لان المعجبين بدوماس الى حد الهوس اطبقوا عليه ليلتئذ وتجاذبته أيديهم يمنـة ويسرة . احتفظت كاترين بهذه الاثار الى يوم وفاتهـا وكانت ترى فى المعطف والمكتب أثمن مقتنياتها .

واخذت الحياة تمضى بهدوء فى ضاحية باسى . تهلك كاترين نفسها فى العمل . تسهر الليل كله أحيانا لتوفر لابنها شيئا من الفطائر الى جانب المطالب الضرورية الاخرى . وكان ألكسندر قد بلغ من العمر سنا تتيح له أن يخرج من البيت ليلهو وحده فى ربوع تلك الضاحية الجميلة التى كانت تعد حينئذ قطعة من الريف ، شوارعها تظللهـا الاشجار ، ودكاكينها لها طابع عتيق ، الواح نوافذها مؤلفة من قطع زجاجية صغيرة متعددة . يستنشق الصبى فى الصيف هواء معطرا بأريج الازهار ، وتمتد نظرته وراء قضبان الاسوار الحديدية ومداخل البيوت فتبصر حدائق يلفها الصمت وحرارة الجو ، حدائق تبـدو شاسعة فى نظر الصبى الصغير ، تتألق أمامه بفضل الوان أزهارهـا البديعة . الضاحية غنية بالغدران والاحراش . نواح متروكة برمتها للطيور والحشرات ، ينبغى لها ان تنتظر حتى يحل عصر التوسع فى بناء المساكن وقت الجمهورية الثانية . وكانت غابة بولونيا حينئذ غابة كثيفة ناجية من التهذيب ، فى وسطها بركة ، ولكن لم تكن بها بحيرات شقتها يد الانسان ، ولا حدائق على الطراز الانجليزى ، بل كان يسودها الهدوء حتى فى أيام الاحاد . اذا ذهب اليها انسان فلمبارزة خصم ، فلم تكن الناس قد هامت بارتيادها كما فعلت فيما بعد .

وفى ضاحية باسى ذاق الصبى الصغير فى البيت الصـغير طعم السعادة . أمه تنشئه ليشب مثلها على مكارم الاخلاق حريصـا

على أداء واجبه ، يتسع عملها دائما رغم مشاغلها لتصــــحبه الى الكنيسة فى مواعيد الصلاة ، وعلمته التعود مثلها على حيـاة عمادها الاقتصاد وحب النظام ، فشب على خصال تطابق خصالها ، وأصبح يحسن التصرف ويدرك قيمة المال . وشب هو مثلها أيضا فى رقة العواطف وطيبة القلب ، اذا دمعت عيناها من شدة الملل واليأس اقبل عليها وأحاط رقبتها بذراعيه وأخذ يرشقها بقبلاته . ان الجهــد الشاق الذى تبذله أمه ترك أثرا بالغا فى قلبه . وكان أهم مطمح لــه حين بلغ مرحلة الرجولة ان يقنع المجتمع بوجود تدبير الرعاية لكل أم نصيبها فى الحياة مثل نصيب أمه . فكان وهو صبى يعاهد أمه باخلاص ووثوق على أنه سيعمل من أجلها حين يبلغ مرحلة الرجولة « سيضنى نفسه فى العمل ليصبحا من الاغنياء ومن أجل ان تتحرر امه من ارهاق مهنتها وتنعم بالرخاء » فكانت كاترين تكافئه بابتسامة ملؤها المحبة ، يحزنها ويشوقها ويمنعها معا أن تنصت الى هــذه العهود المبكرة المبذولة عن يقين فى عالم لا أمان له . سيثبت فيما بعد ، انتصاره ووفاءه بتلك العهود نعم الوفاء ، فان هذا الصبى الصغير الذى قطع على نفسه هذا العهد وهو فى سن السادسة أو السابعة لم يخفق حين أصبح رجلا فى أن يحقق لامه كل ما وعدها به

ولكن هذه الخاتمة السعيدة كانت مؤجلة لمستقبل بعيـــد . أما الحاضر فيلوح لاعينهم انذار هموم قادمة تفوق فى قسوتها كل هــم يتوجسون منه . فقد آمن دوماس الاب بعد نجاح مسرحيته «أنتونى» ان مستقبله أصبح مضمونا ، وكان لايزال يحب بل كريبسامر ويزهو بمولد ابنته منها ، ومع أن عاطفته نحو خليلته لم تبلغ حــــد الطغيان عليه فتحمله على عقد قرانه بها ، فانه اعترف بالوليدة ابنة شرعية له ومنحها لقبه تضيفه بعد اسمها . وقد عزم على ان يعترف كذلك بولده من كاترين لوباى ابنا شرعيا له ، لان حبه لهذا الصبى الصغير لم ينقطع رغم اهماله له زمنا طويلا . فلما فعل ذلك احتفظ لنفسه بحق كفالة ابنه ، بل مضى الى أبعد من ذلك وقرر أن يأخذه ليبقى تحت اشرافه ، ولا يعنى هذا الا نزعه من أمه ووضعه فى مدرسة داخلية

ووقع النبأ على كاترين لوباى وقع حكم صادر باعدامها ، انها منذ مولد هذا الطفل لا تعيش الا من أجله . هو كل ما تملك فى هذه الدنيا ودفعها القنوط الى مخاصمة دوماس امام المحاكم ، ولكنهـا خسرت قضيتها لانها ولدت ابنها من غير زواج شرعى ، ومثل هذه الأم ينبغى

لها ألا تدعي لنفسها أمام المحاكم أى حق من الحقوق . وتقـول بعض الروايات أن شرطيا جاءها لينتزع منها طفلها فجن جنونها من هول الكارثة وحاولت اخفاءه تحت الفراش ، ولكن هيهات ... أسرع الشرطي الى الصبى المرتعب فانتزعه ومضى به ، وبقيت كاترين وحدها فريسة حزن لا يتصوره العقل . وعرض عليها دوماس ان يرتب لها معاشا شهريا ولكنها رفضت عرضه ببرود ، وحملت نفسها آخر الامر على أن تستأنف عملها وتكتسب رزقها كسابق عهـــدها وتعيش فى تواضع ولكن دون أن تتخلى عن كبريائها واعتزازها بنفسها ..

الفصل الثالث

ولد النابغة

مضت الاعوام التالية على دوماس الصغير فى حزن ووحشة . ألحقه أبوه بمدرسة داخلية للصبيان اسمها « بنسيون فوتيه » . آثاره فيما بعد خلو من أى ذكر عن حيـــاته فى تلك المدرسة ، ولكنه كان بها تعيسا ولا ريب ، فالمدارس الداخلية فى فرنسا لها حينئذ جو متبض كئيب . ما أعنفها من صدمة لهذا الصبى حين انتقل فجأة من حضن أمه ليجد نفسه ضائعا وسط غرباء لا يبالون به . فى مؤلفاته سطور كثيرة تقطر بالحزن وتنم عن أن القلب الذى أملاها قد عانى فى صباه من العذاب أشده . انه ينطق أحد أبطال قصصه بهـــذه العبارة :

« هيهات ان يعصمك صفر سنك من ان تشيخ ساعة أن تفقـد أمك » .

انتقل الآن الى كفالة أبيه ، فانقلبت حياته رأسا على عقب . انه انتقال هيهات ان يدانيه انتقال آخر فى شموله وربكتـــه . كان أبوه فخورا به فكثر تردده على مسكنه الانيق ، ولكن ذكرى المدرســـة باقية فى ذهنه ، انه يحس فيها انه مشرد لا مأوى له . لابد لابن دوماس « ان ذكر دوماس ان له ابنا » ان يأكل على أفخر الموائد ، ويقابل أناسا من أصحاب الشهرة والطبائع العجيبة ، وأن يألف الذهاب الى المسرح ، ولكن مخالطة أئمة النبوغ والجمال لا تعوض عند الصبى الصغير لوعته على فراقه لأمه . ان رؤية وجهها وهى تبتسم رغـم ارهاقها أفضل عنده من رؤية وجه المدموازيل جورج الممثلة الحسناء المترفعة المعتدة بسابق حب نابوليون لها .. وحديث الفتـــاتين البسيطتين مساعدتى أمه أشهى على قلبه من سحر الشـــعراء او الموسيقيين ، ان انطلاقهما بالغناء فى ساعات عملهما الطويلة أحب اليه من الانصات الى « ليست » الملحن الكبير وهو يهوى بيـديه على البيانو فى منزل أبيه ، وهيهات لجلوسه فى المسرح أن يشفيه من تحسره على العش الذى فقده .

ومع ذلك طاب له أن يتردد على المسرح بين الحين والحين ، وشهد فيما شهد اول اخفاق عظيم لابيه ليلة مثلت لاول مرة فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٣١ مسرحيته المسماه « شارل السابع وامراؤه العظام » .

أراد دوماس بهذه المسرحية ان يبلغ الادب قمة لم يرق اليها من قبل، فان نجاحه السابق اعتمد على تأليف الميلودراما ، واعتمد بالاخص على غريزته الاصيلة النادرة فى حبك المواقف المسرحية المثيرة للجمهور ، ولكنه قصد يومئذ ان يصل الى قمة النجاح الادبى بتقديم مسرحية كبيرة شعرية تماثل أعمال فيكتور هوجو ، ان لم تماثل أعمال راسين ، ولكن غروره خدعه ، فظن أنه قادر على أن يؤلف أثرا عظيما دون بذل جهد كبير ، فغيره من الكتاب حرق الدماء من أجل ان يؤلف روائع الادب ، اما هو فقادر ان يبلغ أرقى سماوات الخلق الفنى فى تلك الفترات الوجيزة التى يتصيدها بين أوقات لهوه ، فانساق بهذا الوهم الى تأليف مسرحيته ابان أجازة صيفية قضاها فى صحبة بل كريبسامر على شاطىء مدينة تروفيل ، وبدلا من أن يسهر الليالى لم يجد بأسا من الاقتباس والتلفيق . أدار النجاح السابق رأسه ، فشق عليه ان ينقد نفسه . ثم سلم المسرحية الى هاريل مدير مسرح الاوديون وقرئت على الممثلين فأعجبوا بها أشد الاعجاب وهكذا وهم دوماس أنه كتب أثرا عظيما .

ومع ذلك فان الشك قد خامر قلبه وأسفر له الحق عن بعض وجهه حين حضر مسرحية هوجو الجديدة المسماة « ماريون ديلورم » ، وملأت سمعه أبياتها الموزونة المحكمة ، فدب القلق فى قلبه ، ولكن حين حضر بعد ذلك تجارب مسرحيته اطمأن ونفض عنه القلق شيئا فشيئا .

وسجل دوماس الصغير فيما بعد ذكرياته عن الحفلة الاولى فى مقدمة مسرحيته « الابن غير الشرعى » فقال ان المسرح ليلتئذ كان يسوده جو من البرود منذ ان بدأت الحفلة . حقا ان المدموازيل جورج رائعة الجمال تسحر الحاضرين ببهائها ، والممثل ديلافوس صادق فى تمثيله لدور شارل السابع ، ولكن أبيات المسرحية تتوالى كالخطب الطويلة المملة ، فلم تلق لدى الحاضرين أقل اهتمام . وجلس بين الحاضرين صبى فى سن السابعة ، مؤدب ظريف هو دوماس الصغير ، جلس صامتا مشدوها فاتحا عينيه ، لا يفهم كلمة مما يسمع ، ومع ذلك يتتبع المسرحية بخشوع المتعبدين واثقا ان المشهد الذى يراه هو اروع المشاهد ، وكيف لا وهو من تأليف أبيه . أما الحاضرون فقد التزموا الهدوء اول الامر ثم اذا بهم يتململون ولا يكتمون هزأهم وسخريتهم ، فاذا بهذا الأثر العظيم المرتقب يجلله عار الهزيمة فيهوى صرحه . وأسدل الستار آخر الحفلة على ممثلين أرهقهم افتعال

الالفاظ والحركات ، وجمهور نصفه يتثاءب ونصفه يقهقه ساخرا .
ومال دوماس وهو صامت كئيب على ابنه وسحبه من يده وخرجا من المسرح .

اخترق الاثنان ميدان الاوديون ثم انعطفا الى شارع السين العتيق وسارا نحو النهر . الجو بارد والسماء صافية والقمر يرخي أشعة له لا تأبه لاحد . دوماس الكبير ماض في طريقه لايفتح فمه وابنه الصغير يجاهد ليلاحقه في سيره وهو متعب مهموم ، قلبه فريسة للحزن ، بعض هذا الحزن بسبب علمه انه بعد قليل سيؤوب الى هـذا الجو العدائي الذى ينتظره في المدرسة ، وبعضه بسبب كآبة هذا الاب الذى كان مرحهمن قبل ينتقل بالعدوى الى قلوب رفقائه أجمعين . وبقي في ذهن الصبى من تلك الليلة أثرا لا يمحى يذكره بسيره في ذلك الشارع المهجور ، وبضياء القمر السافر كأنه ذوب اللجين وبتلك الجدران العتيقة الرطبة التى يمر إمامها . هيهات له بعد تلك الليلة أن يجتاز شارع السين . حتى حين بلغ مرحلة الرجولة ، دون أن ينقبض قلبه لذكرى تلك الخيبة الكبيرة ليلة الحفلة الاولى لمسرحية «شارل السابع وامراؤه العظام» . كلما مر بمبنى الاكاديميةالفرنسية راى شبحه وشبح أبيه يرتسمان بوضوح على جدارها في سـواد لا يتحول ، يسلمه الى أسر عذاب الوحدة والاسى . لم يتأت لمؤلف مسرحي في عهده ان يلقى من النجاح ما لقيه هو . انه ألف في أواخر أيامه أن يتألق نجمه وينعقد له لواء النصر في الحفلات الاولىلمسرحياته، ولكنه مع ذلك ــ كما انبأنا هو نفسه ــ لم يحـدث له أن آب الى داره من احدى هذه الحفلات دون أن يذكر مسرح الاوديون كمارآه هو وهو صبي في سن السابعة ، هو في ذهنه أكبر بكثير من حجمه، به جمهور يسوده البرود بادى العداوة ، اذا ازدحم عليه أصدقاؤه للثناء عليه وتهنئته بنجاح مسرحية له في حفلتها الاولى أخذ يتمتم في سره : (قد يصدق كلامكم ، ولكنى لو خيرت لكان الاشهى على قلبي أن أكتب مسرحية « شارل السابع وامراؤاه العظام » ليكون أخفاقها من نصيبي أنا) ــ هكذا بلغ به أخلاصه لابيه .

وبدأ دوماس الصغير يألف التنقل بين المدرسة والمسرح ومخالطة نجوم المجتمع في سهراتهم بالمنتديات والمقاهى . عجز وهو صبي عن أن يفطن لمواهبهم المتألقة أو للنكتة القاسية في حديث رفقاء أبيه، ولكنه حين تقدم به العمر أدرك سر المتعة التى جادت بها عليـــه مخالطته في صباه لاصحاب الشهرة من الرجال والنساء . لقــــد

ابتسم له الحظ فيما بعد ووضع على رأسه أجمل التيجان ، فتأتى له وهو غارق فى عالم الذكريات المسحور أن يسترجع لنفسه صورة فردريك لومتر وهو ممثل ناشىء ، وألفريد دى موسيه وهو فتى شاحب الوجه ، والملحن ليست وهو فى سن العشرين يرهق نفسه فى التدرب من أجل أن يبلغ سلطانه على البيانو ما بلغه من قبل سلطان بجانينى على الكمان ، وصورة المدموازيل جورج وهى صاحبة جمال قد فاق كل جمال عرفته الاجيال اللاحقة .

وكان فردريك لومتر من بين الرجال الذين ألف رؤيتهم مرارا ، اذ كانت له فى ذلك العهد أشغال كثيرة عند أبيه . لا يعرف الناس ممثلا يفوقه فى قدرته على اضحاك الناس بفكاهته فى الكوميديا وعلى هز مشاعرهم بجلاله فى التراجيديا ، فطارت شهرته فى المنتديات والمقاهى فى قلب العاصمة ، بل كان يقضى معظم وقته فى شارع القرم حيث يقع المسرح الذى شهد أول أدواره . وقد ولد سنة ١٨٠٠ ، وكان قد عرفه دوماس الصغير أول مرة فتى مرحا ينعم بقسط معتدل من السعادة فى رفقة زوجه . لم يكن فى ذلك العهد قد بدأ يخضع لنزوته بالافراط فى شرب الخمر أو فى غيرها من النزوات المهلكة ، كما فعل فيما بعد حين تحطمت آماله .

وكان فردريك مرتبطا بعقد مع هاريل ، وقام على مسرح الاوديون بتمثيل دور فى مسرحية راسين المسماة « أفجينى فى أوليد » ؛ وفى مسرحيتين مترجمتين عن الانجليزية من أعمال شكسبير هما « هاملت » و « عطيل » . وكانت هذه الادوار العظيمة تناسب صادق معدنه ، ثم أمره هاريل أن يقتصر على التمثيل فى المسرحيات الحديثة ، فعل ذلك بسبب خليلته المدموازيل جورج الشديدة التوجس من كل ظل قد يلقى على أضوائها ، فأكلت الغيرة قلبها حين رأت نجاح فردريك لومتر فى التراجيديا وهو الان فى أواخر ١٨٣١ يتمرن على تمثيل مسرحية أخرى لدوماس تسمى « ريتشارد دارلنجتون » .

واذا كان اخفاق مسرحية « شارل السابع وأمراؤه العظام » قد ترك أثرا لا يمحى فى ذاكرة الصبى رقيق القلب ، فانه لم يترك أقل أثر فى قلب المؤلف نفسه . عكر الاخفاق مزاجه يوما أو يومين ثم نسى كل النسيان سوء حظه وشمر عن ساعديه ليفرغ وهو رضى البال لتأليف مسرحيته الجديدة المسماة « ريتشارد دارلنجتون » ، كتب هذه المسرحية بالاشتراك مع اثنين من المؤلفين . هى ميلودراما

عنيفة قاسية تهز المشاعر تناسب الظروف السائدة فى ذلك العهد اذ كان اضطراب الناس بسبب الثورة لم يهـــدأ بعد ، وكان أكثر اهتمامهم منصرفا الى السياسة وكان من العسير ســـوقهم الى المسرح . لم يخامر هاريل أقل شك فى هذه المسرحية ووثق أنهـا ستلقى نجاحا باهرا فاستبقاها ليبدأ بها موسمه الاول على مسرح بوابة سان مارتان الذى كان اشتراه منذ قليل ، وكان هذا المسرح قد بنى من اجل الملكة مارى انطوانيت من قبل خمسين سنة ، وقـد دفع فيه هاريل ثمنا باهظا ، ولكن المدموازيل جورج هى التى رغبت فى شرائه فلم يبق لهاريل كلمة يقولها أو رأى يبديه

ونحن نعلم من كلام دوماس الاب أنه كان حينئذ يصحب ابنـه لتناول العشاء على مائدة المدموازيل جورج وهاريل ، فأغلب الظن اذن أن يكون الف الصبى لهما يرجع الى ذلك العهد . وكان هاريل ذائع الصيت فى باريس ، معروفا بفرط نشاطه وكثرة كلامه وقدرته على كسب ثقة الناس وعلى خداعهم فى وقت واحد . انه رجل بارع فى ادارة أعماله ، ولكنه لا يتورع عن الغش . التقت به المدموازيل جورج سنة ١٨٢٠ ، واستمرت فى معاشرته منذ ذلك الحين

وخلاصة سيرة المدموازيل جورج ـ واسمها فى الحقيقة هــو مرجريت جوزفين ويمير ـ أنها بدأت مهنتها فى المسرح القـــومى سنة ١٨٠٢ أبان ازدهار الفن المسرحى فى فرنسا وتألق نجم الممثل الكبير تالما . وكان نابوليون حينئذ يشغل منصب القنصل ويهيم ، فيما يهيم به من الفنون الجميلة ، بالمسرحيات الكلاسيكية . ومن اجل هيامه هــذا اقتصر المسرح القومى على تمثيل روائع هــذه المسرحيات . ولفتت الممثلة الناشئة نظر نابوليون بفضل جمالهـا الاغريقى ، يخيل لرائيها أن جسدها تمثال من المرمر قد دبت فيه الحياة ، أو انها تجسد حلما من أحلام العصور الذهبية . وأرسل نابوليون ذات ليلة خادمة كونستان برسالة اليها يدعوها فيها الى الذهاب لقصر سان كلو لتتلقى تهنئته لها على تمثيلها لدور كليتمنسترا وكان نابوليون حينئذ فى عز شبابه ووثوقـــه بنفسه . وآمنت المدموازيل جورج أن صلته بها قد قادتها الى قمة المجد والشهرة . هى صلة قصيرة الامد ولكنها كانت أكثر مما يكفى لملء حياة المدموازيل جورج بالاضواء الى نهــاية العمر . وبقيت صلتها بنابوليـــون تتراءى لها فى ذكرياتها ولا تنقطع عن الاعتزاز بأنها ضاجعته ، وعن رفعها له الى مصاف الآلهة .

هي الآن ان تغيرت فلم يتغير جمالها ، بل ازداد عن الامس تألقا ، انها لا تزال توصي بأنها هبة من نسائم الحضارات الاولى ، ولكنهـا اصبحت أشبه بتمثال اغريقي ، اذ يخامر رائيها دبيب من الشك بأن وزنها قد بدأ يزداد قليلا . انها تحسب نفسها قرينة للآلهة . طبعها التحكم والامر والنهي ، فلم يسع هاريل رغم صلابة مراسه الا أن يقف بين يديها موقف الخادم العبد ، ولم يملك فرديك لومتر ـ وهو ميال بطبعه الى التندر ـ الا أن يكرههـا أشد الكره . اما دوماس الاب فكان يلتزم الحيطة في معاملتها ويحرص على الحفاوة بها ومجاملتها ، فبقيت راضية عنه ولا تحول عنه ودها ، ثم توثقت المودة بينهمـا أبان تأليف مسرحيته الجـديدة « نابوليون » فان موضوعها محبب لقلبها

وقد سبق القول أن هاريل كان قبل ذلك بقليل قد وجد شيئا من المشـقة في صرف اهتمام دوماس الاب عن السـياسة الى المسرح ، ثم لجأ في نهاية الامر الى الحيلة ، اذ اتفق مع المدموازيل جورج على دعوة المؤلف الناشيء الى العشاء ذات ليلة ، وبعد مأدبة طويلة نعم فيها بأطيب طعام وأشهى سمر ، قاده مضيفاه الى حجرة مكتب أنيقـة مريحة عامرة بالكتب ، لا ينقصـها شيء من أدوات الكتابة ، وفي ركن منها فراش وثير . لم يفطن دوماس الى الحيلة ، فانطلق لسانه بالثناء على الحجرة واعجابه بها وقال : « ما أطيبها من حجرة لرجل يريد أن يخـلو لنفسه ليجلس ويكتب » فأجابه هاريل على الفور : « نعم ما قلت . يسعدني ان الحجرة أعجبتك لانك لن تغادرها من قبل أن تفرغ من تأليف مسرحية عن نابوليون » . ولم يكن لحجرة المكتب الا باب واحد يفتح على حجرة نوم المدموازيل جورج . وحمل دوماس نفسه بغير مشقة كبيرة على الرضاء بمـا دبراه له وقال لهما : « سأقدم لكما المسرحية بعد أسبوع واحد » فأجابته المدموازيل وهي تؤنبه : « يالك من رجل يتعجل فراقنا »

وكانت المدموازيل جورج من حيث الغرائز والطباع تحاكي أهل روما الاقدمين ، فجعلت من عادتها أن تستحم كل يوم ، على أن هذه العادة لم تكن قد شاعت بين الناس حينئذ . هي عسيرة الرضا ، محبكة لكل أمر تتولاه . وأصبح دوماس الاب ، بفضـل خضوعه للعمل في سجنه المفروض عليه ، خبيرا بخلائقها ، فقال عنها في مذكراته انها كانت تحرص على أن تغسل جسدها كله بعناية فائقة من قبل ان تغوض في حوض الحمـام المملوء بماء صاف دافيء ،

وتمكث به ساعة كاملة . اذا جاءها زائر أذنت له أن يدخل عليها وهى فى الحمام واستقبلته بأرق ابتسامة ، وتظل تستمع الى ثرثرته عن آخر فضائح المجتمع ، وتعمد بين الحين والحين الى رفع ذراعها لتثبيت شعرها بمشبك من الذهب الخالص ، فتكشف كل حركة منها عن وضع جميل يتخذه جسدها وعن تجدد مفاتن رسمه ، ولو كان محلها امرأة أخرى لاثار لقاؤها فى الحمام انبهار زائريها ، ولكن المدموازيل جورج مجللة بهالة من البهاء والسمو ، متحررة من ضغط الانتباه للنفس ، لذلك فهى لا تثير فى قلب زائرها الأثير لديها اعجاب رجل دخل مخدع ممثلة جميلة ، بل اعجاب رجل يتأمل أبدع لوحة أو تمثال فى متحف اللوفر أو الفاتيكان .

وكان افتتاح هاريل لمسرح بوابة سان مارتان حدثا عظيما فى باريس . بدأ مسرحه الجديد أول موسم له يوم ١٠ ديسمبر أى بعد خيبة دوماس على مسرح الاوديون بأقل من شهرين ، وقام فردريك لومتر بدور ريتشارد دارلنجتون فملك اعجاب الناس وأثار دهشتهم ، واستطاعت مقدرته فى التمثيل أن ترفع هذه المسرحية الى قمة النجاح بالرغم من أنها مسرحية قاسية غير ناضجة . فحسنت أحوال دوماس الاب وان أسفر نجاحه عن مأزق جديد لابنه ، اذ كان بين الذين يشركهم دوماس الاب فى كتابة مسرحياته مؤلف اسمه بروسبير بارفيه جوبو ، وهو رجل يجمع فى خلط عجيب بين خصال المدرس وخصال المؤلف المسرحى ، فهو الى جانب اشتغاله بالمسرح يدير مدرسة داخلية يملكها اسمها « بنسيون سان فيكتور » بشارع بلانش ، فلا عجب أنه كان يديرها أسوأ ادارة . فلما توثقت المودة بين الرجلين بفضل اشتراكهما فى تأليف المسرحيات ، اقترح جوبو على صديقه أن يرسل ابنه لمدرسته . ان دوماس شديد الولع بادارة الكلام حول ابنه ، ولاشك أنه هو الذى أفاض فى التحدث الى جوبو عن ذكاء هذا الابن ووسامته ، وشكا له من المتاعب التى يلقاها فى تربيته بسبب انشغاله فى عمل مستبد بوقته ، ومعيشته غير الشرعية مع خليلته فى بيته . ولا شك أن جوبو أقبل عليه بكل قلبه وزين له وهو يطمئنه أن يدخل ابنه مدرسة سان فيكتور ، وأكد له أنه سيجد بها كل سعادة ورعاية ، وأن مدام جوبو ستعنى به عناية أم بولدها ، وبذلك تزول جميع متاعب الاب ويتخفف من مسئولية تنشئة ابنه . وخيل لدوماس انه اهتدى الى حل موافق ، ولم تمض سنة

واحدة حتى أسلم ابنه الى مدرسة صديقه .

وكان دوماس فى ذلك الحين قد اتخذ لنفسه خليلة جديدة اسمها ايدا فرييه ، وهى ممثلة ناشئة محبة للسيطرة ، فانه كما هجر من قبل كاترين لوباى وميلاتى والدور كان قد هجر أيضا بل كريبسامر ، ولم يشفع لها عنده ظرفها وجمالها ومرحها . هى أيضا كغريمتيها السابقتين أحبت دوماس أصدق الحب وبقيت مقيمة على حبه بعد فراقهما . أما أيدا فكانت لا تحب الا نفسها ، واضمرت العزم على ان تفعل كل ما فى وسعها لتجعل دوماس لا يجد من السهل عليه أن يهجرها كما فعل بسابقاتها . وأحبها دوماس حبا عنيفا لم تحل شدته دون احتفاظه بالبشاشة والمرح ، وتزاحمت عليه مشاغل أخرى صرفته عن التفكير فى ابنه .

فقد تفشى وباء الكوليرا فى باريس فى صيف ۱۸۳۲ . بقيت الشمس تسطع ببهاء فى سماء صافية ولكن المستشفيات غاصة بالمرضى . يسير فى الطرقات نعش اثر نعش . وكان دوماس قد كتب شركة مع مؤلف آخر مسرحية كوميدية اسمها «زوج الارملة» ، ولكنها مثلت فى مسارح خالية ، لان الناس كانوا يتجنبون الزحام. فلما رأى دوماس أن مورده من المسرح قد نضب عكف على تأليف رواية تاريخية اسمها « الغال وفرنسا » ولكنه أصيب بالكوليرا ذات يوم ، ثم لم يكد يدخل دور النقاهة ويستعيد قدرته على العمل حتى شرع فى تأليف مسرحية جديدة اسمها « قلعة نيل » اعتمد فيها على مسرحية سقيمة قدمها له هاريل ، وهى من تأليف شاب مجهول اسمه جابارديه . وقال له هاريل أنها فى اعتقاده مسرحية تتضمن قصة جيدة ، وطلب اليه تهذيبها ، فأعاد دوماس كتابتها وقدمت للجمهور على أنها من تأليف جابارديه وكاتب آخر رمز له بثلاث نجوم

قدم هاريل هذه المسرحية على مسرح بوابة سان مارتان واضطلع بالدورين الرئيسيين كل من المدموازيل جورج والممثل بوكاج ، فلقيت نجاحا فائقا وبهرت أهل باريس ، ولم يطل بهم الوقت حتى أدركوا حقيقة الاسم الذى رمز له بثلاث نجوم ، فليس فى فرنسا الا مؤلف واحد يستطيع ان يكتب مسرحية لها مثل هذه القدرة على تملك القلوب واثارة الدهشة .

ولكن هذه المسرحية التى تخلب الالباب عابها الميل الى العنف

والغلطة ، فأزعجت أغلب مشاهديها وأساءت الى سمعة مؤلفها . ثم ان جايارديه أقام دعوى ضد هاريل ، فلوثت القضية اسم دوماس . حقا ان هاريل هو الذى أثار النزاع ، ولكن دوماس المؤلف الناجح ، الراضى عن نفسه ، كان له أعداء كثيرون ، فانتهزوا الفرصة وشنوا عليه حرب اشاعات كاذبة ، أخبثها انه كاتب يسرق أفكار غيره .

وأطبقت عليه فى ذلك الوقت أيضا هموم ومتاعب بسبب الخلافات السياسية . انه رجل جرىء متهور لم يتورع منذ أن جلس لويس فيليب على العرش من الجهر بولائه للنظام الجمهورى . انه يخص هذا الرجل بمقته حين شغل وظيفة صغيرة فى قصره ، وقت أن كان يسمى بالدوق دورليانز ، ويمقته اليوم وهو ملك متربع على العرش . أما هوى قلبه فللملكات الشابات ، وكان عددهن غير قليل فى ذلك العهد ، فان كل ملكة شابة توحى له بأنها تعيش فى عالم رومانسى ، فهو ليس بالجلف حتى لا يتنازل عن مبادئه الجمهورية اكراما لعيونها ، ولكن عهد الملكية قد آذن بالزوال . ففى الايام التى ذاق فيها لذة النجاح ومرارة الفضيحة بسبب مسرحية « قلعة نيل » قامت فى باريس ثورة فاشلة . وكان دوماس لم يستعد عافيته بعد مرضه بالكوليرا ، فلم يتمكن من الاشتراك فى تلك الثورة ، ولكنه أخذ يجهر فى كل مكان بمناصرته لها . فاقترح الملك فى أدب جم أن يرحل دوماس من باريس بعض الوقت حتى يتفادى القبض عليه

حقا لقد لقى الملك من دوماس عناء شديدا منذ أن كان أصغر مستخدميه وأكبرهم غرورا وأكثرهم اثارة للمتاعب ، ولكن مسلك دوماس لم يمنعه فى يوم من أن يخص المؤلف الشاب بعطفه وتشجيعه ، حتى انه أخر موعد مأدبة ليصحب أسرته وضيوفه الى الكوميدى فرنسيز لمشاهدة افتتاح مسرحية دوماس الاولى ، ولم يمنعه تلقبه بلقب دوق ملكى من أن يهب واقفا ليصفق لمستخدمه الصغير حين ظهر على المسرح بعد اسدال الستار . ان الملك علم بأن دوماس رجل لطيف المعشر طيب القلب لا يضمر الشر . ابنه ولى العهد الدوق دورليانز صديق له ، والملكة تستدعيه وتستظرف مجلسه . ما جاءهم مرة الا وجدوا فيه نعم النديم الخبير بآداب حاشية الملوك . يعلوه البشر من فرط اعجابه بهم ، ولا يفوقه نبيل فى معاملة الملكة بهيام وحفاوة واحترام . ولكن الأوان قد آن لان يزجر قليلا

أمضى دوماس أيام نفيه فى سويسرا ، وسعى هناك لتقديم نفسه لكل من له مكان مرموق ، كالاميرة هورتنس بونابارت ومدام ريكامبيه وشاتوبريان وأفاض فى كتابة مشاهداته . وجاءه الاذن بالعودة الى باريس حين تطيب له نفسه ، فرجع واستأنف حياته بها كأن شيئا لم يحدث

كانت أيام المنفى ممتعة له ، ولكنه حين عاد الى باريس لم يجد بها الا المتاعب ، اذ لم يكف أعداؤه أثناء غيابه عن التنديد به ، وكان هاريل قد ألح عليه قبل سفره لسويسرا أن يؤلف مسرحية جديدة ، فلم يستطع أن يكتبها ومزاجه معكر ، ولجأ الى شريك يعينه على تأليفها ، وهكذا تعاون الاثنان على كتابة مسرحية تسمى « ابن المهاجر » وهى ميلودراما مثيرة للعواطف . ولم يكن دوماس راضيا عنها ، ولذلك نبه قبل سفره بضرورة حذف اسمه عند تمثيلها ، ولكن هاريل رجل لا يوثق به ولا يعتمد عليه ، فلم يأبه لرأى دوماس وأعلن اسمه ، ومنيت المسرحية بهزيمة مخجلة . وعاد دوماس الى باريس فوجد الصحف تسلقه بألسنة حداد ، وقالت صحيفة « الدستورى » أن موهبة دوماس قد ماتت الى الابد .

وجد دوماس اقبال الناس عليه انقلب صدودا ، وضاعت بينهم شهرته ، فمنذ تمثيل مسرحية « ابن المهاجر » دأبت الصحف على مهاجمته ووصفه بأنه منبع مسرحيات شنيعة دميمة . وفجأة خيل للناس أن صفحته قد طويت . اذا قابله مديرو المسارح فى الطريق زعموا انهم لا يرونه ، وكان الدكتور فيرون صاحب « مجلة باريس » يستجديه من قبل أن يجود عليها بمقالاته ، فاذا به يعرض عنه ويقول ان مجلته لا تتسع لنشر أعماله . منذ أشهر قليلة كان اسمه لا يذكر الا مقترنا بالتبجيل فأصبح اليوم مثارا للسخرية . لم يبق له الا أن يتفادى الظهور بين الناس الى أن يعتدل مزاج باريس المتقلبة الاهواء وترضى عنه من جديد . وقبع دوماس فى داره وعكف على انجاز كتب مختلفة كان قد بدأ تأليفها

انها فترة نحس أرهقته وصرفته عن العناية بابنه ، فأسلمه الى مدرسة مسيو جوبو وبدأ دوماس الصغير حياته بها

ان مسيو بروسبير بارفيه جوبو — بشهادة كل من كتب عنه من معاصريه — هو رجل حظى فى زمنه ، فيما يبدو ، باحترام الناس واعجابهم . يقولون عنه أنه بارع لطيف المعشر وصاحب اسم مرموق فى ميدانى التعليم والمسرح الدرامى . ولكننا اذا استرجعنا اليوم

سيرته لا نجد فيها مما يستحق الاعجاب الا النزر اليسير . انه لم يكتسب شهرته الا بفضل مسايرته للتقلبات السريعة فى أذواق الجماهير وأهوائهم العارضة . لا جرم انه أخفق فى ادارة مدرسته ، وهيهات لنا اليوم أن نتصور حالها . لقد أبى لها صاحبها الا أن تغرق فى جو مسرحى ، ومع ذلك بقيت تخيم عليها الكآبة . مناهجها عتيقة جافة . وكان المسيو جوبو فى الليالى الاولى لتمثيل مؤلفاته يسوق الطلبة القدماء الى المسارح ليصفقوا له ، ولا ينقطع عن دعوة الكتاب والممثلين لزيارة المدرسة . وكان الممثل فردريك لومتر قد أرسل أولاده لتلك المدرسة بعد قرابة سنتين من التحاق ألكسندر الصغير بها ، فجعل من عادته أن يأتى لزيارتها ، يمشى مشية الخيلاء ، وما يكاد يدخل من الباب حتى ينادى على مسيو جوتو بلهجة مسرحية وبصوت لا يباريه فيه أحد . ووجد جوبو نفسه غارقا فى أشغاله المسرحية فعين مديرا مساعدا له ، هو رجل ، ان يكن فظا غليظ القلب مجبولا على القسوة والظلم ، فانه قبل أن يسهم بنفوذه فى ادارة المدرسة ويصبح شريكا لصاحبها ، وكانت المدرسة تعانى حينئذ ضيقا ماليا ، فلم يجسر جوبو أن يحتج على أعمال شريكه أو يقدم على طرده من المدرسة واكتفى من قبيل التكفير عن سيئاته بالتلطف مع التلاميذ كلما قابلهم ، وكان لا يقابلهم الا مرات قليلة يخيل له بعدها أنه أراح ضميره

ذهب دوماس الصغير الى المدرسة وهو صبى مكتمل القوة والعافية ، فلم تمض شهور قليلة حتى ساءت حاله ، وكاد من فرط سقمه أن تخطئه عين من عرفه من قبل . يقيم فى تلك المدرسة الكئيبة ، فى فوضى بلا ضابط أو نظام ، مائة تلميذ عفريت مشاغب ، فلم يبق للضعيف أو الصغير بينهم الا أن ينزوى خائفا فى الاركان . من المألوف أن تشب بين التلاميذ معارك حامية الوطيس ، يشهدها الاساتذة بعين غافلة . يستبد التلاميذ الكبار برفقائهم الصغار ويضطهدونهم ، فكان التلميذ الضعيف أو الحساس ضحية عدوان مزدوج : مرة من أساتذته ومرة من رفقائه الكبار . الطعام قليل ، وليس هناك من يجشم نفسه مشقة توزيعه بالعدل . وكان الفساد الخلقى شائعا فى المدرسة أيضا

هيهات لنا اليوم أن نصدق وجود مدرسة كالتى وصفناها ، ولكن أمثال هذه المدرسة لم تكن من النوادر فى تلك الايام ، فنحن نعلم

أن شارلوت برونتي ، وهي من جيل دوماس الصغير ، دخلت مدرسة « كاون بريدج » فكادت تتمزق من شدة الحنق من سوء ما لقيته بها ، وماتت بهجة الطفولة في قلبها ، شهدت بعينيها كيف عذبت هذه المدرسة أختين لها كادت تشرف كل منهما على الموت . وهكذا كان شأن شارلز ديكنز في صباه أيضا . انه عهد كان يفحص الناس فيه أعينهم على ما يعانيه صبيان المدارس من قسوة وسوء معاملة ، ولم يكن هناك أحد يعنى بحماية الضعيف من ظلم القوى

لم يكف دوماس الصغير طول حياته عن الارتجاف رعبا كلما ذكر المدرسة ، ولكنه لم يرو كتابة حياته بها الا مرة واحدة ، نجدها في قصة « قضية كليمنسو » التي أصدرها أول مرة سنة ١٨٦٦ ، فالفصول الاولى من هذه القصة مستمدة من واقع حياته ، وقد روى فيها تجارب ابن غير شرعي في المدرسة ، وحين يعمد الكاتب الى الاقتباس من تجاربه في تأليف قصصه لا يتحتم علينا بطبيعة الحال أن نصدق كل كلمة يقولها ، فمن المألوف في مثل هذه الاحوال ان يدلل المؤلف على بعض التفصيلات من التغيير والتبديل ما يرضى مطالب قصته كما رسمها خياله ، ثم ينبغي الا ننسى ان دوماس كتب هذه القصة بعد ثلاثين سنة من وقوع الحوادث التي يرويها ، فوصفه انما هو الاثر المتخلف في نفسه من تجاربه المريرة في المدرسة. ولن يتأتى لنا أن نعرف مبلغ الصدق في ذكره للتفاصيل ، ولو سئل هو هذا السؤال لما رضى في أغلب الظن أن يجيب عنه . ولكنه ولا شك أودع قصته من الحقائق لبابها ، وهي وان خالفت أحيانا كثيرة وقائع قصته الخيالية ، فان تجاربه الذاتية مطابقة لها ومصداق عليها ، بدليل اثرها البالغ في طبعه وخلقه

ان الكسندر صبي حساس ، متقد العواطف ، لا يعرف بعد كيف يكتمها . وكم بكى في تلك المدرسة الكئيبة الظالمة التي أهدرت المثل الانسانية ، بكى من الحسرة على حرمانه من عشه في ضاحية باسى . زملاؤه التلاميذ ، وهم أجلاف غلاظ الطبع ، يجدون أشهى شيء على قلبهم أن يلاحقوه بضحكات ملؤها الهزء والسخرية ، يهتزون طربا لو وجدوا في درعه منفذا لسهامهم ، وتتلمظ شفاههم توقعا لفرص كثيرة في المستقبل تتيح لهم أن يتندروا بعواطفه الرقيقة

وأغلب هؤلاء التلاميذ أبناء أسر موسرة محترمة ، على حين أن الكسندر كان قد تطبع بخصال الطبقة الفقيرة الكادحة . وتروى لنا قصة « قضية كليمنسو » تجارب أول يوم له في المدرسة . جاء

مجلسه فى الفصل الى جانب تلميذ خبيث شرير ، فلوث له ملابسه بالحبر عمدا ، فثار غضب الكسندر ولكم على الفور خصمه . انه خبر منذ مولده كيف تشقى أمه من أجل أن تكون له سترة يرتديها ، انها تسهر على تفصيلها له بيديها ، وتهلك نفسها فى العمل لتكسب ثمنها ، لذلك أحس بغريزته أن تلويث ملابسه بالحبر نكبة كبرى ، فهجم على زميله والتحم الاثنان فى عراك خرج منه منتصرا . وكان من سوء حظه أن خصمه المغلوب ، واسمه أندريه ، صبى حقود محب للانتقام فلم يغتفر أبدا لألكسندر انتصاره عليه ، وظل يرقب فرصة يثأر فيها لنفسه

ولم تغب عنه هذه الفرصة طويلا ، فان الكسندر الصبى الغرير ، كان يفتح قلبه لرفقائه ويتحدث بصراحة عن شئون أسرته . لم يتردد فى اخبارهم أن أمه تعمل بيديها للانفاق عليه ، وانها تسمى كاترين لوباى ، وأنها لا تعاشر أباه . لم يكن يخامره حينئذ أقل شك يوسوس له أن وضعه فى الحياة شاذ ، وانه مقصى ، بسبب مولده غير الشرعى ، عن المجتمع الذى يقنن ويحتكر الشرف واحترام الناس . فكان زملاؤه ممن يفوقونه فى السن والخبرة يقابلون كلامه بضحكات ساخرة ، ويمضى تلاميذ آخرون بالخبر الى أمهاتهم حين يذهبون لزيارتهم فى عطلة الاسبوع ، فكان ذكر اسم دوماس وحده كفيلا بأن يرتجفن من شدة الاشمئزاز ، اذ كانت الألسنة تلوك سمعة أبيه وتندد بفضائح حياته الخاصة وباخفاق مسرحيته . حياته ومسرحيته ، كل منهما أسوأ من الاخرى . لم يكن شيمة المجتمع فى ذلك العهد ولا من خصال الطبقة المحترمة أن يوصى انسان أولاده بالميل الى الرفق والرحمة . فلم يسمع رفقاء دوماس الصغير من آبائهم كلمة تحضهم على مد يد الصداقة الى التلميذ الجديد ، فعاملوه باستعلاء ليدرك انه أحط منهم ، وانه منتم الى طبقة منبوذة ، وليس لمثله مطمع فى الفوز بصداقتهم . وسارع أكثر رفقائه شراسة الى ملاحقته بالتحقير والتعيير ، وبذلوا كل ما فى طوقهم ليعيش فى غم ونكد ، يتحسس وصمة مولده . ويقول الكسندر فى قصة « قضية كليمنسو » : « أتعرف ما هو أول شىء تكشف لى من طبائع الانسان كما ألفتها بين رفقائى فى المدرسة ممن يقال عنهم أنهم فى سن البراءة والطهارة ؟ انه طبع الظلم والقسوة .. »

ووجد أندريه فى هذه الملابسات ما يعينه على تدبير الحملات

والمؤامرات ضد دوماس الصغير . واستيقظ الصبى المسكين الحائر ذات يوم فاذا به لا يكلم زميلا الا قابله بصد واعراض ولا يرد عليه . انه « المنبوذ » الذى لا يخالطهم ولا يخالطونه . تجاهلوه وأعرضوا عنه أياما طوالا . ثم لم يكتفوا بذلك ، بل تفننوا فى تعذيبه بعديد من الوسائل الصغيرة ، وتولى أندريه زعامة الحملة العدائية ، وانضم اليه الاجلاف من رفقائه ، وسايرهم بقية التلاميذ ، مراضاة منهم لهؤلاء الطغاة ، والا ظلوا صامتين لا يجرؤ واحد منهم على أن يفتح فمه بكلمة احتجاج أو اعتراض . وحدث ماشئت عما لقيه دوماس ضحيتهم من ركل الاقدام وقذف بالحجارة وسرقة كتبه من درجه . لا يكلف الاساتذة أنفسهم مؤونة فض المعارك التى تنشب بين التلاميذ ، بل يسارعون الى نفض اليدين منها ، تاركين لهم انهاء النزاع بالطريقة التى تروق لهم ، فلم يتدخل أستاذ واحد لحماية الكسندر ، اذ الكلمة العليا فى هذه المدرسة التى تسودها الفوضى هى التلاميذ . وما أسهل طرد الاستاذ من المدرسة اذا غضب عليه جماعة أصحاب النفوذ بين التلاميذ . ولكن أستاذ الفصل — وهو رجل مسكين محتقر مغبون — خص الصبى ألكسندر بعطفه ، وان جبن عن فتح فمه للدفاع عنه . وكان ينفرد به وقت الفسحة بين الدروس ويجاذبه أطراف الحديث كما كان يبذل له فى الفصل مزيدا من الجهد ليعينه على التمكن من فهم دروسه . وكان من الافكار التى ابتدعها مسيو جوبو أن يأخذ كل تلميذ قطعة من ارض المدرسة يزرعها ليجعلها حديقته الخاصة به ، ولكن هذه الفكرة — كبقية أفكار مسيو جوبو — لم تسفر عن شىء ، فقد قسمت الارض ، وطلب ثمانون من التلاميذ أن يتسلموا نصيبهم ، ولكن لم يتأت لهم أن يزرعوه لان بقية التلاميذ — وعددهم لا يزيد عن العشرين — كان من حقهم أن يدوسوا هذه الارض بأقدامهم ، كما جعلوها ميدانا لمعاركهم أو ألعابهم المخربة ، فتقدم ألكسندر — مدفوعا بنصيحة أستاذ الفصل — الى مسيو جوبو يستأذنه فى أن يمنحه نصيبه من الارض الجرداء ليزرعها ويتخذ منها حديقة له ، فاستجاب له الرجل الضعيف اللطيف المعشر ومنحه سؤله وهو بادى السرور والانشراح وقال بلهجته الخطابية أن لا شىء يسعده أكثر من أن يرى تلاميذه يصرفون أوقات فراغهم فى مثل هذه الاعمال البسيطة النافعة معا ، وأذن للصبى بأن يحصل على مطلبه من الادوات والبذور ، وطلب من بواب المدرسة أن يعينه.

ووجد ألكسندر فى زرع حديقته متعة كبيرة لنفسه ، أتاحت له —

هي وحديثه مع البواب — أن يتغافل عن مقاطعة رفقائه له ، ولكنهم لم يرضـــوا لحملاتهم عليه ونبذهم له أن يؤدي ذلك كله الى تمتع ألكسندر بقسط من السعادة أو بالقدرة على اغفالهـــم ، فلم يكد البواب يدير لهم ظهره ذات يوم حتى أقبلوا على الحديقة يدوسونها بأقدامهم ويخربونها بعنف شديد ، ثم شغلوا انفسهم في اختــراع وسائل أكثر ايلاما وايلاما لتعذيب الكسندر ، فكانوا يقلقونه بالليل حتى يمتنع عليه النوم ، وكثيرا ما وجد فراشه مبتلا بماء صب فوقه فلا يبقى له مفر من أن يرقد عليه وهو صامت يرتعش الى أن يسلمه الاعياء الى النوم ، وكان رفقاؤه يوقظونه في الصباح أحيانا كثـيرة بقذف رأسه بكل ما وصلت اليه أيديهم . وكان التلاميذ يطغون على الخدم طغيانهم على الاساتذة ، فأجبروهم على أن يجعلوا ألكسندر آخر تلميذ يقدمون له الطعام ، وأن يتركوا سابقيه يأخذون منـه ما يشاءون بحيث اذا وصـــلت الصحون الى الكســـندر وجدها فارغة . وكان غذاؤه في أغلب الايام مقصورا على الخبز والمــاء

لم يجد أحدا يلوذ به فيمد له يد العون . فالى من يلجأ صبي في سن التاسعة يعيش في جحيم من اضطهاد رفقائه له ؟ لعـله اذا تحدث بهمومه الى من هم أكبر منه سنا لم يصدقه أحد منهم ، فلا يبوء الا بمزيد من انتقام رفقائه جزاء له على وشايته بهم . وكان الكسندر لا يتراجع عن تأديب رفقائه ومنازلتهم ولكنهم كانوا يتكاثرون عليه ويكيلون له الضربات ، فآثر أغلب الوقت أن يلوذ بالصمت ، وحبس دموعه الى أن يخلو بنفسه . كان يتعلم حينئذ كيف يتكتم أفكاره ومشاعره ، مرسيا بذلك دعائم خلق التحفظ الذى التزمه في رجولته

ركبه السقم وكف عن النمو . تورد خدبه انقلب الى شـــحوب . هزل جسمه وانطفأ لمعان عينيه . ان أباه غارق في مشـــاغله ، ليس لديه وقت للعناية بابنه ، فلا عجب أن أحس الصبي بأن أهله قـــد تخلوا عنه ونفضوا منه اليدين . كان يستيقظ كل صباح وقلبـــه ممتلىء بالرعب ، يدق أحيانا كثيرة بضربات عنيفة تكاد تخنقه . لعل مضطهديه كانوا قلة بين التلاميذ ، ولكن المدرسة كلها لم تحرك ساكنا وهي تشهد راضية عذابه . عرف ذهنه الصغير قبـــل الاوان كيف يستخلص العبر ، وألقيت فيه بذرة التشاؤم الذى لازمه طول حيـاته وجعله سيء الظن بطبيعة الانسان وبالمجتمع البشرى ، وأدرك كيف ينجح الاشرار بفضل غلبة الجبن وعدم المبالاة في مجتمـع تسوده الفوضى ويعدم يدا حازمة تقوده وتسدد خطاه . ان أباه رجل يساير

الايام ، غير عسير القياد ، أمضى شبابه رغم فقره خاليا من الهموم . اما هو فمختلف عنه . شب يمقت الديمقراطية ولا يعجب الا بنظام حكم ينفرد فيه بالسلطان فرد حازم .

واخيرا بلغ تعذيب رفقائه له حدا أزعج أستاذ الفصل ، فاضطر الى التدخل ، اذ حدث ذات يوم أن ألقوا بحبل فى طريقه وهو نازل على السلم فتعثرت به قدمه وسقط وأصيب بجراح بليغة . وصل الخبر الى مسيو جوبو فعاقب التلاميذ الخائفين من أثر فعلتهم عقابا شديدا

ومضت أيامه بعد هذه الحادثة فى هدوء وسلام ، فلم يحرمه رفقاؤه من النوم والطعام وزراعة حديقته ، وبدأوا يتحدثون اليه ، ومع ذلك لم يعامله التلاميذ معاملة واحد منهم ، لان سمعة أبيه تنزل من قدره فى نظرهم ، فكانوا لا يتورعون . بقيادة أندريه . من التلميح له بمولده غير الشرعى حتى أرهقه الشعور بأنه مذنب . لابد أنه ارتكب جرما شنيعا مخجلا لا يباح به . ولكن كيف ؟ انه مهما أجهد ذهنه عاجز عن تصوره ، ولكنه يحس أن هذا الجرم المجهول لا يرضى الناس عنه ولا يخالطون صاحبه . وأخيرا أدرك أنه لم يولد مولدا شريفا كرفقائه . ولكن كيف يدرك ذهنه الفرق بين مولد شريف ومولد غير شريف ، لم يتأخر رفقاؤه فى تلك المدرسة التعيسة عن انارة بصيرته ، ولكنهم رسموا لجرمه صورة حملوها كل ما قدروا عليه من تشويه للحقائق وتلذذ بالفضائح ، اذ كان من شأنهم أن يصرفوا وقت فراغهم — اذا لم يجدوا ضعيفا يضطهدونه — فى اشباع شهواتهم .

ان كانت انجلترا تقول بفخار أن نصرها فى موقعة واترلو تحقق لها أولا فى ميادين الالعاب الرياضية بجامعة ايتون ، فان دوماس الابن عاجز عن أن يأتى بمثل مشابه به ينطبق على بلاده ، بل انه على العكس آمن بأن فرنسا خسرت أخلاقها فى مدارس صبيانها ، وكتب يقول : « هل يدهشكم انحدار خلقنا الى وهدة الرذيلة وفقدان الايمان والفساد؟ اذن فادخلوا أول مدرسة للصبيان تصادفكم ، وانزلوا من السطح الى الاعماق وحللوا دفائنها . حينئذ تنقطع دهشتكم . ان المنبع مسموم . »

وكان دوماس الاب قد أسكن معه ابدا فيريه لتكون ربة بيته . انها امرأة جشعة غير متساهلة . الفضل فى سلطانها على الرجال راجع الى شدة عزمها واعتدادها بنفسها . الكبرياء أبرز صفاتها ، ولكنه كبرياء يختلف عن كبرياء كاترين لوباى أو المدموازيل جورج ، انما كبرياؤها مبعثه غلوها فى الاعتزاز بنفسها والحفاظ على كرامتها .

لها طبع الديكتاتور المستبد الذى لا يقبل من احد الا الخشوع بين يديه . انها لا تصفح أبدا عن انسان يعاملها بغير احترام . وكانت بسبب هذا الطبع شديدة الاهتمام برأى الناس فيها . وكان يسرها ان يعلموا جميعا أن دوماس ملك لها وحدها . اذا خالطت المنتديات فما أرقها واظرفها ، فاذا عادت الى البيت فما أفظع حدة طبعها وغيرتها من كل انسان يستلطفه عشيقها . ولما أدركت أن دوماس يحب ابنه ، أصبحت تمقت هذا الابن كل المقت . لم تكتف برفض مجيئه الى البيت ، بل حرمت ذكر اسمه على مسمع منها ، فاضطر الاب اذا زار ابنه أن يزوره سرا من وراء ظهرها .

وملأت المرارة حياة الكسندر الصغير حتى فاضت . وكانت ذروة تعاسته علاقة أبيه بهذه المرأة التى لا قلب لها . انه وان كتم عن الناس شئونه الخاصة ، فانه ذكر ابدا فيريه مرة واحدة لم تتكرر . قال عنها ذات يوم : « ما أشد الارزاء التى لقيتها وأنا صبى على يد المدموازيل أيدا »

الفصل الرابع

أعوام المدرسة الطوال

كانت سنة ١٨٣٣ تتابع خطـــواتها ، لم يتسن لدوماس الابن فى شهورها الاولى أن يرى أباه كثيرا ، لان دوماس الكبير بقى معتكفا فى بيته غارقا فى عمله . ولكن ما كاد الصيف يقبل حتى كان الجمهـور قد نسى حملاته على مسرحيته « ابن المهاجر » . وكان دوماس قـد نشر كتابا عن رحلته الى سويسرا فلقى رواجا كبيرا ، وبدأ يؤلف مسرحية جديدة اسمها اسم بطلتها « أجيل » ، فأذن لنفسه بقسط من الراحة والاسترخاء وسط عمله ، فاتسع وقته لان يزور ابنه فى عطلة نهاية الاسبوع ويصحبه فى جولة خارج المدرســـة لســاعة أو ساعتين . يطالعه فى ابنه صبى شاحب اللون ، عاقد لســـانه ، لا ينبس بكلمة تنبىء عن شكواه مما يعانيه فى المدرسة . زار فى صحبة أبيه مراسم المصورين ومنازل المؤلفين ، واستمع الى أحاديث كثيرة يتبادلها رجال عندهم ما فاته من علم وتجربة ، وقابل أيضا فى مقاهى قلب العاصمة الكاتبين نستور روكبلان وأيوجين سو ، كلاهما مشهور بين الناس بفرط أناقته وترفه ؛ وذهب لزيارة ألفريد دى فينى الذى يسوده الهدوء والنظام ، اذا اجتمع الناس عنده لا يتكلمون الا همسا ولا ينطقون بلغو أو بكلمة نابية ؛ وأنه يلتزم فى مسلكه مسلك أمير من الامراء ، وينأى بنفسه عن التبذل والصغائر ، ان وضــع البســاطة والتواضع فى كفة فانه يضع فى كفة أخرى التزامه الشديد للتحفظ وحرصه الاشد على مراعاة مراسم التأدب المصطلح عليها بين الناس . كان يتخذ من مارى دورفال عشيقة له ، ومع ذلك لم يكف عن احاطة زوجه بأقصى ما يقدر عليه من رعاية ومجاملة . انه وان اختلف طبعه أشد اختلاف مع طبع دوماس فان ذلك لم يمنعه من أن يفسح له من صداقته واعجابه . يجلسان وحدهما أحيانا أو فى صحبة نفـر من الادباء أحيانا ، ويدور حديث لم تعد أيامنا الحاضرة تعهده . يبـــدأ الحديث عن الفن باعتباره الهم الاول الشاغل للرجـــل المتحضر ، ثم ينتقل الى الطبيخ واصناف المأكولات ، ثم الى المذهب السياسى المثالى الذى ينادى به أنصار سان سيمون . هيهات لكر السنين الطوال أن تنسى ألكسندر شعوره وهو صبى جالس فى صالون دى فينى تطالع

عينه ظرفه العجيب وأناقته وأبهته وتشبهه بصالون فى قصر التريانون وأثاثه البديع المصنوع وفق طراز قديم . الصمت المخيم لا يخل به همس الحاضرين . يقيس الوقت رنين أجراس فضية بنغم حلو من ساعة مثبتة فى بيت من البللور . ساعات هى أطول ساعات باريس لصبى طلب اليه أن ينصت ولا يفتح فمه . مدام دى فينى جالسة بمعزل عن الرجال ، منصرفة الى ثوب تخيطه ، ثم تقوم بين الحين والاخر لتشرف على شئون دارها ، فاذا همت بالقيام نهض الفريد دى فينى لفوره من مقعده وأقبل عليها وتناول يدها ومشى بين يديها الى الباب . يفعل هذا أيضا حين تعود . فيسرع الى لقائها على باب الصالون وينحنى أمامها ويقودها من يدها الى مقعدها كما قادها من قبل الى الباب ، ملتزما آداب الملوك وحركة حاشيتهم من النبلاء . وكان تيودور دى بانفيل يقول : « هذا صالون لا يدخله جلف أو أحمق . » فلم يكن أحد من الحاضرين يدهش لمسلك دى فينى مع زوجه .

ومرت سنة ١٨٣٣ دون أن تعكر صفوها أحداث خارجية . فقصر أهل باريس اهتمامهم على مدينتهم التى هى فى نظرهم قلب العالم كله . وأقيم فى تلك الايام تمثال لنابوليون فوق العمود القائم وسط ميدان فندوم ، فكان سببا لاثارة أشجان المدموازيل جورج . وكانت مسرحية فيكتور هوجو الجديدة المسماة « لوكريس بورجيا » قد عقدت فى مطلع العام لواء النصر لمسرح بوابة سان مارتان ولممثلته الاولى المدموازيل جورج ، وساقت هذه المسرحية لفيكتور هوجو أيضا عشيقة جديدة فائقة الجمال هى جوليت درويه ، وكانت تخادن منذ زمن قريب المثال براديه . ان أردت أن تعرف اليوم صورتها فاذهب الى ميدان الكونكورد واستعرض التماثيل القائمة فيه والتى ترمز لمدن فرنسا ، ثم قف عند تمثال مدينة ستراسبورج وارفع بصرك اليه ، فان براديه قد صنع هذا التمثال على هيئة جوليت درويه . انها أمدت فيكتور هوجو فى السنوات القليلة الماضية بفيض من العواطف المتقدة التى يزكو عليها نظم الشعر . وكذلك كان « ليست » قد وقع فى حب جديد ، فان هذا الملحن الرشيق الوسيم الملتهب العواطف عشق الكونتيس داجو ، وقرن فى قلبه بين حبه وصادق تقواه وورعه حتى آمن أنه أصبح لا يتطلب من الحياة الا ان يخلو لنفسه ويحلم بصاحبته . انها عنده فى مقام بياتريس عند دانتى . وكذلك كانت الكاتبة جورج ساند قد نجحت بفضل مضاء عزمها المعروف عنها فى أن

تستحوذ على ألفريد دى موسيه . ولكن أخبار هؤلاء العشاق لم تكن أثارت بعد تطلع الناس وعجبهم . اذ كان الخبر الذى شاع بينهم وحرك اهتمامهم هو عن هيكتور برليوز الذى تجدد بعد ست سنوات حبه القديم للممثلة الايرلندية هاريت سميثون التى رآها من قبل تقوم بدور أوفيليا فى مسرحية هاملت . هى أيضا عنده فى مقام أوفيليا عند هاملت . وتسامع الناس أنه قرر الزواج بها وعجبوا لهذا الحب الذى بدأ بعاطفة كلها حزن ويأس وتمزق كيف يرضى لنفسه أن يلقى هذه الخاتمة الباردة المجوجة . ان أنصار الرومانسية لا يرون بعد أن شهدوا جمال هذا الوله فى فصوله الاولى سنة ١٨٢٧ أن يكون الزواج هو خاتمته التى ينزل عندها الستار ايذانا بانتهاء مسرحية بديعة ، وبخاصة أنها كانت بطلة الدراما ، لم يعشقها حبيبها فى مبدأ الامر الا لانها بدت لعينيه فى صورة أوفيليا حين قبلت دورها .

ونجح هاريل فى أن يجعل مسرح باب سان مارتان يسبق بقية المسارح بفضل طابعه العصرى حتى أصبح التردد عليه من علامات الانتماء للطبقة التى تحدد للمجتمع ذوقه ويهيم الناس بتقليدها . وكذلك ضم هذا المسرح خير ممثلى فرنسا : فردريك وبوكاج ، ثم انضم اليهما فيما بعد الممثل البارع ميلانج الذى لمع اسمه أيضا رساما ونحاتا . هذا عن الرجال ، أما عن النساء فمن بينهن الممثلة دورفال التى فاقت كل زميلاتها بموهبتها الرائعة ، ثم المدموازيل جورج التى بقيت متربعة على عرش مجدها منذ أن دوى انتصارها فى تمثيل مسرحية « قلعة نيل » . أصبح شبان الفنانين فى باريس يقدسونها ولا يطلقون عليها الا لقب « ربة المسرح الحديث » . ومما أعان على احاطتها بهالة من الرومانسية أن التشيع لنابوليون كان قد عم بين الناس ، وأصبح اسمه أسطورة قومية ، فلم يكن من شأن هذا النجاح كله أن يجعلها لينة الجانب يسهل معها الاخذ والعطاء . حقا انها كانت من قبل محبة للسيطرة ، أما اليوم فانها أصبحت مثل عشيقها السابق الكورسيكى مفرطة فى التحكم والاستبداد ، واستلزمت أن يعاملها الجميع معاملتهم الملكة متوجة ، فاذا خرجت من حجرة ملابسها فى المسرح أبت الا أن يسير أمامها مديره مسيو موسار بنفسه ، يمشى على مهل ويقرع الارض بعصاه اجلالا لها وتنبيها بمقدمها . وكانت لها الكلمة العليا التى لا ترد فى كل أمر يتعلق بالمسرح . الغيرة تأكل قلبها وبخاصة من دورفال التى لحقتها اهانات عديدة من يدها . ولم تضمر المدموازيل جورج الود أبدا للممثل فردريك لومتر ، وكان يسرها

ان تكايده وتغيظه . ان دورفال عاجز عن رد الاهانة ، أما فردريك فليس بالرجل الذى يحنى رأسه أمام العاصفة . كم من مرة أخذها بين أحضانه على المسرح وبثها لواعج قلبه ، فاذا نزل الستار عن كل منهما مضى لتدبير المكائد لخصمه .

ان جو المسرح معروف بعواصفه ودسائسه . وزادت فى شهر يونيو حدة العراك بين لومتر والمدموازيل جورج وهاريل . كان يشترك حينئذ هو ودورفال فى تمثيل مسرحية جديدة من تأليف المركيز دى كوستينى ، واستطاع هاريل المعروف بالمضى فى المساومة أن يفوز بأكبر غنم يقدر عليه ، استطاع أن يحمل المؤلف على أن يدفع نفقات اخراج مسرحيته فى صورة غنية فخمة . ونجحت الحفلة الاولى نجاحا باهرا وبلغت دورفال قمة النصر ، فثارت المدموازيل جورج ثورة عنيفة . واكدت غريمتها انتصارها فى الليلتين التاليتين مما كان يبشر بأن أمد عرض المسرحية سيطول . وفجأة أصدرت المدموازيل جورج أمرها بوقف تمثيلها . ولما غضب المركيز دى كوستين واحتج لم يجد غضبه واحتجاجه قيلا ، واجتمع الحزن والمرارة مع خيبة الامل فى قلب دورفال فهجرت المسرح ومضت تبحث لها عن عمل فى مسرح آخر ، فوقع على عاتق لومتر وحده أن يدمغ هاريل والمدموازيل جورج بالوصمة التى يستحقانها ويجهر بالحق فى وجهيهما ولم يكتف بالكلام بل أضاف اليه تبادل اللكمات ، وخرج هاريل من هذا العراك مهزوما لم يكن لومتر أشد قوة من غريمه ولكنه كان أكثر منه شجاعة وأسرع تسديدا للكماته . ترك هاريل محطما ومضى على عجل صافقا الباب وراءه بعنف . وهكذا ظفر أهل باريس بخبر فضيحة جديدة يشيعونه ويتندرون به

لم يلحق هاريل على الفور ضرر كبير بسبب هذه المتاعب ، اذ كانت الدراما الرومانسية هى هيام العصر ، وكان هاريل مقصد كبار مؤلفى هذا النوع من المسرحيات فيزدحم مسرحه ليلة بعد أخرى ، على حين ظل مسرح الكوميدى فرنسيز يقدم مسرحيات كلاسية أمام مقاعد خالية من الناس . وكتب دوماس فى نهاية العام مسرحيته الجديدة « أنجيل » ومثلت على مسرح باب سان مارتان فلقيت نجاحا عظيما . وفى مطلع سنة ١٨٣٤ كان مسيو تيير المؤرخ الشهير وزيرا للداخلية فى فرنسا المسئول عن المسارح ، فضاق ذرعا بالافلاس الذى يعانيه مسرح الكوميدى فرنسيز بسبب التزامه تقديم مسرحيات كلاسية لا يحضرها الجمهور ، فاستدعى دوماس الى مكتبه بوزارة الداخلية

وأبلغه أنه قرر تقديم سلسلة من أعمال حديثة غير كلاسية على مسرح الكوميدى فرنسيز واقترح عليه أن تبدأ هذه السلسلة بمسرحيته « أنطونى » . وينبغى الا ننسى أن الحركة الرومانسية كانت حينئذ لا تزال تلاقى معارضة شديدة ، وكانت الطبقة البورجوازية المحترمة تمقت دوماس كل المقت بسبب جراة مسرحياته وخروجها عن المألوف ، فقدم بعض أعضاء مجلس النواب فى الليلة السابقة لتمثيل المسرحية لوما مريرا للحكومة بسبب القرار الذى اتخذه مسيو تيير بشأن مسرح الكوميدى فرنسيز ، وثارت فى المجلس حملة عنيفة ضد الحكومة بلغ من شدتها أن الوزير اضطر الى التراجع وأصدر أمره بوقف تمثيل مسرحية دوماس . وعمدت صحيفة « الدستور » المعروفة بعدائها لدوماس الى نشر مقال تسبه فيه أفحش السب . وقرأ مسيو جوبو هذا المقال فنادى على ألكسندر وسلمه نسخة من الصحيفة وطلب اليه أن يحملها الى أبيه فى بيته . يآلها من مهمة بغيضة ويالها من زيارة انقبض لها قلبه ، اذ كان الصبى لا يملك أن يطيل مكثه فى بيت تسيطر عليه ايدا فيريه . فلم يطل غيابه عن المدرسة وعاد اليها مسرعا وهو حزين كسيف .

واذا كان الكسندر لم يغب عنه فى الشهور القليلة التالية شىء من انباء أبيه فانه لم يجد من بينها ما يطمئنه على أحواله . انه حصر فى أغلب الاحتمال مسرحية أبيه الجديدة المسماة « كاترين هوارد »وشهد كيف لم يكتب لها النجاح ، وسمع ولا ريب أنباء النزاع بين أبيه والكاتب الناشىء جايرديه الذى ألف النص الاول لمسرحية « قلعة نيل » وكان قد كتب مقالا فى الصحف أكد فيه أن المسرحية كما رآها الجمهور هى من تأليفه وحده ، ولا فضل لدوماس فيها ، فرد عليه دوماس بمقال اخر أصر فيه على أن هذا النص الذى شهده الجمهور لا يمت بصلة بعيدة أو قريبة الى النص الذى كتبه جايرديه. فسارع جايرديه الى تكذيبه والاحتجاج عليه . وانتهى هذا التراشق بالتهم بأن طلب دوماس الى جايرديه فض النزاع بالمبارزة . وتقابل الخصمان للمبارزة فى أحد أيام شهر أكتوبر وأطلق كل منهما الرصاص على خصمه دون أن يصيبه . وبعد ذلك بقليل غادر دوماس أرض فرنسا لقضاء أجازة خارج حدودها .

وبقى الكسندر فى المدرسة يواجه من رفيقه أندريه عداء لا يخمد أواره . انه دائم التنقيب عن كل وسيلة تتيح له اهانة الكسندر واغاظته وتنغيص حياته ، وواتته الفرصة ذات يوم ، ذلك أن رفقاء

إندريه كانوا يعلمون مقدار حبه لامه وتعلقه بها ، وكانوا يتندرون بهذا الحب ويسخرون منه ؛ فبدأ أندريه هو وزمرته الخبيثة فى اختلاق روايات عن كاترين لوباى والتحدث بها على مسمع من الكسندر تصف هذه الروايات حياة أمه بأنها مليئة بالفجور والفحش ، يقولون هذا الكلام ثم يقهقهون بطرب وسرور . واذا فتح الكسندر درج مكتبه وجد به رسوما بذيئة اسم أمه مكتوب عليها ، فاذا خرج من الفصل مر بجمع من التلاميذ يتكتمون الضحكات ويتبادلون الهمس ، ولكنهم لا يتركونه يبتعد دون أن يصل الى سمعه نطقهم باسم أمه . وذاعت هذه الروايات والشائعات فى أنحاء المدرسة كلها ووقر فى نفسه أن كل من بها أصبح يؤمن بصدق هذه التهم البغيضة الموجهة الى أمه ، فأخذ عقله المسكين يتزلزل ، وأحس أن حاله ينحدر ، وأنه بدأ يمقت أمه . تنتابه فى بعض الاحيان أزمات حزن عنيف وندم لاذع . رباه ! اى شيء فعلته أمه فأجرمت . انه الآن يمقت نفسه وينحى عليها باللائمة . كيف أباح لقلبه أن يشك فى طيبتها وبراءتها . ألم تخلص له الحب وتنفض يديها من مباهج الحياة كلها ومسراتها لتعمل من أجله ؟ ألم تعكف على العمل الليل كله حتى تصبح عيناها كأسين من الدم انعقد فوقهما التعب والارهاق ؟ ألم تجعل الهموم وجهها الصبوح يتغضن ويشيخ قبل الاوان ؟ رباه ! لماذا لم يتزوجها أبوه ؟ لماذا يخادن ابدا فيريه ، تلك المرأة السيئة الخلق الحادة الطبع السليطة اللسان ؟ لماذا يغدق عليها المال وفاخر الثياب وتبقى فى البيت اليوم كله منعمة لا تنوء بهم ولا تقوم بعمل ؟ كاد الصبى من فرط تعاسته يحس مرارا بذهول يشل عقله وروحه ، ثم ينفرد بنفسه ويبكى الساعات الطوال بعيدا عن أعين الناس ، ولو أنه كما قال فيما بعد فى مقدمة قصة « امرأة كلود » ، لم يكن يجبن فى تلك الايام السود عن منازلة الاشرار من رفقائه والدخول معهم فى معارك انتقاما لنفسه.

تعاقبت على ألكسندر بعد ذلك سنتان لم ير خلالهما أباه الا قليلا ، ذلك أن دوماس كان قد شغف بالرحلات . انه خير من ينعم بالحياة أينما ذهب وحينما استقر ، لا يمنعه لهوه من الاندماع فى الكتابة بحماس شديد ، لا يفوته شيء يستحق الرؤية . يفوز بصداقات جديدة اينما حل ، ويختال فى كل بلد بثوب طريف من زى أهله ولا يأكل الا فى أشهر المطاعم . حين ذهب الى روما قام بزيارة البابا وطال الحديث بينهما . فلما تملك زمام قوته ونشاطه وصفاء ذهنه ــ وأن أصبح مفرطا فى البدانة ــ عاد سنة ١٨٣٢ ليستقر فى باريس

وفى ذهنه ذخيرة كبيرة من افكار شيقة تصلح لتأليف مسرحيات جديدة .

واذا كان دوماس رجلا مهملا لواجباته ، فانه مع ذلك ذهل حين رأى حال ابنه الذى كان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، اذ وجده صبيا سقيما مهزولا لائذا ، نموه معطل . لم يفتح الكسندر فمه شاكيا مما يعانيه ، ولكن أباه اهتم بأمره وخصه برعايته وحدبه ، وسأل ابنه ما الذى يستطيع أن يفعله له ، وتولى هو بنفسه الاجابة عن هذا السؤال قبل ابنه ، ألا يحب الكسندر أن يعيش فى سويسرا بضعة اشهر ؟ وأخذ يصف له بأسهاب جمال بحيراتها وجبالها وقراها ، وما ينعم به زائرها من حرية تامة ، فأخذت الصبى هزة من الطرب وابتسم له الامل . ان دوماس مخلص فى تبشير ابنه بهذه الامال ، ولكنه سرعان ما نسى فيما بعد كلامه . لم يرتب ابنه فى صدق وعده ، وظل يقضى أيامه كلها وهو يحلم بهذه الرحلة المرتقبة فى صحبة أبيه ، ولكن دوماس غرق فى مشاكل عديدة استبدت باهتمامه ، فلما حان موعد الرحلة السعيدة اذا به ينسى الكسندر وينفض منه اليدين ويخلفه وراءه ويسافر مصطحبا ايدا فيريه . انها تفضل أن تزهق روح الكسندر خمسين مرة ولا تتنازل هى عن نزواتها .

لا مجال للدهشة بعد ذلك اذا رأينا الكسندر الصادق الحب لابيه يكتب عنه حين بلغ سن الرجولة فيقول : « ان الرجل الذى يلد ولدا عن عمد ــ وهيهات له أن يلده الا عن عمد ــ دون أن يوفر له أسباب سعادته الروحية والاجتماعية ، ودون أن يعترف بمسئوليته عن المتاعب التى يلاقيها هذا الولد فيما بعد ، هو ــ فى اعتقادى ــ رجل مجرم ، مكانه متوسط بين اللصوص والقتلة »

أما عن كاترين لوباى فليس لدينا مع الاسف علم بحالها خلال الفترة التى قضاها ابنها فى المدرسة . كل الذى نعرفه عنها أنها غادرت ضاحية باسى والتحقت بوظيفة صغيرة فى أحد معاهد التعليم بباريس . عهد اليها فى أغلب الاحتمال أن تتولى حياكة ملابس الطلبة واصلاحها . من العسير علينا اليوم أن نعرف الى اى مدى بلغت مخالطتها لهذا الابن الذى فقدت حضانته وحق توجيهه فى الحياة ، ولكننا نعلم أنها التزمت فى تلك الايام أن تسجل فى كراسة كيف تقضى حياتها يوما بيوم من أجل أن يعلم الكسندر فيما بعد كل شىء عنها فى تلك الفترة التى عاشت فيها بعيدة عنه ، فلما ماتت سنة ١٨٦٨ أحرق الكسندر كل ما كتبته . ان أحراق هذه المذكرات خسارة

جسيمة لمن يتصدى لكتابة سير الكسندر دوماس الابن ، ولكن ليس من العسير أن نفهم الدوافع التي حملته على احراق هذه المذكرات . انه يضمر لامه من الحب ما لا يطيق معه أن يترك سيرتها نهبا للمؤرخين فيخطئون فهمها ، وهم الذين يخطئون في أنفسهم وأصدقائهم الاقربين • الافضل عنده ألا تترك أمه أثرا يدل عليها ، وقد فعل هذا أيضا بالنسبة الى نفسه الى حد كبير

لا مراء أنه عاش طول عمره حانقا على أبيه ، من جراء اهماله لامه حانقا عليه كذلك من جراء المتاعب التي لقيها بسبب ولادته غير الشرعية . ولكن هذا الحنق كله لم يجعله يكف في يوم عن محبة أبيه والاعجاب به . ان ذكرى مولده وعلاقته بأمه وأبيه ، وعلاقة أحدهما بالاخر هي عنده مأساة لم تنقطع عن ملاحقته طول حياته ، هي التي صبغت بلونها كل أعماله الادبية ، وهي التي كانت اذا ثارت في قلبه أفسدت عليه حياته وزلزلت صوابه .

وكانت صحته — على وجه العموم — طيبة جدا ، الا انه أصيب في حياته مرتين بانهيار عصبي ، ونستطيع اليوم أن نجد تعليلا لواحد منهما ، فانه كان ولا ريب وليد الهموم التي عاناها في صباه . فانه لما مرت سنة ١٨٦١ ، قطع عمله بسبب مرضه وسافر الى نابولي حيث كان يقيم أبوه حينئذ ، فانتابه الهذيان ذات ليلة . دخلوا عليه فوجدوه راكعا على الارض يناجي ربه بدعاء حار . كانت قد غلبته رغبة ملحة لاتقاوم في أن يقتل أباه وهو نائم في الحجرة المجاورة . وخشي في تلك الايام من أن يكون قد أصيب بالجنون مع انه من أشد الرجال اتزانا ، لم يكن الا ضحية فصام عقلي خلفه تمزق العواطف الذي مني به وهو صبي على كره منه ومن قبل أن تهيئه تجاربه في الحياة على علاج هذا التمزق بحكمة وروية . لم يستطع في يوم أن يعقد في قلبه صلحا بين حبه لابيه ومقته له . بل ولا يستطيع أن يقول : « أن أبي يستحق القتل ، ومع ذلك فاني أحبه » ، ذلك أن الحب والمقت يعيشان منفصلين جنبا لجنب في قلبه ، لكل منهما فيه حيز يشغله وحده . ففي سنة ١٨٦١ ثار مقته لابيه المكبوت في قلبه وتملكه وسيطر عليه ، استطاع أن يتغلب على وسواس هذا المقت ، ولكنه خرج من المعركة وهو في شدة الفزع والندم .

الفصل الخامس

عالم المسرح

كتب دوماس الاب سنة ١٨٣٦ مسرحية « كين » فبلغ بها قمة النجاح . انها تروى سيرة الممثل التراجيدى الانجليزى الذى كان قد مات منذ قليل . قدمها مسرح الفاريتيه ، وقام فردريك لومتر بتمثيل دور كين

وكان دوماس قد فقد صلته بأصدقائه فى باريس أثناء غيابه عنها مدة سنتين ، فلما عاد وجد فردريك قد طرأ عليه تحول بليغ ، هجر زوجه ، وفتنه وله وهيام بفتاة فى سن العشرين اسمها لويز بودوان هى ممثلة لها دور أيضا معه فى مسرحية « كين » . أخذ ينفق نقوده بسفه ، ويحتسى الخمر باسراف ، ولا يكف مع ذلك عن خلب ألباب أهل باريس بسحر تمثيله الرائع ، اذا وصل الى المسرح وهو مخمور غير صاح فللرغبة فى أن يحرر ذهنه من جسد لا يسعفه فى التمثيل أحيانا بسبب اعتلال صحته .

وانحدر أيضا حال أصدقاء له آخرين أثناء هاتين السنتين ، فهذا هو الملحن ليست الذى طال سعيه لرفع حياته الى مقام المثل العليا قد أخفق فى أن يستمد تمام الاطمئنان من تدينه المفطور عليه. كان منذ بدء حياته شغوفا بالسمو الروحانى ، فمال بغريزته الى دراسة الفلسفة من مذاهب الباحثين عن الحق ، فلما بلغ العشرين كان مثلا فذا للصفاء الروحى والعبقرية ، لا مطلب له الا أن يرضى ربه وأن يرفع الناس بالموسيقى الى حياة سامية . ومن شأن هذا الطبع أن يجعل صاحبه لا حد لقدرته على الحب ولا حد لعجزه عن مقاومة تلهفه على هذا الحب ، فهو اما يحب ربه ، واما يجد تحقيق هيامه اللحوح عند انسان وان كتب على هذا الانسان الفناء وتبدل الاحوال والاعمار . لايعرف أغلب الناس مثل هـذا الصراع . ان حبهم لايبلغ درجة الاتقاد والوجد والوله ، لاعالم عندهم الا عالم المحسوسات والمرئيات ومنطق الأسباب والنتائج ، أما قلب ليست فميدان صراع بين السماء والارض . وفجأة تغلبت الارض على السماء وبدا الموسيقى يقتفى أثر دون جوان ويشتهر بين الناس بغوايته

وكيف له أن لا ينزل الى الارض وهى سخية فى الجود عليه ؟.

ان صالونات باريس كلها تؤلهه وتسجد له ، بل ان طبعه المنبيء عن تعلقه بعالم الارواح ونفض يديه من شئون الدنيا قد أضفى عليه سحرا مفناطيسيا يجذب النساء اليه . ان وسامته وشعره المتدلي على رقبته ونظرته المتقدة وتمام استغراقه في الموسيقى اذا جلس الى البيانو وامتلاء ألحانه بالاحاسيس والعواطف الملتهبة . كل ذلك يثير في النساء شهوتهن • اذا رأته امرأة لا يشذ خضوعها عن القدر المألوف عند بنات جنسها ، آمنت انه انسان ليس كمثله أحد ، وتملكها احساس خفي بأنه رجلها المقوم لها •

وخطا ليست خطواته الحاسمة سنة ١٨٣٥ حين أغرى الكونتيس داجو أن تهجر زوجها وولدها وتصحبه في رحلة الى سويسرا . ولما علم الناس بهذا الخبر عدوه فضيحة شنيعة . ولم يكن الباعث الاكبر لذهول أصدقاء الكونتيس داجو وامتعاضهم هو انتهاكها للفضيلة ، بل تنكرها لتقاليد طبقتها الاجتماعية ، اذ أن الطبقة الارستقراطية التي تنتمي اليها لم تكن في ذلك العهد تنظر الى الموسيقى والرسام والشاعر الا نظرتها لمخلوق أحطمنها ، اللهم الا اذا كان معدودا من بينها بحكم مولده . انها الان هي وليست يعيشان في جنة من السعادة والهناء ، يخفيان مسلكهما في قبضة الورع والخشوع ، يؤمنان أنهما صانا روحيهما بذلك عن الهلاك ، وتعاهدا على ألا يكون لهما هم في الحياة الا السعي للسمو بالبشر . هكذا كان الحب في عهد الرومانسية ، لايقدر العاشقان على قضاء ليلتهما معا دون ايمان منهما بأن الحب الذي جمعهما بلغ من السمو حدا من شأنه أن يبدل العالم كله ويعود عليه بالنفع . هكذا ايضا كان الحب الذي ربط جورج ساند منذ عهد قريب بالفريد دي موسيه ، وهكذا كان نزوعه الى السمو والتحليق في أعلى عليين . وقد وجدت الكونتيسة داجو وليست أكبر تشجيع لهما من جورج ساند . كانت تقول لهما أن الحب في نظرها فضيلة وأن الغريزة هي دائما على صواب . وكان العاشقان يصفان بجد وايمان حبهما بأنه نبيل وخالد ومقدس

ونعود الآن الى تتبع بقية من أنحدر بهم الحال • وفي مقدمتهم المدموازيل جورج . أصبحت بدينة ووزنها يزداد بسرعة مقلقة . انها قاربت الخمسين من عمرها ، وكان في امكانها بفضل ماحظى بها جسمها في شبابها من جمال بلغ حد الكمال أن تحتفظ بحسنها في شيخوختها شأن تينو دي لانكلو والامبراطورة اوجيني لو انها مارست نوعا من الرياضة ، ولكنها كانت مع الاسف كسولا وتقضي

معظم يومها مضطجعة على أريكتها ، مرتدية ثيابا من حرير ومخمل ، وكانت أيضا ذواقة شغوفة بأطايب الطعام . انها لا تزال تحتل المكانة الاولى فى مسرح باب سان مارتان ولكن اعتمادها اصبح وقفا على سابق شهرتها وسالف مجدها ، انها لاتزال تحسن التمثيل ، وتدهش الناس بمشيتها المتكبرة واحتفاظها بجلالها وهيبتها ، ولكن أصبح لها من فرط البدانة ذقن اخرى تحت ذقنها ، وبعد ان كان الناس منذ سنة أو سنتين تقف متلهفة عالية الضجيج فى صف طويل امام باب المسرح ، اذ بعددهم أخذ يتضاءل بسرعة مقلقة

وبعد مسرحية « كين » مضى زمن طويل على دوماس دون أن ينجح عمل من اعماله نجاحا كبيرا ، فان مسرحيته الجديدة « كاليجولا » وهى أهم عمل له فى تلك الفترة لم يمتد عرضها على مسرح الكوميدى فرنسيز فى ختام سنة ١٨٣٧ أكثر من عشرين ليلة ، وقامت ايدا فيريه بتمثيل دور بطلة هذه المسرحية لان دوماس كان يناصرها ويأخذ بيدها ويدفع بها الى الامام ، ولكن تمثيلها لم يستلفت الانظار فلم يعن على نجاح المسرحية . وفى السنة التالية نسى دوماس ابنه البائس وسافر من فرنسا فى اجازة لشهرين او ثلاثة فى رفقة ايدا ، وعاد فى الخريف فوجد نفسه غارقا فى ديون جسيمة فاضطر الى الاستقرار فى باريس مرة أخرى وظل طول الشتاء عاكفا على العمل بلا هوادة

وحلت سنة ١٨٣٩ . بلغ دوماس الابن الخامسة عشرة من عمره . انقضت أيامه السود فى مدرسة سان فيكتور ، وتبدل حظه وكذلك حظ أبيه . حكم منافسو دوماس الاب حينئذ أنه مؤلف نفدت جعبته وانتهى شأنه ، الا انه كان فى حقيقة الامر يستهل فى تلك الايام مطالع حياته الادبية التى يتمثل فيها صادق موهبته ، ليس وراءه بل أمامه مجد يتحدث به العالم كله لافرنسا وحدها . أوهن نفسه فى العمل طول الشتاء وكتب ثلاث مسرحيات نالت واحدة منها وهى مسرحية « مدموازيل دى بل ايل » نجاحا منقطع النظير لم يضف عليه الرخاء فحسب ، بل رفع مكانته وصيته الى قمة لم يبلغها من قبل .

كان لم يكتب الى ذلك العهد الا مسرحيات ميلودرامية ذات طابع رومانسى ، فأدرك بفطنة غريزية أن أيام الرومانسية أصبحت معدودة ، فعدل عن منهجه القديم الى منهج جديد مختلف كل الاختلاف وجعل « المدموازيل دى بل ايل » مسرحية كوميدية خفيفة وشيقة ملأى بالفكاهة ، ليس فيها شىء يثير دهشة الناس ولا مغالاة فى خروجها عن المألوف بحيث تسبق ذوق العصر بخطوات بعيدة .

لبس فيها أيضا شيء يثير حفيظة طبقة من طبقات الشعب ، فأحبها الجمهور حين مثلها المسرح القومي ، وبقيت من بين برامجه حتى بعد وفاة المؤلف بسنوات طويلة

وظل دوماس الصغير منسيا تعيسا غير قادر أن يتحرر من ذكرى تجاربه المريرة في الاشهر الاولى من اقامته بالمدرسة . انه ما زال — كالعهد به صبيا منبوذا من رفقائه — لا صديق له ، تطبق عليه الوحدة ولا يفهمه أحد . كتب وهو رجل في مقدمة قصته « زوجة كلود » : « العذاب الذي وصفته في قصة « قضية كليمنسو » دام خمس أو ست سنين ، انه كاد يقتلني · كف جسدي عن النمو ، بل يكاد يذوب من الحزن · لم يكن في قدرتي أن أدرس ولا أن ألعب »

أصبح صبيا متجهما تنظر اليه العيون شزرا . أصابه المرض مرارا . ولكنه بشهادة مقدمة قصة « قضية كليمنسو » لم يكد يدخل مرحلة البلوغ حتى تملكته نزعة دينية عنيفة · لا ريب انها نوع من الهستيريا ، ولكنها ابرأته من تجهمه ويأسه وترديه في شهوة الانتقام . وكان في مدرسة المسيو جوبو ، استغفر الله ، في أكاديمية مسيوجوبو ، قسيس متكفل برعاية التلاميذ ، فلجأ اليه الكسندر وأفضى اليه بكل همومه ومشاعره · عطف عليه القسيس وبذل كل قدرته للاخذ بيده ، اذ وجد الصبي مقبلا على الانصات اليه ، فأخذ يشرح له ماينطوي عليه الدين من معان سامية ، ويحبب اليه التمسك بالرضا والشجاعة ، ويبصره بجمال البر والغفران ·

أحب القسيس هذا الصبي الذي يلتزم الجد ، فأخذ يقضي معه الساعات الطويلة وهما يتجاذبان أطراف الحديث ، وانزاحت الغمة فجأة عن ذهن الصبي . ان تعاليم الدين التي تقول له : « أحبب عدوك وأحسن لكارهك ، وبارك لاعنك » ليست عنده بكلمات ميتة أو جوفاء ، بل حق صراح لا لبس فيه ولا زيف ، نابض بالحياة · حررته هذه التعاليم من بؤس العكوف على النفس واجترار احزانها ومن المقت الذي كان يتراكم في قلبه ، وقص عليه القسيس سير القديسين والشهداء ، فأخذ الصبي يستمع اليها وهو مأخوذ بها . انه يرى الآن نفسه مهيئا لان يتسم في وجوه جلاديه ، بل انه يرى عذابه منحة مباركة تجود بها السماء عليه ، مهيئا لان يروض نفسه بالصوم والتهجد طول الليل . واخذ يواظب أيام الاحاد على أداء جميع الصلوات في الكنيسة ويبقى بها لايكاد يفارقها ، أما في بقية الأيام فلا ينقطع وهو في المدرسة من تلاوة الآيات من الفجر الى الغسق ·

دهش له رفقاؤه وسخروا به ولكنه ظل محتفظـا بهدوئه ورباطة جأشه ، مسارعا الى الصفح عنهم ومقابلة سخريتهم بالرضا والشكر
وتملكته أوهام زاغ منها صوابه ، فبدأ يؤمن أنه ابن الله ، اختاره من بين الناس ليبعثه رسولا هاديا ، وأمتحنه بالعذاب والاضطهاد كما امتحن المسيح من قبل . وآمن أيضا أنه سيموت كالمسـيح مقتولا ، ولكنه سيرتفع مثله الى السماء . سيكون أول همه حينئذ أن يعمل على خلاص من سخروا به فيطلب لهم المغفرة من ربه . وفى السماء أيضا ستكون أمه مثل البتول أم المسـيح ، يباركها الرب وتبجلها الملائكة . ان كل أحلامه وتمزق عواطفه مصـدرها أمه حين يعود ذهنه الى الوراء ويذكرها .
وكلما ألحت عليه لوثة الهستيريا ضاعف من حماسه فى الاقبال على الصوم والصلاة ، وجهه شاحب كالشمع وجسمه نحيل مهزول . أصبح كأنه شبح يجوس خلال الناس ، ولكن عينيه تلمعان بجمـال عجيب . وأخذ القسيس يرقبه وهو فرح كما ينبغى له ، فقد تحققت معجزة بفضله وعلى يديه ، هذا صبى يتهيأ لان يجتبيه ربه أو يتهيأ لان يبلغ مرتبة القديسين . لا ، لم يكن يتهيأ لهذا أو لذاك ، بل يتهيأ لان يصبح مؤلف « غادة الكاميليا »
عضه الجوع بنابه وركبته الهموم فتحطم فجأة . ثار جسده من فرط عذابه ، فدبت فيه رعدة شديدة وأصيب بأوجاع تفترسه من الراس الى القدم ، وأطبق عليه الهذيان ، وانتابه مرض طويل غاب فيه عن وعيه ، لايعرف ليله من نهاره . فلما دخل مرحلة النقاهة تبدل حاله ، أصبح قلبه خاويا من العواطف الدينية ، وحلت محلها ثقة جديدة فى نفسه . كان قد تقدم به العمر ، وأصبح راشـدا يستطيع هو الاخر أن تكون له كلمة أيضا فى رسم طريقه ومصيره . انه كان من قبل عاجزا عن التغلب على متاعبه ، أما الان فانه قادر على أن يقول لابيه « خذنى من هذه المدرسة »
استجاب له أبوه على الفور وان امتنع عليه أن يأتى به الى بيته بسبب خدينته ايدافيريه . كانت قد أمعنت فى الشراسة وسـوء الخلق وحدة الطبع ، وكان دوماس رغم جبروته ومضاء عزمه يخاف منها . انه لن يفلح الا فى اثارة غضبها اذا اقترح عليها أن يأتى ابنه ليعيش معهما . وقد اغمه موقفه هذا ، لان خدينته لم تعد فى نظره الا ثقلا يبهظه ، يستنزف ماله ويثير مقته ، وكانت محبته لابنه قد زادت فى أيام مرضه ، ولكن لاحيلة له ، فينبغى اذن ان يظل الكسندر

مستقلا بنفسه ، يحيا حياته بعيدا عنه . وأخذ يتلفت حوله ليرى ماذا هو صانع بابنه . واهتدى هذه المرة الى حل هو افضل من الحل الذى وجده حين أدخله تلك المدرسة . استأجر له حجرة فى بنسيون مخصص للطلبة ، وألحقه بمدرسة قريبة منه ، هى مدرسة « كوليج بوربون » التى تسمى الان « ليسيه كوندورسيه » . وظفر الكسندر فى مسكنه الجديد بطعام طيب وأناس يرعونه بحنو ورفق . أما فى المدرسة فقد وجد نفسه وسط رفقاء يبذلون له الود ، فلم يشق عليه أن ينخرط فى زمرتهم ويقتبس طبعهم .

وهكذا أتيح لهذا الصبى الممسوخ أن ينطلق أخيرا من قبضة العذاب ، واستعاد تملك زمام عافيته بسرعة مدهشة . زكت على السعادة صحته ، وتفتحت شهيته ، وتلاحق نموه

وذهب ألكسندر الى الكوميدى فرنسيز ليشهد مسرحية أبيه الناجحة « مدموازيل دى بل ايل » فرأى الناس لاول مرة يرفعون من شأنه بسبب مكانة أبيه ويقولون هذا الشبل من ذاك الأسد . له ولرفقائه الشبان اعجاب شديد بالمدموازيل مارس التى كانت لا تزال الممثلة الاولى فى ذلك المسرح . بلغت الستين من عمرها ، ومع ذلك ظلت محتفظة ببهائها ، من أجلها يزدحم المسرح ليلة بعد ليلة ، الصمت مخيم على الرءوس والانظار متعلقة بشخصها وحركاتها التى تنطق بالجمال والرشاقة والبشر ، مما يوهم بأنها لاتزال فى مقتبل العمر

أما المدموازيل جورج ــ أو جورج الجميلة كما يسميها الناس ــ فقد أفرطت فى البدانة خلال العام المنصرم ، وبدت عليها بسرعة معالم الشيخوخة . خداها اللذان طالما قبلهما نابوليون العظيم سالمان من الغضون ولكن جلدهما قد استرخى على مر الايام . شهدت وهى فتاة جميلة « أى فى عهد بعيد بعيد » كيف تتلقاها كل عين بالاعجاب وكل فم بالثناء ، وشهدت وهى امرأة ناضجة فوزها من الناس اما بفرط الاجلال والاعزاز ، واما بأبخس الحسد ، وامتلأت أذناها بدوى تصفيق لاينقطع . أما الآن فهى تحس لاول مرة كيف أصبحت لايبالى بها أحد . انها حائرة لا تفهم ما الذى حدث لها . ليس بين الناس حولها واحد يماثل الكسندر دوماس الذى عشقها سنة ١٨٣٠ فى الكياسة والظرف والمجاملة . هو أيضا قد زادت بدانته ، اذا صادفها القى بنفسه على الفور بين أحضانها وهتف لها من صميم قلبه بنبرة حادة «آه .. عزيزتى جورج» مامن امرأة يقابلها الا عز عليه أن يكلمها ببرود ، واذا كان الجمال قد ولى عنها فليس هو بالجاحد الذى ينساه

ولكن بقية الناس تسارع الى النسيان ، لذلك حكمت المدموازيل جورج التى عاشت طول عمرها وهى محاطة بالاحترام والاعجاب أن الناس كلهم قد فسدت فجأة أخلاقهم وساء أدبهم .

ورأى هاريل المشتت اللب مقاعد مسرحه تظل شاغرة ليلة اثر ليلة ، وتراكمت عليه الديون . انصرف الناس عن هذا المسرح الذى كان منذ اربع سنوات وليس غير ، أشد مسارح باريس ازدهاراً ، وقت أن كان مسرح الكوميدى فرنسيز يعانى الافلاس . اما الآن فقد تبدل الحال . لم تكف المدموازيل جورج عن اغضاب الممثلين والمؤلفين ، وجرت على هاريل كثيرا من المتاعب ، ومما زاد الطين بلة أنها أصبحت عجوزا ، على حين كان يتألق فى مسرح الكوميدى فرنسيز نجم طالع . هذا النجم هو المدموازيل راشيل أعظم ممثلات العصر

وحين ظفر بها مسرح الكوميدى فرنسيز حق له أن يفخر بأنه يقدم للناس موهبة عبقرية فذة تتمثل فى فتاة تشبه الاعصار المخيف . نضجها مبكر ، سمراء البشرة ، قميئة الجسم ، واهنة العظام كمن أصيب فى طفولته بمرض الكساح ، رأسها لا يتناسب وحجمها وضآلة بدنها ، ممسوحة الصدر ،مقوسة الساقين ، زعراء نحيلة الشعر . لها فوق ذلك قلب لا يعرف الرفق ولا الرحمة . ليس لها أقل رعاية لحرمة الحياء والوفاء والعفة ، ولكنها رغم كل هذا صاحبة موهبة عبقرية خارقة . استطاعت بمجهودها وحدها أن تعيد للمذهب الاتباعى مجده ، وتحبب الناس اليه من جديد ، وأن يخطف نورها بصر فيكتور هوجو وبقية أشياع المذهب الرومانسى ويذهلهم، فلم يبق لهم الا أن يشغلوا أنفسهم بتملقها وترديد اعجابهم بها

وكان الكسندر الصغير وقت بقائه فى مدرسة سان فيكتور يسمع عن راشيل أنباء كثيرة . تحدث الناس عنها من قبل سنتين أو ثلاثا بأنها صبية تغد فى سنها من الخوارق والمعجزات ، وانها آخذة فى التدريب على فن التمثيل . ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها ظهرت لاول مرة على مسرح الجمناز سنة ١٨٣٧ ، وكانت قد أثبتت فى فترة التدريب يقظة ذهنها وجدها فى التعلم ، انصرفت للدراسة بحماس متقد لانها تعلم أن لااعتماد لها على حسن أو وسامة وبلغت بقدرتها فى التمثيل درجة هيهات أن يرقى اليها الشك . لاعائق أمامها الا حمل مديرى المسارح على الاقتناع بأن الجمهور لن ينظر شزرا الى ممثلة لا تتمتع بشىء من الوسامة ، ولكن المدموازيل

مارس كانت شديدة الثقة براشيل فأمدتها بتشجيعها وعونها .
وظهرت راشيل على مسرح الكوميدى فرنسيز فى العام المنصرم فكتب عنها جول جنان ناقد صحيفة « جورنال دى ديبا » وخصها بثناء جم . وبدأت جموع الناس تتقاطر الى المسرح ، بل ان الملك نفسه ،وهو قلما يذهب للمسارح ، اصطحب أسرته كلهـا لرؤية راشيل وأغدق عليها ثناءه وهداياه . وفجأة وجدت راشيل نفسها وهى لا تزال تخطو خطواتها الاولى ولم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها تغمرها أضواء المجد والشهرة .

وتعلق بها اهتمام الناس وشغفهم بسبب ما انطوت عليه حياتها الماضية من مآس مؤلمة . كانت منذ ست سنوات مضت ، شحاذة تجوب الشوارع تستجدى الناس . انها من نسل أبوين يهوديين ، أمها تسمى استير حضرت من بوهيميا ، وأبوها بائع جوال يسمى جاكوب فيلكس وهو من مدينة متز . لم ينقطع تجوالهما من بلد الى بلد ، يعيشان فى فقر شديد وبلا مأوى . ورزق الابوان بأولاد كثيرين مات أغلبهم ولم يبق منهم الا خمسة كانت راشيل الثانيـة بينهم فى ترتيب الاعمار ، الاكبر فالاصغر ، ولولا اصرار مستميت وقدرة طاغية على التشبث بالبقاء لما أتيح لهذه الاسرة التعيسة أن تنجو من التحطم والفناء . واخيرا القت عصا الترحال فى باريس سنة ١٨٣٢ وأصبحت راشيل هى عائل الاسرة الوحيد . ان صمود الجنس اليهودى فى تاريخه الطويل للارزاء قد تجمع كله فى راشيل ، وكل عزم وشجاعة أضنيا أبويها ومئات من أجيال قومها السابقين للصعود من الحضيض ، وكل أحزانهم وغلهم من أثر الذى يعانون ، كل أولئك تجمع فى هذه الفتاة الضئيلة الجسم . خبرت راشيل كل العواطف فلا يشق عليها التعبير عن قلب انسان . فلما ظهرت على المسرح سحرت الناس بصدق عاطفتها وأثارت الخبىء من أشجانهم

انها بدأت تتعلم التمثيـل وهى تتعلم المشى . تعلمت فى سن الطفولة كيف تغنى فى الشوارع وكيف تمد يدها للناس مستجدية ، تعلمت مكرهة وعلى يد القسوة كيف تحرك فى الناس قلوبا جامدة كالحجر الصلد وكيف تستدر عطفهم على البؤساء ، ولم يغب عن ذهنها الصغير أن فوزها بدرهم هو مسألة حيـاة أو موت لهـا ولاسرتها . ومضت أيامها الاولى فى باريس وهى تغنى مع أختها الكبرى فى الشوارع وتستجديان الناس ، ولكن أباهما استطاع أن يلحقهما بمدرسة مسيوشورون لتعلم الموسيقى والغناء ، فاستلفتت

كل منهما الانظار وشهد لهما بأنهما صاحبتا موهبة لا تبارى . ثم تتلمذت راشيل على مسيو سامسون فى مسرح الكوميدى فرنسيز واستطاعت بفضل استماتتها فى الدراسة أن تجلو موهبتها وترسى دعائم شهرتها . لا يبعد عن عزمها هدف . اذا كان لا مناص للممثلة من أن تكون جميلة فحتم عليها هى الأخرى أن تحتال لتصبح جميلة . وكانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها . جسمها لم يكف عن النمو وطالت ساقاها طويلا ، وعرفت على النجاح طعم السعادة فتألقت عيناها ببريق خاطف . أصبح فى يدها مال تستطيع به أن تصفف شعرها النحيل على يد أمهر الحلاقين ، وعرفت كيف تستمد من حسن ذوقها فى تخير ملابسها مسحة من وسامة تتوهمها العيون ، وحملت نفسها على الايمان بأنها جميلة ، وأنها نالت هذا الجمال بفضل عزمها وارادتها وحدها ، ولكن لاجرم ان جمالها ظل وهما من صنع الخيال ، خيالها وخيال الناس . حيلتها تشبه حيلة الساحر الهندى الذى يزعم لك أنه يقيم حبلا فى الهواء ، ستقول هذا محال ولكنك ستراه بعينيك ماثلا أمامك . انها فرضت على الناس أن يصدقوا جمالها لأنها آمنت به هى نفسها . وكيف لا يصدق الناس جمالها وهم مأخوذون كل ليلة ببراعة تمثيلها وروعة نجاحها . لايراها انسان على المسرح الا حكم بأنها ذات بهاء هيهات له أن يقر به لها لو أنها ظلت مغمورة بعيدة عن الاضواء ، وفوق ذلك فأن راشيل تتمتع بظرف غير منكور عليها ، والظرف هو قرين الجمال .

سحرت راشيل أهل باريس كلهم ، من الطبقة الفقيرة التى افتخرت أنها خرجت من صفوفها ، الى الطبقة الارستقراطية العليا. أثارت هذه الفتاة ذات الموهبة الخارقة اعجابهم لانها ، رغم أن أباها يتكلم الفرنسية من حلقه وبلهجة المانية ، تسمعهم من فمها فى أجمل لفظ ونطق لغة راسين وكورنيل . وحكم الناس كذلك أن فضيلتها توازن موهبتها ، لانها وهى الممثلة الناشئة التى لم تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها كانت تتلمس خطاها بحذر شديد . انها تعلم أن مكانتها فى مسرح الكوميدى فرنسيز لا تزال رغم نجاحها غيروطيدة ولا مضمونة ، فلم تسمح للجمهور أن يرى منها الا صورة فتاة متواضعة بريئة محتفظة بكرامتها وشرفها

ليس من العسير عليها أن تلعب هذا الدور ، أما الجانب الخلفى للصورة فمناقض لها تمام التناقض . انه يكشف أولا عن غرور لها شيطانى بأنها ممثلة تراجيدية ناجحة صاحبة سطوة ونفوذ فى مسرح

الكوميدى فرنسيز ، وجمعت الى هذا الغرور رذائل الحسد والمقت واللؤم ، أسلحة تحارب بها كل من يسعى ولو بشرف وامانة للوصول الى مستواها . هى مطبوعة على الشح والجشع ، أما الغش فمن غرائزها الثابتة . ولكن قلبها ينبض مع ذلك بألوان عديدة من حب مشتعل متقد ، حب أولا لأسرتها ، انها لا تحجم فى سبيل هذا الحب من أن تخدع بلا حياء أو وازع من ضمير كل من هو غريب عن هذه الاسرة وتضحى به غير نادمة . أطلقت لشهواتها العنان ، واستغلت أنوثتها أمكر استغلال واشنعه ، انها مسارعة الى الخيانة اذا قضت مأربها هربا من الملل . لا تكف عن الخداع ولا عن المساومة بوقاحة عند طلب أجر قبلاتها . ان الحاحها فى المساومة وهى بين الاحضان فى تلك اللحظات التى تحمل غيرها من النساء اما على الانصياع للشهوة أو على التزام الصمت . وبلغت راشيل من سوء السمعة حدا غير مألوف حتى فى عالم المسرح .

أصبح اسمها يجرى على كل لسان فى باريس . انها قوة ينبغى لكل مؤلف مسرحى أن يحسب حسابها . وبدأت تعنى بها الطبقة الاجتماعية التى تفوز بأكبر قدر من احترام الناس ، فراشيل تعرف كيف تكون فى المجتمعات مؤدبة كيسة لا ترتكب أقل هفوة ، نافية عنها الغرور ، وكيف تكون مرحة متوثبة الذهن . ان صعود نجمها من وهدة الفقر الى اضواء الشهرة جعلها تبدو لأعين الناس فى صورة احدى بطلات القصص الخرافية ، وأخذ كل انســـان يزعم أنه رآها وهى طفلة تستجدى الناس فى الشوارع . ويقول فيكتور هوجو أنه على يقين بأنه أعطاها ذات يوم دينارا من الذهب فى ميدان فوج ، فاذا سمعت راشيل قوله هذا أكدت من جانبها أنها تذكر ذلك أيضا . لم يبق شىء تستكمل به هذه الطبقة المحترمة سعادتها الا أن تحمل راشيل على اعتناق المسيحية ، فاعتناق اليهود المسيحية كان فى ذلك العهد مما يهيم به الناس .

ولم يكن قد خمد أوار المعركة الناشبة بين الرومانســية والطبقة الاجتماعية المحافظة المحترمة . وظنت راشيل أن موهبتها وحدها هى سبب شهرتها ، ولكن سبب بلوغها مكانتها الرفيعة انما يرجع فى الحقيقة الى هذا الصدام بين الاراء ، فان خصوم الرومانسية اتخذوا منها رمزا لمذهبهم وعلما يرفعونه فوق رءوسهم ، انها عندهم وهى تحقق لهم النصر بمثابة جان دارك تعيد الناس الى الطريق المستقيم .

وكان أهل باريس حينئذ مشغوفين أيضا بالتحدث عن ترشيـــح

فيكتور هوجو لمقعد فى الاكاديمية الفرنسية وما يلقاه هذا الترشيح من معارضة عنيفة . وكما احتدمت المعركة بين الرومانسية وخصومها فى ميدان الادب ، فانها احتدمت أيضا فى ميدان الرسم ، فأثار افتتاح معرض الفنون الجميلة فى تلك الايام معركة حامية وطال الجدل حول لوحة قدمها ديلاكروا للمعرض تمثل هاملت وهو يحدق فى جمجمة يوريك ، ووصفه بعض الناس بأنه أبله مأفون ، وقال آخرون انه أعظم رسام فى التاريخ كله . واحتد كل الناس فى الجدل والنقاش الا ديلاكروا نفسه فقد ظل محتفظا بهدوئه

وكما هام الرومانسيون بالرسام ديلاكروا هياما شديدا فانهم بدأوا كذلك يحيطون أونورى دى بلزاك بتوقير لا حد له ، ولكن بلزاك كان يعيش فى آفاق تجعله غريبا وسط الناس مع آنه شديد الحب للدنيا شديد اللهفة على مباهجها ، ان واتته الشهرة فان النجاح لا يزال بعيدا عن متناول يده فهو دائما مفلس غارق فى الديون . واذا كان قد أخفق فى استغلال موهبته فليس السبب هو احجامه عن القاء دلوه بين الدلاء أو عن تأليف قصص سخيفة تروق لدى العامة من الناس .. انه راض بأن يكتب عن طيب خاطر أى عمل يستطيع أن يبيعه ويقبض ثمنه ، ولكن هيهات لمحاولاته العديدة أن تفسدموهبته ، فان كل ما يخطه هو من فيض كاتب لا يهبط عن عظمته . جميع من حوله أناس موهبتهم من معدن خسيس يكتبون أدبا ان يكن وضيعا فهو رائج يدر عليهم ثروات كبيرة ، فهذا هو بروسبير بارفى جوبو لا تطلع من يده الا مسرحيات هزلية سخيفة ، وهذا هو ايوجين سكريب يثرثر قلمه ملء الصفحات بكلام فارغ أجوف ، لا جرم أن احتقره ناشئة الكتاب ، وهذا هو الكسندر دوماس لا يكشف رغم همته وماحوله من ضجيج الا عن موهبة عاجزة عن الوصول الىالقمة

وكان بلزاك يتميز من الغيظ كلما رأى الكسندر دوماس يختال فى غرور بين مقاصير مسرح الكوميدى فرنسيز ، وكان دوماس قد قدم النسخة الخطية لمسرحيته « مدموازيل دى بل ايل » هدية منه الى الملكة كريستينا المتربعة على عرش اسبانيا ، فأنعمت عليه لقاء هديته بالوشاح الاكبر من وسام ايزابيلا الكاثوليكية . وهذا مايسيل له لعاب أهل الفن والادب الرومانسيين ، ولكان بلزاك اشدهم سرورا لو أصابه هذا الاكرام

لقد قال لدوماس وهما على سلم المسرح القومى ليلة العرض الاول لمسرحية « المدموازيل دى بل ايل » : « اذا فقدت يوما ملكتى الادبية

فسأتحول الى التأليف المسرحى » • خرجت منه هذه الكلمات غضبا وهو يحس الفارق الشاسع بين أعمال دوماس السطحية وأعماله ذات العمق التى تغوص فى أغوار النفس البشرية . فرد عليه دوماس ردا قاطعا ، قال « اذن فعليك أن تبدأ من الان يا صديقى العزيز » انه لا يضمر الضغينة لبلزاك ولكنه يعرف كيف يرد اللطمة بمثلها

وفى واقع الامر فان بلزاك أدلى دلوه فى الكتابة للمسرح ولكنه باء بالفشل . لم تكن قريحته مستعدة لكتابة المسرحيات فان أسلوبه يمتاز بالتحليل العميق والواقعية الشديدة • ومع ذلك فقد دفعه حماس شديد ليولى وجهه شطر المسرح باعتقاد ان المسرحيات تعود عليه بالكسب أكثر من كتابة القصص . ثم جاء رد دوماس الساخر الذى زاده تصميما . كان تفاؤله فى الحياة مضرب الامثال ، لم يتخل عنه مهما لاقى فى الحياة من لطمات ومحن . انه يتخيل الان الاموال تتدفق عليه لايغيض معينها . يرى بعينى الخيال المشاهدين فى المسرح يهتفون له ملء حناجرهم على مسرحيته التى لم يبدأها بعد ورأى نفسه خالصا من ديونه التى تغله تكرمه ملكات جميلات يمطرنه بالقبلات والاوسمة . وفى حماس هذا الخاطر أسرع الى هاريل ودعاه الى تناول الغداء معه ثم حدثه عن مسرحيته التى كاد يتصور انه كتبها حقيقة . وادى حماسه الى أن يقتنع هاريل أنها سطرت فعلا على الورق

قد يكون الذى دفعه الى هاريل هو شعورهما المتماثل فالطيور على أشكالها تقع . فهاريل غارق فى الديون مثله . اعتاد بلزاك أن يتفادى الدائنين والمحضرين وأن يختبىء منهم عند حضورهم اليه ، وكذلك هاريل اعتاد ان يقف على المسرح أثناء التجارب بجوار الباب الارضى الذى يؤدى الى قبو المسرح حتى يسهل هربه كلما ظهر أحد من المحاكم • نزل الحال بمسرح باب سان مارتان الى درجة ألا ينال الممثلون أجورهم واصبح معرضا للحجز على محتوياته فى أى وقت . ولكن هاريل لا يعدم الحيلة فى جذب الجمهور ، فمثلا ظهر الاعلان التالى فى الصحف فى صباح يوم من الايام :

« السيدة التى كانت تجلس الليلة قبل الماضية فى الصف الثالث من مقاعد البلكون فى مسرح باب سان مارتان ترجو من المتفرج الذى جلس بجوارها أن يعود الى نفس المقعد أثناء الشهر الحالى ، فان عندها شيئا تود أن تقوله له »

ولما كان لبلزاك اعتباره فقد رحب به هاريل بصدر مفتوح واتفقا

على أنه لايصلح للقيام بدور بطل المسرحية ممثل غير فردريك لومتر . ومن الصدف ان مدير المسرح والممثل تصافت نفساهما بعد تشاجرهما القديم وأصبحا على وفاق معقول فلابد اذن من اغرائه على العودة الى مسرح باب سان مارتان رضيت بذلك المدموازيل جورج أو لم ترض . وفى اعتقاد هاريل ان الممثل لن يمانع اذا علم أن بلزاك هو المؤلف . وافترق الاثنان بعد أن تواعدا على أن يقرأ بلزاك مسرحيته فى المسرح فى اليوم التالى

لم يبق على النجاح اذن الا كتابة المسرحية . بدا ذلك هينا فى عين بلزاك وبين يديه أطباق شهية وكاسات من النبيذ الجديد وبعد نقاش فرش لهم الطريق بالورود

فما أن جمع بلزاك أقلامه حتى شعر أن الوقت قصير فجلس الى مكتبه وأسرع بالكتابة يستدعى أربعة من أصدقائه وأرسل طلبات الاستدعاء مع خادمه . أسرع الاصدقاء اليه لما رأوا لهفته على لقائهم ووصلوا اليه فى وقت مبكر من المساء . وجدوا بلزاك مرتديا ملابس الرهبان التى اعتاد أن يلبسها فى أوقات عمله فبدا لهم شخصا مؤثرا ضخما قويا بسيطا ولكنه أبعد مايكون عن رجال الكنيسة بالرغم من ردائهم الذى يتزيا به

جلس الاصدقاء ووقف فيهم بلزاك بحماس متدفق وقال « سأقرا غدا على هاريل مسرحية من خمسة فصول » . اعتدل الاصدقاء على مقاعدهم ظنا منهم أنهم سيستمعون الى قراءة للمسرحية سيسمعهم لها بلزاك قبل قراءته فى الغد ، ولكن بلزاك استمر فى كلامه قائلا « لم تكتب المسرحية بعد ولكننا اتفقنا على اخراجها . سيقوم فردريك بالتمثيل فيها ، وهذا يضمن — كما تعرفون — أن يستمر تمثيلها أكثر من مائة وخمسين مرة . فاذا ترجمنا هذا الى لغة المال وجدناه يساوى ٧٥٠٫٠٠٠ فرنك . فما علينا اذن حتى نحصل على هذا المال الا أن نشترك جميعا فى عمل واحد . ان الفصل من المسرحية يحتوى على مابين أربعمائة الى خمسمائة سطر وهو ما يمكن أن ينجزه الواحد منا فى ليلة واحدة فهيا بنا ، على جونيه أن يكتب الفصل الاول وعلى أورلياك الفصل الثانى وعلى لوران جان الفصل الثالث وعلى دى بلوا الفصل الرابع ، أما أنا فعلى كتابة الفصل الاخير . فهلموا فانى واعدت هاريل أن آتى اليه بالمسرحية ظهر غد »

وتشاور زملاء القلم قليلا ثم استجابوا لخاطره وشمروا أكمامهم عن سواعدهم وابتدأوا فى مهمتهم ، فان نجحوا كان الفوز وان فشلوا فلن يخسروا الا سهر ليلة واحدة

الفصل السادس

باريس قبل اصلاحات الوزير هوسمان

كان دوماس الصغير اذا قادته قدماه الى احياء باريس القديمة وشوارعها الضيقة يطالعه من بين حشود السائرين أنماط مختلفة من الناس . انه اصبح بفضل نقاهته من مرض طويل ونجاته من مدرسة سان فيكتور منفتح القلب للحياة ، مقبلا على التمتع بها بشغف شديد . وكانت الحياة فى باريس حينئذ جميلة جدا . اذا رفع بصره رأى طيور الخطاطيف تطلق صيحاتها وتحلق تحت سماء زرقاء ثم تهوى مندفعة نحو الارض ، واذا خفض بصره رأى اناسا يسيرون تارة منكشفين فى أضواء الطريق وتارة غائبين كالاشباح بين ظلال البيوت . منظر الشوارع باعث للبهجة . حقا ان الناس فقراء ، ولكن الوجوه المبتسمة كانت حينئذ أكثر منها اليوم عددا . فتيات المتاجر ، لكل منهن ثوب من الموسلين تحت مريلة وقلنسوة فوق رأسها ، أما النساء المترفات فعلى رءوسهن قبعات من القش متلفعات بشيلان الكشمير فوق أثوابهن الطويلة الفضفاضة . لكل من الفئتين تعلق بمثل أعلى فى الاناقة تختص بها وحدها . كلاهما سواء أيضا فى حسن الذوق وشدة الحرص على استكمال هذه الاناقة . ولكن الرجال كانوا هم طواويس المجتمع وان آذن استعلاؤهم بالزوال بعد أن طال قرنا أو قرنين . يتبختر فى الشوارع رجال يهيمون بأن يشتهروا بالاناقة بين الناس ، وقد تتعلق العيون بمنظر نفر منهم غلوا فى الزينة غلوا غير مألوف ، أما النساء فمحتفظات بسمة التواضع ، كل منهن تسير منطوية على نفسها لا تستلفت الانظار .

تقوم على جانبى الطرقات أشجار ضخمة وارفة الظلال ، ويسطع عطر الورود والقرنفل فى يد بائعيها فى الشوارع الفسيحة . أما فى الازقة الضيقة فيحسن بسالكها أن يضع يده على أنفه وأن يفتح عينيه جيدا ، فقد يهبط فجأة من نافذة سيل من القمامة فوق رأسه ، يقذف به انسان لا يبالى أقل مبالاة بما قد يشعر به المارة نحوه . وكانت باريس حينئذ محرومة من المجارى . البالوعات الناضحة بالماء القذر تمتد وسط الشوارع ومن حولها اشكال والوان من القمامة ، فيأتى لجمعها فى عز البرد قبل الفجر جمع من الزبالين

عضهم الجوع بنـــابه . يجلس السمكارية الجوالون على الارصفة الضيقة وينشرون أدواتهم حولهم فيجبرون المارة على النــزول الى وسط الطريق . باعة شراب الليمون يذرعون الطرقات جيئة وذهابا رابطين بحزام اوانيهم المذهبة على ظهورهم . نسوة عجائز واقفات بجانب تلال من البرقوق والمشمش ينادين عليها بصراخ عال يحاول أن يتغلب على ضجة مرور العربات فوق شوارع لم تكن قد رصفت بعد بالمكدام ، كل بائعة قد صنعت لها من أوراق الصحف قبعة تضعها على راسها لتقيها وهج الشمس ، فبدت وجوهن ناطقة بالشراسة ؛ وان كان مظهرهن مضحكا . فاذا اشترى الكسندر بقرش شيئا من الفاكهة فما أشد حرصهن على اتقان لفه فى الورق بأناقة ولا يسلمن له بضاعته الا بعد تمام التأكد بأنفسهن انه سيحسن حملها فلا تتبعثر منه . كذلك كان شأن بائعى الزهور فى الطرقات الرئيسية ، لكل واحد منهم نصب حسن التنسيق ، فاذا جاءته فتاة عاملة تشترى حزمة من زهور البنفسج البــرى ، وهى أرخص الزهـور ، لم تكن عنايته فى اعدادها لها بأقل من عنايته فى اعداد باقة جميلة من أغلى الزهور يشتريها شاب ليهديها الى عشيقته .

وكانت باريس فى ذلك العهد ملأى بأزقة مظلمة ضيقة مهجورة لها أسماء عجيبة ومنظرها مخيف ، السائر فيها بعد غياب الشمس يعرض نفسه للتلف والاخطار . وما اشد التناقض بين الصمت المخيم عليها والضجة والصرخات العالية المجلجلة فى الشوارع يطلقها حلاقو الكلاب السريحة وهم ينادون على الزبائن . وكذلك باعة البطاطس المحمر وبقية الباعة المتجولين ، تختلط بهذه الضجة انغام منبعثة من بيانو ميكانيكى متنقل وأصوات وقع سياط سائقى العربات ، وقرع طبلة يستعين بها طبيب أسنان جوال ، اذ يجعل مساعده يدق عليها دقات عنيفة لتضيع بينها صرخات المريض فلا يسمعها الناس .

كانت باريس مدينة تعج بالحركة والنشاط ، ويختلط بها الاغنياء والفقراء . الفقراء يؤدون أعمــالهم اليومية بين أقدام المارة من الاغنياء . حتى فى شارع الايطاليين ، وهو من أرقى شوارع باريس ، لم يكن من غير المألوف أن تجلس على الرصيف امرأة تعيد بهدوء تنجيد حشيتها ، تفرغ صوفها وتقلبه وتنفشه فيتطاير خفيفه فى الهواء ساعات طويلة . فاذا صادف الكسندر فى سيره مثل هـــذه المرأة ، دار من حولها بعيدا منها دون أن يفلح فى كتم عطاسه . وتحت الاشجار يجلس فلاحون قادمون من الريف ، وتزدحم النسوة أمام

ابواب المخابز . لا تخلو الشوارع أيضا من كاتب عمومي يجلس الى منضدته ، فاذا جاء الفلاحون الاميون الى العاصمة ذهبوا اليـه ليقرأ أو يكتب لهم رسائلهم ، فلم يكن الزحام يخف من حوله .

ورأى الكسندر مرارا الملك لويس فيليب وهو يسير وحده فى الشوارع ، فيلقى للملك نظرة عابرة غير مبالية ، فلم يكن من عادة الشبان فى ذلك الحين ولا من همهم أن يعنوا بالرجل الجالس على عرش بلادهم . وكذلك كان الجمهور فى عمومه لا يلقى باله الى الملك السائر على قدميه .

وكان الملك رجلا مدكوك الجسم يميل الى البدانة ، يرتدى معطفا أزرق اللون له ياقة عريضة ، وسـترة سوداء فوق سروال أبيض ، فاذا كانت الشمس مشرقة رأى الناس فى يده عصا راسها كرة من الذهب ، اما اذا أمطرت السماء فيستبدل بها مظلة عريضة خضراء ، ولكنه يعلق فى كل الايام على الجانب الايسر من قبعته السوداء الصلبة اللامعة علامة « الكوكارد » رمز علم الدولة المثلث الالوان . يحدث أن يراه أحيانا بعض الانجليز الذين يزورون باريس فيرفعون له قبعاتهم وينحنون الى الارض حتى يمر بهم . اما الفرنسيون فيرفعـون له قبعاتهم أيضا ولكن بحفاوة أقل . وكان الملك اذا صادف امرأة تعيد تنجيد حشيتها لف هو أيضا من حولها بعيدا عنها . ويتابع الملك سيره فى تواضع . انه لا يزيد عن أن يكون واحدا من رجال الطبقة العليا السائرين فى الشوارع وان كان اكثرهم بعدا عن الزهو والخيلاء .

اما أكثر الناس استلفاتا للأنظار فهم الممثلون وهم يمشـون متبخترين فى شارع القرم . ما أكبر الفرق بينهم وبين الممثلين فى أيامنا الحاضرة الذين يعيشون فى رخاء ويحظون باحترام الناس . أما الممثلون فى ذلك العهد البعيد فانهم غلابة مفلسون ، رزقهم من اليد للفم ، يعملون حينا ويتعطلون أحيانا ، يشتغلون تارة بأجـر ويشتغلون تارة أخرى عند مدير مسرح مفلس مثل هاريل ، ولكنهم مع ذلك كانوا أهل كبرياء ومرح . أنهم فى نظر أبناء باريس الذين يعشقون المسرح رجال يشيدون لهم عوالم من الخيـال تنسـيهم مرارة الواقع .

فاذا أقبل الليل على الناس سارت بهم أقدامهم من تلقاء ذاتها الى شارع القرم ليقضوا به أوقات فراغهم ، فهذا الشارع هو أفضـل شوارع باريس انارة ، لا ينقطع عنه الزحام والجلبة فى كل ساعة . تكثر فيه المسارح كأنما كل بناء فيه هو مسرح . لم تتفرق المسارح

بين أحياء باريس الا بعد شق الطرق الحديثة أيام نابليون الثالث ووزيره هوسمان . وكان شغف الناس بالمسرح قبل هذا التفرق قد بلغ القمة التى هيهات أن يرقى اليها من جديد . وكان التمثيل على مستوى رفيع هيهات له أن يبلغه مرة أخرى . وكان شارع القرم فى ذلك العهد يزدحم بمسارح تقدم فى وقت واحد أنواعا من الميلودراما والبانتوميم والمأساة والكوميديا ، وكان الممثلون يعيشون فى هـذا الشارع الذى يعملون فيه فيخالطهم الناس ويشهدون ما لكل ممثل من نزوات ينفرد بها . يعج شارع القرم بالابطال والملوك والاميرات والنبلاء ومشردين حكم عليهم ظلم الاقدار أن يولدوا فى مهد من الفقر والضياع فالتمسوا رزقهم من العمل فى المسارح ، ومن أشهرهم « دوبيرو » مهرج مسرح « فونامبول » ، انه عاش طول عمره فقيرا معدما . بعض الممثلين الاخرين أسعد منه حالا ، فهذا هو فردريك لومتر مثلا يصبح من الاغنياء بين الحين والحين ، عندئذ يعرض على الناس فى عالم الواقع دلائل النبل والترفع والعظمة التى يلزمها على المسرح فى عالم الخيال . اذا أمتلأ جيبه بالدنانير الذهبية طاب له أن يقذف بواحد منها الى شحاذ يسأله قرشا واحدا . أما من هو أسوأ حظا منه فان افلاسه لا يمنعه من أن يتخذ سمة أمير من بلد تروى عنه الاساطير ، كل زهوه ينحصر فى القاء أبيـات من الشعر بلهجة خطابية مؤثرة . وكان عالم المسرح مليئا بكبار الممثلين ، اما خلفاؤهم من بعدهم فقد استبدلوا الزخرف بالمعدن الاصيل ، يخنـق رخاء عيشهم ما ينبغى أن يعتلج فى قلوبهم من حماس لخـدمة المسرح ومشاركته فى أحلامه . ولا يقال هذا الكلام عنهم من قبيـل الظن وحده ، فهذا هو على الاقل ما شهد به أناس عاشوا شبابهم أيام لويس فيليب وكتبوا مذكراتهم فى شيخوختهم ، فأتيح لهم أن يقارنوا بين العهدين .

لم يصب الكسندر دوماس الصغير فى مدرسة سان فيكتور شيئا من علم نافع ، ولكنه قضى أيامه كلها يتشرب هذا الجو العجيب الذى تنفرد به باريس . أصبح يدرك عن وعى ما تنطوى عليه حياة باريس من مظاهر الفنون . وكان رفقاؤه فى المدرسـة الجديدة لا ينقطع حديثهم عن فنون ذلك العهد ، كل واحد منهم يجـارى العصر فى ذوقه ، فهم فى الادب من أشياع الرومانسية ، أما فى السياسة فهم من انصار الجمهورية ، ولم يكن ميلهم هذا بايحاء من أساتذتهـم المحافظين على المناهج القديمة فى تربية التلاميذ ، المؤمنين بالمذهب

الاتباعى (الكلاسى) فوقفوا دروسهم على تبصير الطلبة بحماس واستفاضة بالمثل العليا للأدب الكلاسى . مدرس التاريخ مثلا لا يفلح فى ضبط النظام فى الفصل وتنتهى الحصة غالبا بضجة ومظاهرة تهتف بحياة الجمهورية . الكسندر الواثق الآن من نفسه المتعطش للمرح هو الذى يقفز ليقود التلاميذ الهائجين فى انشاد المرسيلييز بأعلى صوت ، أما أستاذ الاداب فهو مسيو رينو الذى يهيم بالادب الكلاسي هياما منقطع النظير ، انه مثال للمعلم فى ذلك العهد ، رجل حجة فى علمه ، لا يرجج فضل فضله ، يعيش راضيا فى انزواء فى شقة متواضعة على سطح بيت ، وسط كتبه والمؤمنين معه بمثله الاعلى : فاذا وقف أمام تلاميذه لمعت عيناه وهو يتحدث بافاضة عن الاداب فى المذهب الكلاسي وآداب القرون الذهبية التى ولت ، ويشرح كل ما فيها من جمال رائع . انه رجل طويل القامة مهيب له صوت رنان: يطيب له أن ينشد صفحات كاملة من الشعر الكلاسي ثم يتبعها بشرح طويل . انه يرفع لافونتين وبوالو الى مصاف الالهة ، فاذا فرغ من القاء شعرهما صاح قائلا : « آه أيها السادة أن أعظم أسرار الشعر هى البساطة »

ولكن دروسه كلها تقع على آذان صماء فان الرومانسية كانت طابع العصر وذوقه ، فاذا طلب مسيو رينو من تلاميذه أن يكتبوا شعرا أبوا الا تقليد فيكتور هوجو ، وكان يشوق لهم ويطيب لهم أن يمعنوا امامه فى غلو هيامهم بالمذهب الرومانسى فيقولون له « يا أستاذ .. اننا نؤمن بأن الدمامة هى الجمال بعينه » انهم فى نزعتهم للتجديد يرون انفسهم سابقين لعصرهم بأجيال عديدة ، فيثور غضب الرجل الطيب ويعبر لهم عن تأففه واشمئزازه بعبارات بليغة، ثم يؤوب الى شقته المتواضعة وهو حزين يسائل نفسه ما الذى سيحدث للدنيا بعد أن أدارت ظهرها للمؤلفات تضرب أروع الامثلة للقصد وحسن الوزن وانسجام التركيب

ولكن الكسندر كان من بين التلاميذ أقربهم الى قلبه وأكثرهم فوزا برضائه ومحبته ، فهو يحسن انشاد الشعر بنطق أكيدسليم وبوضوح وبعاطفة مشبوبة ، فكان مسيو رينو اذا أراد أن يعطى لتلاميذه درسا فى الاملاء نادى على الكسندر وطلب اليه أن ينوب عنه فى القاء النص

***

وكان من بين شباب باريس الذين ينعمون بصفاء الجو فى صيف تلك السنة فتاة فى سن الخامسة عشرة من طبقة صغار العمال

اسمها ألفونسين بليسيس . انها من فئة الفتيات المضيعات اللاتى لايعرفن لهن بيتا فيتسكعن فى حدائق لوكسمبرج والاحياء القريبة منها حيث يسكن الطلبة عادة . تشتغل هؤلاء الفتيات اما عاملات فى مصانع القبعات النسائية أو ساعيات لبعض المتاجر فى قضاء المشاوير أو مساعدات للبائعات في أحد الدكاكين ، وكن لايقبلن على مهنتهن الا بنفس كارهة غير راضية تمام الرضا . هن يمقتن العمل وينقبن عن وسيلة من الوسائل تتيح لهن العيش فى راحة وخلو بال، فكانت الواحدة منهن لاتمانع فى الارتباط بممثل ناشىء فقير أو طالب فى كلية الطب ، وسرعان ما ينشب الخصام بين الاثنين أو تنفد نقودهما فتعود الفتاة للبحث عن عمل جديد حتى تستطيع ان تجد لقمتها .

جاءت ألفونسين من قرية نونانت فى مقاطعة أورن حيث ولدت سنة ١٨٢٤ وعاشت بها فى فقر شديد . أبوها ـ ماران بليسيس ـ رجل منحل الاخلاق ، ان اتصف بالوسامة فهو قاس شرير عربيد ، تلقفته عند مولده وصمات وراثية شنيعة ، فأمه مومس متشردة فى ريف مقاطعة نورماندى ، وأبوه قسيس فاسد فاسق خان العهد . وتزوج ماران سنة ١٨٢١ من فتاة طيبة محترمة اسمها مارى ديهيه وتعاون الاثنان على فتح دكان لبيع الاقمشة ، ولكن ماران عاجز عن العمل كاره للحياة فى بيت شريف محتشم . ورزق الابوان بنتين : دلفين وروز ألفونسين ، وأنهكت أمهما نفسها فى العمل من أجل توفير مطالب الحياة لهما وحمايتهما من عسف أبيهما وتعذيبه لهما ،واشتد البلاء وتفاقم على مر الايام . اضطرت مرارا الى الهرب من دارها مع ابنتيها لتلجأ الى الجيران طلبا للنجاة من عنف زوج سكير عربيد ، وجاءت الساعة التى طفح فيها الكيل . حاول ماران ذات يوم أن يقتلها حرقا بالنار ، فلم تجد مفرا من هجره ، وتوسط لها صديق لتعمل خادمة عند الليدى ياربورو . ولكن قواها كانت قد تحطمت من جراء العذاب الذى قاسته وحزنها لمفارقتها لبنتيها فماتت بعد سنين قليلة. وكانت قد أودعت بنتيها لدى بعض أقاربها على مضض منهم ، فلم تجد الصبيتان قلبا يعطف عليهما او أحدا يعنى بتربيتهما ، فركبت كل منهما رأسها وانفلت عيارها . كانت ديلفين هى التى ورثت طباع أمها فشبت فتاة مستقيمة طيبة القلب ، اما ألفونسين فنشأت فتاة مستهترة لا ينبعث فى ضميرها صوت يحذرها من الوقوع فى المهالك. تركتها أمها حين ماتت وهى فى سن التاسعة ، ليس بجانبها أحد

يحتو عليها أو يرشدها فكانت تقضي نهارها متسكعة فى ريف بلدتها، وماذا تفعل وقد طردها من البيت أقاربها الذين استأمنتهم أمها عليها لايجودون عليها الا بفراش حقير تأوى اليه بالليل . لم يغب عنها اليوم الذى تعانق فيه الرذيلة وتفرط فى عفافها تحت شجرة فى الريف، هذا ما يقوله أحد من كتبوا سيرتها ، فطردها أقاربهـــــا شر طردة وأعادوها الى أبيها نافضين منها أيديهم قائلين انهم لن يقبلوا من بعد حمل مسئولية ايوائها ».

اسودت حياتها وهى ما تزال فى سن الثانية عشرة أو الثالثـــة عشرة ، فان أباها ماران اعتزم أن يستغل شبابها ، فدفع بهـــا لقاء أجر قبضه الى أحضان رجل سافل من معارفه . بلغ السبعين من عمره ، ثم تلاحقت الاحداث فى حياتها سريعا ، فاذا بهـــا بعد قليل ترحل الى باريس سيرا على الاقدام فى صحبة أبيها ، وهناك اما يكون أبوها قد تخلى عنها واما يكون قد أودعها لدى بعض أقاربه فلم تمكث معهم طويلا . وصلت الى باريس وهى تلبس ثوبا خشنـــا رثا . فى قدميها الحذاء الخشبى المألوف لدى الفلاحين فى قريتها . يالها من صبية مليحة يرتسم الخوف على وجهها ويعشش القمل فى شـــعرها ويسرح على بدنها فاذا تكلمت فبلغة عامية سقيمة .

وفى يوم قارس البرد من أيام شهر يناير سنة ١٨٣٩ مر بها وهى واقفة على الجسر الجديد فوق نهر السين أديب مشهور فى عهـــده هو نستور روكيلان ، فلمح فتاة نحيلة جائعة لها وجه ملائكى وعينان ناطقتان . كانت تمضغ قطعة من تفاحة فجة خضراء وهى تتأمل بلهفة بائع بطاطس محمر ينادى على بضاعته بصوت مرتفع وهـــو يقلب البطاطس فى زيت يســمع لغليه نشيش لذيذ وقف روكيلان مأخوذا بما رآه على وجه الفتاة من علامات الحرمان والاستســــلام الذى لايعرف الشكوى . كان يكره الوقوف الى الباعة المتجولين ولكنه قاوم اشمئزازه واشترى للصبية قرطاسا كبيرا من البطاطس المحمر. لم ينس بعد ذلك كيف عبر وجهها عن الدهشة الممزوجة بالفرح . فلما قابلها بعد ذلك بسنتين عرفها لاول وهلة رغم تبدل حالها .

كان حديثها حين وصلت الى باريس يدور حول الحب والعفاريت والسحرة والغيلان ، ولكن ذهنها المتوقد أعانها على أن تروض نفسها على الانسجام مع بيئتها الجديدة ، وبدات العاصمة الكبيرة تعلمها وتدربها فتتجردت من جلفها وعاداتها الريفية وتنقلت بين مهن حقيرة ، فاستطاعت أن تشترى لها ثوبا جميلا بسيطا وحذاء من الجلد وطاقية

من الموسلين ، ودخل حياتها شيء من البهجة وهي تتمتع بأيام الصيف الجميلة في باريس . لعلها كانت حينئذ تشتغل فى متجر يبيع مشد البطن للنساء فى شارع ليشيكييه ، أو فى متجر للقبعات فى شارع سان جاك مثلا ، وكان عملها مقصورا على أداء مشاوير المتجر ، او لعلها صادفت شابا قبل أن تشاركه حجرته المتواضعة . انها ألفت الفقر وانعدام الامان فلا مطمع لها الا النزر اليسير ، فاذا جاء الصيف ولم تكن بطنها خاوية فليس فى باريس كلها فتاة تفوقها فى المرح

وقرر دوماس فى نهاية تلك السنة — سنة ١٨٣٩ — أن يعقد قرانه على ايدا فيريه ، قد خطا خطوته وهو عالم بحماقته ، وذاعت اشاعات عديدة تؤكد أن عشيقته ضغطت عليه ضغطا شديدا لحمله على الاقتران بها ، وأكثر هذه الشائعات رواجا تؤكد أن مسئولية هذا الزواج تقع على عاتق دون دورليانز ، اذ كان غرور دوماس قد جاوز الحدود بحيث أصبح يؤمن انه رجل فريد ليس كمثله أحد وانه ناج من القيود الاجتماعية التى يحترمها غيره من الناس ، فلم ير ضيرا من أن يصحب عشيقته اذا ذهب لحفلات القصر الملكى ، فلما رآه دوق دور ليانز يقدم له عشيقته حياها بأدب ولكنه قال لدوماس بعد ذلك انه من واجب كل مدعو حتى ولو كان أعظم كتاب فرنسا أن يصحب زوجه لا عشيقته لحفلة فى القصر الملكى تترأسها أمة الملكة . والفى دوماس نفسه فى حرج شديد لم يجد مخرجا منه الا بعقد قرانه على ايدا . سيكون فقدانه لحريته نكبة كبيرة له ، ولكن لا بديل لها الا أن يفقد صداقة هذا الامير الذى سيعتلى العرش ذات يوم ورأى ان مصلحته ككاتب أديب هى فى الابقاء على هذه الصداقة فلا يضحى بها وهكذا اقنع نفسه بضرورة الاستسلام والرضا بالزواج من ايدا

ولكنه نفض الهم عنه سريعا واستعاد تفاؤله الذى لاينفد له معين ، يقول لنفسه ان وضعه الجديد لا يختلف عن القديم فى حقيقة الامر ، فان ايدا تقيم فى منزله منذ سبع سنوات . وبدأ اعداد حفلة زواج تسير بذكرها الركبان جديرة بألكسندر دوماس

وأقيمت الحفلة فى مطلع سنة ١٨٤٠ ، وكان شاتوبريان أحد شهود العقد . من حسن حظ الكسندر ابنه انه لم يكن فى ذلك الوقت يعانى نكد الحياة فى مدرسة سان فيكتور ، فلو كان الامر كذلك لحطمته هذه الاهانة البالغة ، ولكن رضاء المقادير عليه لم يمنع قلبه من أن يتنزى من شدة الالم والحزن يوم زواج أبيه ، ووثق أن بيت أبيه ،

بعد أن وقع أسيرا فى يد ايدا ، سيصبح محرما عليه مغلقا فى وجهه

وعلى حين أخذ دوماس الاب يتلقى كالعادة المألوفة فى مثل هـذه المناسبات سيلا من التهانى والهدايا العديدة كان هاريل صديقه القديم يتلقى عزاء الناس له بسبب انحداره الى الخراب . ساءحظه وتفاقمت ديونه ، وافتضح جوع ممثليه ، واصبح لا يقدم على خطوة الا تعثرت به قدمه . ولكن نشاطه عظيم لايقف عند حد ، انه يعشق مسرحه ويبذل كل جهده وحيلته لانقاذه ، وركز كل آماله على مسرحية « فوتران » التى كتبها بلزاك والتى اعتزم هاريل ان يقدمها للجمهور فى شـــهر مارس .

لم يتم تأليف هذه المسرحية بين عشية وضحاها كما أراد بلزاك حين دعا أصدقاءه الاربعة لمساعدته على كتابتها . لم يبق مما كتبوه فى تلك الليلة الاولى الا قليل ، ظهر فى النص النهائى ليلة الافتتاح وهو من قلم تيوفيل جوتييه ، أما بقية المسرحية فقد اقتضـت من بلزاك أن يكرس لها همته طوال أسابيع عديدة غير مستعين الا بالكاتب لوران جان وحده ، ووجد بلزاك أن تأليف مسرحية لايقل مشقة عن كتابة رواية ، وبعد أن ظل يعيد كتابة كل منظر ولو أكثر من عشرين مرة من قبل أن يرضى هو عنه ، وجد نفسه مضطرا أن يعيد كتـابة المسرحية كلها عشرين مرة أخرى ليرضى عنها هاريل والممثلون. وطالت تجارب تمثيلها شهرين ونصف شهر فخس بعدها بدن بلزاك . كان يظن أنه من الهين عليه ـ كما هو هين على دوماس ـ أن ينجح فى التأليف للمسرح ، ولكن كتابة المسرحية أرهقته وسممت حياته وبلغ اعياؤه حدا تناقل الناس اخباره باهتمام ، فاذا حانت ساعة ابتـداء التجارب اصطف الناس فى الطريق ليشهدوا بلزاك يمر أمامهم وهـو سارح الذهن مشتت اللب رث الهيئة ، مرتديا ملابس عجيبـــة ، فاضطراب نفسه انعكس على ثيابه ، فكان الناس يبتسمون لرؤية معطفه المفصل على شكل غير مألوف وحذائه الذى يفوق قياسه حجم رجليه .

ويمر أمامهم كذلك الممثل فردريك لومتر يبهرهم بوسامته وأناقته وان نظر هو اليهم ببرود وترفع . وكان طبعه قد تبدل من عهد قريب ، فان لويز بودوان هجرته الى عشيق آخر غنى من أصحاب الرتب الرفيعة ، فعدل فردريك عن مسلك الضاحك المرح الى مسلك رجل متحفظ منطو على نفسه لا يلقى باله الى الناس .

وجاءت آخر ليلة من تجارب التمثيل وظهر فردريك فى الفصل الرابع فى زى قائد مكسيكى وعلى رأسه شعر مستعار يشبه الشعر

المستعار الذى يضعه الملك لويس فيليب فوق رأسه .
وقال مويسار وهو وجل « الا ترون أنه يشبه الملك ؟ » فأجابه هاريل من فوره هامسا « صه .. هذا هو كنز وقعنا عليه سيدر علينا مالا وفيرا » ونادى حلاق المسرح وأمره أن يضع لفردريك شعرا مستعارا يجعله أشد شبها بالملك ليلبسه فوق رأســه فى الحفلة الاولى أمام الجمهور
وأخــيرا دقت الســاعة الموعودة يوم ١٤ مارس ســنة ١٨٤٠ . بعث بلزاك قبل ليلة الافتتاح برسالة الى صديق قال فيها « لك أن تتصور كم سيستبد بى القلق والجزع ليلة افتتاح مسرحية فوتران . خمس ساعات وليس غير ، ستقرر هل سأدفع ديونى أم لا .. فقد عشت خمسة عشر عاما والديون تكبلنى ويثقل عبؤها كاهلى ، انها تقيد قدمى فلا أخطو فى الحياة الى الامام ، تخنق أفكارى وتسمم عيشي وتشل حركتى وتخنق الهامى وتسد كل باب فى وجهى وتفسد كل أمورى وتقف حجر عثرة فى سبيلى ، انها قصمت ظهرى وشيبتنى قبل الاوان »
ما أجدر هاريل أن يقول مثل هذا الكلام بشأن كل رجل مقدم على مغامرة .
ترقب أهل باريس بشغف زائد مسرحيـــة بلزاك وازدحم المسرح بالناس ازدحاما شديدا ، وجلس الدوق دورليانز فى احدى المقاصير ، وسارت المسرحية سيرا حسنا الى أن ظهر فردريك وعلى رأسه شعر مستعار تصفف على هيئة الكشرى ، وقام بدور قائد مكسيكى ، الا أنه بغير وعى منه ولا عمد جعل هذا القائد صورة كاريكاتورية للملك ، فاشتد الضجيج فى المسرح ، صفير من جانب ، وهتافات واستحسان من جانب آخر ، وتعالت أصوات كثيرة تعلن سخطها على المسرحية وتحقيرها للممثل ، وانطلقت العداوات الحزبية من عقالها ، وسارع دوق دورليانز الى ترك مقصورته ومضى من فوره الى قصر التويلرى ، ووجد الملك نائما فايقظه . قال له ولى عهده : « يا أبت ، انهم يهزأون بك علنا فى مسرح باب سان مارتان ، وانك غير ساكت على هذه الاهانة ولا ريب . » فأمرت الحكومة فى اليوم التالى بوقف تمثيل مسرحية فوتران وأشهر افلاس هاريل وأغلق المسرح أبوابه
اذا كان بلزاك وهاريل قد خس بدنهما من الهم والغم لما لقياه من متاعب فى ذلك الموسم فان جسم مدموازيل جورج قد زاد بدانة فوق بدانته . أصبحت اذا سارت فوق المسرح طقطقت أرضه تحت

أقدامها • لقد ابتسم لها الحظ ودللها فى السنين الماضية وأنهالت عليها الهدايا الغالية من الامراء وعلية القوم الا أنها كانت مسرفة لا تحسب حساب الغد • أصبحت اليوم فى حاجة الى هاريل ليعولها . فبدأ يعد جولات فى أقاليم فرنسا وخارجها لهذا النجم الذى أصبح عبئا ثقيلا ينوء به كاهله ، أما هو فقد شغل نفسه بكتابة بحث عن فولتير

ووقف بلزاك فى حديقته يتأملها ، تربتها جافة وفى ستر من الرياح الباردة . وحمل نفسه على الايمان بأنها ليس كمثلها أرض تصلح لزراعة أشجار الكرم فينضج بها ذهبى اللون دافئا ويجود بنبيذ لا يقل عن نبيذ توكاى الشهير • فلماذا لا يقيم بها أيضا مزرعة للألبان والخضر فتدر عليه مع النبيذ دخلا قدره ثمانية عشر ألف فرنك ؟ •• لا شىء يجعله ينسى مرارة خيبته الا الاستغراق فى أحلام جديدة •

الفصل السابع

الملحن ليست وماري داجو

مكث ألكسندر في المدرسة الجديدة سنتين وكان لا يرى أباه بعد زواجه الا قليلا ، ولكنه كلما زاره عاد من عنده وهو شديد الاعجاب به ، اذ كان دوماس الاب قد اصبح حينئذ في سن الثامنة والثلاثين صاحب مكانة مرموقة في أعين أهل باريس • انه لم يكف عن تفننه باستعراض نفسه ، ولكنه اليوم غير معني الا أن يمثل بأتم اتقان دور الاديب صاحب القلم المعتز برسالته ، فتخلى عما ألفه في شبابه من هيام بتسليط الاضواء عليه واثارة الضجة من حوله ، واصطنع لنفسه سمة الاستاذ الوقور الذي يقال عنه انه بحر في العلم • أصبح لا يمضي الى مكان الا أديرت نحوه الوجوه وشخصت الابصار وهمست الالسن باسمه ، واذا ذهب الى المسرح دخله بهدوء ولكنه دخول رجل مهيب واثق أن الابواق تعلن مقدمه ، وكأنما هو ممثل متعمد أن يهل على خشبة المسرح أمام الجمهور بحركة رشيقة بديعة حين يجيء دوره حتى ليظن أن دوماس تتلمذ على فردريك لومتر •• فاذا شعر النظارة بمقدمه نسوا المسرحية والتفتوا اليه وهو يحني رأسه تحية لمن لمحه من أصدقائه ثم يحتل على مهل مقعده .

ذاع صيته في عالم المسرح وعهد اليه وزير الداخلية بكتابة مسرحية جديدة للكوميدي فرنسيز ، ومع ذلك فقد بدأ يعدل باهتمامه عن المسرح الى تأليف الكتب المطبوعة • وكان قد عرف منذ عهد قريب شابا مثقفا مغمورا اسمه أوجست ماكيه له هيام بالابحاث التاريخية وبصر بما يصلح منها لان يكون مادة لقصة درامية ، وكان في شبابه شديد الولوع بطبع الانجليز وأدبهم ، فلما بدأ يكتب آتخذ له اسما مستعارا من أسماء الانجليز هو ماك كيت ، ولكنه رغم تكريس أقصى جهده للكتابة لم يفز بأقل حظ من النجاح اذ كان متواضعا يتهيب التزاحم وشق الصفوف والنضال من أجل مصلحته ، وكان أيضا حريصا على نقل حوادث التاريخ بأمانة منعته من أن يزيف منها قصصا تلقى رواجا بين القراء • وكان حين عرفه دوماس قد أعد بحثا تاريخيا ودار به على الناشرين فلم يقبل واحد منهم طبعه ، فرضي أن يعهد به الى دوماس ليعيد كتابته وينشره باسمه الشهير على أن

وضعه ماكيه تلقى دوماس من استاذه القديم في المبارزة ـ مسيو جريزيه ـ مذكرات مستفيضة كتبها أثر رحلة له الى روسيا • وضع دوماس كل هذا في جعبته وضم اليه المسودة الاولى لمسرحيته الجديدة ورحل هو وايدا الى فلورنسا للاقامة بقية العام .

وأخذت سنة ١٨٤٠ تمضي في أمن وسلام • أيام الصيف الدافئة تنعم أغلب النهار بشمس ساطعة وان تخللتها أيام اخرى تتكاثف فيها السحب وتشتد الامطار ، وأصبح يخيل للفتيات العاملات في متاجر باريس وهن يشتغلن عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة كل يوم أن عطلتهن يوم الاحد لا تصادف الا جوا ممطرا وهو اليوم الذى يعشقن فيه الخروج الى الغابات والحدائق في الضواحي حيث تكثر المطاعم التي تصف مقاعدها في الهواء الطلق وتموج بالراقصين والراقصات • وكانت الفونسين بليسيس في أحد هذه المتاجر التى تبيع للنساء الاناقة والظرف والنزق على هيئة قبعات وقمصان وشيلان ، وصادفت في يوم أحد صديقتين لها في مثل سنها واتفقن على الذهاب الى ضاحية سان كلو ووقفن ينتظرن أوتوبيس تلك الايام ، وهو عربة ثقيلة غير مريحة تجرها الجياد ، فاذا بالمطر يتساقط فوق رءوسهن من سحابة داكنة ، وسرعان ما تكاثفت السحب واغبرت السماء وتشبع الجو بالرطوبة وفقدت الالوان اشراقها وبهجتها ، وزاد انهمار المطر ، فعدلت الفتيات عن رحلتهن وقر رأيهن على القناعة بتناول الغداء في مطعم صغير في جاليرى مونبنسيه في حى الباليه رويال .

وشاء القدر أن يكون هذا المطعم لرجل يحس بالكآبة ومرارة الوحدة اما لان السماء كانت غائمة في ذلك اليوم ، واما لانه كان قد تقدم به العمر وشاخ وأصبح يفتقر الى شيء من البهجة يدخل حياته ، فاذا به يرى ثلاث فتيات مليحات يسرقن النظر يدخلن اليه ، ناثرات من حولهن المرح ، ثم يجلسن الى مائدة وهن يتضاحكن ويثرثرن ، فأقبل عليهن ليتحدث اليهن فوجد عندهن خفة الدم والظرف كله ، فأخذ يحوم حولهن حفيا بهن ، يبذل لهن كل عنايته ويقدم لهن في نهاية الوجبة القهوة والليكور على حسابه • حديث الفتيات يدور عن المطر اذ كان لايزال ينهمر بغزارة ويلطم زجاج النوافذ ، وذكرن لصاحب المطعم أنهن كن يأملن قضاء اليوم في الريف ، فقال لهن الشيخ الودود بلباقة وحياء أنه يدعوهن لقضاء يوم الاحد القادم في ضاحية سان كلو على نفقته ، فقبلن من فورهن دعوته •

وتمتعت الفتيات أبهى متعة بالنزهة التى رتبها صاحب المطعم ، وكان قد استضاف أيضا شابين من معارفه . المضيف حفى بالفتيات الثلاثة معا ، ولكن كان من الواضح أن أصغرهن – ألفونسين – هى التى سحرته وخلبت لبه ، وتوثقت الصداقة بين الاثنين . ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الرجل أسعد انسان فى الدنيا وقد انزاحت عنه مرارة الوحدة اذ رضيت ألفونسين أن تكون عشيقة له • انه رجل ينتمى الى الطبقة الوسطى ، عامر الجيب بالمال ، فأسعده أن ينال ميزة مد العون لهذه الفتاة ويستقل بالفضل وحده ، فاستأجر لها شقة متواضعة انيقة فى حى البواكى وأغدق عليها الهدايا وأحاطها بحدبه وعنايته ، وقبلت الفتاة صنيعه بسرور ممتزج بالدهشة كالعهد بها يوم أن جاء عليها نستور روكبلان بقرطاس من البطاطس المحمر • وبدأت تنعم فى شقتها الجديدة بحياة توفر لها الراحة والمتعة ، واخذت تتردد على المسارح وتنصت باهتمام لكل كلمة تسمعها ، فاذا بها بعد وقت قليل تصبح خبيرة بما اصطلح عليه المجتمع من أقدار وقيم • وكانت المسرحيات حينئذ طويلة تتخللها فترات الاستراحة ، فكان من عادة الجمهور أن يتمشى خلالها فى ردهات المسرح وطرقاته ، وحذت ألفونسين حذوهن ، وأخذت تتأمل الشباب المترف وتنظر بعين الحسد الى المحظيات المتألقات مثل أتالابوشين « واسمها فى الحقيقة لويز بودوان » • أما بالنهار فتذهب للمتاجر وتشترى الثياب وتظل الساعات الطوال تتطلع الى شخصها فى المرآة ، وكلما قابلت شابا وسيما أنيقا ورأته ينظر اليها ابتسمت له فكشفت عن أسنان بيض كالدر فى غاية الجمال ولمعت لها عينان ببريق فتان

واذا كان الحظ يبتسم لهؤلاء الفتيات فارغات العقل فانه يتجهم للعباقرة • أصدر بلزاك فى شهر يوليو مجلة شهرية اسمها « المجلة الباريزية » وكتب فى العدد الاول مقالا ملأه بالثناء الجم على قصة « شارتريز دى بارم » التى كتبها ستاندل ، فلم يأبه الناس به ولم يقرأوها ، ولكن صدق حكم بلزاك لم يمنع من أن تكسد مجلته فاحتجبت بعد عدد شهر سبتمبر •

وكانت عشيقة ليست – الكونتيس داجو – تقيم فى باريس مرة أخرى ، ولعلها سرت بعض الشىء لاخفاق بلزاك من جديد اذ كان قد شنع بها فى قصته الاخيرة « بياتريكس » وعرض دخائل حياتها لتتندر أهل باريس التى اتخذت منها موطنا لها • وأهل باريس معروفون بشدة الانتباه لكل ما يثير الاشمئزاز والسخرية • نشر بلزاك قصة

بياتريكس فى مجلة « القرن » سنة ١٨٣٩ وتحدث فيها عن رجل اسماه كونتى كناية عن ليست ، وتحدث عن امرأة اسماها المركيزة دى روشفيد كناية عن مارى داجو .

وكانت جورج ساند الخبيثة هى التى اصطادت بلزاك وحملته على كتابة هذه القصة بعد ان صبت فى أذنيه معلومات جارحة وقفت عليها بفضل صداقتها الحميمة لليست ومارى داجو . وكانت جورج ساند فى مبدأ الامر تشيد بهذا الحب وتصفق له وتعجب به وتثنى على العاشقين اللذين اقتديا بها فى الاستهانة بالرأى العام ، وانتزعت منهما فى غمرة حماسها وعدا بأن يقدما الى منزلها فى مدينة نوهانت لا فى زيارة عابرة قصيرة ، بل فى زيارة طويلة ، طويلة لاقصى حد مستطاع ، فقبلت مارى الدعوة وذهبت الى مدينة نوهانت فى مطلع سنة ١٨٣٧ على حين بقى ليست فى باريس ليعزف فى سلسلة من الحفلات الموسيقية. وارتفعت الكلفة بين المرأتين فكانت جورج ساند تدلل مارى بتسميتها ليليا ، ومارى تدلل جورج ساند بتسميتها أرابيلا . وتوثق الود بينهما ، كل واحدة منهما معجبة بالاخرى اعجابا متأججا لا نظير له . لقد أقر الناس لجورج ساند بالعبقرية فلم تبال أن تلبس زى الرجال وتدخن مثلهم السيجار الاسود والبيبة . كل هذه النزوات بهرت مارى التى ألفت العيش طبقا لتقاليد التحفظ الجامدة التى تعتنقها الطبقة الراقية فى حى سان جرمان بباريس ، وأما انبهار جورج ساند بصاحبتها فسببه وسامة هذه الشقراء الفاتنة التى تعد أبدع مثال لجمال المرأة فى نظر أبناء ألمانيا . ولما كتبت جورج قصتها المسماة « سيمون » نالت مارى شرف اهداء هذه القصة اليها بعبارات صبيانية متعسفة

ومع ذلك بدأت حرارة الود بين الاثنتين تبوخ وهما فى مدينة نوهانت . ملت جورج ساند صحبة تلك الرفيقة التى طالما تدلهت بين يديها ، ذلك أن جمال مارى تحول على الايام الى غرور ، ونبلها الى افتعال وتصنع . وانضم ليست اليهما فى شهر مايو وبقى مع مارى الى ٢٤ يوليو . وهكذا مكثت جورج ساند عدة أسابيع وهى تراقب بعين لها كعين الصقر قصة هذا الحب الرومانسى بين العاشقين . ومتى صوبت من عين رقيب مثل هذه النظرة الفاحصة المتجسسة فأغلب الاحتمال ألا يكتب بقاء لهذا الحب حتى ولو كان غارقا فى الرومانسية ، فلو كان العاشقان فى مدينة نوهانت هما روميو وجولييت أو هلويز وابيلار أو حتى دانت وبياتريس لما صفا

لهما الحب ، اذ كانت تلاحقهما من عين جورج ساند نظرة واعيــــة لا يفوتها شيء مما يجرى بينهما . انها حين رأته ليست وماري معا أول مرة وجدت الحب الذى يجمعهما يحلق بهما فى سماء عالية . أما اليوم فهى تلحظ تبدلات كثيرة طرأت عليهما ، وخيل اليها أن ماري بدأت ترهق ليست بمبالغتها فى الاصرار على جعله أســيرا لحبها . لا ريب أنها أحست أن حبه لها قد بدأ يتملص من قبضتها ، ولكنها اعتزمت ألا يكون من نصيبها الحرمان من أضوائه الذهبيــة . وكذلك لم يفت عين جورج ساند كيف يخفى ليست تحت قنــاع المحب الخفى ان عاطفته نحو ماري قد ماتت . وصور لها وهمها أحيانا أنها قادرة على أن تؤجج حبه لها ، ولكن كان يجدها غير جذابة وظل محتفظا ببروده .

وانتهت الزيارة وقد وضح ان روابط الود قد انحلت . وكانت عواطف ماري نحو جورج ساند تبدلت هى أيضــا . ثم مضى عام ونشأت قصة حب جديد بين جورج ساند وشوبان ، فلما عرفت ماري خبره ثار فضولها وانفرجت شــــفتاها عن ابتسامة مستهزئة مستخفة . فبعد أن هجرت جورج ساند عشيقها ألفريد دى موســيه تنقلت بين أحضان عشاق عديدين ــ ديديه وميشيل وفاليل ــ حتى شق على ماري أن تنظر نظرة الجد الى قصص الغرام الملتهب الذى ينبض به قلب صديقتها الشهيرة . ومن سوء حظ ماري أنها جهرت بين الناس برأيها فى جورج ساند ، تنتقدها وتسخر منها وتقهقــه لحكاياتها ، وطار خبر هذه الغيبة وهذه الخيانة الى مسامع القصصية الشهيرة فثار حنقها الشديد على ماري ودعت اليها بلزاك ــ زميلها فى فن القصة ــ وحملته على أن يسرع فى كتابة قصتــــه . أما هى فستصبر حتى يتاح لها وقت تكتب فيه هى أيضا قصتها عن العاشقين الذين أقاما عندها فى مدينة نوهانت سنة ١٨٣٧ ، فجورج ساند رغم كرمها وسماحتها انما هى ربيبة الشيطان نفسه .

قال ليست لماري سنة ١٨٣٧ « سنحلق معا بعيدا عن العالم ، فى وحدة يحب أحدنا الاخر ، وفى وحدة نعيش ونموت معا » فهجرت ماري ابنا لها وزوجا مخلصا وحياة منعمة مترفة من أجل هذا الحب المثالى الذى يهيم به الرومانسيون ، ووثقت فى قدرتها هى وليست على العيش معا فى ستر وانزواء يحتقران كل مافى العالم من تزاحم دنىء وجلاد ممقوت ، ليس لهما من هم الا أن تظللهما حياة تتصف بالطيبة والقناعة حتى يفرغ ليست الى تأليف هذه الروائع الموسيقية

التى هو مصدر لها لو أنه منحها كل عنايته ووقف عليها كل تأملاته وجهده . وآمنت مارى انها ستكون لليست بمثابة ربة الموسيقى التى توحى اليه ولا غنى له عنها . وقد زين لها ليست نفسه هذا الايمان فى غمرة هيامه بوجهها الصبوح الفتان ، وسافر الاثنان معا الى سويسرا . وعاشا فى حرية وهناء وجذل ينشدان الوحدة والجمال فى سفوح الجبال . اذا رآهما الفلاحون اداروا اليهما وجوها تنطق بالاعجاب بوسامتهما الفائقة وبأناقة ثياب مارى . نسيا الحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة وصالونات الاعيان ، نسيا ضجة التصفيق وأضواء الشهرة اذ كان الحب فى أوجه وعز انتصاره . وكانا يمدان نزهتهما خلال الجبال الى بقعة لا تلم بها أقدام الناس ثم يقفان مأخوذين بجمال الطبيعة الساحر ، فاذا لفهما الصمت المطبق حلما بالسيمفونيات الرائعة التى تنتظر ولادتها على يد ليست .
وأهدى ليست الى مارى خاتما نقشت عليه هذه العبارة باللاتينية « نعم الصفاء فى سماوات الوحدة »

ولكنهما لم يعرفا الاهتداء الى الحب السرمدى ، بل حطما الحب بأيديهما ، فلما دفعتهما ثلوج الشتاء الى الهرب من الجبال والنزول الى مدينة جنيف أحست مارى بأول نذر الخيبة ، اذ وجدت ليست يتهلل بشرا وسرورا كأنما انزاح عن كاهله حمل ثقيل حين التقى من جديد فى تلك المدينة بأصدقائه القدماء ولكن أول جفوة بليغة بينهما لم تحدث الا سنة ١٨٣٨ حين سافرا من مدينة نوهانت الى ايطاليا ، وهناك ترك ليست صاحبته وسافر وحده الى فينا ليقيم حفلة موسيقية لجمعية خيرية ، وأطال مكثه بها أسابيع عديدة ، تأسره وتتناهبه مباهج المجتمع وفتنة النساء به وملاحقة دوى التصفيق له كلما عزف فأبدع . ووصلت أنباء خياناته الى سمع صاحبته الوالهة القلقة ، انها مقيمة على حبه ولا تطيق أن تنفض منه اليدين

وكانت زيارة ليست لمدينة فينا نقطة تحول وضعت حدا للخلوة الجميلة التى نعم فى ظلها بصحبة مارى . وهى أيضا سافرت الى باريس سنة ١٨٣٩ على حين ظل ليست يجوب أرجاء أوروبا وقد طارت شهرته كأستاذ فى العزف على البيانو لا يشق له غبار ، تنعقد فوق رأسه تيجان المجد ، فلا تعرف خليلته الارستقراطية اذا بلغتها أنباؤه الا أن تبتسم بحرارة وسخط ، فأينما ذهب ليست ارتمت تحت مواطىء أقدامه نساء تجلدهن سياط الهستيريا . وكان من عادته أن يعرض عنهن ، الا أنه كان يعجز أحيانا كثيرة عن صدهن

لانه شاء أو لم يشأ يسحرهن بفتنة لا تقاوم ، فكانت النساء تجن لرؤيته ويفقدن فى حضرته كل احتشام وضبط للنفس ، ومع ذلك فقد عمل الافتراق على توثيق أواصر الود والاعتزاز بينه وبين ماری، وأخذا يتبادلان وسائل تفيض بالدلع والهيام ، وهما واثقان أن هذه الفرقة لن تدوم الا وقتا قصيرا .

وأنجب ليست ومارى ثلاثة أولاد ، واستقر رأيهما على أن يعهدا بتربيتهم الى امه . وبقيت ماری تتطلع الى مستقبلها القريب فلا تجده الا مليئا بالكآبة والملل . انها عادت الى باريس وهى مريضة منقبضة الصدر فوجدت أهلهـــا جميعا يقرأون « بياتريكس » ـ قصة بلزاك ـ . وكان يعالجها حينئذ طبيب تحتضنه الطبقة الراقية اسمه الدكتور كوريف ، وهو رجل يهيم بالاغتياب وترديد أنبـــاء الفضائح ولا ينقطع عن التردد على صالونات الاعيان ، اذا عرف كيف يشق طريقه الى مخادع المرضى من الاغنياء والموفقين فى الحياة فانه لا يلبث بعد شفائهم على يده أن يتخذ مكانه على مائدة عشائهم .. وبدأ يهتم بمريضته الجديدة الكونتيسة الجميلة ويحتل بعـد قليل مقعده على مائدتها ليلة بعد ليلة ، يقوم بدور الصديق الحميم الذى تبين له أن حاجتها للعطف واستماع عبارات الاعجاب بها تفوق حاجتها لجرعة من دواء يعالج بدنها ، فشجعها على الخوض فى دنيا الفنون ، والانضمام الى زمرة الكتاب والادباء ، فأخذت تستـــرد على مهل عافيتها وتستعيد سلطانها على الرجال ، وكانت قد بلغت الخامسة والثلاثين (فهى تكبر ليست بست سنوات) ومع ذلك ظلت محتفظة بروعة جمالها رغم ماقاسته فى حياتها من همـــوم ومتاعب ، فتكاثر من حولها المعجبون بها ، وكانت تروى أخبارهم الى ليست بافاضة تأمل منها ان تثير غيرته ، ولكن قلب ليست لا يعرف لواعج الغيرة وظل لا يبالى بأنباء غرمائه .

الفصل الثامن

الحياة فى قلب العاصمة

دوماس الاب يجيء ويذهب ، يقضى بضعة أسابيع مع ايدا فى فلورنسا ثم يتركها ويسافر لباريس لا يمكث بها الا بضعة أسابيع أخرى ينشغل فيها بمقابلة الممثلين والناشرين ويجود على ابنه بزيارة . انه يذهب الى كوليج بوربون أحيانا فى عربة عليها الشعار الملكى يعيرها له ولى العهد الدوق دورليانز ، فالصلة بينهما قد تحولت الى صداقة وثيقة . أن قدومه الى المدرسة فى تلك العربة يثير الضجة ويحيطه بجو من الأبهة . لقد انفضت الى غير رجعة تلك الايام التى كان يتجرع فيها ابنه مرارة احتقار الناس له بسبب نسبته الى هذا الاب . انه الآن رجل عظيم يتألق نجمه . فكاهته لاتزال مبعث المرح والسرور فى قلب أصدقائه . أما قيامه بدور زير نساء مواظب على خيانة زوجه فيثير لديهم الابتسام ، بل يثير الحسد أحيانا ، فهو كلما حضر لباريس يجد أجمل نسائها رهن اشارته ، وكان طبعه يتيح له اذا عب من المتعة ألا يفوز الا بحلوها دون مرها

ثم استقر به المقام فى باريس سنة ١٨٤١ بعدأن ترك ايدا وحدها فى فلورنسا . انه فرغ من تأليف المسرحية التى كلفه بها وزير الداخلية من قبل واسمها « زواج فى عهد لويس الخامس عشر » فأحب أن يشهد تجارب تمثيلها فى مسرح الكوميدى فرنسيز ، ووجد أن المدموازيل مارس على وشك أن تتقاعد ، وان الممثلين بدأوا يكرهون راشيل من صميم قلوبهم ، أما هى فلا تقابل كبار الكتاب الا بثغر باسم ، فحسن رأى دوماس فيها وقال عنها أنها فتاة ظريفة . ولما أقيمت فى شهر يونيو الحفلة الاولى للمسرحية لقيت نجاحا عظيما

وجاء صيف تفتحت له فيه أبواب كثيرة للمتعة والتوفيق . السوق الادبى رابح . كتب عديدة تحت الطبع . ووثق دوماس أن التعاون بينه وبين ماكيه سيدر عليه ربحا وفيرا فى المستقبل . وكان ماكيه مواظبا على مد دوماس بأبحاثه التاريخية . ولعل من أكبر النعم التى سعد بها دوماس ان ايدا أحبت ايطاليا وبقيت

بها ، فالحياة معها منذ الزواج مضت مليئة بالعواصف والمعـــارك العنيفة ، ولم تعد ابدا تحتملها رغم شراسة طبعها ففضـــلت أن تقضي معظم وقتها في فلورنسا وحدها وأطلقت على نفســـها لقب « المركيزه ديفي دي لا بالترى » تتعزى بهـذا اللقب المهيب الرنـان عن فقدانها لسيطرتها على دوماس الذى طالما توله فى حبها . ولكن القطيعة بينهما لم تتم الا سنة ١٨٤٦حين اتفق الاثنان على الافتراق بغير رجعة ، وكانت العشرة بينهما من قبل لا تطول كثيرا . وحمـد دوماس حسن حظه الذى أتاح له بالاخص أن يجعل من بيته بيتا لابنه أيضا ، فان ألكسندر سيغادر المدرسة فى نهاية العام الدراسى. انه الآن فى السابعة عشرة من عمره . شب فتى ظريفا ودودا ذكيا ، فمالت نفس أبيه الى أن يعيش هذا الابن فى كنفه .

وفى الايام الاخيرة من شهر يوليو انتقل الكسندر الى بيته حاملا معه ما يملك من أشياء قليلة ، فأفردت له حجرة وقوبل بترحاب. ياله من فتى طويل القامة عريض الـــكتفين قوى البنيـــة فائق الوسامة . يتأمله أبوه فيمتلىء قلبه بالزهو والحنان . لقد سبق له أن أهمل هذا الابن طوال السنين التى كان فيها منبوذا مضطهدا محروما من نصير يذود عنه ، أما الآن فالاب متلهف على الاخذ بيده وتدليله ، وينسب اليه أنه حياه يوم قدومه بتحية لا يســــتبعد صدورها منه حقا حين رأى ابنه يجد له فى نهاية المطاف بيتا يأوى اليه ، قال له « يا بنى العـزيز ، الآن قـــد كبرت فاســـتمع الى ، وأطعنى . انه حين ينال الفتى شرف حمل اسم ألكسندر دوماس ضمن واجبه نحو نفسه ألا يعيش كالبقال أو كمـــوظف كتـــابى صغير ، بل من واجبه نحو نفسه أن يتناول عشاءه فى « قهـــوة باريس » وأن تكون له خليـــلات ، وأن يصرف عليهن ببذخ وألا يحرم نفسه من شىء ، فاستمتع يابنى بحياتك قـــدر جهـــدك ، واعتمد على »

ولكن هيهات لما يحدث اليوم أن يمحو ما حدث بالأمس . ان كان دوماس لم ير أمامه الا ابنا يانعا وسيما تقر به عينه ويغبطه عليه الناس ، فان هذا الابن الماثل بين يديهما هو الا صبى مثخن بالجراح من اجراء طول مالاقاه من قسوة وظلم وسوء معاملة ، لذلك لاعجب أن يشذ عن بقية الشبان أقرانه ، فقلبه قد تحجر قليلا ، وميله الموروث للكرم والوداد متستر يحتمى بمخالب بارزة من الشراسة والعدوان . انه فتى يعمل فكره ويطيل التدبر ، يمنح أباه ابتسامة

متهللة ، فوجهه متلثم بالبشر دائما ، ولكن من وراء هذه الابتسامة جرح نزاز يئن له البائس الفقير حين يخالط السعداء فيجدهم منعمين غير آبهين لكربه . هيهات لهنائه مدى سنتين في كوليج بوربون أن يمحو مرارة تجاربه الاولى أو يغير رأيه في الحياة أو ينسيه كيف كانت له مكانة وضيعة في نظر الناس .

وأخذ ينصت لابيه مبتسما ويتطلع اليه باعجاب ، فقد كان أبوه حينئذ – بشهادة الصحفى كاميل دى فيلميسان – على درجة فائقة من الوسامة ، تتمثل فيه أروع محاسن شعوب عديدة . كان مالكا لناصية تمام قوته ، قريبا من قمة تألقه الذهني ، وكان ابنه ينبهر لظرف فكاهته وسرعة بديهته ، ويعده نابغة فريدا . اذا أمتعه من أبيه استهانته بكل عرف أو تقليد يصطلح عليه الناس فانه كان في الوقت ذاته يجزع من عواقب هذه الاستهانة .

ان الكسندر دوماس الصغير اليوم لا يزال فاقدا الثقة بنفسه ، فقد ترك المدرسة دون أن ينجح في امتحان البكالوريا فانقبض صدره ولاحقته هواجس تشككه في مقدرته ، واذا استمع أبوه لهذه الهواجس قهقه في وجهه ساخرا به وأخذ يسأله : المدرسة ؟ ما معناها وما خطرها ؟ انها لا شيء . المدرسة الوحيدة الصادقة هي الحياة ذاتها فينبغي لابنه أن يتزود من تجاربها العملية فيذهب لكل مكان ويرى كل شيء ويرقب ويتعلم . ومن قبيل الدرس الاول أخذه أبوه الى الترزى وفصل له ثيابا تجعل منه فتى أنيقا .

وكان الرجال في ذلك الوقت أكثر من النساء هوسا بأناقة الملبس ، فتملك الكسندر قدرا من الثقة بنفسه لما رأى بذلته يصنعها له هومان أرقى ترزى في باريس ، والصديرى الابيض المزخرف وأربطة العنق تأتيه من لندن ، والعصي التي يختال بها تأتيه من محل فردييه الشهير ، وأن لديه مجموعة كبيرة منوعة من القبعات الحريرية العالية ، وقفازات من الجلد الفاخر ، وأحذية سوداء لامعة ، وخصص له أبوه قهرمانا لا يعني الا بحفظ ثيابه وترتيبها ويعينه على ارتدائها كأنه عروس ليلة الدخلة ، فاذا رأى شخصه في المرآة في جناح أبيه آمن أنه – في نهاية الامر – انسان ذو مكانة عالية في نظر الناس رغم اخفاقه في المدرسة ، ثم رفع رأسه في خيلاء وخرج يتبختر كالطاووس في شوارع قلب العاصمة .

وكان منزل أبيه يقع في شارع « شوسيه دانتان » المؤدى الى شارع الايطاليين ، منتدى الفنانين والمشهورين بالاناقة . ولقد كانت الحياة

فى هذه الشوارع التى تعد من باريس بمثابة القلب النابض تجرى على نهج فريد لم يبق منه اليوم أثر يدل عليه ، ودام هذا الحال حقبة من الزمن بدأت بجلوس الملك لويس فيليب على العرش واصدار أمره باغلاق أندية القمار فى حى باليه رويال ، وكان الناس حينئذ تقصد هذا الحى الذى يجمع أماكن اللهو فى الهواء الطلق ٠ وانتهت هذه الحقبة بافتتاح المعرض الفرنسى الدولى الأول بباريس سنة ١٨٥٥ ومجىء آلاف من الاجانب داخل الريف الى العاصمة لزيارته ٠ وفى عهد الملك لويس فيليب كان المنتدى المحبب لدى الاغنياء والمترفين هو الحى الواقع بين مسرح الفاريتيه فى شارع مونمارتر وبين المقهى الانجليزى فى الطرف الغربى لشارع الايطاليين ٠ وفى شرق هذا الحى شارع القرم وفى غربه يقع شارع الكابوسينى المعروف بهدوئه ثم شارع المادلين ٠ وكانت علية القوم تسكن فى هذه الشوارع ، لهم بها منازل أنيقة ذات أبواب يزخرفها المثالون ، وشرفات منمقة بأشكال بديعة من الحديد المطروق ٠ أما من وراء كنيسة المادلين — وكان بناؤها لم يتم الا منذ عهد قريب — فيكاد المنظر يوحى للسائر بأنه يجوس خلال الريف

وكان شارع الايطاليين مجمع المطاعم والمقاهى التى ذاع صيتها فى ذلك العهد ٠ وكان « مقهى باريس » أكثرها شهرة ، فهى معدودة بأنها أفخر مطعم فى أوربا كلها ، الخدمة فيها بلغت حد الكمال ٠ وكان بلزاك اذا قصدها ليحجز مائدة لضيوف له يريد الحفاوة بهم نادى على رئيس الخدم وطلب اليه أن يبذل لحجز المائدة غاية جهده اكراما له ، فيرد عليه بأن « مقهى باريس » تبذل دائما غاية جهدها لارضاء كل زبون يدخلها وليس بعد غاية الجهد مزيد يطلب فيجاب ٠ الى هذا المقهى يأتى الدكتور فيرون لتناول غدائه ، وهو مليونير صاحب نفوذ قوى لا حد له ، واليه أيضا يأتى اللورد بالمرستون كلما نزل باريس، وكان لا يقصد هذا المطعم الا نخبة ممتازة منتقاه من علية القوم ، يحرصون على أن يكون وقفا عليهم ، فاذا دخل غريب يقحم عليهم نفسه تطلعت اليه العيون شزرا وحرمته من الشعور بالاطمئنان فى جلسته ٠

واصبح من عادة ألكسندر أن يتناول عشاءه مع أبيه فى « مقهى باريس » ٠ بعدا للايام التى كان لا يذوق فيها الا الخبز الجاف والماء القراح فى مدرسة سان فيكتور ٠ انه الآن يأكل بشهية واقبال وتتبادل أمامه أصناف عديدة من طعام مترف بديع ، حساء الطيور

البرية ، السمان والدجاج المحشو بالعصافير ٠٠ الخ الخ ثم يبعث الدفء الى أعصابه المقرورة بشرب كأس من نبيذ معتق شهير يصطفيه له أبوه الذى لا يشرب الخمر عادة ، ولكن اذا طلب شيئا فلابـــد أن يطلب أجود الاجود • ويتبادل الجالسون الى الموائد المتفرقة فيما بينهم نصيبا من الاطباق أو الخمور المقدمة اليهم ، فيرســـل دوماس الى الدكتور فيرون جانبا من صنف اللحم الذى طلبه واستطابه ، ويرسل الدكتور فيرون زجاجة من نبيذه المفضل الى أمير روسى اعرابا عن تحيته له • وكان يحدث أحيانا كثيرة ألا يقـــوى دوماس الاب على كتم انبهاره اذا جاءه طعام أجيد طهيه وطاب مذاقه ، انه يضع الشوكة والسكين ويهتف « تسلم يد من صنعه » ثم يترك المائدة ويندفع والخدم يحيطون به الى المطبخ ليهنىء الطاهى بنفسه ويناقشـــه فى أسرار فن الطبيخ ، لم يكن لزبون غيره حق دخول المطبخ متى شاء • وكان دوماس ــ على غرار بروسبير مريمى وبلزاك ــ بارعا فى طبخ الطعام فكان الطهاة فى المطعم يستقبلونه استقبالهم لامير مهنتهم

وكان رواد « مقهى باريس » أصحاب ألسنة غير مفلوتة العيار ، أما أخبار الفضائح والشائعات فيسمعها ألكسندر هو وأبوه على رصيف « مقهى تورتونى » و « مقهى ريش » ، وعرف ألكسندر كيف يحتفظ بهدوئه واتزانه فى هذه الحياة البديعة الخلابة الطارئة عليه • ما أشد اعجابه بأبيه حين يراه يسيطر على كل مجتمع حالما يهل عليه ، وكان ينصت للاحاديث الدائرة ويستمد منها أكبر متعة • انه أخذ فى النمو جسدا وعقلا • ان جيبه عامر دائما بالدنانير الذهبية اذ كان أبـــوه يضع نقوده فى درج مكتبه ولا يقفله أبدا ثم يقول لابنه « خذ ما تشاء متى تشاء » وقد لحظ ألكسندر أن أصدقاء أبيه وعشـــيقاته منحـــوا أنفسهم هذه الرخصة ايضا كلما جاءوا الى البيت فكل واحد منهم يعرف أين يضع دوماس نقوده • شتان بين ما يراه ألكسندر من أبيه وما ألفه من طبع أمه وتنشئتها له على غرارها ، كان من الزم الـــلازم عندها أن تعد كل قرش ، وأن تخبئه فى مكان أمين ،لاعجب أن صدمه مسلك أبيه ، وهو الذى لا يفتأ يذكر كيف نشأ صبيا فقيرا ثم تلميذا لايعرف الا التقشف ، فكان يزجر أباه ويعيب عليه حماقته واستهتاره، فيجيبه أبوه فى مرح بقهقهة عالية مدوية • لو خلق الكـــرم والجود رجلا لكان هو ، انه عاجز عن أن يرتاب فى النـــاس أو يلاحقهم بشكوكه • اذا كان الناس فى حاجة الى النقود فليأتوا اليه ، ما عليهم الا أن يفتحوا درج مكتبه ويأخذوا ما يريدون • ومثل هذا الكرم

السخى خليق بأن يلقى عليه عبئا باهظا ولا ريب ، ولكنه كان يحس أن الحياة تتدفق بعنفوان فى عروقه ، وأن قدرته على العمل والانتاج لا حد لها ، فليس هو الذى يحسب حساب المستقبل أو يخشى غوائله، كل الذى يلزمه أن يقسر نفسه على العمل بجد ، فهو يجلس الى مكتبه فى الساعة السابعة صباحا ليبدأ يوم عمل طويل ، يجرى قلمه مطواعا ساعة اثر ساعة ، اعتدال خطه يثير الدهشة ، ذهنه متوقد وقدرته على تركيز انتباهه لا مثيل لها • فاذا أقبل المساء فقد آن له أن يسترخى ويخرج لتناول العشاء مع أصدقائه فى صحبة ابنه ، وبعد ذلك هيا الى المسرح أو هيا الى حفلة راقصة •

لم يكف ألكسندر عن زجر أبيه • كم حاول أن يجعل حياته تسير وفق ترتيب منظم معتدل ولو بقدر قليل ولكن جهوده كلها ضاعت عبثا فألقى هو أيضا بنفسه بحماس فى تيار الملذات والترف • وحين يجد فتى فى سن السابعة عشرة أبا ثريا متلافا يغريه بأن يجرى وراء المتعة وأن يبعثر النقود كما شاء بغير حساب فأغلب الاحتمال أن يستجيب لهذا الاغراء • ونفى ألكسندر التهيب عن نفسه وملك زمام شجاعته وجرأته وانطلق يعب من المتعة وينثر المال وينخرط فى سلك الشباب المشهورين بالاناقة والترف •

وهناك فتاة لم تكن هى الاخرى أقل منه بهجة ولا اندهاشا من أن الذى يحدث ليس من الاحلام ، تلك هى ألفونسين التى ابتسم لها الحظ ومهد لها طريق النجاح • مر عليها يوم كانت ترى فيه من أكبر نعم الدنيا عليها أن تظفر بكيس من البطاطس المحمر ، ويوم حسدت فيه كل فتاة عاملة فى متجر لقبعات النساء تستطيع أن تعنى بنظافة جسدها وأناقة ثيابها ودفع أجرة حجرة على السطح ، ويوم كانت تؤمن فيه أن السكنى فى شارع البواكى هى قمة السعادة والتوفيق • أما اليوم فانها تنظر باحتقار الى هذه المتع الوضيعة • انها أصبحت عشيقة آجنور دوق دى جيش وريث لقب دوق جرامونت : الشاب الثرى الذى يشيد أهل باريس بظرفه وأناقته ووسامته •

ذلك أن ألفونسين تنكرت ذات يوم للشيخ العطوف صاحب المطعم الذى انتشلها من الوحل ووهدة الفقر ، وطردته شر طردة بلا شفقة أو وخز من ضمير • لا يعلم أحد أى أيد تلقفتها بعده وهى منطلقة ترقى سلم المحظيات درجة بعد درجة حتى بلغت قمته ، ولكن الثابت أن دوق دى جيش اقتنصها لنفسه ذات ليلة وهى خارجة من ملهى البرادو الذى يغشاه أهل الترف للرقص ولمتع أخرى ، والثابت أيضا أنه

انتزعها من أحضان الكونت فردنان دى مونجيون الذى شكا لصديق له بعد ذلك قائلا : « لقد وهبت ألفونسين عربة هدية خالصة لها فاذا بى اليوم أرى الدوق دى جيش يركبها ويتربع بها ، انها أيضا لا تزال محتفظة بالكلب الاثير عندى وأراه يقوده الدوق دى جيش للنزهة ذهابا وايابا أمام البيت كل يوم • فماذا تنصحنى أن أفعل ؟ » فأجابه صديقه : « لا مفر لك من مبارزته ، اللهم الآ اذا شنعت عليه ببيت بديع من الشعر يجرى لظرفه على كل لسان ويشيع فى الافاق »

والتقى نستور روكبلان ذات مساء فى ملهى رينلاخ بالدوق دى جيش فقدم له هذا الاخير عشيقته : فتاة ذات شعر أسود فاحم ترتدى من الثياب وتتحلى من الجواهر ما يتوقع لعشيقة دوق شاب ثرى متلاف ، وأخذ نستور روكبلان يجهد ذهنه وهو يسأل نفسه ترى أين رأى هذه الفتاة من قبل • ثم استنارت ذاكرته ، انها هى بعينها الفتاة الفقيرة التى صادفها على الجسر ذات يوم منذ سنتين أو ثلاث ومنحها قرطاسا من البطاطس المحمر

الفونسين تسكن الآن شارع مونت تابور ، لاترهقهـــا لواعج حب عنيف ، منصرفة الى شراء الاثواب واحدا تلو الآخر ، وقضاء ليلهـا موزعة بين المسارح وحفلات الرقص ، ونهارها فى تعلم القـــراءة والكتابة . لقد بقيت الى اليوم فواتير الكتب التى اشترتها ويتبين منها أن حضارة ذلك العهد كانت تضفى وشاحها البراق حتى على المحظيات اللاتى صعدن من الحضيض ، اذ أخذت ألفونسين تقرأ قصائد فيكتور هوجو ولامارتين وألفريد دى موسيه . وكانت مكتبتها الخاصة التى خلفتها بعد موتها تفسح أكبر جانب منها لكتب الادب الكلاسى •

وكان الدوق دى جيش وقت بدء صلته بألفونسين يبلغ الثانيـــة والعشرين من عمره « انه دخل فيما بعد السلك الدبلوماسى ثم أصبح وزيرا للخارجية أيام نابوليون الثالث وتحول الى دوق جـرامون » لاعجب وهذا مقامه فى المجتمع أن أثار اقتناصه لالفونسين ضجة كبيرة بين الناس . فلم يمض أسبوع واحد حتى انتشر الخبــر فى باريس كلها ، اذ لاهم لرواد المقاهى فى قلب العاصمة الا ترديد أخبـــار الفضائح والشائعات . وكان السلم يسود أوروبا حينئذ ، فانصرف الناس عن الاهتمام بالسياسة والتحدث عنها . وبقى من الانباء التى تسترعى الانتباه نبأ من قصر التويلرى بأن الملك لويس فيليب قد أخذت له صورة فوتوغرافية (وكانت الفوتوغرافيا حينئذ لم تختـــرع الا حديثا) ونبأ آخر فى شهر سبتمبر أثار الناس ليـوم أو يومين حين

علموا أن شخصا قد أطلق الرصـــاص على الدوق دومال ابن الملك .
ولكن اقتناص الدوق جيش لالفونسين أمدهم بنبأ يطول حوله حديثهم
وبدأت الانظار تحملق الى الفونسين وهى تشق شوارع العاصمة بعربتها
فيعجب كل من رآها بحسن ذوقها فى اختيار ثيابها .

وخبر آخر تحدث الناس عنه طويلا فى شهر سبتمبر : خبر اصدار
جورج ساند بمعاونة اثنين من زملائها لمجلة اسمتها « المجلة المستقلة »
وبدأت تنشر فيها قصة طويلة مسلسلة بعنوان « هوراس » ، كتبتها
بوحى من دراستها لمارى داجو ، فحنق جورج ساند على صاحبتها
لم يكن قد خمد اواره بعد، وحز فى قلبها أن رأت غريمتها تجد مستقرا
لهافى باريس وتلقى بين أهلها قسطا وافرا من النجاح، بل تعتنق الادب
وتؤلف الكتب وتصل لتوها الى القمة بفضل لقبها النبيل وصلتهـــا
الطيبة بأصحاب النفوذ . ذلك أن مارى كانت تهوى الادب والتأليف ،
وأعانتها رفقتها لليست على أن تملك ذوقا فنيا رفيعـــا ، وهى فوق
ذلك خبيرة ببلاد أوروبا ومتاحفها ومعارضها وأصبحت تواظب على
الكتابة فى مجلة « الصحافة » متخذة لها اسما مستعارا هو « دانيل
سترن » . وكانت قد أمضت فصل الخريف على ضفاف نهر الـــرين
فى صحبة ليست وشب بينهما العراك مرارا وتكرارا ولكنها عادت
الى باريس وهى مؤمنة انه لا يزال يعشقها . وبفضـــل هذا الايمان
وبفضل نجاحها فى ميدان الادب أيضا أتيح لها ان تنعم من السعادة
بقدر لم تفز بمثله من قبل لوقت طويل . أما الآن فقصـــة هوراس
المسلسلة تلاحقها وتنغصها وتقض مضاجعها وتذيقها عذاب ليـــال
تمضى بين أرق وهيـــاج

رسمتها جورج ساند فى قصتها فى صورة امرأة اطلقت عليهـــا
اسم « الماركيزة دى شـــــابى » ووصـفتها بقلمها اللاذع قائلة :
« ان لها خصر نحلة ويدى العذراء البتول فى لوحة من صنع رفاييل
وقدمى حورية ووجه مومياء ولسان أفعى » وقد هفا ليست وغفـل
عن الكياسة حين ذكر لمارى فى خطاب أرسله اليها ان الصـــــورة
التى رسمتها جورج ساند لاتقبل اى شك انها هى المقصودة بها.وان
معارفها ستتحلب أفواههم وهم يقرأون هذه القصة بلهفة واستمتاع

ولكن الفضيحة التى فاقت بكثير فضائح تلك السنة كلها جاءت على
يد راشيل . انها كانت عشيقة الدكتور فيرون لزمن طويل .والدكتور
فيرون رجل على درجة كبيرة من دمامة المظهر ولكن راشيل الحصيفة
المدبرة رأت ان ترتبط به بسبب نفوذه القوى فى عالم المسرح .أنشأ

مجلة باسم «مجلة باريس» وهى التى ورثتها فيما بعد « مجلةالعالمين» وتولى لفترة قليلة ولكن بنجاح كبير منصب مدير دار الاوبرا ، وكان فوق ذلك فاحش الثراء ، فاستغل نفوذه لحمل الناس على الاسراع بالاعتراف بموهبة راشيل ، فلولاه لما أتيح لها ان تقفز فى فجر اشتغالها بالتمثيل الى قمة الشهرة .

وحرصت راشيل على أن تجعل علاقتها به سرا مكنونا فى طى الكتمان ، ذلك أنها تصبو الى أن تكون لها مكانة مرموقة فى المجتمع فهى قد أصبحت أثيرة عند الطبقة الارستقراطية من سكان حى سان جرمان التى تكن ولاء لا يتزعزع لنظام الحكم الملكى الشرعى وعهوده السابقة للثورة ، ففتحت ذراعيها لراشيل واحتضنتها احتضانا لند مساو لها ، فكان هذا الترحيب فوزا كبيرا لراشيل فى عهد كانت فيه هذه الطبقة الارستقراطية تنظر من عل الى ليست وتراه غير جدير بأن يغشى صالوناتها .

ان هذه الطبقة توجس خيفة من أنصار الثورة ، وخلطت بين السياسة والفن وآمنت أن راشيل هى منقذة فرنسا . أبغض شىء فى نظرها هو المذهب الرومانسى ، وخيل اليها أن فى احياء روائع المسرح الكلاسى على يد راشيل ـ الممثلة الشابة الموهوبة ـ ارجاعا لفرنسا الى نظام الحكم الملكى المطلق . فهيهات لراشيل وقد أسند اليها هذا الدور النبيل ان تسمح بكشف سقطاتها لاناس يؤمنونأنها بريئة طاهرة مخلصة . انها قادرة فوق خشبة المسرح على الايحاء بأنها تملك لب هذه الفضائل كلها ، ويقتنع كل من لايخالطها عنقرب بأنها صادقة . ولما ذهبت لانجلترا استقبلتها الملكة فيكتوريا فىقصر وندسور وقالت عنها : « يالها من فتاة ظريفة متواضعة »

وتمت زيارتها لقصر وندسور فى الصيف السابق أثناء موسم مسرحى أقامته فى لندن . وقد حدث أثناء غيابها عن فرنسا ان انفجرت قنبلة هدمت صرح السعادة التى كانت تحتمى به ، ذلك ان الدكتور فيرون ، وان لم يكن شديد الحساب والمراقبة لراشيل ، بدأ منذ شهور غير قليلة يضيق ذرعا باستبدادها وحدة طبعهاوامعانها فى خيانته الى حد يجلب عليه سخرية الناس وهزاهم . وأتاح له نفوذه الواسع ألا يتورع من الالتجاء للشرطة لاثبات صدق شكوكه . فثبت بعد تحقيقاتهم أن راشيل مواظبة على لقاء رجال آخرين فى منازل مختلفة فى باريس ، وهى التى لاتكف فى الوقت ذاته عنبعث رسائل اليه تؤكد له فيها حبها واخلاصها ووفاءها ، فقر رأيه أثناء

توارد الانباء بانتصارها الباهر في موسم لندن أن يضع أنفها في الرغام . ان الملكة فيكتوريا أهدتها أسورة من الماس ، وكتب لها الدوق ولنجتون رسالة رقيقة فهي ستعود لباريس و لاريب شامخة الانف ، معتدة بنفسها الى حد لايطاق . فعمد الدكتور فيرون الى دعوة نفر من أصدقائه لتناول الغداء معه وعرض عليهم الرسائل التي تؤكد له فيها حبها ووفاءها ليستمتعوا بقراءتها . ثم تلا عليهم بصوت مرتفع تقارير الشرطة عنها .

فطار الخبر في أرجاء باريس كلها وفقدت راشيل فجأة سمعتها بين أوساط الاسر الارستقراطية في حي سان جرمان ، فلما علمت بالنبأ وهي في لندن مرضت من شدة حنقها ويأسها مرضا خطيرا .

وفي الاسابيع الاولى لفصل الخريف لم يتحدث أهل باريس عن شيء بافاضة مثل تحدثهم عن هذا الخبر . وزاد في عجبهم أن راشيل لم تلبث طويلا حتى أمدتهم بنبأ فضيحة مثيرة اخرى لاتقل غرابة ، ذلك أنها بعد عودتها من لندن عرفت كيف تداهن الدكتور فيرون وتصالحه وتسافر معه في رحلة مدة شهر كامل ، فثارت ثائرة الناس وتقززت نفوسهم . فلما عادت الممثلة المتصنعة من جديد الى المسرح استقبلوها ببرود ملحوظ .

ولكن راشيل ممثلة ذات موهبة خارقة . ولو كانت هناك واحدة اخرى تحل محلها لانزلتها فعلة الدكتور فيرون عن عرشها . لم تكن هناك ممثلة أخرى تماثلها في الموهبة او حتى تلحق بأذيالها ، فسرعان ما استعادت مكانتها العالية في نظر أهل باريس .

لاريب أن ألكسندر دوماس الابن قد شهدها مرارا على مسرح الكوميدي فرنسيز خلال اواخر موسم سنة ١٨٤١ ، وكان يقال عنها حينئذ ان من ينظر نظرة شاملة غير مفتتة لشخصها وهي تتحرك فوق المسرح لايسعه الا أن يؤمن بأنها ذات جمال فائق . انها تعرف كيف تجعل حتى كل ثنية في ملابسها تنطق بالجمال . وهذا ما شهدت به أيضا شارلوت برونتي حينما رأتها في لندن . من عادتها أن تستر جسمها العليل فوق المسرح بثياب مفصلة وفق ذوق العصور الذهبية عند الاقدمين ، فتنحدر عليها فكأنما هي تمثال صنعه فدياس ، يدور طرف ثوبها ويتموج حول ساقيها وكأنما هي راقصة مرسومة على جدران معبد أغريقي . اما اذا قامت بدور درامي فانها تجعل ثوبها تهدل بثقله ويثبت حتى يضمها فكأنما هي نائمة في مأتم اغريقي . انها تلتزم الهدوء والجد والابتعاد عن الافتعال . ان صوتها العميق

العريض المستوعب لكل الطبقات ، والذى لايخلو من رنة موسيقية ، انما وهبه الله لها لتنشد به الابيات الموزونة التى كتبها كبـار أدباء المذهب الكلاسى . وكانت فى صمتها أبلغ منها فى نطقها ، فاذا عبرت عن عاطفة تفجرت كبركان ، وآمن من يراها انها تضمر قـوة هائلة لا تستغل منها الا سطحها الخارجى وان تعبيرها المتقد عن العواطف الجياشة لا يستنفد كل طاقتها . وكان الكسندر دوماس يدخل وراء ستار المسرح مع أبيه بين الفصول فيرى راشيل قد نبـذت الجلال الذى التزمته عند أداء دورها وانطلقت تلهو وتلعب كطفل امتاعا منها للمعجبين بها ، بل ترقص أمامهم رقصة الكان كان فترفـع طرف ثوبها الى صدرها ، وتقذف بقدمها الى مستوى راسها . فكأنما بعد أن صبت فى دورها فيضا متدفقا من عواطفها المتقدة وتخلت عن عبئه الذى كان يبهظها ، تحس أنها كشفت روحها عارية تتناهبها أعـين النـاس فلزمها أن تدخل قوقعتها من جديد وتبدى لهؤلاء النـاس وجها مختلفا يحتمى وراءه سرها ، ومع ذلك كانت فى بعض الاحيان اذا فرغت من اداء دورها فوق خشبة المسرح خـرجت تمشى الى حجرتها وهى مهدودة محطمة شاحبة لا تعلق نظرتها بشىء من حولها وبدت – وهى التى لا يزيد عمرها على العشرين – فى هيئة امرأة عجوز كأنما استهلكت فوق المسرح عواطف عمر طوله خمسون سنة .

الفصل التاسع

صعود نجم ألفونسين بليسيس

نعود الآن الى الوراء قليـلا ، غادر دوماس الاب باريس فى مطلع سنة ١٨٤٢ وعاد الى أيداوبيته فى فلورنسا تاركا ابنه وراءه يتلمس طريقه الى المتع وحده . وكان دوماس قد اصطفى لنفسه فى ايطاليا عددا كبيرا من الاصدقاء من بينهم أحد اخوة نابوليون وهو الملك جيروم الذى كان قد فقد عرشه . فلما عاد دوماس الى ايطاليا طلب اليه صديقه هذا أن يصحب ابنه ــ الامير نابوليون ــ فى رحلة الى جزيرة البا . وقد حدث خلال هذه الرحلة ان مر الرفيقان بجزيرة علم دوماس انها تسمى جزيرة مونت كريستو ، وهى جزيرة صغيرة مهجـورة تصلح للوحة رومانسية ، وقد دار حولها فى قارب صغير يحركه هو نفسه بمجدافيه فاذا برؤى عجيبة تلاحقه وتلهب خياله

وطاب فصل الربيع فى باريس لالكسندر ونعم فيه بالسعادة وهو منطلق فى اللهو يصرف لياليه فى طلب المتعة ، ولكنه يحب أيضــا بالنهار ان يتسكع على أرصفة نهر السين أو فى الشوارع العتيقة ، وان يقرض الشعر أيضا . هاهو زمان أصبح فى يده وحده ، وهاهو وفاؤه المعهود طول حياته لامه مايزال يشغل قلبه ، فأغلب الاحتمال أنه زارها فى ذلك العهد مرارا ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بذلك لان كاترين لوباى كانت لا تطلب الا أن تعيش منزوية فى ســتر ، فنحن اليوم لا نعلم شيئا عن حياتها حينئذ

وكانت صورة ألكسندر فى نظر الناس هى صورة شاب منصرف الى اللهو والعبث . انه الآن قد زادت جراته ، وشهد لهمن عرفه أنه ورث عن أبيه سرعة البديهة والنكتة الحاضرة ولو ان نكتة الابن كانت أكثر من نكتة الاب لذعا وأقل منها رفقا . ومع ذلك فانه حين سجل فيما بعد بسنين عديدة هذه الفترة من شبابه قال عن نفسه أنه كان خلالها مرحا فى الظاهر حزينا فى البـاطن ، ذلك أنه لم يتحرر كل التحرر من نفر ذكرياته المريرة عن تعاسة طفولته . فلا عجب أن ملك قبل الاوان وعلى خلاف قرنائه فى السن ميله الشديد للتروى والحذر . انه فى الظاهر يجرى وراء المتع ، وفى الباطن يتأمل الحياة بنظـرة نافذة الى الاعماق فيجدها لاتنطق له الا بالمآسى . ولم يكن طبعه هذا

وليد تجاربه الذاتية وحسب ، بل لان السوداء كانت لاتزال «مودة» شائعة بين الرومانسيين وان أخذت صورها الاشد غلوا وشططا تختفي شيئا فشيئا . واذا كان مطلب دوماس الابن في جولاته وحده في شوارع العاصمة هو أن يكتشف في دنيا الناس أبشع صورها وأكثرها اثارة لانقباض القلب فانه انما كان يحذو حذو نفر عديد من الكتاب وهم يدرسون حياة جيلهم المعاصر له .

الحياة فساد وعفن ووجود باطل زائل . هذه هي الافكار التي تعشش في ذهنه وينطق بها شعره . حتى في قصائده الى عشيقاته يتحدث عن اجتماع الحب والموت في عناق واحد . دخل ذات يوم احدى المستشفيات العامة ورأى جثة فتاة شابة فتريث امامها يفكر في النساء الجميلات اللاتي يعرفهن في عالم المسرح ، ان يكن لكل واحدة منهن اليوم ملامح ناطقة بالبهجة وعين متألقة وثغر باسم ووجه ناعم لانه مكسو بالمساحيق والاصباغ . فمهلا وصبرا ، ان الموت يحتفظ لهن بقناعه الذي سيلقيه على وجوههن ذات يوم ، فاذا مضين جاءت أثرهن نساء أخريات يجرين وراء السراب ذاته ليتحطمن في النهاية . هذا هو مزاج هاملت أمير الدانمرك الذي قدمته فرقة المسرح الانجليزي لاهل باريس من قبل خمس عشرة سنة فتشربه شعراء الرومانسية في فرنسا .

وتوالت المسرات والمتع على ألفونسين بليسيس في شهور ذلك الربيع . انها الآن تعلمت الكتابة . ولدينا اليوم خطاب أرسلته في مطلع تلك السنة الى أختها تدعوها الى المجيء للاقامة بضعة أيام معها في دار بشارع مونت تابور وقالت لها : « اذا رأيت مدينة باريس الجميلة فلن تطيقي البعد عنها وستألفينها سريعا » ولكن أختها دلفين بقيت متمسكة بحشمتها ، فقد خطبها فلاح مزارع واستطابت اقامتها بالقرية . وقد حدث في تلك الايام أيضا أن ألفونسين بدأت تضيق ذرعا باسمها الذي يرن في الاسماع رنين أسماء العامة من سكان القرى والحواري وقر رأيها على أن تتخذ لها اسما آخر يومىء بأنها من الطبقة الراقية . وجربت أول الامر ان تسمى نفسها ألفونسين دي بليسيس بدلا من ألفونسين بليسيس .

وفي يوم من ايام الصيف صادفها ألكسندر فاشتبك قدرها بقدره . كان وحيدا . في قلبه نزوع الى الوقوع في الحب . وحين وقع بصره عليها أخذ يرنو اليها ويتأملها . رآها تقفز بخفة من عربتها الزرقاء الفخمة التي يجرها جوادان مطهمان . حدث اللقاء في ميدان البورصة

ونزلت ومشت فمرت بالقرب منه ووجهها مستدير نحوه وهي تبتسم، ولكن نظرتها تعدته ولم تعلق به . وعاد يتأملها ، وخيل اليه أن عينه لم يسبق لها ان استقرت على انسان قبلها فيلحظه ويفرزه كما لحظها وفرزها . هي هضيمة الكشح ، رشيقة ، طويلة القامة اذا قيست بمستوى الطول للمرأة الفرنسية ، جمال تقاطيعها بالغ حد الجمال، عيناها تبرقان ، سوادهما ضارب الى اللون البنى ، شعرها الطويل الغزير متهدل على كتفيها وتتموج خصلات له كالحرير . وكانت ترتدى ثوبا من الموسلين الهندى محلى بغلالة تلف حول ساقيها ، وفوق رأسها قبعة من القش الايطالى ، وعلى كتفها شال من الكشمير مزخرف برسم زهور مختلفة الالوان . وما هى الا لحظة حتى غابت عن نظره، دخلت الى دكان واختفت به

بارح ألكسندر ميدان البورصة وهو يتنهد . انه لم يتبع هذه الفتاة الحسناء ودخل وراءها الى الدكان ، ولم يتريث ليعلم من تكون. انه شاعر فلابد له ان يخضع للاصول التى وضعها برليوز وليست وبقية الرومانسيين : مادام الحب قد طعن قلبه فليس له الا أن يعتكف ويذرف الدمع سخينا

ومع ذلك بدأت نظرته تفتش عن هذه الفتاة المجهولة أينما ذهب لان باريس بلد لا يتوه فيه انسان عن انسان . فاذا التقط لك بصرك شخصا ذات يوم فثق انك ستلقاه مرة اخرى . وكانت فرصة معاودة اللقاء أيام الملك لويس فيليب أكثر ضمانا . ولكن مضت عدة أسابيع دون أن تقع عين ألكسندر على ألفونسين اذ كانت قد سافرت للاستشفاء بالمياه المعدنية فى احدى المدن الالمانية التى يؤمها علية القوم ولقضاء الصيف بها ، ولعلها كانت فى صحبة الدوق أو صحبة مقيم آخر

وفى عز الصيف وقعت فاجعة ارتجت لها باريس . ذلك أن الدوق دورليانز ابن الملك وولى عهده مات ضحية حادثة مؤلمة ، كان يشق فى عربته شارع الشانزليزيه فى طريقه الى قصر نويى حيث يقيم أبوه ، فارتعبت الجياد فجأة وسفت اللجام ، وفقد السائق سيطرته عليها . ربما حاول الدوق أن يقفز منها ، وربما لفظته العربة بعنف . وقع على الارض فاصطدم رأسه بحجر وفقد وعيه ، نقلوه الى دكان بقال حيث أسلم الروح بعد ساعات قليلة .

وكان من أثر هذه الحادثة أن انقلب الوضع السياسى . كان للملك الى ذلك العهد مركز وطيد بسبب أمله المعقود على ولى عهد متصف

بالذكاء وميله الى سياسة الاحرار . فانتقلت ولاية العهد الى طفل فى الرابعة من عمره هو الكونت دى بارى . أما أكبر ابن بقى له ، الدوق دى نيمور ، فلم يكن فائزا من الشعب بمحبته ورضائه .

سمع دوماس خبر الفاجعة وهو فى بيت الملك المخلوع جيروم بالقرب من فلورنسا . ان دوماس يبدع فى الاستجابة المسرحية للمواقف الدرامية ، ولكن ابداعه ذلك اليوم فاق كل ابداع له من قبل، لم يشق عليه أن تسيل دموعه مدرارا ويعانق مضيفه وهو يقول « مولاى ، اسمح لى أن أبكى على أمير من أسرة بونابرت » .

وبعد أن بكى على صديقه الراحل ، امتشق قلمه ليسأل ربه عن معنى موت الدوق فى زهرة شبابه . انه لا يؤمن أن الكون محكوم بالصدفة العمياء فلابد أن المشيئة الربانية قد اقتضت حكمتها انهاء عهد الملوك والامراء . وأن هذه الضربة القاصمة هى وسيلتها للتمهيد للنظام الجمهورى الذى يصبو اليه قلب دوماس باخلاص . لم يأخذ أحد تنبؤه فى ميدان السياسة مأخذ الجد ، ولكن الحوادث أثبتت فيما بعد أن دوماس انكشف عنه الغطاء فى ذلك اليوم وصدقت رؤيته للمستقبل . فان مقتل ولى العهد زعزع مركز الملك سنة ١٨٤٨ ، وتعاقبت بعد نزوله عن العرش أحداث أصبح بعدها لأنظمة الحكم فى أوروبا وجه يخالف وجهها السالف التقليدى . فأنظمة الحكم السائدة فى أوروبا اليوم هى وليدة مصرع شاب فى حادثة ألقته من عربته عصر يوم من أيام سنة ١٨٤٦ ، حادثة معلقة بخيط واه فى يد القدر ، كان من الجائز أن ينقطع وكان من الجائز ألا ينقطع . وكم من صبى يقذف بكرة فى الطريق أو امرأة ترتخى قبضتها على دست وهى تفرغه من نافذة ، فاذا بقدر انسان يتبدل من حال الى حال .

وهرع دوماس الى باريس ، لا يتوقف ليلا ونهارا ليلحق الجنازة فى كتدرائية نوتردام . وجللت الكتدرائية بالمخمل الاسود فبدت كقبو متجهم ينقبض له القلب لا يضىء فيه شعاع من الامل أو العزاء لأهل الميت الذين ضعضعهم الحزن . وهبط على باريس يوم مقطب الجبين كريه السحنة وان بقيت الشمس ساطعة كأنها تهتز من البشر وشئونهم .

وانقضى المأتم وغفلت باريس عن قصر التويلرى واستعادت هدوءها وبشرها . واستقر دوماس فى العاصمة الظريفة الانيسة وأخذ يتدارس هو وماكيه خططهما لتأليف قصص تاريخية . وكان الكاتب أيواجين ينشر مسلسلة فى صحيفة « الجورنال دى ديبا » قصته المسماة

« خفايا باريس » فلقيت نجاحا عظيما ، وخشي دوماس أن يسبقه أحد غيره فأغرق نفسه فى العمل ، فاذا جاء وقت الراحة والاسترخاء أغرق نفسه أيضا فى خضم الملذات مصطحبا ابنه ألكسندر من أجل أن يشرف عن اتمام تعليمه وتدريبه . يخرجان معا ليلة بعد ليلة كأنهما صديقان حميمان . ان ألكسندر جريح القلب منذ أن طعنه الحب ذات يوم فى ميدان البورصة ، ولكن هيهات لجرح قلبه أن يعوقه بشدة عن العب من ملذات الحياة . انه يبرأ كل البرء من دائه حين يخرج مع أبيه فى عطلة نهاية الاسبوع للصيد فى الريف أو حين يحضر معه احدى المآدب المترفة التى يهيم رجال الادب فى باريس أن تجمعهم ليتنقلوا بين التهام أطيب طعام والتمتع بأشهى سمر مع أصدقائهم اللامعين . فكان ألكسندر يقهقه بملء فمه كلما سمع نكتة بارعة .

وعادت ألفونسين بليسيس فى أوائل الخريف من مدينة بادن الى سكنى أفسح فى شارع دانتـان . وتم انخراطها فى سـلك المحظيات واختيارها لاسم جديد ، فبدلا من ألفونسين بليسيس أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم مارى دوبليسيس . وكان سكنها الجديد ظريفا أنيقا : صالون ومخدع وحجرة طعام وحجرتان للنوم اضافيتان . وأصبحت ألفونسين ــ أو مارى دوبليسيس ، فهذا هو اسمها منذ الآن ــ أول امرأة يتلهف على لقائها علية القوم وبخاصة ممن عرفوا بترفهم وغشيانهم لنادى السباق ، فأعضاء هذا النادى الذى لا يفتح أبوابه الا لفئة متخيرة من الناس يعدون من دلائل كرم المحتد واستحقاق الشهرة أن يبعثروا ثروة طائلة تحت أقدام محظية . وكانت مارى دوبليسيس من بين محظيات باريس أكثرهن جمالا وأصغرهن سنا ، وكان عشاقها يعرف بعضهم بعضا ، فهى ــ كما قال عنها جوهان جرو كاتب سيرتها ــ وان تقلبت بين عشيق وعشيق باقية تحت سـقف الاسرة . وكان اللورد هنرى سيمور هو الذى أنشأ نادى السباق منذ بضع سنين فأصبح ناديا دوليا يؤاخى بين الذين ابتسم لهم الحظ .

وكان الدخول الى بيت مارى دوبليسيس يعد فخرا ودليل مكانة مرموقة فى المجتمع ، فى نظر كل من يبذل جهده لنواله . وكان الاتفاق على شروط اللقاء تتولاه عادة مدام كليمانس برات التى أصبحت بفضل نابها الازرق وكيلة أعمالها . ويروى دى فيلمسان فى كتابه المسمى « ذكريات صحفى » كيف مر على مارى عهدا اتفق فيه سبعة من رجال الطبقة الارستقراطية على اقتسام قلبها ، فكان لكل منهم فى الاسبوع

يوم خاص لا يتعداه ، وقدموا اليها هدية ترمز لهذا الاتفاق بينهم .. وكانت الهدية تسريحة بمرآة لها سبعة أدراج . ولعل هذه القصة هى من نسج الخيال فقد بدأت الالسن تتناقل عنها أغرب الحكايات ، ولكن لا شك أنها كانت تبدل عشاقها بسهولة ونفس راضية تبديلها لثيابها . وأصبحت بفضل هداياهم تملك اغلى المجوهرات وتأكل فى آنية من أجود أنواع الفضة ، وصحون من الصينى الفاخر الذى يختص به مصنع سيفر الشهير . فانه اذا كان الفقر الشائع فى باريس فى ذلك العهد فقرا مدقعا ، فالثراء القليل كان ثراء فاحشا . فمارى التى تنكرت لها الدنيا وهى صبية طاهرة بريئة وبخلت عليها بكسرة من الخبز الجاف وحرمتها من العطف والحنان أصبحت وهى شابة قد خلعت العذار تسير فى طريق شائن منحدر فتطأ اقدامها على أرض من ذهب وتصيب من البهجة قطوفا دانية .

يئس الكسندر من رؤيتها خلال الاسابيع الطويلة التى مر بها شهر الصيف ، فلما جاء الخريف أصبح يراها بين الحين والحين ، ففى عصر كل يوم تشق شارع الشانزليزيه عربة زرقاء فخمة هى التى رآها الكسندر من قبل فى ميدان البورصة ، وفى داخل العربة تجلس فتاة ذات بهاء مشرق وشعر أسود فاحم عليها أجمل الثياب . هى أغلب الوقت وحدها ليس معها من رفيق الا كلبها . لها جلسة هادئة مستقرة شأن انسان مستغرق فى أفكاره . ولدينا عنها شهادة تصفها فى ذلك العهد كتبها مؤلف « غادة الكاميليا » بعد عدة سنين أى أيام الامبراطورية الثانية وقت أن كان الشعب غارقا فى اللهو والعبث وكل امرأة من اثنين هى فى أغلب الاحتمال منخرطة فى سلك المحظيات ، قال وهو يذكر مارى دوبليسيس فى عهد الملك لويس فيليب أنها كانت تشق شوارع باريس فى عربتها وهى جالسة مرفوعة الراس مصوبة نظرها الى الامام أو موجهة ابتسامة متسترة الى أحد معارفها ، ويقارن بينها وبين المحظيات اللاتى جئن بعدها أيام الامبراطورية الثانية ، كانت الواحدة منهن تلجأ الى كل حيلة مفضوحة للفت الانظار اليها ، تغمز بعينها لكل الرجال وتكركر بالضحك العابث وتلوح بيديها وتؤذى الاسماع بصوت وقاح مرتفع النبرة وتلطخ وجهها بطبقات كثيفة من الاصباغ والمساحيق ، كل حركة منها تنم عن الغرور والرضاء بالمقسوم .

لا شك ان الكسندر حين جاء الشتاء كان يصادف مارى مرارا فى المسارح ودار الاوبرا ، ولا شك أيضا أنه عرف من هى ، فان اسمها

كان حينئذ يدور على السنة كثيرة . انها تجلس عادة فى مقصورة قريبة من خشبة المسرح ، عاقدة شعرها الفاحم اللامع على سمط من اللآلىء او عقد من زهور الكاميليا ناصعة البياض ، وتحمل أيضا باقة صغيرة من هذه الزهور فى يدها الرقيقة دون ان تخلع قفازها . لم يدر فى خلد الكسندر أنه يقترب منها ، فهى اما فى صحبة الكونت أوليمبيو اجوادو دى لاس ماريسماس وهو مليونير ، أبوه صاحب مصرف مالى، واما فى صحبة الفيكونت ادوار دى بيريجو الذى فاز منذ عهد قريب جواده المسمى بلوفر بأكبر جائزة لنادى السباق ، واما فى صحبة رجل آخر شتان بين حاله وحال الكسندر ، انه فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، لا يزهو بلقب نبيل ولا يحتكم على ثروة تخصه ، فأفضل شىء بقى له هو أن يضمر لها الاعجاب عن بعد ، فلا يشفع له أن أباه غنى مشهور .

وتمر الأيام وألكستدر جلاب متعة لابيه ولنفسه . لا يترك ليلة تمضي دون أن يذهب الى المسرح ثم ينطلق مع من تكون عشيقته حينئـــذ الى حفلة عشاء صاخبة . وقد زجره فيكتور هوجو فى يوم سابق ونعى عليه أنه ، وهـو فى هذه السن المبـكرة ، لا يتورع عن اتخـاذ العشيقات وغشيانه فى صحبتهن للمآدب والحفلات .

الفصل العاشر

راشيل ودوماس الأب

استعادت راشيل مكانتها ، وكانت قد أصبحت منذ عهد قريب عشيقة الكونت واليويسكي الابن غير الشرعي لنابوليون من الكونتيسة البولونية واليويسكي ، وهو رجل واسع الثراء محب للترفع والتمييز، فأسكنها منزلا كبيرا في شارع تريدون وخلع عليها كل مظاهر البذخ والترف والنعيم .

وفي أوائل سنة ١٨٤٣ هبط باريس في رحلة سياحية : الكاتب الدنمركي هانس أندرسن المشهور بتأليف قصص للأطفال ، فكان أروع أيامه بها يوم وصلته من راشيل دعوة لحضور حفلة عندها ، فلما دخل بيتها أسقط في يده من شدة التهيب فتخاذل وتضعضع وفقد اطمئنانه ، فلما طالت السهرة نجا شيئا فشيئا من ارهاق الشعور بالغربة التي فاجأته وأقلقته فافرخ روعه واستعاد رباطة جأشه وأخذ يألف مظاهر الابهة والفخفخة ويتأملها باعجاب ، متعة بعد قلق ، فيالها من أمسية أضنت روحه وان سجلت في ذهنه أجمل ذكرياته عن باريس .

دخل فوجد ردهة فسيحة اجتازها ماشيا فوق أرض من الفسيفساء ، وصعد سلما عريضا فخما من المرمر الابيض . لغط الضيوف يصل أذنيه ، وعبير أزهار عديدة يعطر أنفاسه ، ثم وصل الى حجرة صغيرة تفضي الى بقية الدور فرأى أسفل جدرانها مكسوا بألواح بيض من خشب السنديان ، وعلى نوافذها ستائر من المخمل ما بين أخضر وذهبي ، ثم أقبل على بهو يتتابع فيه صالون أثر صالون حيث تستقبل راشيل ضيوفها ، الصالون الاول فسيح مزين على طراز عهد نابوليون مليء بلوحات منقولة عن رسوم جدران مدينة بومبي وزهريات من مخلفات الاترسك الاقدمين . ومن بعده حجرة للجلوس لها ستائر فارسية وعلى جدرانها لوحات عديدة لاشهر رسامي ذلك العهد مثل ميسونيه ودياز ودفيريا ، ثم من بعدها حجرة المكتبة وقد ذهل هانس أندرسن وهو يرى صفوفا فوق صفوف من أسفار مغلفة بأفخر أنواع الجلود لمؤلفين من أمم كثيرة ، ودقق هانس النظر فلم يجد من بينها كتابا لمؤلف دنمركي . اينما اتجه نظره فثمة

ستائر سميكة من الحرير والمخمل والدانتلا . وكأن البيت كله متحف من كثرة مايحتويه من المقتنيات التى لا تقدر بثمن . عـدد كبير من الساعات النادرة، وزهريات خزفية من مصنع سيفر، وشمعدانات بديعة

ووجد راشيل تصطنع لنفسها هيئة الناطقة بالمثل العليا للمذهب الاتباعى المستمسكة بالوقار والحشمة ، فثوبهـا من لون واحد من السواد ، وعلى الجدران من حولها رسوم بالابيض والذهبى تصور ربات الفنون التسع . وتلفت الكاتب القادم من الشمال فسحره مايراه من بهاء الزخرف وجمال التحف الفنية وكمال وقار راشيل ـ تلك الشحاذة التى ولدت على عتبات عرش فى عصر سحيق ـ وسحره أيضا ما يسمعه خلال الاحاديث من أفكار عديدة تستأثر بانتباهه ، وأحس أنه من طينة شتان بينها وبين طينة بقية الضيوف من أهل باريس بملابسهم الانيقة ولسانهم الذرب ، وثرثرتهم التى لا تنقطع عن ترديد الفضائح . هم ضيوف ولكن يحسبهم من فرط هدوء بالهم واطمئنانهم أرباب الدار ، أما هو فقد لحقته الربكة وانعقاد لسانه وتخبطت حركته لانه وجد نفسه فى عالم غير العالم الذى يألفه . من حسن حظـه أن راشيل لم ترفع حاجبهـا من الدهشة والاستنكار لمسلكه ، ولم توجه اليه ببرود نظرة متعالية وهو يتلعثم بين يديهـا بكلمات بلغة فرنسية سقيمة ، لا ريب انه كان سيعانى الارق ليالى طويلة ويتقلب فى مضجعه لو أن راشيل ضاقت به ذرعا وهو يعتذر لها عن نطقه السقيم للغة الفرنسية ، رآها على العكس تبتسم له وترق له بعطف لا مزيد عليه وقالت له : « بعض الناس يتحدثون الى بلغة فرنسية بليغة فصيحة ، ومع ذلك فانى لا أفهمهم ، ولكنى فهمت كلامك أنت ، وهذا هو شأن الفنانين أبدا اذا تحدث أحدهما الى الآخر .. »

أما المدموازيل جورج ـ النجم الغارب فى سماء المسرح ـ فكانت تؤدى على مسرح الاوديون أدوارها فى مسرحيـات كورنيل وراسين وشكسبير ، وتنعم بالشهور الاخيرة التى بقيت لها من عمر حفاوة الجمهور واعجابه بها . وكانت الجولات التى رتبها لها هاريل فى البلاد الاجنبية قد باءت بالاخفاق ، وبالاخص فى روسيا، كانت نكبة وتجربة قاسية عليها . لقد سبق لها أيام الشباب أن زارت روسـيا فقوبلت بالترحيب والاعزاز والتصفيق ، وانصرف القيصر الكسـندر عن خليلته مدام نارشكين وهام لفترة من الوقت بالمدموازيل جـورج واغدق عليها اغلى المجوهرات تذكارا للقائهما ، وافتتن بها أيضا الدوق

الاكبر قسطنطين ، بل بلغ الامر بموريس بنكندورف ـ شـــقيق الكونتيس دى ليفن ـ أن طلب اليها أن تتزوجه . فلما عادت الى روسيا بعد ثلاثين سنة لم تجد أحدا يحبها او يذكرها او يعنى بها . اعرض عنها القيصر نيقولا ولم يبال بها ، وحجبته عنها جدران قصره الشتوى . فلما عادت الى باريس شكرت ربها على النجاة من الخزى

وبقى هاريل يكرس اخلاصه وحياته لخدمتها ، وظل الاثنـــان مرتبطين وعلى أمل أن يبتسم لهما الحظ من جديد . وكانت دراسته عن فولتير قد فازت من الاكاديمية بجائزة . انه شرف اذا ترجم الى لغة النقود لا يساوى شيئا كثيرا ، ولكنه مع ذلك وجد فيه من التشجيع والامل ما جعله يطمح الى مجد أدبى ، لانه بدأ هو ايضا يؤلف المسرحيات ، ولكنه كان رجلا قد هده الارهاق ، وكذلك كانت المدموازيل جورج ـ وقد بلغت سن السادسة والخمسين ـ فى حاجة لان تستجمع كل ما بقى لها من قوة من أجل أن تواجه ليالى العمل الطويلة وغموم مهنتها ومنغصاتها

وكان فيكتور هوجو قد بدأ منذ قريب يوليها عنـــايته ، اذ كان قد كتب للكوميدى فرنسيز مسرحية « البورجراف » وأخذ يبحث عن ممثلة تصلح للدور الرئيسى . رفضت راشيل القيام به ، وجرب فيكتور هوجو ممثلة أخرى فلم تعجبه ، فمال الى اسـناده الى المدموازيل جـــورج ، ولكن مجلس ادارة المسرح أقام فى وجههـــا العراقيل ، اما الحقيقة فان راشيل كانت قـــد قـــررت ألا تقـــوم غريمتها بتمثيل مسرحية لهوجو ، انها صادقة الفهم لاحســـاس ابناء المسرح ، ولكنها لا تتورع من أن تمقت أشد المقت كل انسان منهم قد يحيف خطره على خطرها .. اين اليوم الذى شـــهد فيه المدموازيل جورج وزميلتها مارى نجمين لامعين ترمقهمـــا الاعين بالاعجاب واعزاز وشهد راشيل تلميذة مبتدئة فقيرة ضائعة . لقد أزاح الموت مارى عن طريقها وبقيت المدموازيل جورج . ان راشيل تضمر لها بغريزة عمياء كل مقت ، لا تغتفر لغريمتها وقت سطوع نجمها سطوعا يثير الحسد والغيرة ، قد أذاقتها وهى مجهولة مضيعة عذابا مضنيا لروحها ناءت بحمله . ولكن النجاح فى مسرح الكوميدى فرنسيز يعتمد الى حد كبير على شق الصفوف والدوس على كل قدم تعترض السبيل دون مبالاة باحساس صاحبها ، فمـا مقت راشيل للمدموازيل جورج الا خضوع منها لتقاليد قديمة متوارثة .

وحل يوم رفع الستار عن أول مسرحيـــة من تأليف هاريل ،

انه جعل اسمها « انتجاح » ولكنه غالى ولا ريب فى الاعتماد على الفأل ، اذ منيت هذه المسرحية بهزيمة شنيعة وأخذ هو والمدموازيل جورج ينظران الى المستقبل بوثوق متناقص .

ورفع الستار فى الوقت ذاته عن مسرحية فيكتور هوجو وهى مسرحية مملة قراءتها عسيرة ، فكانت هزيمتها لا تقل شناعة عن هزيمة مسرحية هاريل ، ذلك أن أنصار الرومانسية بدأوا يتقهقرون منذ ان بدأ نجم راشيل فى الصعود . وتعلق بهذه المسرحية الجديدة رجاء فيكتور هوجو باستعادة جذب المشتغلين بالادب الى مذهبه ولكن الذوق كان قد تبدل . وقد أثار اخفاق مسرحية هوجو حزنا صادقا فى قلب دوماس الاب الذى تدين له الرومانسية بفضل مولدها على المسرح . ان دوماس يقابل أعمال هوجو باحترام لا يتزعزع واعجاب لا يتحول . وكما حدث فى الايام الخوالى اراد بروسبير ميرميه وفاكيرى ان يحشدا بضع مئات من الشبان ليدموا أيديهم بالتصفيق فى أول حفلة للمسرحية ، فلما طلبا من سيلستان نانبتى أن يتكفل هو بجمع الانصار ــ لانه قلب الحركة ــ أجابهما بأسف شديد أن تحقيق رغبتهما أمر مستحيل واضاف قائلا : « لم يعد اليوم فى الناس شباب »

اصادق هو فى قوله ؟ أحقا تبدلت الاذواق ؟ هذا هو السؤال الذى اخذ دوماس يجيله فى رأسه . انه يذكر حماسه ليلة افتتاح مسرحية « هرنانى » وما تلاها من مسرحيات رومانسية ، ويذكر كيف كان يلوح بعصاه فوق الرءوس ويصيح ويهتف حتى انبته الصحف مرارا على ازعاجه للمشاهدين ، انه يذكر كل هذا ويتأمل ما يدور اليوم حوله . لم يتأخر جوابه وقال لنفسه : لقد صدق . نعم ان الاذواق قد تبدلت ، ولم يعد فى الناس شباب . فالشباب هو الحماس، هو الايمان بمبدأ أو جهاد ، هو الامتلاء باتقاد له ضجيج يشبه اتقاده هو وبقية زملائه سنة ١٨٢٩ وسنة ١٨٣٠ . أما اليوم فلا ترى عينه لهذا الحماس والاتقاد مثيلا ، حتى ابنه ، الذى لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره لا يستطيع ان يقول عنه وهو صادق أنه شاب ، فان له مسلك الشيخ المجرب الوقور ، لا يتراجع عن توجيه النصح بل اللوم الى أبيه . طالما أزعجته من ابنه هذه النظرة الصادقة ، بل قد ذهب هذا الابن ذات يوم الى حد التوسل لأبيه بصوت مختنق ان يقلع عن التشبه بالاطفال وعبثهم . نعم ، ان الدنيا قد شاخت .

ظل الصغير يلاحق مسرحية هوجو منذ أن ارتفع الستار الى أن

نزل آخر مرة ، وباءت الحركة الرومانسية بالاخفاق وانهزمت . انهزمت لان راشيل حولت الاذواق الى مسرحيات المذهب الاتباعى . ما أشد حسد الناس للنجاح الباهر ، وما أعظم سرورهم لتحطيم تماثيل أبطال الامس . قد مضوا يرددون بقلوب مثلوجة أن فيكتور هوجو قد انتهى . لم ير الرأى العام الا زاوية صغيرة ، ولم يتعلل الا بأوهى الاسباب من أجل أن يحطم هوجو ، ويخلع صفة العبقرية الخالدة فى القرن كله على فرنسوا بونسار ، وهو مؤلف قدير ولكن غير موهوب ، عرف كيف يعتلى موجة نجاح راشيل فيكتب مسرحيات خالية من الحياة ، كل ميزتها انها تقلد روائع المسرح الكلاسى

ان دوماس الاب سريع الاستجابة بطبعه للعوم فى كل تيار جديد للرأى العام ، فليس هو بالرجل الذى يرضى بأن يبقى فى مؤخرة الموكب تحت لواء مذهب حتى ولو كان هو المذهب الذى عشقه كل العشق فى صباه . لقد عرف كيف يختط لنفسه فى الوقت المناسب خطة جديدة ، وشرع بعد العمل الثالث فى سلسلة مسرحياته الكوميدية الخفيفة التى فازت باعجاب الجمهور . ولما أتمه قدمه لمسرح الكوميدى فرنسيز وبدأت تجـــارب التمثيل . واشتغل أيضـــا بهمة فى كتابة الروايات التاريخية التى يعاونه ماكيه على تأليفها ، فصدرت رواية « فارس دارمنتال » ونالت نجاحا كبيرا ، واستنقذ أيضا رواية اسمها « سلفانديز » كان كتبها ماكيه وأخفق فى نشرها ورأى دوماس أن نجاحها مضمون اذا صدرت متوجة باسمه . لم يكن الجمهور قد عرف بعد أن هذه الروايات مؤلفة بالاشتراك بينه وبين ماكيه ، مع أنه كان من المألوف فى ذلك العهد أن يحتال بعض الكتاب المغمورين على نشر مؤلفاتهم باصدارها باسم كاتب مشهور ، اذ كان من العسير عليهم حمل الناشرين والقراء على تقدير مؤلفاتهم وفقا لميزتها وحدها . وظن الناس جميعا ان الروايات التى صدرت فى تلك الايام متوجة باســم دوماس هى من ابتكاره وحده . واستغل دوماس موهبة ماكيه وهو منشرح القلب غير واع بما يفعل ، وماكيه سعيد بأن يبقى فى الظل يعمل من أجل دوماس لقاء أجر زهيد ، يجد من أســباب الزهو أن الذى يستغل موهبته هو دوماس العظيم نفسه .. ويبتهج وتزداد حماسته للعمل حين يرى دوماس يضمه الى زمرة خلطائه المقربين ويعــامله معاملته لصديق حميم ، وما يزيد فى رضائه انه يجـد رواياته التى رفضها واستهان بها الناشرون قد اقبل الجمهور على قراءتها مبديا اعجابه بفصول عديدة لم يغير فيها دوماس حرفا واحدا . انه لــم

يجرب بعد الى درجة تكسر القلب خلة دوماس العجيبة فى قلة اللامبالاة بواجباته المالية .

ووقع دوماس فى ذلك الحين على كتاب صدر فى مدينة كولونيا فى مطلع القرن الثامن عشر ورأى فيه مادة تصلح لتأليف رواية مليئة بالمغامرات الرومانسية ، وهذا الكتاب اسمه « مذكرات مسيو دارتنيان » من تأليف كورتلز دى ساندارس . وعرض دوماس فكرته على ماكيه لمناقشتها معه ، واستطاع الاثنان ان يرسما الخطوط الرئيسية لرواية « الفرسان الثلاثة » بحيث تتضمن سيرة شخصيات تاريخية عاشت فى القرن السابع عشر ، ووجد ماكيه نفسه غارقا فى المراجع التاريخية تائها بين سراديبها المتشابكة ، وأخذ دوماس يتطلع بشغف كبير الى الآفاق الجديدة التى ستتفتح له ، اذ أن جميع الصحف اليومية متمسكة بنشر روايات فى سلاسل متتابعة ، حتى أصبحت الرواية المسلسلة محط هيام المجتمع الفرنسى فى ذلك الوقت يطلبها الجمهور بالحاح ويدير احاديثه بشغف حول كل رواية «جديدة» .

لما رأى أصحاب الصحف الباريسية نجاح رواية « فارس دارمنتال » اشتدت رغبتهم فى الظفر بكل ما يخطه قلمه ، وكل المطلوب فى نظر دوماس هو ان يكرس أقصى جهده للعمل وحده ، وأن يملأ كل يوم أكبر عدد يقدر عليه من الصفحات . ان ماكيه شاب قوى نشيط وهو كدوماس لا يرهقه العمل المتواصل ، اذا كان استغلال الفرصة المواتية يتطلب عونا اضافيا فان دوماس لن يحجم عن استخدام عدد من المعاونين والسكرتاريين والنساخ . وتلقى دوماس عروضا كثيرة من اصحاب الصحف فبحثها معهم وارتبط بتقديم انتاج ضخم ، ومن اجل هذا صح عزمه على الانتقال من العاصمة . انه يحب باريس وكل مباهجها ، ولكن ما من شخص بارز فيها الا وهو صديق له ، متسبب فى تعطيل عمله . ولا يقتصر الامر على هؤلاء الاصدقاء وحدهم بل ان الاجانب من أصحاب المكانة المرموقة — مثل الكاتب أندرسون — يسعون أيضا للقائه اذا جاءوا للعاصمة ، فيقضى أيامه مرافقا لهم فى باريس ، وزيارات لاصدقائه ، وذهاب الى حفلات راشيل فيضيع منه وقت ثمين . انه الان فى أشد الحاجة الى جو هادىء ومسكن مريع . لذلك استأجر عدة حجرات فى نزل منزو بضاحية سان جرمان ، هو نزل فيلا مديتشى

وطابت له الحياة فى هذه الضاحية ، وان لم يجد بها ما ينشده من الهدوء والصفو ، لانه رجل يثير الضجة من حوله اينما ذهب . أما

الهدوء فقد هبط فجأة على ابنه الكسندر الذى أخذ يقضى أغلب وقته فى باريس . اما أبوه فلم تكد اقامته فى فيلا مديتشى تطول قليلا حتى انقلبت ضاحية سان جرمان الصغيرة من حال الى حال . من أجله ازدحمت فنادقها بالناس ، واذا مد أهل باريس فى ليالى الصيف أبصارهم نحوها رأوا مرارا انوار الالعاب النارية تتلألأ فى السماء ، وأدركوا ان دوماس يقيم حفلة لجمع من أصدقائه .

ان مسلك الاب يرهق احيانا كثيرة اعصاب ابنه ، ولكن ألكسندر أحب الحل الذى اهتدى اليه ابوه حين قرر أن ينتقل لضاحية سان جرمان ليفرغ للعمل ، وان هذا الحل أتاح لألكسندر ان ينتقل كما يشاء بين العاصمة والضاحية . انه قلما يعود الى مسكن ابيه دون أن يجده مكتظا بضيوف غارقين فى اللهو والضجيج ، والبساط احمدى . أما أبوه فجالس وحده فى حجرته ، قد خلع سترته وشمر أكمامه والقلم فى يده يجرى على الورق جريا ، أن كان بعيدا عن الحكمة فى تصريف أموره ، مترديا أغلب الوقت فى المتاعب من قبل الدائنين أو الناشرين أو العشيقات ، فان له رصيدا لا ينفد من البشر يصد القلق عن أن يعرف طريقه الى قلبه . ان اقباله على الحياة ومتعها ووثوقه بأمجاده القادمة يطغيان على كل ما يلقاه فى يومه من مشاكل تنغص حياته

ودخل عليه ابنه ذات يوم فى ذلك الصيف فوجده فى أسوأ حال من الهم والقنوط ، هو فريسة حب جديد أسر قلبه دون أن يشفى غليله فضفض الى ابنه يخبره ، فالرومانسى من طبعه أن يسارع بطيب خاطر الى البوح بعواطفه وطرحها للبحث والمناقشة ، فاستمع ابنه من فمه الى حكاية شيقة ، فلم تكن المعشوقة الجديدة الا راشيل ذاتها

وكان دوماس قد سافر فى أجازة قصيرة خاطفة إلى فلورنسا ليزور زوجته . انه لا يزال يألف التردد عليها وأن اقترب الاثنان من قبول طلاق شرعى يفرق بينهما ، وعرج دوماس فى عودته على مارسيليا ليزور صديقه ميرى . وحدث أن راشيل كانت مقيمة بتلك المدينة أيضا ، وقابلها فى مأدبة عشاء ذات ليلة ، وكانت ليلة صيف بديعة ، فراق للمجتمعين أن يخرجوا بعد العشاء للتنزه على ارصفة الكانابيير — كورنيش مارسيليا على البحر — وسار دوماس وراشيل جنبا لجنب وهى تنفجر بالمرح وقد انحلت عقدة لسانها . لم يشق على دوماس ان يحكم انها سعيدة بصحبته فان لظرفه سحر لايقاوم، وخيل اليه أن راشيل وقعت فى حبه وأنها لن تمنح طرفها تلك

الليلة لأحد غيره ، فكانت النتيجة انه هو الذى اشتعل قلبه بالحب وهام بها .

غادر الاثنان مارسيليا فى اليوم التالى ، راشيل الى ليون لتقيم عدة حفلات مسرحية ، ودوماس الى باريس ، فلما وصل بيته لم يطق الصمت المخيم عليه فتناول ريشته وخط بها صفحات عديدة يعبر لها فيها عن عواطفه بأسلوب تتدفق فصاحته بسهولة وقال لها ضمن كلامه ان وقوعه فى حبها كان قدرا مسطرا على جبينه وان شك فى مقدرته على البوح لها بسره فى حضرتها .

لم يتلق منها ردا ، فكتب لها رسالة ثانية اطال فيها التعبير من جديد عن لواعج قلبه . لم يتأخر عليه الرد هذه المرة ولكنه رد أصابه بأعنف صدمة لم يعهد مثلها من قبل . لقد خدعه مسلك راشيل ليـــلة نزهتهما معا فى مارسيليا . انها لم ينبض قلبها بحبه ولا أحست بأقل رغبة فى الاستجابة للهوى الذى يجول فى خاطره . انها تعيش فى حماية واليويسكى ولا تزال تتلقى رسائل الغرام من عشيقها السابق الامير جوانفيل ، وهى فى مسرح الكوميدى فرنسيز ملكته التى توجتها الالهة لا الناس ، فليست هى التى تقبل على مغامرة مع دوماس وهو فى نظرها احط منها مكانة اجتماعية ، ذلك ان دوماس لم يكن قد بلـغ حينئذ ذروة المجد التى رفعته اليها فيما بعد رواياته العظيمة .

كتبت تقول له :

« وذكرت لى انك لا تجسر على مشافهتى بالكلام الذى تكتبه الى . فلا يسعنى الا أن اعبر عن آسفى »

« لأننى لا ألهمك أن تضمر لى وأنا بعيدة عنك هذا الاحترام الذى يعصمك وأنت فى حضرتى »

« كنت أعلم حق العلم كيف ينبغى للانسان فى معـــاملته للاغرار المأفونين ألا ينطق ولو بأهون كلمة »

« فى عرض الحديث دون ان يتدبر من قبل وقعهـــا المحتمل فى ميزانهم ، ولكنى كنت أجهل كل الجهل أن هذا الحذر واجب »

« أيضا عند التحدث الى بعض الاذكياء »

يا لها من رسالة أثارت دهشته البالغة . لم يسبق لامرأة من قبل أن رفضت يده الممدودة اليها كما فعلت راشيل . لم يســعه الا أن يحكم بأنها غير جادة فى صده ، فكتب لها رسالة موجزة يقول لها فيها أنها ما دامت تصر على رأيها فلا بأس من ترك الموقف بينهما على ما هو عليه . وظن انه أرسى أول دعامة لمغامرة جديدة سيتولى الزمن فيمـا

بعد اقامة مسرحها . أعادت اليه راشيل رسالته ومعها خطاب مقتضب لم يترك لديه شكا فى أن واليويسكى قد اطلع عليه لذلك كان لابد أن يوجه رسالته الثالثة الى غريمه نفسه محاولا أن ينقذ ما يقدر على انقاذه من حطام كرامته .

فكتب اليه يقول :

« عزيزى الكونت

« حاولت حصار قلعة أنت حارسها فهزمت شر هزيمة ، فأرجو أن تتقبل صادق تهنئتى .

« وسماعك منى نبأ انتصارك أفضل عندى من سماعك له من انسان آخر ، وما دمت قد جئت به فقد سقط حقك فى الموجدة على بعد هزيمتى

« ارجوك ان تبلغ المدموازيل راشيل أننى لا أكتفى باضمار الاعجاب بموهبتها الخارقة بل يرضينى أن أظل أيضا محتفظا بصداقتى لها

المخلص ا . دوماس »

وتلقى دوماس من اليويسكى ردا بارد اللهجة وانتهت المسألة عند هذا الحد ، ولكن الألم ظل ينخر فى قلب دوماس ، يسوءه أن يقع نظره على رسائلها الناطقة باحتقاره ثم يذكر رسالته المطوله التى تفيض بهيامه وحفاوته بها .

وأطبقت عليه مشاغل أخرى فخنق مشاعره ونفى هزيمته عن ذهنه، وكان اذا قابل راشيل فيما بعد لقى كل منهما الآخر فى الظاهر بود ، ولكن هيهات له أن ينسى بسهولة اهانتها الجارجة له . انه رجل قلما يقابل الحقد بحقد مثله ولا ينفك عن معاملة النساء بظرف ونبل وحفاوة ، ومع ذلك لم تطاوعه نفسه الا على أن يضمر لراشيل منذ أن أهانته عداء متأصلا لا يتحول . لعله هو نفسه لم يدرك مدى طغيان هذا العداء عليه . انه ظل مستأثرا بقلبه الى أن انطلق ورشق راشيل بسهامه فأصابها حقا بضرر بليغ . اذن لم يكن القدر المسطر على جبينه كما ظن فى لحظة عابرة هو أن يكون لها عاشقا بل أن يكون لها عدوا يؤلب الرأى العام ضدها بعد حين

وقدم مسرح الكوميدى فرنسيز مسرحية دوماس المسماة « آنسات سان سير » فقابلها الجمهور باعجاب وتصفيق . واستأنف دوماس عكوفه على العمل . يجيئه ماكيه كل يوم وجعبته مثقلة بخلاصات استخرجها من المراجع التاريخية فى المكتبات العامة ، ولم تنقطع زمر

الأصدقاء والمعارف عن استغلال كرم دوماس فيأتون بلا دعوة لتناول الغداء ، واذا فرغوا منه بقوا لتناول العشاء أيضـــا ، ويستنزفون نقوده زاعمين أنهم انما ينالون قروضا لابد لهم من تسديدها ، وكانت نقود دوماس متروكة لكل يد تمتد اليها ، فقد أصبح حينئذ من طبعه أن يضعها في وعاء زجاجي يعلم كل انسان أين هو .

وبقي الكسندر سادرا في لهوه وغيه في شوارع قلب العاصمة حيث استطارت شهرته بالاناقة والترف . أصبح استاذا محنكا في المبارزة بالسلاح ، وراكب خيل لا يشق له غبار » تشهد له بذلك تجولاته فوق صهوة جواده في مشارف ضاحية سان جرمان ، بل بدأ ينظم القصائد المطولة . اذا أقبل المساء خرج من مسرح ليدخل الى مسرح ثم مضى الى احدى الحفلات الصاخبة التي كانت من علامات ذلك العصر .

زجره صديقه جي دي لاتوردوبان قائلا له : « لا تدع قدمك تنغرز في المغامرات النسائية الى هذا الحد ، لاضير عليك أن تلهو وتعبث الان ، ولكن مهما تفعل ينبغي لك ان تستنقذ نفسك قبل ان تبـــلغ الثلاثين من عمرك »

فلم يفت الكسندر أن ينبه هذا الصديق الذى يزجره أنه مثـــله سادر في اللهو رغم أنه جاوز الثلاثين من عمره فرد عليه قائلا : « من أجل هذا فتحت لك قلبي فانما انصحك عن تجربة » انه حطم حياته باستغراقه في العبث واللهو وأن الكسندر سمع منه كلاما كان يود هو أن يقال له حين بلغ سن العشرين . أنصت اليه الكسندر باهتمام من شدة تلهفه على أن تسدد خطاه مثل هذه النصيحة التي كان ينبغي أن يسمعها من فم أبيه . وقد كشف عن أثر هذا الحديث على نفسه في مسرحية « أنصاف الحرائر » التي كتبها بعد اثنتي عشرة سنة .

وظلت ماري دوبليسيس مثار اعجاب الناس ، وشهد لها الدكتور فيرون بأنها تبز جميع نساء باريس بأناقة ثيابها . كان الكسندر يراها مثلما يراها أهل العاصمة كلهم : جالسة في مقصورتها بالمسرح في أبدع زينة ، أو راكبة عربتها وفي صحبتها كلبها الضخم أو كلباها الصغيران الجميلان . لقد ابتسم لها الحظ وامتلأ جيبها بالمـــال فحارت فيم وكيف تنفقه » كأنما تعيش في عالم الغيت فيه المعاملة بالنقود ، ففي قدرتها ان تدخل اى متجر وان تحمل منه ما تحب دون أن تدفـــع الثمن فورا ، باريس كلها ملك يديها ، تكفي منها اشارة بالاصبع حتى تهرع اليها أشهر خياطات باريس : مدام بالمير ومدام كامبل ، وكلما أحبت أن تعدل وتبدل تنفيذ جواهرها المرة تلو المرة فان مسيو هالفين

ـ أرقى صياغ باريس ـ رهن اشارتها . ان أيامها خالية من الهموم والمشاغل ، وأن عشاقها العديدين يتلهفون على ارضائها بتسديد ديونها الطائلة ، ولكن هيهات وسط مظاهر البذخ أن تسعد بشيء مثلما سعدت ذات يوم بقرطاس من البطاطس المحمر جاد عليها به نستور روكبلان . انها الان اذا نالت يدها شيئا فكأنما تستوفى حقالها واجب الاداء . أصبحت ذات تحكم واستبداد ، عسيرة الرضا لا يعجبها شيء لزمن طويل . لا يراها الناس الا وفى يدها زهرة الكاميليا ، هي علامة البذخ والتأنق لأنها أغلى الزهور . وكان يعيش فى باريس فى ذلك العهد رجل اسمه لاتور ميزراى هو أيضا مثلها لايراه الناس الا وزهرة الكاميليا مرشوقة فى عروة سترته ، وظل هذا دأبه طيلة اقامته بباريس تسع عشرة سنة ، فقدر الثمن الذى دفعه لشراء زهور الكاميليا بخمسين ألف فرنك على الاقل .

واشتد الحر فى باريس فهجرها أثرياؤها الى المدن العتيقة على ضفاف نهر الرين وكانت مصيفا رائجا قبل حرب سنة ١٨٧٠ . واختفت مارى دوبليسيس عن أنظار الباريسيين أيضا لفترة من الوقت . وسافر بلزاك الى روسيا معتزما عقد قرانه بايفلين هانسكا التى ظل يطارحها الغرام سنين عديدة ، وكانت قد ترملت منذ زمن قليل . وسافرت مارى داجو ومعها أولادها الى ألمانيا لتلحق بخدينها ليست أما دوماس فقد بقى غارقا فى العمل لاذنيه ، وصاحبه ماكيه لايرفع بصره عن الوثائق التاريخية القديمة ، وتولى الخدم رعاية مسكنه لاستقبال مواكب الضيوف ، بعضهم لا يعرفهم رب الدار ، الموائد حافلة بأطيب طعام وشراب ، ولكن من عادة دوماس اذا كرس جهده لعمل مرهق أن يحمل نفسه على التقشف فلا يصيب الا أقل القليل من بذخ مائدته .

زاره ابنه ذات يوم فوجده جالسا الى مكتبه يجاهد أن يحسن مسك القلم بيد مصابة بجرح بليغ ، كان له حينئذ كلب فذ فى الشراسة ، خلع عليه خطأ اسم موتون أى الخروف الوديع ، وجعل دوماس كلبه هذا بطل قصة كان يكتبها حينئذ واسمها «دعى موليون» والكلب فى هذه القصة واسمه « أللان » صورة أصلها كلبه . وحدث منذ أسبوع وهو يسطر الحيل التى يخترعها وينسبها الى صاحب الصورة أن لحظت عينه أصلها يعبث فى حوض من الزهور فى الحديقة، فصرخ اليه يزجره وهو ماض فى الكتابة لئلا ينقطع خيط افكاره ، وصرخ اليه ثانية فزمجر الكلب غضبان من سيده الذى كان يرفعه

ساعتئذ الى مصاف الخالدين ، وزاد عبثه بحوض الزهـــور ، فألقى دوماس قلمه واندفع اليه ورفسه بقدمه رفسة شديدة ، فهجم الكلب عليه ووثب الى رقبته ، ولزم دوماس ان يبذل غاية قوته ليصرف الانياب عن رقبته ويتلقى العضة بكل عنفها على يده اليمنى رافعـــا الكلب عنه بيده اليسرى . رآه جالسا يكتب بمشقة كبيرة بقية الاعيب الكلب الذى رفعه الى مصاف الابطال ، لم يمنعـــه جرح يده من مداومة العمل ، فالمطبعة تلاحقه بطلبـــاتها ولأن حاجته للنقود شديدة عاجلة .

ولم يكن ابنه ألكسندر أقل حاجة منه الى النقود ، فذهب قبل أن ينصرف يلقى نظرة على الوعاء الزجاجي فوجد به ســـتمائة وخمسين فرنكا . وقال لأبيه بلهجة معتذرة «سآخذ خمسين فرنكا اذا كنت أنت فى غير حاجة اليها » وكان دوماس مستغرقا فى الكتابة فخيل لأذنه ان المبلغ المطلوب هو ستمائة فرنك للتشابه فى النطق بين الرقمين فى اللغة الفرنسية فأجابه من بعيد :

ــ هل لك أن تترك مائة فرنك ؟

فرد عليه ابنه : « ماذا تعنى ؟ لن آخذ الا خمسين فرنكا »

فأجابه أبوه : « أوه .. حسبتك قلت ستمائة »

لم يقو الكسندر على نسيان هذه الحادثة وهو فى طريق العودة الى باريس . لقد كان من الطبيعى عند الاب أن يأخذ ابنه أغلب ما تبقى له من نقود ، وكم كان ظريفا نبيلا وهو يناشده أن يترك له مائة فرنك وليس غير . كان يغيظه استهتار أبيه بالمال ، وعجزه عن تدبير أموره بحكمة ، كان يجده رجلا لا تطاق معاشرته ومع ذلك فان قلبه زاد امتلاء عن ذى قبل بحبه وتقديره لأبيه . ليس الانحراف جريرة أبيه بل جريرة الدنيا التى يعيش فيها . ان جرائر أبيه تورث صاحبها صبرا عجيبا بعد من المعجزات . وكلما أفرغ كرمـــه جيوبه زاد من اقباله على العمل ليتدفق عليه المال من جديد ليبعثره من جديد . ترى من الذى سينهب الستمائة فرنك التى بقيت ؟ سيجيئه قسيس الضاحية يسأله ان يجود ببعض ماله على الفقراء ، أو ستجيئه راقصة باليه وتغمره بقبلاتها وتشكو له افلاسها ، سيكون المال من نصيب أول سائل سواء أكان محتاجا أو غير محتاج وحينئذ يشمر دوماس كمى قميصه ويغالب التعب والارهاق ويتناول القلم بيده الجريحـــة وينصرف الى الكتابة فى جوف الليل . ليل هادىء طويل ينعم فيـــه الناس بعد كد النهار بنوم لذيذ .

الفصل الحادي عشر

ماري دوبليسيس تستقبل ضيوفها

نعم أهل فرنسا في خريف سنة ١٨٤٣ بجو معتدل وحياة يسودها الصفاء لا تعكرها قلاقل سياسية . وطال حداد الملك لويس فيليب هو وزوجه على مصرع ابنهما الدوق دورليانز . ولكن هيهات لشئون الدولة ان تتركهما في خلوة يجتران أحزانهما ، فاضطر الاثنان في شهر سبتمبر الى تكتم هذه الاحزان واصطناع الابتسام لاستقبال الملكة فيكتوريا وزوجها في قصر ديو في مقاطعة نورماندي . أما أهل باريس فلم يتلقوا نبأ قدوم ملكة انجلترا بحفاوة لان الرأى العام كان معاديا لانجلترا في تلك الايام . ولكن الصحف السيارة أسهبت في وصف نجاح زيارة الملكة بأسلوب رومانسي ، فلم يفتها ان تذكر أن أمجاد شكسبير كانت تحف بركابها ، وقالت ان الحفلات الموسيقية التي أقيمت في الهواء الطلق بحدائق قصر ديو تكريما لها قد ذكرت الناس بمسرحية شكسبير « حلم ليلة في منتصف الصيف » وان تيتانيا بطلة هذه المسرحية بعثت من جديد في صورة ملكة حسناء بشوش عرشها قائم في جزيرة عتيقة عبر المضيق .

وكان ليست وماري داجو يقيمان مع اولادهما الثلاثة في جزيرة نونتويرث في منطقة الرين بألمانيا ، وكان مسكنهم ديرا للراهبات في القرون الماضية ، فسحرهما منه علائم القدم البادية عليه وأجراسه العتيقة التي لا تزال قادرة على بعث رنينها . سحرهما صمته وجوه المشبع بالاساطير ، اذا امتد بصرهما عبر البحيرة وقع على خرائب القصر المنفرد الذي كان يقيم فيه رولاندى رونسيفو ويتطلع بنظره الى القصر الذي ماتت فيه هيلدا جند .

ان قصة رولاند وهيلداجند هي من اروع اساطير الحب في العالم . وكان ليست قد قدم أول مرة الى هذا المكان مع ماري داجو منذ سنتين ، يؤمنان انهما أولى الناس بالحج اليه ، فلا يكاد يفارق ذهنهما الوثوق بأنهما هما أيضا بطلان لأسطورة حب جديدة ، فلم تكن خصائل شعر ماري داجو أقل في بريقها الذهبي من خصائل شعر هيلداجند ، ولا ليست بأقل من رولاند سحرا ووسامة . وكانت ماري داجو هي التي تؤمن ان الذي بينهما هو حب شاعري سماوي لا يمت

الى الارض بسبب ، ولكن من العسير ابقاء هذا الحب محلقا فى معارجه العالية فكان العراك ينشب بينهما مرارا ، ولكن حياتهما ظلت تنم فى الظاهر على انهما يتمتعان بالسلام والجمال فى تلك البقعة الساحرة .

انهما يعبران البحيرة أحيانا بالقارب الى كونجزوينتر ثم يواصلان رحلتهما برا الى مدينة كولونيا حيث يمتعان النظر والخيال بتأمل كنيستها التى لم يكن بناؤها قد تم بعد . وأحيانا يركبان النهر الى مدينة بون التى ولد بها بيتهوفن وكان سيرتفع بها عما قريب تمثال له يرجع أكبر الفضل فى اقامته الى كرم ليست . اما فى البيت فيجلس ليست الى البيانو ويظل يعزف ساعات طويلة فتنساب فوق مياه البحيرة وتحت سناء النجوم ألحان صديقيه شوبان وبرليوز » وبالنهار يتأمل العاشقان أوراق الشجر وقد أصبحت فى صبغة الورد وهى تتساقط وتتهاوى فى صمت الى الارض »

ومن فوق الاشجار سماء ما أبدع لونهـــا اللازوردى . ثم بدأت السنانير تطير نحو الجنوب . لقد اقترب الشتاء .

وافترق مارى وليست مرة أخرى . عادت مارى الى باريس وذهب ليست الى ولاية بافاريا . فلما افترقا استأنف الاثنان تبادل الرسائل الغرامية ، ولكن الحب بينهما كان فى الواقع قد مات ، وان تلكأ كل منهما فى الاعتراف بالحقيقة الواقعة ، لشد ما أكد كل منهما للآخر فى الايام الخوالى حبه وعهوده ومواثيقه فلا شىء أسخف حقا من اعترافهما اليوم بأن أحدا لم يعد مباليا بالآخر أقل مبالاة .

وترك ليست ميونخ وذهب الى درسدن ، فاستقبله اهلها من جديد باعزاز واعجاب بلغ درجة العبادة ، وبدأت النسوة الهـــائجات فى ملاحقته وتلقف ما يلقيه من أعقاب سجائره وارتشاف ما يخلفه فى فنجانه من ثمالة الشاى . ان قلبه مشغول أبدا بحب » ولكنه حب لا يضمره لزاما لواحدة من ساكنات الارض » وقلما يضمره لنسوة يهجمن عليه فى نوبة هستيرية . ورق قلبه لسحر بيتينا فون ارنيم التى كانت فى عهد مضى صديقة لبيتهوفن وجوته . انه يظل أياما طويلة وقد طغى عليه طبع بيرون ومزاجه ، لقد أفضى ذات يوم الى مارى داجو باعتقاده انه وثيق الصلة الروحية بهذا الشاعر الانجليزى الذى كان له أعمق الاثر فى قلوب جيله . وقال ليست لها : « لا أستطيع أن أصف لك ما يخالجنى أحيانا من رغبة متقدة مهيمنة بأن يكتب لى أن ألقى بيرون فى عالم نرقى فيه أخيرا الى قمة الحرية والمقـــدرة والحياة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى » ما من عاطفة تهز القلب مثل

اتقاده بحب شخص مات فلم يبق منه متكشفا الا حقيقته الاصيلة .
ولكن ليست عجز عن التحليق طويلا فى هذه الاجواء العليا فهبط الى الارض وقد جره اليها غول على هيئة امرأة أفاقة تتخذ لها اسما مستعارا هو لولا مونتيز .

انها امرأة لا تعرف معنى للتردد او محاسبة الضمير ، فنحت كل النساء عن طريق ليست كأنهن حجارة تبعثرها بقدمها ومضت بلا خجل الى غرفة نومه . ولم يسعه الا الرضوخ لها ، فقد كانت آية فى الجمال ، ترمقها العيون باعجاب أينما ذهبت ، ونهل ليست على يدها اقصى متعة يجدها قادرة على بذلها له . ارتمى فى احضـــانها وهى تكاد تجن بحبه ، وبدأ يتولى عنها دفع ديونها الطائلة . ولـــكن سرعان ما أصبحت عبئا ثقيلا يبهظ كاهله ، فليس له أن يخطو خطوة الا ورجلها على رجله ، بل تحرم عليه من شدة غيرتها الابتعاد عن مرمى بصرها . هيهات له أن يفرغ للعمل أو التأمل . وذهبت ذات ليـــلة وذراعه فى ذراعها ليشهد أوبرا « رينزى » وكان مؤلفها واجنر لم تؤاته الشهرة بعد ، وقابله ليست خلال استراحة بين فصـــلين فانتحيا جانبا وخبر كل منهما سحر هذا الالتقاء الفذ النادر الـذى يؤاخى بين ذهنين . انه لسحر يجلل بالمهانة والحقارة كل حب بين الابدان ، وود ليست لو تريث قليلا فى صحبة واجنر ولـــكن لولا مونتيز كانت هناك واقفة له بالمرصاد ، لا ترضى غيرتها أن يهيم انسان بشىء الا ببدنها ، فأقبلت نحوهما تمشى فى كبرياء وتختال فى ثياب اشتطت فى زينتها ولمعت نظرة وقاح فى عينيها الجميلتين الشاهدين بأصلها الايرلندى واقحمت نفسها عليهما فتأفف منها واجنر وادار لها ظهره وانصرف مسرعا

لم يستطع ليست أن يبقى طويلا فى مكان واحد وهو فريســة هذه الوصمة التى لا تفارقه ، فاعتزم السفر فسافرت معه خطوتهـا بخطوته ، كأنما صح عزمها على أن ترافقه كظله الى آخـــر يوم فى حياتها . ولكن أوان قطع العرق واسالة الدم كان قد اقترب ، فقـد حدث ذات مرة أن أغلق ليست عليها باب الحجرة بالمفتاح وسلمه الى حارس الفندق ودفع الحساب المتأخر ودفع أيضا مبلغا يكفـــل ثمن أثاث الحجرة ، ثم مضى دون أن يذكر عنوانه الجديد . انقلب الفندق كله من هياجها الى جحيم مستعر وأخذت تحطم فى ثورة من الغضب كل أثاث الحجرة .

وسمع الناس فى أوروبا كلها خبر هذه الفضيحة وعلت قهقهتهم،

ووقع الخبر على مارى داجو وقعا أليما أذهلها فترنحت لهذه الاهانة التى طعنت كبرياءها فى الصميم ، وأحست أنها ستفقد ولا ريب مكانتها الاجتماعية اذا أبقت علاقتها برجل هذا شأنه .
فلما جاء ليست الى باريس فى ربيع سنة ١٨٤٤ وجدها تستقبله ببرود وصد لاتتحول عنه ، وتم الاتفاق بينهما على الافتراق، وعلى اختيار مربية يعيش أولادهما فى كنفها . وودع كل منهما الاخر . وأقام ليست حفلتين فى المسرح الايطالى ثم سارع الى مغادرة باريس

وحضر الحفلتين جميع المشتغلين بالفنون ، لا تنقطع ثرثرتهم عن ترديد آخر مغامرات ليست الغرامية ، وخالط اعجابهم بليست شيء من الازدراء به لانهم رأوه يصطنع له هيئة وحركات مفتعلة تدل على فتنته بنفسه وبموهبته . انه طبع أخذ يطغى عليه درجة فوق درجة كلما تقدمت به الايام . ان الجمهور فى باريس مختلف أشد الاختلاف عن جمهور حفلاته فى ألمانيا المسارع للاستجابة الى عواطفه اذا جاشت ، وانها لتجيش بسهولة ، فيخفق قلبه وترغرغ عينه .
وأصبح ليست يلجأ — وكأنما على غير وعى منه — الى حيل غير قليلة لاثارة الدعاية لنفسه والاشتهار ببراعته فى العزف ، ويصطنع له هيئة يلتزمها فى حفلاته التى أقامها خلال سنين عديدة فى أنحاء أوروبا ، فكان أهل باريس لا يرقبون مسلكه هذا بأفواه فاغرة من شدة الدهشة والاعجاب كما تفعل أقوام سذج لم يصقلها بعد ذكاء مرهف . واشتط بلزاك فى الازراء بليست ، يصفه تارة بأنه مخادع نصاب وتارة بأنه قرد ألعبان ، انه لا يجد شيئا يثير اعجابه فى رجل لا يرفعه الى مقام الامارة الا هوس الجهال من العامة وافتنانهم به .
ورأى بلزاك هذا سببه فى الحقيقة راجع الى حبيبته مدام هانسكا . تقدم اليها يطلب الزواج فراوغته على حين انها فى حديثها اليه خصت ليست بمديحها . وكانت قد التقت به من قبل فى روسيا ، من أجل هذا رفض القصصى العملاق — وذكرى مديحها لا ترخى قبضتها على ذهنه — أن ترطب الموسيقى قلبه وتسحره وكتب لها يقول « يشاء لى القدر أن احب من تحبين — باستثناء هذا القرد الالعبان ليست — وأن أمقت ما تمقتين . »
رحل ليست ، ولكن لولا مونتيز جاءت الى باريس ورقصت على مسرح باب سان مارتان بعد أن انتقل الى مدير جديد ، فقابل الجمهور رقصها الردىء المبتذل بالصفير . وجرت عليها حدة طبعها

مقت قريناتها ، من عادتها أن تحمل معها اينما ذهبت سوطا وخنجرا لا تتأخر فى اللجوء اليهما اذا أثار انسان غضبها » وسرعان ما طردها مدير المسرح لانها همت ذات ليلة أن تقتل راقصة فى زهرة العمر لانها أقدمت على منافستها ، أما لدى نفر عديد من الرجال فقد ظفرت باعجاب لا يشوبه تمحيص أو نقد ، وعمدت من أجل ان يطغى سحرها عليهم الى الزعم بأنها ابنة غير شرعية ، أبوها هو تارة الشاعر بيرون ، وهو تارة مونتيز مصارع الثيران الاسبانى الشهير . والحقيقة انها منتمية الى أسرة ايرلندية طيبة السمعة يحترمها الناس هى أسرة جيلبرت . وأخذت لولا مونتيز تغشى صالون مارى دوبليسيس حيث يعتبر الصدق وقول الحق علامة على نفاذ الحيلة والاخفاق وبدأت تحلم ببلوغ قمة الغنى والشهرة

وكانت مارى دوبليسيس فى صيف تلك السنة قد عزفت عن الذهاب الى مدن الاستشفاء بالمياه فى المانيا وسافرت الى ايطاليا ولما عادت الى باريس زاد نجمها تألقا ، تركت شقتها فى شارع دانتان وانتقلت الى حى أرقى فسكنت فى دور أنيق فسيح فى المنزل رقم ١٠ بشارع المادلين ، وتولى دفع نفقاتها أمير روسى فاحش الثراء يبلغ من العمر ثمانين سنة . امتلأ اصطبلها بالعربات الفخمة والخيول المطهمة المستوردة من انجلترا ، ووضع هالفين أرقى جواهرى فى باريس نفسه فى خدمتها وأعد لها أطقم حلى جديدة كلها من الماس النادر . وزاد ترددها على المسارح . لم يفتها قط أن تحضر الحفلات الاولى . رآها الكسندر دوماس الابن ليلة افتتاح مسرحية « كاترين الثانية » وهى مسرحية ضعيفة ولكنها نجحت بفضل موهبة راشيل ، ورآها فى دار الاوبرا تشهد الحفلة الاولى لبالية سيلفيد من تلحين تاليونى . ورآها أيضا فى المسرح الايطالى تستمع لغناء لابلاش أول مرة فى أوبرا « دون باسكوالى » من تلحين دونيزتى

وشغل أهل باريس فى الخوض فى سيرة ليست ومارى داجو وبالتندر بأبناء المحظيات الشهيرات فى ذلك العهد ، يشيع بينهم أيضا خبر عن بلزاك أثار ابتسامهم . كان بلزاك العظيم قد بدأ فى ذلك الحين يصارع شبح الموت الهاجم عليه ، ومع ذلك فليس هو بالذى يتخلى عن تفاؤله وبشاشته . لقد تجهم له الحظ طول عمره ولكنه لم ينقطع عن الامل فى تملك الثراء والسعادة ، وهل يبقى للسعادة معنى اذا لم تكن هى الحب ؟ .. ان التلهف على الحب يغنى روحه ولا يفارق قلبه . حقا ان حياته غير خالية من ايفلين هانسكا . انه

أحبها وباحت هى له أيضا بحبها ولكنها تسارع الى نسيانه اذا تحسست ذهنا بليست • ان حبها لا يرقى الى مقام حبه لها ، وحتى لو ارتقى فهل فى امرأة واحدة من غناء • انه قال مرة أن الرجل لا يكمل الا اذا كان له سبع نساء ورتبهن كالاتى : امرأة للبيت وامرأة للحب وامرأة للمتعة الذهنية وامرأة لترتيب الملابس والأدوات وشئون المنزل .. الخ الخ وامرأة للعبث والنزوات العارضة وامرأة يخصها بمقته وامرأة ينشغل بها قلبه ويظل يلاحقها دون أن يفوز بها أبدا .

وحكايته التى شاع خبرها بين أهل باريس هى انه خرج ذات يوم من داره دون أن يحمل مظلة ففوجىء بمطر غزير ينهمر فوق رأسه . احتمى بمدخل بيت ووقف ينتظر انقشاع السحب . لمحت عينه بعد قليل امرأة تعاود ازاحة الستارة عن نافذة فى البيت لتصوب نظرها اليه، واشتد المطر واعتم الجو فلم يتبين لون عينيها وشعرها ولكنه حكم أنها امرأة وسيمة ظريفة . خرج اليه من الباب بعد قليل خادم ومعه مظلة سلمها له مشفوعة بتحيات سيدته ، فقبلها هونورى دى بلزاك شاكرا وانحنى أمام النافذة التى أزيح قليلا طرف ستارتها ، وفتح المظلة ومشى مسرعا وهو سعيد بهذه المغامرة . فلما طلع عليه الصباح ارتدى بعناية احسن ثيابه واشترى قفازا جديدا وتناول المظلة ومضى بها ليقدم شكره عليها لصاحبتها • ولما لحظ أن المظلة رثة قديمة حدثته نفسه أن برهان نبله فى حفاوته بالنساء يقتضيه أن يشترى مظلة جديدة ثم يزعم أنها مظلته التى كانت عنده من قبل . فاشترى أغلى مظلة وجدها وهرع الى بيت المرأة ذات السر الغامض • استقبلته امرأة جمالها يطابق صورتها فى خياله . تناولت منه المظلة ووضعتها جانبا دون أن تلحظ فيما يبدو أى غنم أصابته بحصولها على جديدة بدل قديمة ، وتحدثت اليه بظرف وبشاشة وان احتفظت بهدوئها وثباتها • أسقط فى يد بلزاك حين رآها غير مبالية أقل مبالاة فسألها لماذا أخذت ترقبه باهتمام من النافذة بالامس ؟ فضحكت وحارت هل تتكلم أم تصمت ، ولكنها وجدت رجلا آنيسا حلو الحديث فأفضت اليه بسرها . انها كانت تنتظر عشيقا لها حان موعد حضوره ساعة أن احتمى بلزاك بمدخل بيتها فخشيت أن يتهيب الدخول اليها اذا وجد رجلا واقفا ببابها يترصده فنفد صبرها وتمنت بلهفة أن ينصرف هذا الرجل الغريب النكد ويبتعد عن بابها ، فأرسلت له المظلة راجية أن يأخذها ويريها عرض أكتافه .

ولكن دوماس الابن كان أكثر انسان اثارة للحديث عن شخصه

بين أهل باريس ، فقد تزايدت لهفة النـــــاس على قراءة الروايات المسلسلة فى الصحف اليومية منذ أن نشر ايوجين سو رواية «خفايا باريس» مسلسلة فى صحيفة «جورنال دى ديبا» ثم أعقبها برواية «اليهودى التائه» فتلقفها القراء بنهم شديد. ولكن دوماس بذهفى النجاح حين بدأ ينشر قصة «الفرسان الثلاثة» كل يوم حلقة ، بعد أن كان ماكيه قد أعد له فصولها ، وأخذت فرنسا كلها تتابع بشغف شـــديد قراءة هذه الرواية التى تقدم لهم ضربا جديدا من التســـــــلية الخفيفة . ووجد دوماس نفسه قد بلغ من الشهرة حدا لم يبلغـــه من قبل . أصبح الان اذا ظهر فى الطريق أو المسرح تلفتت له الناس وأشاروا اليه ، وانهالت عليه عروض سخية من الناشرين فقبلهـــا جميعا ببشاشة وحبور ولم يتهيب عبئها . ومما ساعد على نجاحه أن فرنسا كانت حينئذ تمر بفترة من السلم لا تعكر صفوها القـــلاقل السياسية . ولما اندلعت ثورة سنة ١٨٤٨ عللها لامارتين بقوله أنهـا نتيجة الملل الذى كانت تعانيه بلاده . وفى سنة ١٨٤٤ كان الملل قد أخذ يستولى على الفرنسيين وهم لا يدركون أن أكبـــر النعم عليهم أن لا شىء يرهقهم سوى الملل . فلما ظهرت رواية «الفرســـان الثلاثة» المليئة بمغامرات دارتنيان المثيرة وجدوا فيها عوضا لرتابة حياتهم وحمدوا لها أنها أنقذتهم من الملل

ان الذين لا يرهقون أنفسهم بالعمل بلغوا من الكثرة فى المجتمـــع الفرنسى حينئذ حدا يثير الدهشة . اذ كان الناس يهيمون بالبطالة وفراغ حياتهم من الكد والتعب . وكانت تكاليف المعيشة هينة جدا لمن لا يغشى أوساط المترفين . آلاف من الناس يعتمدون على دخل ثابت متواضع يكفيهم قضاء حاجياتهم فيفضلون التمتع بحيـــــاة هادئة لا تقتضيهم بذل جهد على الكد والسعى من أجل كسب مزيد من المال قد يفسح لمعيشتهم آفاقا جديدة ، فكان أمثال هؤلاء الناس يهيمون بقضاء الساعات الطوال فى المقاهى العديدة ، يشربون النبيذ والقهوة ويلعبون الدومينو ويقرأون الروايات المسلسلة فى الصحف. وكانت المقاهى تقدم الصحف اليومية لروادها ، ولم يكن ســـؤال الخادم حينئذ أى أعداد الصحيفة يطلبون بل أيهمـــا يريدون قراءة روايته ، هل هو ايوجين سو أم ألكسندر دوماس . ها هو ذا واحـد من رواد المقهى قد فرغ من قراءة حلقة اليـــــوم . ما أسهل قراءتها اذا كانت من تأليف دوماس ، لان أجر دوماس كان بالسطر لا بالحلقة، فلجأ الى الاعتماد على الحوار البسيط المتلاحق المركب من جمـــل

قصيرة تحتل كل منها سطرا ، فهذا مما يسهل قراءة الحلقة ويسهل أيضا تدفق المال الى جيبه . وفيما يلي مثل لهذا الحوار :

« ـ من كان هنا منذ لحظة ؟ انطق . تكلم .

ـ مسيو دى كافوا

ـ مسيو دى كافوا ؟

ـ نعم . هو بشخصه

ـ قائد حرس الكردينال ؟

ـ أجل ، هو بذاته

فاذا انتهى رائد القهوة من التمتع بحلقة اليوم وما تتضمنه من وقائع مثيرة طوى الصحيفة وتلفت حوله عسى أن يقع نظره على انسان قرأ الرواية الى الحد الذى بلغه هو ، فاذا ما وجده احتدم سريعا بين الاثنين جدال ونقاش يصرفانهما عن كل هم آخر ، ووقف الناس جميعا على رواية الفرسان الثلاثة هوى أفئدتهم ، هى الشغل الشاغل لعقولهم ، ونسوا الملك لويس فيليب ورئيس وزرائه مسيو جيزو . لا يدور حديثهم الا عن أبطال الرواية ، الملكة آن النمساوية الاصل والكاردينال ريشليو

ولم يكن دوماس أقل من الناس فى النظر الى هذه الرواية بعين الجد ، بل أن شغفه بقراءتها كان يفوق شغفهم .. يسمع ضيوفه فى فيلا مديتشى قهقهته العالية من حجرة مكتبه فيتساءلون عما يثير ضحكه . انه يضحك بنفسه لنفسه حين تواتيه عبارة مازحة تزيد من خفة دم الحوار بين أبطال قصته . أنه يعيش روايته وهويكتبها، ويستمد منها متعة تنتقل بالعدوى الى قرائه

يمضى عليه اليوم اثر اليوم وهو جالس الى مكتبه لا يتحول عنه ولا ينقطع عن الكتابة منذ الساعة السابعة صباحا الى السابعة مساء لا يشعر من شدة الاستغراق فى العمل بالجوع أو العطش فلا يتريث ليأكل أو يشرب ، فاذا حلت الساعة السابعة مساء أقبل ابنه ألكسندر لتناول العشاء معه فينقطع عن العمل ، ويسترخى ، ويميل ظهره الى الوراء ويتحدث ، ولكنه حتى فى تلك الساعة لا يكون قد تملص بعد من قبضة العالم الذى شيده خياله ، فيحدث ابنه عن المغامرات التى قام بها ذلك اليوم الفرسان الثلاثة : أتوس . بورتوس. اراميس . وعن المغامرات التى سيعدها لهم من غد . يمنحه ألكسندر كل سمعه . انه نعم الابن الذى يشارك أباه جميع اهواء قلبه . كتب اليه بعد سنين عديدة وهو يتنهد لذكرى صحبة أبيه الجميلة البشوش

فى تلك الفترة . قال له : «يا لسعادة تلك الايام .. يا لسعادتها .. كنا نحن الاثنين فى عز الشباب .. أنت فى الثانية والاربعين وأنا فى العشرين . »

نعم انه كان فى سن العشرين فتى فائق الوسامة . لم يلحق صحته أذى مستديم من جراء اقامته فى مدرسة سان فيكتور . انه يماثل أباه فى قوته ، بل يماثل جده الجنرال فى جيش نابوليون فى قوته الخارقة المدهشة . لا يزال شعره يضرب الى الصفرة وان كان غزيرا جدا كشعر أبيه ، ولكنه كان يمشطه على نحو جميل فينسدل بأناقة على جانبى جبهته الفسيحة. انه طويل القامة مستقيم الكتفين عريضهما. من عادته أن يتخذله وقفة الجندى ، وينم مسلكه على النجاة من القلق مع الوثوق بالنفس . بل اشتهر بين طواويس المجتمع بحسن ذوقه فى اختيار ثيابه ، انه ذوق مهذب أرقى من ذوق أبيه الذى يهيم بفخفخة الملبس . أصبح الان تنعكس عليه أضواء مجد أبيه ، فتدار حوله الانظار ويشار اليه أينما ذهب .

كان يسير ذات يوم فى أحد شوارع قلب باريس فاذا بشاب يقطع طريقه ويقبل عليه بثغر باسم ويد تمتد لمصافحته . عرف فيه تلميذا كان معروفا فى مدرسة سان فيكتور بشراسة الطبع وتلذذه باضطهاد رفقائه . وكان يكبر الكسندر بسنة أو سنتين فأذاقه بقوة وجبروت أمر أنواع العذاب ، أما اليوم وقد انقلبت فريسته الوديعة السابقة الى شاب ثرى من ورائه أب صاحب مجد يتحدث عنه الناس ، وأصدقاء لهم نفوذ فانه متحرق من الشوق لمصافحته . نظر اليه الكسندر وأخذ ذهنه يجتر مرارة ذكرى تلك الايام الخوالى ويقول لنفسه لو أن هذا الفتى عامله منذ عشر سنوات بود واحسان كما يعامله اليوم لانمحت التعاسة من قلبه وارتد صبيا سعيدا

تجاهل الكسندر يده الممدودة وأجابه ببرود : « كنت اصغر منك قوة وسنا ، أما الان فنحن متعادلان فى الجسم ، فاياك أن تخاطبنى مرة اخرى والا حطمت لك وجهك » ثم تركه وانصرف وهو مزهو بقوته البدنية وبراعته فى المبارزة بالسيف أو المسدس .

ولما نما لدى الكسندر وثوقه بنفسه وافتخاره الكبير بأبيه واتته الجرأة أخيرا على الاقتراب من مارى دوبليسيس . قابلها فى يوم دافىء جميل سطعت شمسه من أول النهار . وكان الكسندر قد ذهب يزور أباه فى فيلا مديتشى واصطحب معه صديقا له

هو ابن الممثلة ديجازيه . وجد الاثنان الكاتب العظيم جالســـا الى مكتبه منهمكا فى العمل فتريث ليتحدث اليهمـــا وعرض عليهمـا رسما تخطيطيا أعده هو بنفسه لدار جديدة . انه يريد بيتا لنفسه يجعل فيه اقامته ، وكان قد اشترى فى الصيف الماضى فى الضاحية قطعة أرض بديعة وانتوى أن يقيم عليها دارا يجعلهـــا وفق ذوقه . أنصت له الاثنان بعناية وأبديا مقترحاتهما عن الدار كيف ينبغى فى رأيهما أن تكون . ولما انتهت الزيارة استأجر كل منهما جـــوادا ليركبه ويجرى خببا فى نزهة لساعة أو ساعتين فى غابات ضاحيـــة سان جيرمان . ثم عادا الى باريس وتناولا العشاء معا . وبعـــد العشاء دلفا الى مسرح الفاريتيه حيث كانت مارى دوبليسيس تجلس فى مقصورة أمامية والعيون تلحظها . كانت كعادتها فى أتم زينـة . متحلية بأغلى جواهرها ، تسند على حافة افريز المقصورة المكســوة بالمخمل يدا سترها قفاز ، وفى معصمها أساور كثيرة ، وتمســـك أصابعها بمنظار مقرب صغير ، وتضع أمامهـا زهرتين من زهـــور الكاميليا وصندوقا مزخرفا به حلوى ، ثم تستدير بين الحين والحين للتحدث الى انسان يحجبه الظلام فى غيابة المقصورة ، ثم ترفـــع منظارها الى عينيها وتتفحص الحاضرين ، ليس لها أقـل مبالاة بما يجرى فوق المسرح ، وكذلك كان شأن الكسندر لم يلق باله هو أيضا اليه وظل فى مقعده بالصالة يتأمل هذه المحظية الجميلة وقـد خلب سحرها لبه ، ورآها تتحدث بالاشارة الى شخص جالس فى المقصورة المواجهة لمقصورتها فاستدار الكسندر الى مرمى اشارتها وأدرك أنها تتحدث الى كليمانس برات ، وهو يعرف كليمانس هذه وان لم يقابلها لان أهل باريس جميعا يعرفونها ويتحدثون عن سوء سيرتها وهى امرأة فى سن الاربعين محتقنة الوجه دميمة ترتدى ثيابا خليعة . وكانت فى صحبتها فتاة شابة بادية القلق والانزعاج . لعلها فريســـة جديدة تحاول كليمانس أن تقيم لها أول سوق رائجة ، ولا عجب فى ذلك فقد حكم عليها فيما بعد بالسجن بتهمة افساد أخلاق القاصرات.

وكان من قبيل الصدفة أن أيوجين ديجازيه . صديقه المصاحب له تلك الليلة . هو من معارف كليمانس برات ، اذن فمن الســـهل على الكسندر أن يدبر وسيلة للالتقاء بمارى دوبليسيس ، فطـلب الى صديقه أن يذهب الى الوسيطة ليباحثها فى تنفيذ رغبته . ومكث فى مقعده يصبر نفسه الى أن يفرغ صديقه من مهمته . راقبه من بعد وهو ينحنى لها بأدب ورآها تقبل عليه ببشاشة متدفقة . وعاد

ايوجين فأخبره أن اللقاء سيتم كما يحب ويهوى،ان مارى دوبليسيس جاءت للمسرح فى صحبة عشيقها الروسى الهـرم الفاحش الثـراء الكونت دى ستاكلبرج وهو لا ريب سيرافقها الى دارها بعد انتهـاء المسرحية ولكنه سيودعها فى أغلب الاحتمال عند باب الـدار ، فاذا حدث ذلك فانها ترحب بزيارة قصيرة من صاحبها الجديد

وأخذ ألكسندر يتفحص بمنظاره المقرب غيابة مقصـورة مارى دوبليسيس . استنفذ بجهد من الغموض الغائص فيه الشـيخ الهرم قميصه الابيض ، ولكنه لم يستطع أن يتبين ملامح وجهه . ان الكونت دى ستاكلبرج لا يريد ولا ريب أن تتناهبه الابصار فانه يعيش فى باريس مع زوجه وهى تعلم حقا أن مارى دوبليسيس هى عشيقته ولكن احترامه لزوجه يقتضيه أن يبذل كل كياسة لسـتر علاقته بعشيقته • ولابد أن يراعى حقوق مكانته الادبية اذ كان يعد نفسـه من أعلام الساسة فلا ينبغى له أن يتورط فى فضيحة علنية ، وكان يؤمن أنه دخل التاريخ اذ اشترك فى مؤتمر فينا بصفته سفيرا لروسيا لدى البلاط النمسوى . وقد رسمه الفنان ايزابى فى اللوحة التى صور بها اجتماع هذا المؤتمر جالسا تجلله المهابة بين زمرة من رفقائه مثل ولنجتون ومترنيخ ونسلرود وتاليران وغيرهم ممن خلد التاريخ أسماءهم ، ولكن ما أعجب تصاريف القدر العابث ، ان أحدا لا يذكر اليوم هذا السياسي النابه الا بأنه كان رب حماقة ونزوات ، لم يغنـه كل ما بذل من حذروحيطة لاخفاء هذه العلاقة فقد كشف نزواته كاتب ناشىء • أحب محظيته • لقد طوى النسيان اليوم مجده السـياسى ولكن ذكراه تومض بنور خافت لمن يشاهد فى جيلنا مسرحيـة غادة الكاميليا ، فهو يظهر لحظات قليلة فى صورة شـيخ مخرف اسمه الكونت دى موريا أو لمن يتصفح كتابا تذكر فيه مارى دوبليسـيس فقد يجده مذكورا فى صفحة أو صفحتين ، سيتبين حينئذ صورة عجيبة لنمط عجيب كان من الناس ،فى اختلاط التأديب بالتملق والزلفى، والتفسخ والانحلال بكرم يبلغ حد السفه • لقد بعدت الى الوراء أيام هذا النمط فانقرض شأن أنواع من الحيوان البدائى ، وأصدق مثال عليه هو هذا الشيخ المرتعش البالغ من العمر ثمانين سـنة المزهو بامتلاك فتاة فى سن العشرين هى غادة الكاميليا

ولما اقتربت المسرحية من نهايتها نهضت مارى دوبليسيس وغادرت المسرح فى صحبة الكونت ، فسارعت كليمانس الى دعوة الشـابين الصديقين بالاشارة الى الخروج أيضـا ومقابلتها أمام باب المسرح •

ووصل ثلاثتهم فى وقت أتاح لهم أن يشـــهدوا الكونت والمحظية يستقلان عربة فخمة من طراز الفيتون ويمسك الكونت بنفســـه بقيادة جوادين مطهمين بديعين يسوقهما خببا . شتان بين هذه العربة والعربة المأجورة التى استقلها ثلاثتهم ليلحقوا بالسابقين ، فلما وصلوا الى رقم ١١ شارع المادلين رأوا أن الكونت دى ستاكلبرج قد ودع صاحبته كما توثقت كليمانس عند باب الدار وانصرف ، فلم يجدوا حرجا من طرق بابها وابلاغها على لسان خادمها انهم جاءوا لزيارتها من أجل أن تأذن لهم بالدخول . ووجد ألكسندر نفســه ــ وكأنه فى حلم ــ فى بيت هذه الفتاة التى لا تدانيها فتاة أخـــرى فى تلهف أهل باريس على لقائها .

اجتاز ثلاثتهم حجرة امامية فسيحة ، ولحظ ألكسندر وهــــو مسحور أن جدرانها مزينة بشبك من الاسلاك المذهبة تتســـلق عليها نباتات نادرة مزروعة فى صناديق مطلية باللاكيه ، ثم نفـذوا الى حجرة الجلوس الخاصة بصاحبة الدار ، بها أثاث فخم مصنوع من خشب الورد المخروط وفقا لذوق الشعوب النائية ، وجدرانهـا مكسوة بالحرير الثقيل . وكانت مارى جالسة آلى بيانو من صـــنع بلييل يوافق طرازها بقية الاثاث ، وكانت تعزف فتخطىء لحنا لاغنية عاطفية شائعة فى ذلك العهد . ووقف شاب بجوار المـدفأة يسند ذراعه آلى حافتها وينصت الى العزف وهو مستغرق فى التفكير . هذا الشاب يظهر أيضا فى مسرحية غادة الكاميليا حاملا اسم مســـيو دى فارفيل

وتولت كليمانس تقديم الكسندر الى المحظية فمدت له يدها وهى تبتسم برقة فقبلها بخشوع ثم نادت خادمتها وأنبأتها ان ساعة عشائها قد حانت ، ثم عدلت لهجتها وقالت لمسيو دى فارفيل فى عبـــارة مقتضبة ان وجوده أصبح غير مرغوب فيه . اننا نشهده فى المسرحية يتقبل صدها بمنتهى الظرف والسماحة ولكن دوماس علل لهجتهـا فى اقصاء هذا الشاب الواسع الثراء لا بأنها قليلة الادب بل بأنهـا قليلة المبالاة بالمال ، ودهش لمسلكها هذا .

وكانت قد بدلت ملابسها حين عادت من المسرح وارتدت ثوبا منزليا فضفاضا مصنوعا من البروكار على طراز عصر الملك لويس الخـامس عشر ، ومما زاد فى جمال وجهها أن انعكست عليه أضـواء رحيمة من شمعدانات عديدة . ثم قادت ضيوفها الثلاثة الى غرفة الطعـام فجلسوا معا الى مائدة غنية أنيقة ، وبالحجرة أثاث فخم من طـراز

عهد الملك هنرى الثانى ، الجدران مكسوة بنسيج موشى بالصور ، وفى الحجرة أيضا تحف خزفية عديدة مستوردة من مصنع سيفر أو من مدينة درسدن ومرايا كثيرة من صنع مدينة البندقية تعكس أضواء الشمعدانات ، الاطباق والصحون من الفضة الخالصة والطعام مجلوب من مطعم شهير اسمه « البيت الذهبى » وجلس الكسندر مسحورا بفتنة مارى مطيلا تحديقه اليها وهو صامت عزوف عن كأسه . أما بقيةالحاضرين فقد شربوا كثيرا من الشمبانيا وأخذت كليمانس التى اشتط ذوقها الفاسد فى زخرفة ثيابها تحكى نكتا بذيئة فتنصت لها مارى دوبليسيس وايوجين ديجازيه بسرور ظاهر . وكلما امتد الوقت زاد ميل مارى للنزول الى مضمار البذاءة. كانت أفرطت فىاحتساء الخمر وأصبحتتبالغ فى الضحك والكركرة لكل كلمة تقال . ولكن هذا كله لم يمنع الكسندر من الشعور كلما طالت الجلسة بأن حبه لها قد زاد اشتعالا وأن لهفته على نوالها قد زادت استبدادا بقلبه . لو فعلت امرأة أخرى ما تفعله لمجها ذوقه ، فلتفعل مارى ما تشاء فانها باقية فى نظره ربة الكمال ومثله الاعلى والمخلوق الوحيد فى هذه الدنيا الجدير باعزازه وتلهفه ، ولا أثر لعيوبها الا زيادة تأجج عاطفته وأمله أن تحبه وأن تعدل عن مسلكها المستهجن فتلزم الصمت وتسترذل نكات كليمانس برات البذيئة . ولكن كل ما تفعله مارى كان ينفخ فى نار قلبه . هيهات لها مهما اذنبت تلك الليلة ان تقضى على حبه لها

وبلغ من شدة اندفاع مارى فى الضحك والقهقهة ان أصابتها نوبة من السعال ، وجاهدت طويلا لاستعادة سلطانها على نفسها ، ولكنها عجزت فقفزت عن المائدة وجرت الى حجرة ثيابها وبقى أيوجين ديجازيه وكليمانس برات سادرين فى الحديث والضحك كأن شيئا لم يحدث ، فمارى فى نظرهما انما هى فتاة نزقة طائشة جلبت على نفسها المرض من فرط امعانها فى الجرى وراء المتع ، ولكن قلب الكسندر خفق بالوجل والرثاء ، فقام يتبعها ونقر على باب حجرتها. وجده غير مغلق فدخل فألفاها مستندة فى اعياء الى حافة المدفأة . ان الفصل الاول من مسرحية « غادة الكاميليا » مطابق أصدق المطابقة لما حدث لها فعلا هذا هو ما يؤكده الكسندر دوماس الابن نفسه ، وان اعترف انه زاد فى المسرحية من عدد الضيوف المجتمعين على مائدتها فجعلهم خمسة ، والاثنان الزائدان هما شخصيتان ثانويتان لا قيمة لهما فى المسرحية . فلذلك نعرف الان

أن ما حدث لهما هو أنه حين اختلى بها أخذ يبثها لواعج حبه انه في تلك اللحظة حب مثالى رومانسى ، كل مطلبه أن يرعاها باعزاز وتوقير ، كل مطمحه ان يراها سعيدة هانئة ، وناشدها بالحاح - كما تروى المسرحية وهى صادقة - أن تعنى بصحتها وأن تعتمد على مساعدته لها . وتروى المسرحية هذا المشهد على النحو الاتى :

أرمان - لاقيمة لى فى نظرك ، هـــذا حق ، ولكن ان أذنت لى يا مرجريت فسأعنى بك عناية الاخ بأخته لن أفترق عنـــك ، وأنا واثق أن برءك سيتحقق على يدى . فاذا تم لك الشفاء فأنت حرة فى استئناف حياتك التى تألفين ان كان هذا يروقك ، وان كنت أومن أنك ستكونين أسعد حالا اذا رضيت بحياة هادئة .

مرجريت - كأنى بك رسول النكد والغم ، أهذا شأنك ؟

أرمان - أفليس لك قلب اذن يا مرجريت ؟

مرجريت - قلب ! .. هذا هو الشىء الوحيد الذى نستطيع أن نستغنى عنه فى مهنتنا « بعد فترة قصيرة من التريث » اذن انت جاد فى قولك !

أرمان - كل الجد

مرجريت - لقد صدقت برودانس « هذا هو اسم كليمانس برات فى المسرحية » حين وصفتك لى بأنك رجل سهل الانقياد لعاطفته . أحقا اذن انك ستعنى بى ؟

أرمان - نعم

مرجريت - وتكرس لى كل وقتك ؟

أرمان - طالما بقيت غير متهم بإملالك

مرجريت - وبماذا تسمى دافعك ؟

أرمان - الاخلاص

مرجريت - وما مبعث هذا الاخلاص ؟

أرمان - فرط انجذابى الى سحرك .

مرجريت - منذ متى ؟

ارمان - منذ سنتين حين رأيتك ذات يوم تمرين أمامى وانت ناطقة بالجمال والكبرياء والمرح ، لم انقطع منذ تلك الساعة عن متابعة حياتك عن بعد وفى صمت .

دهشت مارى دوبليسيس لهذا الكلام المعبر عن حب متقد صادق لقد قدمته اليها كليمانس قائلة بلهجة مازحة انه شاب متيم بهواها ومع ذلك فلم تحفل به أثناء تناول العشاء وظنت ان سبب صمته

هو الملل . كلمة الحب ليست بجديدة أو طريفة على سمعها ، فاستمعت اليه فى أول الامر فى ضيق ونفاد صبر ، ثم تأثرت بنغمة الصدق البادية فى كلامه ، فأحست نحوه بالود وابتسمت له وتنهدت وناشدته أن يتركهاوينساها ، انها تعانى المرض والملل من الحب فلن يكون فى صحبته لها الا شقاؤه . ومع ذلك فان مارى دوبليسيس كانت قد اصابتها أيضا عدوى الرومانسية السائدة بين الجيل الذى تنتمى اليه . وأقسم لها ألكسندر بأنه سيضع حدا لحياته اذا لم يصبح وقفا على خدمتها ، وعاهدها أن يحبها حبا عميقا ازليا . أنصتت اليه وبدأت أحلام السعادة تداعب خيالها ، لعلها وهى مغمورة فى ضباب حياة الحب المزيف بما فيها من خداع قد أشرقت عليها آخر الامر شمس الحقيقةوجاءها انسان يصدق فى قوله أنه سيعنى بها . ناولته من باقة زهرة كاميليا وقالت له « بشهادة المسرحية »

ــ خذ هذه الزهرة و ...

أرمان ــ ماذا أفعل بها ؟

مرجريت ــ أبقها معك حتى تعيدها الى

أرمان ــ متى ؟

مرجريت ــ حين تذبل

أرمان ــ وبعد كم يوم تذبل ؟

مرجريت ــ لها عمر بقية الزهور . انها قد تذبل بعد انقضاء مساء أو طلوع صباح

أرمان ــ آه يا مرجريت ما أعظم سعادتى !

مرجريت ــ اذن قل لى مرة أخرى انك تحبنى

أرمان ــ احبك

مرجريت ــ اذن انصرف الآن

أرمان « وهو يتراجع الى الوراء » الى اللقاء

« يقبل عليها ويلثم يدها مرة أخرى ثم ينصرف »

هكذا ينتهى المشهد ، هذا المشهد الذى يؤكد ألكسندر دوماس الابن أنه حدث فعلا ذات ليلة فى خريف سنة ١٨٤٤

الفصل الثاني عشر

مشاحنات أدبية

غادر الكسندر دار ماري دوبليسيس بعد أن ارتضت أن يكون عشيقها . ذهنه مشغول بخيالات تحلق فى سماء عالية تبتسم له فى أحلى الامانى . كل ماحواه الكون ـ ماعداهما هو وماري ـ أصبح فى نظره وهما باطلا . وكذلك ماري لم يمنعها شبعها من متع البهجة والزلفى والغرام من أن ينشغل بالها به وأن يداخلها السرور حين رأته يعود اليها فقد وجدت فى عشقه لها اتقادا استمال اليه حنان قلبها .

ان حياتها مليئة بالبذخ الى حد أنه لم يبق لها شيء تتحرق على نواله . ماتكاد تنطق بكلمة « أريد » حتى يتنافس عشاقها فى تحقيق رغبتها . وفى يدها كل ماتتمنى من الحب والاعجاب مبذولا لها ، ولكن الملل يضنى روحها ، أنها تضيق ذرعا بالكونت دى ستاكلبرج ولولا ثروته لما فتحت له بابها أبدا ، بل انها أيضا أصبحت تمل صحبة الكونت ادوارد بيريجو رغم شبابه وظرفه واخلاصه لها ورغم أنها أحبته منذ سنة حبا عنيفا . اذا سألت قلبها عن سبب مللها لم يسعفها بجواب ، ولكن الملل يفترسها ولا حيلة لها فيه ، هكذا حياتها . من أجل هذا كله رحبت أصدق ترحيب بألكسندر دوماس الشاب وارتضت أن يعد بالنسبة لها « حبيب القلب » . وجدته يخصها بأقصى مايقدر عليه من عناية وكرم ، يبذل غاية جهده لادخال البهجة والسرور على قلبها . أصبحت اذا قالت « أنا حية » وجدت فى قولها غبطة ولذة تثير انتباهها . كانت تستدعيه اليها كلما قدرت ، كان يسره أن يصبر حتى تأتيه دعوتها . لايشغل باله بالسؤال كيف تقضى أوقاتها حين لايكون هو معها . انها تجعله أحيانا يقضى الليلة عندها وتطلب اليه أحيانا اذا انفردت به أن يخرج بها ، هو نعم الرفيق لها ، يمتعها بحديثه اذا اختلت به ، وبصحبته اذا ذهبت معه الى احدى الحفلات الصاخبة لانها تجده فى المجتمعات سهل المخالطة للناس ، يجذبهم بتوقد ذهنه وخفة دمه وبراعة نكته ، اذا بقيا وحدهما كرس لها فكره وأهتمامه وعطفه ووده . ألفت أن تفضى اليه بكل همومها أو بالهموم التى لاتمنعها دماثتها من البوح

بها فيرق لها قلبه لانه لم ينس بعد ما عاناه فى مطلع عمره من بؤس وشقاء . كلاهما كان فى طفولته ضحية للاهمال وفريسة للتعاسة . لم يعرف أحد منهما بيت أسرة متآلفة مجتمعة ينعم بدفئه . فكان حديثهما يحوم مرارا عن بيت عساه أن يكون لهما فى يوم فيذوقا فى أحضانه طعم الهدوء والطمأنينة . ولكن معيشتهما الراهنة هى أشد مما يظنون للاسر فى قبضة حياة يشـــوبها الزيف والتمويه ، فاذا داعبتهما أحلام السعادة فانما هى أحلام كل العشاق الرومانسيين فى ذلك العهد ، يبتعدون عن الواقع للتحليق فى عالم خيالى يصور لهم قصورا مسحورة . كل رغباتهم فيها مستجابة ومعيشتهم صفاء دائم

ولكن مارى كانت صاحبة مزاج قلق سريع التقلب . انها تذرف الدمع وهى تذكر أحزان طفولتها ، وهى تتنهد تلهفا على حب مثالى يرعاه الهدوء فى أحضان الريف ، ثم اذا بها تقوم وتقود ألكسندر الى موائد القمار لانها كانت فى ذلك العهد تهواها بشغف شديد ، فاذا أقبلت عليها تغير طبعها من النقيض الى النقيض فبعد أن تكون هادئة كأنما هى مستغرقة فى الاحـلام اذا بها تصبح لاتكف عن الحـركة والضجيج بسبب افراطها فى احتساء الشمبانيا ، فيدهش ألكسندر لهياجها واقبالها بنهم سافر على المتع التى كانت تزدريها وهى هادئة النفس منذ هنيهة ، ولكنه هو أيضا كان يسارع بشغف شديد الى ألقاء دلوه بين الدلاء ويشارك أبنـــاء الليالى الصـــاخبة اسرافهم ومجونهم . مادامت مارى تحبه فالحياة زاخرة بالبهجة ومن المستحيل عليه ألا ينعم بكل لحظة فيها ، ثم أنه واثق ان مارى التى خلقها الله سبحانه ليست هى هذه المخمورة الصاخبة ، بل هى هذه الفتــاة الوديعة التى تحلم ببيت تنعم فيه بالامن والطمأنينة ، هى مثله لاتجهل أن حياتها فارغة . كل منهما لاينتمى الى مجتمع تسـوده الرذيلة ، ماساقتها اليه الا عثرة قدم قضاء وقدرا ، وكلاهما اليوم قادر على أن يتركه .

يحلق الكسندر فى سماوات الحب دون أن يلقى باله الى الارض ، تحف بجنته أستار من ذهب مستمد من رواية « مونت كريستو » تنعكس عليها صورة كل شىء فى الحياة

أما أبوه فقد توالى نجاحه بعد رواية « الفرسان الثلاثة » بنشر روايته الجديدة « الكونت دى مونت كريستو » فى صحيفة « جورنال دى ديبا » . انها قمة مجده لابدانيها كتاب فى قدرته على خلب ألباب الناس بتعدد الالوان وتنوع المغامرات المذهلة ، تختلط فيه أحلام

اليقظة اختلاط الناس والاقنعة فى كرنفال صاخب فى يوم عيد ، فاذا بهذه الاحلام تبدو كأنها حقيقة واقعة ، أحلام بالثراء والسلطان والثأر المرطب للقلب . الرواية هراء فى هراء وتخريف فى تخريف ولكنها مع ذلك تشفى للناس غليلا متأصلا فى طبعهم ، ففاق نجاحها كل حد لا فى فرنسا وحدها بل فى العالم طرا وكانت رواية « الفرسان الثلاثة » قد أضفت على مؤلفها شهرة عالمية . قرأها تاكرى ـ الاديب الانجليزى ـ بمتعة ولذة ، بل ان بلزاك نفسه أثنى عليها ، ولكن رواية « الكونت دى مونت كريستو » رفعته الى قمة المجد والشهرة،وكان مؤلفها يستأثر لنفسه وحده بحديث الناس عن الناس فى باريس فى ذلك العهد .

لا عجب أن طغى عليه ـ وهو المعروف بفرط الغرور ـ اعجابه بل افتتانه بنفسه . أخذ يمشى بين الناس مشية الخيلاء كأنه ممثل يقوم بدور مرسوم له عن عمد على خشبة المسرح ، وأراد بمسلكه هذا أن يدخل السرور على قلوب مواطنيه ، فوجد الجمهور فى تمثيله المتقن لدوره متعة لاتقل عن متعتــه بتتبع مغــامرات أدمون دانتيس بطل الرواية . ولكن ظل دوماس لم يكن دائما خفيفا على زملائه الكتاب لانه احتكر لنفسه دونهم اهتمام الجمهور ، وكان الناس اذا فرغوا من قرأءة حلقة اليوم من رواية الكونت دى مونت كريستو فأثارت أعجابهم ، وجدوا لدوماس روايات أخرى فى صحف عديدة . وسرعان ما ازدحمت المكتبات بمؤلفاته ، وأعادت المسارح تمثيل أعماله القديمة من درامية وكوميدية . وظهــرت المدموازيل جورج من جــديد فى مسرحيته المسماة « قلعة نيل » ، ولكنها كانت قد شاخت قليلا عن دورها المعبر عن عواطف حب متقــد ، ومع ذلك صفق الجمهــور لأدائها البديع لدورها فى تلك المسرحية المثيرة الناجحة .

وزاد النجاح من أطماع دوماس الأب . لم يعــد يكفيه دله على الناس بأنه مؤلفأعظم كتابعرفه العالم بل أراد أن يحتل أعلى مكانة فى الادب والصحافة وأن يستأثر شخصهبالمزيد ثم المزيدمن أضوائها . نشر فى سنة ١٨٤٣ سبعة كتب الى جانب مسرحية « آنسات سان سير » وثلاث مسرحيات أخرى أقل منها نجاحا ، ولكن هذا الانتاج الضخم لايعد شيئا مذكورا اذا قيس الى انتاجه فى السنة الراهنة سنة ١٨٤٤ ، فقد تدفقت مؤلفاته فيها الواحد تلو الآخر ، ولم يعد ناشئة الكتاب يجدون لهم متنفسا ، بل انخسفت أمام شمسه نجوم بعض الكتاب المشهورين . وبدأت صحيفة « الصحافة » تنشر رواية لبلزاك اسمها « الفلاحون » فكتب اليها القــراء يقولون انها رواية

عملة ، فأوقفتها الصحيفة بعد الفصـــل الاول لتنشر بدلها رواية لدوماس اسمها « ايمى مرجو » . لقد عود دوماس الجمهور على قراءة روايات سهلة تطلق من أسر الواقع خيالهم فيهرب بهم الى عالم مسحور تتحقق فيه كل أحلام يقظتهم ، ففسد ذوقهم الى حد أنهم أصروا على العزوف عن كل أدب رفيع يتطلب منهم بـذلا ولو قـدرا ضئيلا من الانتباه وامعان الفكر . ان دوماس قد ابتكر صنعة بارعة تتمثل فى تقديم سلاسل يومية لحكاية خفيفة مسلية متدفقة لاتنقطع ، كل سلسلة جرعة يسقيها للناس فتخدر أعصابهم بسهولة وتجعلهم يغيبون فى أحلام اليقظة .

وأصبح دوماس فيما يبدو لايقتنع بشيء . لقد سلط أضـــواء الشهرة على اسمه فلم يبق عليه الا أن يعمل على رفعه فى كل مكان . لم يكن الباعث له على مزاحمة بقية الكتاب وتركه لهم وراءه وليـد ازدرائه بأعمالهم أو نزعة خبيثة للتشفى وحب الاذى ، فلا أحـد يسارع مثله الى مدح زملائه ، انما الذى تغلب عليه فى ذلك العهد هو حب العظمة ، ولكن مبالغته فى الخيلاء لم تلبث طويلا حتى ترتب عليها رد فعل لا مفر منه . وظهر فى أواخر السنة أول بوادر المأزق الذى ينتظره .

ذلك أن أناسا بقيت عيونهم مفتحة راقبوا بعجب ودهشـــة هذا الانتاج الضخم الذى لاينقطع سيله ، حقا لقد كان للكتاب فى القرن الماضى نشاطا فائقا . اذا عكف بلزاك أو فيكتور هوجو على العمـــل بجد تدفقت كتاباته دون أن يهمل تجويد أسلوبه ومراجعته . ولكن حتى على الاعتراف بأن قلم دوماس سهل الجريان فانه من المستحيل الاقتناع بأنه كتب بنفســـه كل ماهو ممهور بأمضائه . عد هؤلاء الفاحصون أعماله المؤلفة سنة ١٨٤٤ فراوا أنه كتب خلالها رواية الفرسان الثلاثة ورواية الكونت دى مونت كريستو التى لقيت نجاحا منقطع النظير ، بالاضافة الى أربعين عملا نشرت على هيئة كراريس ، وكل عمل منها يحتاج اعداده الى دراسة المراجع التاريخية ، فأخذ الناس يتهامسون باشاعات عديدة عن سر هذا الانتـاج المتدفق ، واتهموه بأنه لجأ الى وسائل غير شريفة ، وقيل أنه أصبح بمثابة مدير لمصنع انتاج أدبى يستخدم فيه عددا من الشبان النابهين يعملون من أجله ويستغلهم هو أشنع استغلال . حقا ان هذه الاتهامات لها نصيب كبير من الصحة ولو أن العمل فى المصنع المزعوم لايجرى طبقا لنظام دقيق وخطة مدبرة محكمة ، فدوماس رجل لايعرف دقة النظـام

ولا الخطط المدبرة باحكام ، وانما هو ينتفع بشيء يتاح له عفوا ، بدون سعي منه . قد يصدق اتهامه بأنه يستغل عددا من الشبان ، ولكن الحقيقة هي أن هؤلاء الشبان انما يعملون له طواعية وبدافع من اخلاصهم ومحبتهم له ، انهم له بمثابة المساعدين او السكرتاريين الذين يجنبونه اضناء نفسه بدراسة المراجع التاريخية واستخلاص مايريده منها ، فهم الذين يتولون هذا العمل بالنيابة عنه وتحت اشرافه ويرتبون المادة المستخلصةعلى هيئة فصول متتابعة هي نواة الكتاب الجديد المعد للنشر ، فيتناول هو منهم أعمالهم وينقحها وينفخ فيها من روحه قبل ارسالها للمطبعة . على هذا النسق كان يعمل كبار الرسامين في عصور النهضة ، فلوحاتهم هي من عملهم وعمل تلاميذهم . وكان هذا النسق في التأليف بين اثنين أو أكثر في تأليف كتاب واحد مباحا وأمرا مألوفا .

ولكن مما يؤسف له ان دوماس اتت عليه أوقات سمح لنفسه فيها ان يجاوز المباح الى غير المباح وذلك بسبب فرط لهفته على استغلال اسمه وثقة الناشرين به . انهم لايحبون تعب الدماغ منجراء معاملاتهم مع صغار الكتاب طالما أن روايات دوماس متلاحقة جاهزة مضمونة ، فاي شيء أسهل عليه اذن من أن يشتري من شبان نابهين أعمالهم التي رفضها الناشرون فيضع اسمه اللامع على غلافها ويبيعها لاصحاب الصحف المتلهفين على نشر رواياته ، يبيعها لهم بسعر ثلاث فرنكات للسطر الواحد . لماذا يرفض عرضا سخيا من ناشر وهو قادر على أن يقدم له كتابا كل عمله فيه أنه قرأه ؟ وهكذا أغرقت الاسواق روايات منسوبة الى دوماس ولم يعد في الصحف متسع لنشر عمل لكاتب غير مشهور . فهذا الوضع الذي وجد الكتاب انفسهم فيه وما يستتبعه من حرمانهم من تكافؤ الفرص هو الذي دفع بكاتب ناشيء اسمه أيوجين دي ميركور على أن يرفع في أواخر شهر ديسمبر الى جمعية الادباء مشروع قرار طالبا منها اصداره . وفيما يلي مقدمة هذا القرار المقترح المعبر عن الحنق :

« تواترت الانباء بأن كاتبا غزير الانتاج يعمد بوسائل فعالة مرذولة الى مضاعفة ربحه ثلاث مرات باستخدام مساعدين مغمورين يشتري منهم أعمالهم بثمن بخس ، وأصبحنا نشهد هذا العبقري ينزل عن عرشه ليخوض في أوحال سوق تجاري ويفتح له دكانا لشراء الافكار وبيعها »

وطالب مشروع القرار جمعية الادباء أن تعيب هذا المسلك وتنحى

عليه باللائمة .

ولما اطلع دوماس على مشروع القرار تملكه الغضب وأسقط فى يده وسارع الى نفى التهمة عن نفسه ثم عاد واعترف باشتراك ماكيه فى تاليف رواياته . ثم تعرض بعدذلك بوقت قليل لهجوم آخر عليه أدهى وأمر ، ذلك أن أيوجين دى ميركور اقترض عشرين جنيها انفقها فى مطلع سنة ١٨٤٥ على طبع رسالة ألفها وجعل عنوانها « مصنع الكتب . مؤسسة ألكسندر دوماس وشركاه » فرنت بنشر هذه الرسالة فضيحة كبرى وبيعت جميع نسخ الرسالة فى ظرف يومين . لا جرم أن أيوجين دى ميركور كان على اتصال بشخص عليم بأسرار دوماس المنزلية فان الرسالة ذكرت عن دوماس تفاصيل كثيرة لحياته الخاصة ، هى خليط من الصدق والكذب الملفق ، وكشفت الرسالة الوسائل التى يلجأ اليها دوماس بغير حياء منه ، وتناولت كل قصة بالتشريح مع تقديم البرهان على انها مقتبسة من مؤلف آخر أو مستمدة من عمل كتاب مغمورين لا حول لهم ولا قوة هم ضحايا ابشع أنواع العسف والاستغلال ، وامتلأت الرسالة باهانات مقذعة فاحشة فى حق دوماس ووصفته بأنه لايفضل الا قليلا أخس النصابين والمحتالين .

وفتحت هذه الرسالة الباب فى بعض الصحف لحملات التشهير والتجريح ، وتزعزعت مكانة دوماس العظيم بعض الوقت . انه حريص أشد الحرص على سمعته ويطمح أن يحتل مقعده فى الاكاديمية الفرنسية ، وأدرك وهو حزين أن أمله أصبح ضئيلا ، وتقدم واحد من معاونيه المخلصين اسمه مالفيى وطلب مبارزة كاتب الرسالة ، ولكن دوماس فضل الالتجاء الى المحاكم ، وثبتت تهمة السب على ميركور وصدر عليه حكم الحبس لمدة خمسة عشر يوما .

وكان الكسندر الابن قد بدأ فى الشهور القليلة الاخيرة يهبط ببطء من التحليق فى السماء بخياله ويستقر على الارض . ان حبه لمارى دوبليسيس لم يخمد بعد ، بل اشتد اشتعالا ، ولكن الجنة التى آمن أنها حقيقة واقعة قد برهنت على انها باطل من الاباطيل ، فمارى هى هى لم تتغير ، وأصابته رسالة ميركور بصدمة أفاقته من سباته ، وكشفت له الحقائق عن وجهها . لعله أشد من ابيه انزعاجا لهذا الهجوم ، فقد بلغ حبه واخلاصه لابيه حدا جعله يسقط فى وهدة البؤس والشقاء حين رأى اسم أبيه قد أصبح ملوثا . انه لم ينفك ينظر الى أبيه نظرته الى رجل عبقرى وانسان نبيل . ان أباه ولا ريب

صاحب موهبة أدبية خارقة ، لا حد لخصوبة ذهنه وبراعته فى قص الاقاصيص ، وفى حياته الخاصة لا حد أيضا لوده للناس ولكرمه الذى ينبغى أن يغفر كل مايقترفه من حماقات . حقا انه يبدد نقوده فى الانفاق على نساء مغامرات ولكن من الحق أيضا أن نقول أنه لم يقصده فقير محتاج فارتد خائبا ، يكفيه التقاء نظرته بنظرة الفقير حتى يسارع من فوره الى اغاثته . ان بذخه هذا هو الذى دفعه الى الجرى وراء الكسب بفضل عمله المتواصل فلابد من أجل تسديد نفقاته الضخمة أن يخرج من يده انتاج لايقل عنها ضخامة .

ولما انقضت لايوجين دى ميركور أقامته القصيرة فى السجن لم يتب وعاود الهجوم على دوماس فى صحيفة اسمها « لاسلويت » . وذات يوم اندفع كالاعصار الى ادارة هذه الصحيفة شاب فى ثورة من غضب مستعر وأخذ يحطم الاثاث ويتناول كل مايقع عليه نظره من الاوراق ويمزقها ويبعثرها بعد أن أشفى غليله ، خرج كما دخل مندفعا من قبل أن يفيق المحررون من شدة دهشتهم لما يرون . انه الكسندر دوماس الابن . وفى اليوم التالى أرسل شاهدين الى أيوجين دى ميركور ليتحداه أن يبارزه . انه بارع فىالمبارزة بالسيف والمسدس وأنه لمتحرق الى منازلة عدو أبيه . وخشى أيوجين دى ميركور مواجهة مثل هذا الخصم البارع فى المبارزة والهائج من شدة الغضب ففعل كل ما فى وسعه لمفاداة المبارزة . ابتسم للشاهدين وقال لهما : « أليس من الانصاف أن تكون المبارزة بين ابن دوماس وبين ابنى ؟ » ثم فتح بابا ونادى : « يا ادجار » . فخرج صبى فى سن السابعة . قال له أبوه بلهجة جادة : « يا ادجار هذان الرجلان هما شاهدا ابن دوماس يطلبان اليك أن تدافع بالمبارزة عن شرف أبيك » . وجه الرجلان الى الصبى نظرة شاخصة ثم انصرفا دون أن يظفرا بجواب ، ذلك لان المبارزة هى فى الواقع من حق دوماس الاب لا الابن .

أما الاب فغير غافل عن أن أيام الشباب والمبارزة قد ولت ، فأوقف طلب المبارزة عند الحد الذى بلغه دون أن يخطو بعد خطوة اخرى . لقد نجح فى السيطرة على أعصابه وعد حكاية المبارزة مزاحا فكها يثير الابتسام . ولم يكن لهذه الثارات الادبية أثر كبير على جمهور قرائه ، فلم تنقص نجاح الحلقات التالية لرواية الكونت دى مونت كريستو ولم تنقص أيضا مقدرتها على اثارة اعجاب الجمهور بها الى حد الهوس ، فماذا يهمه من اتهامه بأنه كاتب تاجر مادام قد واتته الشهرة والثروة ؟ أما ابنه فقد أخذ يتسلى عن أسفه على

فوات المبارزة بنظم قصيدة يوجهها الى ابيه هذا ختامها :

« انصرف الى عملك فانى ببابك ساهر
لاتهمنى أقاويل الناس عنى
فانى بالغ بغير حاجة الى عونهم كل ما أصبو اليه من صيت ذائع
والى أن يطلع ذلك اليوم سأظل واقفا على بابك وقفة الديدبان الخاشع
ستجدنى نعم الابن البار والحارس الامين
ادافع عن مجد أبى دفاعى عن حرم مقدس »

ولم تكن المشـــاحنات الادبية أمرا غير مألوف فى فرنسا فى ذلك العهد ، فلم تكد تنتهى المشاحنة بين دوماس وايوجين دى ميركور حتى شبت مشاحنة جديدة ، فقد حدث فى مطلع شهر مارس لمسيو دوجاريه أحد أصحاب صحيفة « الصحافة » أن وجد نفسه واقعا فى ورطة خلقها له بوفايون صاحب صحيفة « لاجلوب » وكان دوجاريه صديقا لدوماس وابنه ، ففهمها أشد الفم ســـماعهما أنه سيبارز بوفايون اذ كان غريمه هذا رجلا فظا شرسا بارعا فى الرماية بالمسدس على حين كان منازله انسانا وديعا مسالما لايعرف شيئا عن أصــول المبارزة أو استعمال السلاح ، وكان فى التاسعة والعشرين من عمره معروفا بالذكاء والتزام الجد فى حياته ، لا عيب له الا أنه زير نساء ، وقع فى حب لولا مونتيز فقادته الى أماكن اللهو الصاخبة . وكان الكسندر دوماس الابن يراه ليالى كثيرة فى أماكن القمار التى يغشاها فى صحبة مارى دوبليسيس حيث الرءوس دائرة من فرط احتساء الخمر والاعصاب هائجة من شدة التوتر فى لعب القمار ، فلا عجب أن جلل هذه الاندية التى تزدحم بالبغايا جو يسهل فيه الاستفزاز من الباب للطاق ، والثورة تبرق للكرامة المهدرة والتصميم فى عناد على رفض الصلح الا بالمبارزة .

وكان دوجاريه يشعر أن أجله قد دنا فكتب وصيته وخص فيها لولا مونتيز بمبلغ طائل من المال . ان فكره كله وقف عليها ، وخيل اليه وهو غارق فى لجة الحزن أن الموت سينتزعه من حياة كان يستمد منها اتم سعادة فى رفقة لولا مونتيز .

وأمضى الكسندر دوماس الابن الفترة الفاصلة بين التحدى والمبارزة فى صحبة صديقه ، يحاول يائسا أن يمنع وقوع الفاجعة ، واضطرب قلبه وتوجس شرا لأنه أحس هو أيضا أن شبح الموت يترصـــــد صديقه ، فملامح هذا الصديق هى ملامح رجل تلقى حكما صادرا باعدامه ، هو باعترافه لم يتناول فى يده مسدسا طول عمره . واخذ

الكسندر ينتقل كالمجنون بين أصدقائه يحثهم على التوسـط لدى دوجاريه ليقبل اقتراحهم استبدال السيف بالمسدس فى المبارزة ؛ فان خطر الموت فى مبارزة بالسيف أقل توقعا مما لو كانت المبارزة بالمسدس ، ولكن دوجاريه خشى اتهامه بالجبن ورفض أن يسـأل غريمه بنفسه قبول الاقتراح ، وتوالت الايام حتى لم يبق فى عمره حسب ايمانه سوى ليلة واحدة ، حينئذ هرع الكسندر الى ابيه وتوسل اليه أن يتوسط بين الخصمين ، فأجابه دوماس انه لايستطيع أن يفعل شيئا لان دوجاريه لن يرضى بالنجاة الا اذا نجا شرفه أولا من العار ، ولا وسيلة لانقاذ شرفه الا بالمبارزة . انه وقع فى ورطة لا مخرج منها ، فلا يسع أى رجل نبيل فى ذلك العهد أن يهرب من خصم يتحداه للمبارزة أو أن يحجم هو عن تحدى خصم أهانه ، فلو حدث هذا أو ذاك لدمغته وصمة من العار لاتفارقه طول حيـاته ، ستغلق فى وجهه الابواب وسيحكم عليه المجتمع بالموت الادبى . حقا ان اميل دى جيراردان كان يرفض المبارزة اذا تحداه خصم ، وانمـا لم يغفر له الناس مسلكه هذا الا لانه كان قبل بضع سنين قد قتل غريما له فى مبارزة بينهما ، فاذا اشتهر انسان بشجاعته فى مواجهة الموت على هذا النحو حق له من بعد أن يتجاهل كل خصم جـديد يتحداه وأن يدير له ظهره ، ولكن لا أحد يرضى لنفسه أن يهرب من أول مبارزة .

وكان سبب وقوع دوجاريه فى ورطته هو عزوف جيراردان عن المبارزة . ان جيراردان هو صاحب صحيفة « الصحافة » ومديرها ، ومنصب نائب المدير فيها يشغله دوجاريه . أما بوفايون فهو مدير صحيفة « لاجلوب » . وبين الصحيفتين عداوة شديدة كما كان العهد حينئذ بالصحف السياسية فى فرنسا . ولما شق على بوفايون أن يبارز صاحب الصحيفة الغريمة ومديرها لم يتوان عن التربص لتاليه واستفزازه فى أول فرصة تتاح له لطلب المبارزة .

ووقع الصدام بينهما فى حفلة أقامتها ممثلة بمسرح الفودفيل فى مطعم شهير بحى الباليه رويال اسمه « الاخوة بروفينانس » . وذكر دوجاريه فيما بعد لصديقه الكسندر دوماس الابن أنه ذهب الى الحفلة وهو يتوجس شرا مستطيرا . لقد حاول جاهدا أن يتخلص من حضور الحفلة ولكن القدر شاء له مع ذلك أن يسوق قدمه اليها وشاء كذلك أن تسوء الامور فوقع ماكان يخشاه .

ظل فى الحفلة عزوفا عن المشاركة فى اللهو ، وبقى وهو سـاهم

النظرة منقبض القلب . صد عن الطعام والشراب والكلام ، وأدارت الخمر الرءوس الا رأسه ، وأقبل الحاضرون على موائد القمار يلعبونه البكارا ويراهنون بمبالغ كبيرة ، وقد أهاج الخمر والصخب والتوتر أعصابهم ،ثم احتدم فجأة نقاش تعالت حدته فاذا ببوفايون يقذف دوجاريه بنعات مهينة جارحة وأجبره بذلك على الدفاع عن شرفه بالمبارزة .

ووقعت المبارزة وقت الفجر فى غابة بولونيا . وامتنع على دوجاريه كل عون وسار مستسلما للقاء حتفه . وسلم الشهود المسدسات الى الخصمين ، فاحتل كل منهما مكانه بعيدا عن الآخر بمسافة مصطلح عليها ، وقبض دوجاريه على سلاحه بيد عاجزة لاتألفه ولا تحسن استخدامه ، فلم يبق له الا أن يجاهد للاحتفاظ برباطة جأشه ، ولمعت نظرة خصمه بعداء بالغ حد الهوس ، انه العداء ذاته الذى تكنه كل من الصحيفتين للأخرى ، ثم رفع مسدسه فى عزم واصرار وبلا تهيب أو اضطراب وصوبه باحكام وتسديد الى رأس غريمه وأطلق عليه الرصاص فقتله . انها كانت مبارزة شهقت لهولها قلوب أهل فرنسا جميعا .

وصلت جثة دوجاريه الى منزله فى شارع لافيت حيث كانت عشيقته تنتظر عودته اليها سالما . لعلها كانت تحبه لانها ارتمت على الجثة بهلع ينطق بأنها منيت بأفدح فجيعة ، واشتهرت حزنها وحدادها فرقت لهاقلوب الناس عامة ، ولكن نفرا قليلا ممن يعرفونها حق المعرفة شكوا فى صدقها اذ راوها تستخدم هذا الحزن من اجل أن يذيع صيتها ويجرى اسمها على كل لسان ، بل ألقى عليها بعض الناس مسئولية هذه النكبة ، ووصفتها الاميرة اديلايد اخت الملك التى يجلها الناس بأنها امرأة لئيمة خطرة ، فعدت هى هذا القول بمثابة مديح لها وسرت به ، فسواء ركبتها أم لم تركبها الاحزان فقد تأتى اخيرا ماتصبو اليه لولامونتيز من بلوغ قمة الشهرة .

ديون ومتاعب

وبدأ ألكسندر دوماس الصغير يلعن نفسه لانه لا يملك من الثروة أضعاف ما عنده حتى يعين مارى على التزام الاستقامه التى تصبو اليها . انها على غرار بطلة قصة « مانون ليسكو » فتاة ذات دماثة وحنان ، لا شيء ينقصها الا توفر المال وسعة العيش من أجل أن تصبح طاهرة القلب وصادقة الولاء . وهى لانها تحب ألكسندر لا ترضى له أن يغرم من جيبه نفقة معيشتهما معا . انها لم ترد لهذا الحب الذى تكنه له الا أن يكون مبذولا من صميم قلبها هبة خالصة كريمة بريئة من شبهة الاستغلال ، ولكنها كانت قد ألفت زمنا طويلا غض البصر عن رؤية الواقع حتى أصبح من الطبيعى فى ظنها اذا رافقها رجل أن تراه ينفق عليها ببذخ واسراف ، فساقت الكسندر وهى غير واعية الى انفاق مبالغ طائلة من المال ، ولما لم يكن يدخل الى جيبه من النقود مقدارا يلاحق مايخرج منه فقد بدأ يغرق فى الدين.

ان أباه يحب من صميم قلبه أن يغدق المال على ابنه شأن ادمون دانتيس المتلاف بطل قصة الكونت دى مونت كريستو ، ولكن البلوى أنه يجود على أناس كثيرين ، وأنه رجل يحلق ذهنه فى السماوات العلا ولا ينزل الى الارض حتى يلقى باله الى ضرورات الواقع ، فمن العسير الوثوق به والاعتماد عليه وقت اشتداد الازمات . له موهبة بارعة فى قش المال من جيوب الناس لا تقل عن موهبته فى حملهم بالحاح على قبول عطاياه . كان ابنه فى بعض الاحيان من بين ضحايا هذا الطبع الفريد ، فقد حدث مثلا ذات مرة أن دعا ابنه الكسندر احد أصدقائه للخروج معه لتناول العشاء ، فلمح أباه واقفا على باب مطعم فجرى اليه مؤملا أن يفوز منـــه بمبلغ من المال يضيفه الى ماعنده ، ولكنه عاد الى صديقه وهو يضحك بخجل وقال له « لامفر لك من العودة معى لتناول العشاء فى البيت فقد قش أبى كل قرش فى جيبى »

وبدأ الكسندر يقلق لكثرة ديونه ، واخذ يلعب القمار مؤملا علاج ازمته فكان يخسر فى كثير من الاحوال ــ كما اعترف هو فيما بعد ــ من النقود فى ليلة واحدة مايكفى لاعالة أسرة شريفة لمدة عام كامل .

وبدأ أيضا يعانى من لواعج الغيرة . لقد انتهى عهد ركوعه الخاشع تحت أقدام مازى ،انه الان يريدها أن تخلص له وحده ولا يطيق أن يرى انسانا غيره له حق عليها ، فان الكونت دى ستاكلبرج الهرم الذى ينيف على الثمانين ، الثرى ثراء فاحشا ، لا يزال يدفع نفقة منزلها وخدمها وخيولها المطهمة وسائقيها . فاذا اقترح على مارى أن تتخلى عن الكونت ارتمت بين أحضان حبيبها وهى تذرف الدمع مؤكدة له أنها تود أن تجد لنفسها نجاة من قبضة هذا الشيخ الكريه ، ان روحها تكاد تزهق من شدة مللها فى صحبته . هذا شأنها مع كل رجل آخر الا ألكسندر حبيب القلب . ليس لها من أمنية الا أن تخلو له وحده وان تكرس له بقية حياتها ، ولكنها جعلته يفهم بوضوح أن هذا الحلم الجميل لا يتحقق الا اذا تحمل هو وحده بما يتحمله الكونت وبقية عشاقها ، فكأنما حسبته الملك أطلس — الذى مسخ جبلا — يحمل الكرة الارضية كلها على كتفيه . وأخذ ألكسندر يدير بصره فى المسكن المترف بحى المادلين فهبط قلبه الى قدميه

وكان الكونت دى ستاكلبرج يقيم مع زوجه فى دار عنوانها رقم ٧ شارع شوسيه دانتان ، وكان ألكسندر يجد من العار لنفسه أن يتحايل على أن يتفادى غريمه وأن يعين مارى على مخادعته . وكان لا يجهل أن مارى تستقبل أيضا ضيوفا آخرين أكثر منه وسامة ؛ فهل قسم له أن يصبح مثل بطل قصة « ماتون ليسكو » فيرضى بطبع عشيقته متأسيا بأن كلا منهما يحب الاخر حبا صادقا من صميم القلب ؟ وهل فرض عليه أن يوالى الاضطلاع بهذا الدور المهين الجالب للسخرية ؟ دفعه مايحس به من المرارة والقنوط الى تسلية نفسه بالتأليف ، فكتب فى ساعات فراغه مسرحية شعرية من فصل واحد ، فاستغراقه فى التأليف ينجيه من التفكير فى الديون والهموم . ولما فرغ من مسرحية أعجبته وسماها « حلى الملكة » ، وحملها الى أبيه . ليس كمثله أب فى شدة الاعجاب والفخر بابنه ، فلما قرأها تهلل وجهه وزاط معبرا عن فرحة كبرى مع أنها كانت مسرحية بسيطة لا تزيد عن حوار بين شخصيتين مفتعلتين ، ولكن قلب الاب وجد فيهما البرهان الصادق على أن ابنه مؤلف موهوب

وكانت مارى قد توعكت صحتها أياما ، ولما حل الربيع افترسها المرض ، فقد قوض عافيتها ماعانته خلال سنين غير قليلة من البؤس والجوع وقر الشتاء ، ثم التردى فى باكورة الصبا فى وهدة البغاء والانغماس فى الترف المسرف والملذات المحطمة . وكما اعتل بدنها

اعتلت روحها واضطربت . لقد ابتسم لها الحظ مرة بعد مرة ورفعها من الحضيض حتى أصبحت محظية منعمة . ولكن حياة الرذيلة لا ترافق طبعها فلم ينقطع شعورها بأنها تعيسة مضيعة . انها تهفو الى النجاة ولكنها لاتجد فى ضميرها هاديا قويما يرشـــدها الى طريق الخلاص . ليس فى قلبها الا رعب من الماضي وهلع من التردى من جديد في وهدة الفقر والاملاق ورفض للوثوق بالناس هو ثمرة دروس مريرة . ان خداعها وخيانتها وفسادها وتكالبها بشره على المال خصال لا مفر منها ، كأنما فرضتها عليها وصمتها الموروثة أو عبرة تجاربها القاسية فى مطلع عمرها ، خصال هى قوام حياتها وزمامهـــا ، من فوقها ستر من الجمال والظرف والقدرة على العطف والحنان ، وبين الباطن والظاهر ، حرب عوان هى التى تجعلها فتاة تزلزل عقـــول الناس وعقلها هى أيضا . لقد ملت الحياة ولكنها تعشق ألكســندر وتتمنى من أجله أن تشفى من مرضها

وكان من الطبيعي وهى على ماهى عليه من النزق والافتتان بالشهرة ومحاكاة الطبقة الراقية الا تلجأ الا الى أشهر الاطباء وان كان من أكبر الافاقين ، فاستدعت اليها الدكتور كوريف صديق مدام داجو صاحبة الملحن ليست ، فلما دخل منزلها وجد فيه الجو الذى يرتاح له والبحر الذى يعوم فيه ، ولكنه لم يجد مفرا من العدول عن دور الضيف المؤانس الى دور الطبيب الذى لابد له أن يعالج مريضـــه فقد كانت مارى مصابة بالتهاب رئوى

والدكتور كوريف هو ابن طبيب يهودي من برسلاو . وكان قـــد زار باريس أيام نابوليون فخلب لب امرأة من الطبقة الراقية اسمها دلفين دى كوستين وأصبح عشيقها ، واشتهر بفضلها بين المجتمعات الراقية التى تخالطها ، وهاهم أهل باريس يرونه بينهم بعد ثلاثين سنة لقدومه عليهم فيعجبون كيف أتيح له أن يحافظ على رونق شـــبابه كأنه قد قهر مر الايام ، وأخذوا يتهامسون أن تجدد شبابه هـــو من فعل مقدرته على السحر ، وأنه قرين كاليوسترو الساحر القــــديم الشهير . اننا نجد شخصه يجوس كالشبح خلال مذكرات عـــديدة خلفها أبناء ذلك العصر مما يدل على أنه كان ذائع الصيت معدودا بين العظماء . وكان بلزاك يعجب به ثم عدل عن رأيه حين غدر به هذا الطبيب اليهودى وخانه . وكان صديقا لستاندال ولست وجورج ساند أو قل صديقا لكل انسان له حينئذ مكانة مرموقة . واذا أردنا أن نبحث عن سر الخصال التى أهلته لهذه الشهرة المستفيضة فلا

مفر لنا من أن نسلم بأنه كان نعم المحدث اللبق ، والطفيلي الذي يحسن تسلق أبراج الطبقة الراقية ، نعم الخبير بطبائع البشر ودخائل النفوس . ونحن نعلم أنه كان أيضا بارعا في التنويم المغناطيسي ، كلفا باستعراض دلائل مقدرته على مجتمعات عملائه الاغنياء . ونحن لانجد عنه خبرا يدل على أنه كان يعالج الرجال لانه كرس نفسه لمعالجة النساء المترفات المدللات الشاكيات ابدا من الصداع وتعكر المزاج ، فكان يثبت على عيونهم نظرته الساحرة فيشفيهن ويجدد شبابهن . ونظم الشاعر روجيه دى بوفوار انشودة سخر بها منه فقال :

« ورب طبيب لا يداوى سوى التي
يتيه عليها التاج فوق المفارق
يداوى صداعا قيل في وصف وقعه
على النفس انكى من وقوع المطارق
وتلك وأيم الحق احدى مواهب
تعد من الاعجاب كبرى الخوارق

من دلائل براعته في الطب أنه خير من يتلقف انباء الفضائح واذاعتها اينما ذهب ، فيعرف كيف يصرف عميلاته المترفات على الانشغال بنفوسهن بفضل ترديده على أسماعهن أخبار أحدث الفضائح في باريس وهو يضحك لها ويحثهن على تكذيبها ، وبذلك يتاح له الفوز بثقتهن واطمئنانهن اليه فيفضين اليه بأخفى أسرارهن . فكان ينقل كل ماوقف عليه من أسرار الى البوليس الالمانى اذ كان يعمل جاسوسا له

وكان مرض مارى خطيرا . ولكن الدكتور كوريف عرف كيف يهزمه فتحقق لها الشفاء على يديه . لاندرى هل سبب توفيقه أنه أرغمها على البقاء في الفراش في رعاية خادمتها الوفية ، أم أنه أخضعها لسحر سلطانه الروحى الذى يزعم أن أثره لا يخيب ، أو أنه وهو يسقيها اشكالا وألوانا من أدوية لذيذة المذاق من قنينات رشيقة كان يسقيها أيضا جرعات متتالية من الايحاء لها بأنها بخير . وتعللت مارى بمرضها وأغلقت بابها في وجه الكونت دى ستاكلبرج دون أن تفقد دخلها من عطاياه ، ثم رضيت لألكسندر أن يكون هو حبيب القلب الذى يكرس نفسه لتمريضها والعناية بها في فترة النقاهة ، وتلك مهمة هيهات أن يجدها السفير السابق لائقة بمكانته أو بشيبته

وأحست مارى بالخوف والانزعاج حين رات المرض يدهمها

ويفترسها وينذرها بسوء المصير ، فرضيت صاغرة أن تعدل عن العربدة وتلتزم حياة يسودها الهدوء . ولما حل شهر يونيو هبط عدد زيارات الدكتور كوريف لها الى مرتين فى الاسبوع وعرفت حياتها معنى الطمأنينة والسعادة . تستيقظ مع الظهر فتسلم نفسها الى خادمتها ومصففة شعرها ثم ترتدى أحد أثوابها الرقيقة المزركشة المصنوعة من الموسلين الهندى لتروق فى عين الكسندر اذ كان يراها فى أبهى جمالها حين ترتدى مثل هذا الثوب ، ثم تتم زينتها وترخى شعرها على ظهرها وقد التفت خصلاته وفقا لذوق العصر ، وتضع فوق رأسها قبعة عريضة من القش لانها أحب اليها من القلانس المستديرة التى تهيم بها النساء عامة ، وتخرج الى الصالون فتجد الكسندر فى انتظارها . هو أيضا يختال فى ثياب أنيقة : سترة « فراك » طويلة فضفاضة من الكشمير الازرق فوق سروال رمادى اللون وصديرى أبيض مزركش فينحنى أمامها ويلثم يدها ثم يتناول قبعته الحريرية العالية من فوق منضدة مشتراة من ريسينر صانع الاثاث الشهير ، ثم يفتح ذراعه لخليلته فتستند اليه ويخرجان معا الى غرة ضوء النهار بشمسه الساطعة ، فيجدان عند الباب عربة مارى الفاخرة لها جوادان مطهمان مستوردان من انجلترا وسائق مهندم وبجانبه فى مقعده خادم قد شبك ذراعيه فوق صدره . وتتهادى العربة على مهل فى شوارع قلب العاصمة حتى ينتهى بها المطاف الى قهوة هاردى أو قهوة باريس حيث يتناولان غداءهما . وبعد التنعم على مهل بطعام شهى يعودان الى التجول فى الشانزليزيه، ثم يسيران على الاقدام فى حدائق بولونيا وهما يناديان اليهما كلبين لمارى اسمهما توم وداك

ثم تعود مارى لبيتها التماسا للراحة ، ويؤوب الكسندر الى بيته أيضا ، فاذا دخله ناول قبعته لخادمه ورمى بقفازه الجلدى الانيق على الارض ، اذ كان من مهام الخدم فى تلك الأيام التقاط القفازات الملقاة من على الارض كما يلتقط خدم اليوم أعقاب السجاير . وربما ذهب بعد ذلك الى حلاقه أو الى محل مدام بارجون بائعة الزهور فيشترى منها باقة من زهور الكاميليا لصاحبته وزهرة لعروته، أو يذهب الى محل بواسييه لشراء صندوق من الشيكولاتة ثم يعود الى داره ويصرف غاية جهده للعناية بأناقته استعدادا للخروج للسهرة ثم ينجذب الى بيت صاحبته ، ومن الجائز أن يجلس معها فى شرفة صالونها المزينة بالحديد المطروق الازرق اللامع يحتميان بفجوة فى

الستائر الخفيفة مابين سود وصفر ثم يتناولان عشاءهما فى هــدوء وسلام وهما يرقبان المارة من عامة الناس تغشاهم وهم يهرعون الى بيوتهم عتمة الليل فى الطريق تحت الشرفة

ثم يذهبان على مهلهما الى دار الاوبرا ، ويعمد الكسندر ــ والحان جلوك أوروسيني تسحره وتشجيه ــ الى تأمل ماري دوبليسيس «بنظرة ملؤها الحب ، ملؤها الفزع أيضا » • هكذا وصف نفسه فيما بعد فى احدى قصصه • جميع النظارة أيضا يرقبون ماري، اذ كانت تحرص اذا ذهبت للاوبرا أن تلبس كل مرة ثوبا جديدا ، فكانت ثيابها تثير أكبر الاهتمام • وقال أحد كتاب سيرتها أن صانعى الازياء كانوا يبذلون أقصى جهدهم ومهارتهم من أجل ابتكار ملبس لها يتميز بنوع قماشه او طريقة تفصيله حتى تظهر للناس كل مرة فى ثوب فذ جـديد . وكانت ماري اذا لبست أثوابها الجديدة من كل شكل ولون أضفت عليها بهاءها وسحرها • وقد دلت الفواتير التى خلفتها بعد وفاتهـا انها لم تترك موضة مستجدة ولو لم يتمثل بها الا تبديل طفيف ، دون أن يكون عندها مايوافقها ، فكان قلما يمر عليها يوم واحد لا تشترى فيه ثوبا جديدا . هيهات أن يقلدها غـــيرها . وكذلك جواهرها . كانت العيون ترمقها باهتمام واعجاب . هي فى يوم تتألق بجواهر من الياقوت ، وفى يوم يتلألأ الماس من خلال ليل شــعرها الفاحم • ندر أن يكون بين النظارة امرأة تستطيع مجاراتها • وكانت ماري تجعل مجلسها فى مقدمة المقصورة ، وتتصنع عن عمد انها غير مبالية بأحد ، فكان لها بهاء مشرق يستلفت الانظار ويخلب الالباب

أما الكسندر فيجيل بصره من علٍ بين النظارة فى الصالة . ان كانت ملامح ماري تنطق بأنها مسترخية مطمئنة لا تبالى بأحد ، فان نظرته هو كانت تلمع بالكبرياء . ما أشد زهوه بأنه عشيق هذه الغانية التى تتخاطفها الابصار باعجاب . ان فوزه بها يضفى عليه من الاضــواء مالا يضفيه انتصاره فى عشرين مبارزة . جول جانان وتيوفيل جوتييه والدكتور فيرون والفريد دى موسيه كلهم يديرون نحو ماري نظاراتهم المقربة . ما أشد سرور الكسندر وهو يرى وجه الفريد دى موسيه يمتقع من شدة الغيرة

ومرت الايام ، ونصح الدكتور كوريف مريضــــته بأن تكثر من التريض وشرب لبن الماعز واستنشاق هواء الريف ، لهذا أخذها الكسندر الى ضاحية سان جرمان لتقضى بها شهور الصيف

وفى هذه الضاحية يعيش أبوه فى الدار المسماة فيلا مديتشى . هى

كعادتها لا ينقطع عنهاالهرج والمرج ، أما ربها — دوماس العظيم — فيكدح كدح العمالقة . انه يعمل منذ الفجر الى الغسق وقد شمر كمي قميصه يؤلف كتبه المتلاحقة وقصصه المسلسلة فى الصحف . وكان قد اتخذ من لولا مونتيز خليلة له لفترة قصيرة من الوقت ، فلعلها كانت تجوس كالنمر ، فى يدها سوط تمزق به الهواء بفرقعة مخيفة ، ما أكبر نفعه لها اذا أرادت ارهاب الخدم والدائنين وغريماتها من النساء المتكالبات على دوماس . وكانت لولا فى هذه الايام فى عنفوان شبابها وعافيتها تتريض كثيرا وتمتطى الجياد العتاة بغير سرج أو لجام وتقفز الى مياه البحيرات الشديدة البرد ، ثم هى بعد ذلك تفرض على نفسها الا تصيب من الطعام الا أقل القليل فلا تغريها مائدة دوماس الزاخرة بأطيب طعام وأفخر نبيـــذ . وكانت تدرس تقويم جوتا المتضمن أسماء الأسر المالكة وفروعها لانها تعتزم — بحسب اعترافها — أن تتصيد لها نبيلا . وكانت على غرار رب الدار لاتشرب الخمور الا قليلا وتكتفى بالماء القراح ، فمن شأن كل طموح الا يطلق لشهواته العنان

وكان قد تم حينئذ ارساء أساس بيت دوماس الجديد فى بورمارلى واخذت الجدران تتعالى . ان الصورة التى رسمها فى خياله لهذا البيت اشتط بها الطموح بسرعة تلاحق تضخم نجاح قصة الكونت دى مونت كريستو . ليس قراؤها هم المسحورون وحدهم بل هو أيضا مسحور بهذه القصة الى درجة لم يعهدها حين ألف قصـــة الفرسان الثلاثة ، فقد رسم أدمون دانتيس « الكونت دى مونت كريستو » على صورة تعكس أبهى صـــورة خيالية لنفسه فى نظر نفسه : صورة بطل ، قوى ، يهيم بالمغـــامرات ، كريم ، متلاف ، فاحش الثراء ، لايقل المال الذى يحمله فى جيبه أينما كان عن مليون فرنك . وكلما مضى قدما فى كتابة القصة زاد اقتناعه بأنه مماثل لبطلها ، فلم يقف طموحه عند حد ، وكأنه أصيب بجنون العظمة ، فكان لابد أن يتحول البيت الصغير البسيط فى بورمارلى الى قصر منيف يعرف بقصر مونت كريستو ، لا مثيل له الا فى قصص ألف ليلة وليلة ، قصر يليق بألكسندر دوماس وشــهرته التى جاوزت السماء

أما الكسندر الذى لا بد — اذا قيس بأبيه — أن يطلق عليه اسم دوماس الصغير ، فانه أخـذ يرقب بقلق ارتفاع البناء واتســـاعه وامتداد أرضه بحيث تكثر فيهـا الحدائق والربوات ، وقد امتقـع

وجهه حين سمع أباه يتحدث عن الزينة التى اعـدها لداره : مرمر وفسيفساء وتماثيل واسقف وجدران مذهبة ، اذ كان من رأى ألكسندر اذا رأى اسرافا سفيها أن يكون اول أثر له فى قلبه هـو خوف غريزى متخلف عن تلك الايام التى شهدت طفولته مع أمه فى حجرة تحت حنية السقف ، كان يراها تمضى الليل كله تعمل فى حياكة الملابس على ضوء شمعة وهى صامتة بادية القلق . هـو أيضا قلق مثلها من أن تنضب مواردها المالية . هكذا كان لايتمالك نفسه فيما بعد من الشعور بالخوف حيال كل اسراف ، ولكـنه لا يلبث أن يتغلب على هواجسه ويسخر من نفسه . ولم لاينفق أبوه كل هذه النقود ؟ أليس هو رجلا فاحش الثراء يكسب بسـهولة كل عام مبالغ طائلة من المال ؟

وصرف ألكسندر مع مارى دوبليسيس أيام شهر يونيو فى التنزه فى الغابات يسيران على الاقدام أو يركبان الخيل ويتناولان طعامهما فى حدائق فنادق الريف ، ثم تتشابك ذراعاهما ويتجولان فى الربوات المطلة على ضاحية سان جيرمان . وعاد الى ألكسندر وهمه الاول بأن مارى لاتصادق رجلا غيره وأنها وهبت قلبها له وحده ، فغمرته سعادة كبيرة . انه يحس الان أنه قد عثر أخيرا على مارى كما هى حقا . انها فى نظره هى هى ألفونسين ، تلك الفتاة الطيبة السليمة الطبع التى يخفيها عن الناس وجه المحظية التى تبديه له

وضاحية سان جيرمان غنية بحدائق الفواكه ، فكان ألكسـندر يصعد أحيانا سلما خشبيا ويرمى الى مارى حفنات من كرز أسـود ناضج ، فاذا انهمر الثمر فوقها سمعها تحته وهى تضحك ضحكة طفل ، ثم تجلس على العشـب وتغفل عن نفسها وزينتهـا ، وتتحدث ببشر الى الفلاحين وهم يجنون الثمر فى أقفاص صـغيرة مستديرة . انها سعيدة ، هذا ما يؤمن به ألكسندر . انها مبتهجة عطوف ودود . أصبح من دأبها أن تنام عشر ساعات بلا انقطاع ، وتشرب لبن الماعز اطاعة لنصيحة الدكتور كوريف ، وبدأت تتجلى عليها دلائل الصحة والعافية .

ولكن سرعان ما تنقضى ايام الهناء والسعادة . بدأ القلق يفترس مارى . لما تملكت صحتها رغبت أن تخرج معـه للمـلاهى لتعبث وترقص ، فأخذت هى وألكسندر يقضيان سهراتهما فى مقهى رانلاغ المعروفة باسم القصر الاحمر ، وهناك يرقصان الفالس على ألحـان شتراوس المستولية على أذواق الناس . وما لبثت أن ضجرت مارى

من قضاء لياليها فى هدوء الريف ، وبدأت تعود اليها قليلا قليـــلا نزعتها القديمة الى اللهو والعبث ، وتركت نفسها تنقاد شيئا فشيئا الى الحياة الصاخبة التى تغرق فيها زمرتها فى باريس . لعلهـــا كانت تخشى ان تفقد الصــلة بمجتمـــع الرجال المترفين الذين لولا اسرافهم لما عرفت لها فى الحياة أمانا . أطاعها الكسندر وصحبها الى الملاهى للسهر فيها ، وزاد الحاحه على أبيه فى طلب النقود وأكثر من لعب القمار فغرق فى الديون .

وانقضى شهر يوليو فى رقص الفالس على الحان شتراوس وفى فرقعة سدادات زجاجات الشمبانيا ورنين النقود على مناضد القمار . وبدأ الكسندر يقلق على مارى اذ رآها من جديد شاحبة الوجه متصـــلة السعال ، غير أن هذا كله لم يمنعه من مشاركة أبيه فى الفرح لاقبال الدنيا عليه فان دوماس الكبير لم يأبه للنقد المرير الموجه اليه ، ودأب على ادارة مصنعه الادبى الذى يعد له فيه الكتاب المغمـــورون مادة مؤلفاته الواحد تلو الآخر . انه مواظب على امداد الصحف بقصصه ، مواظب على تقديمه ألف متعة للناس . وفى ذلك العهد بدأ ذوقه فى جمال المرأة يتدهور على نحو مخيف ، وتعاقبت عليه فى سرعة كبيرة عشيقات كثيرات ، أكثرهن قصدن النصب عليه وجز صوفه ، وكان يعاملهن بكرم الرجل الذى يهيم بادهاش الناس بتألق مجده . أما لولا مونتيز التى أخضعته لسحرها زمنا فكانت قد غادرت فرنســا لحمد حسن حظه لفراقها اذ كان قد بدأ فى أواخر صحبتهما يخاف منها خوف طفل من عفريت ، فقد اكتشف ــ أو خيل اليه أنه اكتشف ــ أنها وثيقة الصلة بعالم الارواح الشريرة ، فأى علاقة بها لن تكون الا مصدر خطر عليه .

لا جرم أن لولا مونتيز قد جرت الخراب على كل رجل وقـــع فى غرامها ، وهى الآن تصب بلاءها على رأس الموسيقار ليست وتصيبه بأكبر الاضرار ، فقد نجحت فى استخلاصه لنفسها وملازمته كظـله حين ذهب الى مدينة بون لازاحة الستار عن تمثال بيتهوفن . وكان الفضل فى اقامة هذا التمثال راجعا اليه ، فهو الذى أقام من أجله الحفلات الموسيقية وتبرع بأكبر قدر من المال ، فكان ينبغى أن يعد عمله هذا بمثابة شرف كبير له ، ولكن لولا لصقت به ، لا تفـارقه ، تجعل كل حركاتها تجهر بأنها هى المرأة التى يتعشقها ليست . وبدلا من أن تتجاوب الانحان فى المهرجان الموسيقى بمدينة بون تجـاوبت فيه اصداء سلسلة متصلة من الفضـــائح . اجتمـــع له المـــلوك

والدبلوماسيون والموسيقيون ، وحضرته الملكة فيكتوريا وقرينها الامير ألبرت ، ولكن الابصار كلها كانت مثبتة على ليست الذى قام بالدور الرئيسى فى هذا الاحتفال . ان يوم المهرجان هو فى نظر ليست أسوأ يوم تفتضح فيه علاقته بمثل هذه المحظية التى تسعى بكل حيلة لتشعر النـــاس بوجودها ومكانتها . وقد تمثلت ذروة مساعيها تلك فى المأدبة التى ذهبت اليها دون أن تصلها بطاقة دعوة، وقد دهش الحاضرون جميعا حينما رأوها تقفز فوق المائدة وتؤدى رقصة هوجاء . لم يشهد القرن التاسع عشر شيئا يماثل هذا الحادث فى اثارة العجب والدهشة . ولما أقيم مهرجان بيتهوفن فى مدينـة بون بعد خمس وعشرين سنة احتفالا بمرور قرن على مولده لم تصل الى ليست دعوة لحضوره

ووصلت أنباء فضائح بون الى آذان الكونتيس داجو ، لقد ثارت ثائرتها عندما سمعت اول خبر عن ارتماء ليست فى أحضـــان لولا نعمدت ـ شأن كل رومانسى ـ الى تأليف قصة تشهر فيها بحماقات ليست ونزواته ، ودفعتها أنباء الفضائح الجديدة الى متابعة كتـابة انقصة وهى أشد غضبا وأمضى عزما ، فجرى قلمها مطواعا حتى أتمتها واطلقت عليها اسم « نيليدا » ، وهكذا سطرت قصـــة هى بمثابة الوصمة التى لن يبرأ منها ليست طول عمره

ونشب الخصام فى أواخر شهر أغسطس بين دوماس الصـــغير ومارى دوبليسيس وافترقا ، استعادت مارى نمط حياتها القديمة وان ضاقت به ذرعا ، فقد توالت عليها نوبات انسعال واشتدت حـدته . انها تشكو من أن الحياة التى تحياها ستقضى عليها ، فاذا سـمعت من ينصحها بالتخلى عنها امتنعت وثارت ثائرتها وتقول ، كيف يتأتى لها أن تتخلى عن مثل هذه الحياة ، من سوء حظها أنها عاجزة عن التخلى عنها . وبدأ الناس يشهدونها من جديد تصاحب أئمة الاناقة والترف ، وتقيم المآدب لاصدقائها فى دارها ، فاذا زارها الكســندر الوفى المخلص الذى سهر عليها ابان مرضها صرفته الخادمة بأعذار واهية . تقول مرة أن السيدة قد خرجت تعود صديقتها فلانه لانها مريضة ، وتقول مرة أن سيدتها متعبة وقد أوت الى فراشها مبكرة فاذا حدث له هذا نقل خطاه على مهل وهومغموم فى شارع المادلين وقد جفاه النوم ، يحدق فى الجدران التى تحجب عنه صاحبته، يتأسى بشعوره أنه على قرب منها . ليس ببعيد ـ كما تشهد مسرحيـة غادة الكاميليا ـ ان شاهد بعد أن صرفته الخادم عاشقا أسعد منه

يلح بأبهـــا وانه احس بالبؤس والهوان فقـــر رأيه على قطيعة هذه العشيقة الخائنة .

ونحن نعلم من الخطاب الذى أرسله الى مارى لينبئها بقطع صلته بها — ولعلك تذكر أنه اشترى أصل هـذا الخطاب من تركة مارى دوبليسيس ووهبه الى سارا برنار احتفالا بتمثيلها لمسرحية غادة الكاميليا — نعلم من هذا الخطاب أنه كتبه يوم ٣٠ أغسطس فى منتصف الليل ، ويقال أن مارى حين تسلمت هذا الخطاب فقدت شـهيتها وصدت عن تناول طعامها فى تلك الليلة النكداء . وقد ألف كاتب سيرتها الدكتور لوسيان جرو كتابا عنوانه «مشتريات غادة الكاميليا» ضمنه كشف الحساب الذى قدمه لها المطعم الذهبى عن ثمن عشائها تلك الليلة ، وكان هذا المطعم هوالذى يعد لها حينئذ مأكلها ،ويتبين من هذا الكشف أنها لم تطلب منه ليلتئذ الا قدرا ضئيلا من البسكويت والمكرونة وزجاجة من النبيذ . تمت القطيعة بهذا الخطاب — هذا اذا صدقنا أقوال ألكسندر دوماس الابن — ولكن صديقه الكاتب دى بورى يروى أن القطيعة لم تتم الا بعد ذلك بخمسة أسابيع فى ليلة افتتاح مسرحية الفرسان الثلاثة المقتبسة من قصة أبيه ، فقد عجز ألكسندر عن أن يحجز لصاحبته المقصورة الاثيرة عندها فى المسرح فغضبت وشب بينهما عراك تمت به القطيعة بينهما . وسواء صح هذا القول أو ذاك فمما لا ريب فيه أن الانفصال بينهما الى غير رجعة قد وقع خلال ذلك الموسم فهل كف كل منهما عن حب الآخر ؟ ان سيرة ألكسندر توحى لنا بأنه لم يكف عن حبها ، لا ريب أنه ظل يعشق مارى والا لما أتيح له أن يعبر عن عواطفه بكتابة مسرحية غادة الكاميليا التى تفيض بدلائل الحب الصادق . أما عن مارى فنحن عاجزون عن أن نعرف هل بقيت أم لم تبق على حبها . لها العـذر اذا شكت فى صدقه وهو يقسم بين يديها أنه سـيظل وفيا لها أبد الدهر . لم يكن عمره وقت القطيعة يجاوز الواحدة والعشرين ، أن لها فى الحياة من التجارب مايكفيها لتؤمن بأن مثل هذا الشاب — وبخاصة اذا كان ابنا مدللا لرجل مفلوت العيار — لا ضمان له أن يظل وفيا لرفيقة طول عمره ، فهى اذا هجرت من أجله عشـــاقها الاثرياء فكأنما تبيع الامان فى الحياة لتشترى بدله متعة جميلة قصيره العمر . ولعل سبب ماعانته فى تلك الايام من ضيق وقلق كان يجمع فى وقت واحد بين حبها له وبين شكها فى بقاء اخلاصه لها ، وكانت تطمع منه أن يفهم موقفها ووضعها ، لكنه لم يفعل ، فلما وصـلها

خطاب القطيعة لم ترد عليه ، اذ ليس لديها شيء تقوله .
لا ريب أن ألكسندر قد أحس بخيبة أمل كبيرة حين رأى مارى تعزف عنه بعد تسلمها خطاب القطيعة ولا تحاول مصالحته ، ولكنه أشد كبرياء من أرمان دوفال بطل مسرحية غادة الكاميليا لانه أيضا أعرض عن صاحبته ونفض منها اليد . اكتفى بسماع أخبارها من أصدقائه . انها تسهر كل ليلة فى حفلة صاخبة أو فى مسرح برفقة أحد عشاقها ، أما هو فلا اقبال عنده على مشاركة أصدقائه فى لهوهم ، واذا ذهب لزيارة أبيه ورأى مسرحه الصاخب وتمتعه بصحبة نساء لايأخذهن مأخذ الجد ،أحس بضيق شديد والم ممض ، وتجنب الذهاب الى فيلا مديتشى . هيهات لمسرحية أن تملك انتباهه أو لحن ألا يقع على قلبه كطعنة خنجر ، وأخذ يقضى لياليه متجولا فى شوارع باريس وقد أضناه اليأس والقنوط .
وقد حدث له فى تلك الفترة المليئة بالبؤس ابان فصل الخريف أن وصل اليه طلب للادلاء فى شهادة أمام محكمة روان ، فمنذ أن وقعت المبارزة بين دوجاريه وبوفايون لم ينقطع حديث الناس عنها بحدة وغضب ، اذ كانت المبارزة تجرى طبقا لتقاليد الفروسية ، أما اصابة بوفايون لخصمه فى تلك المبارزة فلم تكن فى نظر الكثيرين الا عن نية مبيتة للقتل العمد ، بل ذاع خبر بأنه جرد مسدسه قبل المبارزة ليختبره ، وهذا عمل مخالف للتقاليد ، وفيه أصدق دلالة على أنه كان مصرا على قتل خصمه لذلك قام النائب العام بتقديمه مع شاهديه الى المحاكمة .
وسافر ألكسندر الى روان برفقة أبيه ، اذ كان أبوه أيضا من بين الشهود الذين طلبتهم المحكمة وكانت المحاكمة حدثا جللا اذ حضرها كل من يزهو لمكانته فى المجتمع أو فى عالم الفنون والآداب . غصت المحكمة بجمهور غفير وأدلى ألكسندر وأبوه بشادتيهما وتابعا سير القضية باهتمام كبير .
وثار عجب الحاضرين حين تقدمت امرأة شابة هيفاء الى منصة الشهود ، رأوها ترتدى ملابس حداد فى قمة الاناقة والزينة ، ثياب من حرير ودانتيل ، وعلى الوجه خمار من الدانتيلا بديعة الصنع ، ورفعت الشاهدة خمارها ببطء فكشفت عن وجه هو آية فى الجمال قد ارتسمت عليه دلائل الفجيعة التى تستدر العطف وعلامات الحزن الذى لا برء منه
انها لولا مونتيز . نظر اليها دوماس الاب شزرا . طالما ألف

رؤيتها فى ثياب خليعة وهى تفرقع بسوطها أو تشــــهر خنجرها ، ولعله أخذ يسأل نفسه من الذى دفع ثمن ثياب الحداد الانيقة التى ترتديها ، أهوليست ؟ أم ترى أن البائع سيطالبه هو بثمنها . أما بقية الحاضرين فقد غلبهم التأثر حين رأوا حزنها وفجيعتها .

لم تكن المحكمة قد استدعت لولا للشــــهادة ولكنها أصرت على الحضور للادلاء بها . ونطقت بأقوالها بنغمة تنم عن الكبرياء والاعتداد بالنفس ، وتنم أيضا عن حزن بالغ يستدر العطف . وطالت المحاكمة ثم صدر الحكم بالسجن بمدة طويلة على بوفايون واحد شاهديه . ولكن الحادث الذى استأثر انتباه الحاضرين واهتمامهم هو ظهور لولا فى المحكمة ، اذ كانت فضائحها منذ مقتل دوجاريه خبرا شائعا بين الناس كلهم يعلمون أنها تبيع عرضها بيع السلع ، ومع ذلك فان أقوال الصحف عن المحاكمة تشهد أن الجمهور قد عبر بالهمس عن اعجابه بها وعطفه عليها حينما خلعت قفازها لتضع يدها على الكتاب المقدس وتحلف اليمين ، فان رئيس المحكمة نفسه وهو الرجل الوقور أخذ ينظر اليها وقد فغر فاه من شدة الانبهار لجمالها .

ولما عاد ألكسندر الى باريس أخذ من جديد يعنى بشئون أبيــه ومشاكله . وكانت جدران القصر المشيد فى بورمارلى تتعالى بسرعة، وزاد اقبال الحظ على أبيه بسبب نجاح مسرحيته « الفرسان » وهى لوحات متتابعة مستمدة من القصة التى أعدها ماكيه الذى لا يكف عن العمل من أجل دوماس . وشهد ليلة الافتتاح الدوق دى مونبنسيه وهو أصغر أبناء الملك فسرته المسرحية سرورا كبيرا . بعد انتهائها استدعى دوماس اليه واقترح عليه أن يبنى له مسرحا يكون خاصا به وحده ، وأكد له أنه سيقدم له كل عون ورعاية .وتم تأليف الفرقة التمثيلية وشراء قطعة أرض فى شارع المعبد واختيار المهندسين درو وسيشان لاعداد مشروع البناء . وابتهج دوماس أشد البهجة ، فهذا هو الحظ يبتسم له مرة أخرى ويحقق لــــه أمانيه فى تسليط أضواء جديدة عليه . أنه سيصبح مدير مسرح يملك وحده تقديم مسرحياته للجمهور بلامانع أو معوق

ولما تغلب الكسندر على أول موجة من الحزن تغمر قلبه ، بدأ ينتبه لنفسه ، ويعنى بالديون الطائلة التى غرق فيها اذ كان يصرف من قبل نقوده وهو مسحور منوم ، ولا يهمه شيء طالما أنه يقضى لمارى حاجتها ونزواتها لا يبالى من أين يحصل على المال طالما أنها تقابل صنيعه بابتسام . كان يعيش معيشة مليونير ولكن دقت الساعة

وآن أوان الحساب . بدأ الدائنون يطالبون بالدفع ، وأدرك أنه عاجز عن السداد فأفضى بخبره الى أبيه وهو يعتذر له والاب رجل لايبالي أن يدفع ديونه فهو أقل مبالاة اذا كانت هذه الديون ديون ابنه ، وقال له ان لا مال عنده لدفع هذه الديون . ينبغي لالكسندر أن يعرف كيف يخرج من ورطته غير معتمد الا على نفسه . لقد صدمه رفض طلبه اذ كان يؤمن أن ثروة أبيه لا تنفد ، وتملكه الحزن أول الأمر وهو يفكر في الاموال الطائلة التي يبعثرها أبوه في قصره الجديد وفي الانفاق على عشيقاته الكثيرات الماهرات في النصب والاحتيال ولكن ألكسندر عرف كيف يثوب الى رشده واعتدال حكمه فهذا هو الشأن به دائما ، وقال لنفسه « كم كنت مغفلا حقا ! » وعكف على العمل اذا كان لأبوه قد قال له : « افعل مثلما أفعل أنا . أعمل أن أردت دفع نقودك وابدأ بتجربة قلمك في التأليف » ، فشرع يؤلف قصة خفيفة سهلة ، فهذا الصنف من القصص هو اشد رواجا لدى الجمهور من ديوان الشعر الذي كان يصرف اليه من قبل كل انتباهه

واقتربت سنة ١٨٤٥ من نهايتها . كان نجم دوماس الكبير في صعوده في حين انحدر وأفل نجم صديقه هاريل ، كل خطوة يخطوها تبوء بالاخفاق ، والمدموازيل جورج عاجزة ايضا عن أن تجد لها عملا في باريس فاضطرت الى الخروج في جولة تمثيلية في مدن الريف وصحبها هاريل الباقي على وفائه لها ليشرف على شئونها ، ولكن قسوة هذا النوع من الحياة كانت قد نالت منه ، واذا به في يوم يصاب بالجنون ، وخيل اليه أنه هو بوسيه الكاتب الشهير ، وانتهى أمره بدخوله مستشفى المجانين في شانيون .

وجاء ليست الى باريس ليقيم عدة حفلات موسيقية ، فذهب الكسندر اليها . ولحظ ماري بين الحاضرين . وحدث بعد ذلك بقليل ان جاءه عجلا صديق ثرثار ناقل للاخبار وأفضى اليه أنه قابل أخيرا الدكتور كوريف فعلم منه نبأ مثيرا هو أن ماري طلبت من هذا الدكتور أن يحضر لها الموسيقار ليست لتناول العشاء معها في دارها ، فانها بعد ليلتين من سماع موسيقاه في حفلته الاولى شهدته في مسرح لامبيجو يتحدث خلال فترة الاستراحة الى الناقد جول جانان ، مرت به على مهل وهي تحدق اليه فقال جانان لصاحبه « لقد صح عزمها على وضع يدها عليك . هل تعرف من هي ؟ »

أجابه ليست « لا أعرفها .. من هي ؟ »

ـ انها الانسة دوبليسيس . ستتحقق بنفسك من صدق فراستى

وهذا ما حدث فعلا : فان مارى طلبت فى اليوم التالى الى الدكتور كوريف الذى لايخيب لها رجاء أن يأتى لها بليست . ومنذ تلك الليلة أصبح الموسيقار لا ينقطع عن التردد على دارها

ولما علم ألكسندر بغرامها الجديد شغل نفسه بعمله : ليس عنده وقت يضيعه فى الحزن والاسى ، اذ كان لا مفر له أن يربح ما هو فى حاجة اليه من المال ، وبدأ لاول مرة فى حياته يعمل بجد

الفصل الرابع عشر

ليست وغادة الـكاميليا

من المحتمل أن يكون فرانز ليست هو الرجل الوحيد الذي أحبته ماري دوبليسيس حبا جادا صادقا من صميم قلبها، بدأ يخالطها في وقت لم يكن قلبه فيه مرتبطا بامرأة أخرى فان ليست أنشأ له خلال حياته صلة وثيقة طويلة المدى بامرأتين ، الاولى هي مدام داجـــو والاخيرة هي الاميرة كارولين دى ساين وبتجنستاين ، وكان في الوقت الذي نتحدث عنه قد هجر الاولى وفارقها وكان أيضا لم يقابل بعد صاحبته الاخرى ، فكان قلبه خاليا فأسلم زمامه الى ماري دوبليسيس

غير أنه كان يحق له أن يتريث قليلا من قبل ان يدخل في مغامرة أخرى مع محظية ، اذ كان قد بدأ ينزع الى الصلاح والتقوى . كان قد سبق له بوقت غير طويل ان قبل منصب مدير الفرقة الموسيقية في بلاط ويمار وتسلم عمله به سنة ١٨٤٤ ، لم يفرض عليه هـذا المنصب من الواجبات الا أن يقيم بمدينة ويمار كل سنة ثلاثة أشهر، ولكنه وجد ويمار مدينة ظريفة فصح عزمه على أن يقيم بهـا ولا يبرحها ، فان المتاعب التي صادفته في موسم مدينة بون قد أقنعته أن السعادة هي في الحياة الهادئة ، وأنس من نفسه القدرة على أن يصرف كل همه في الابتكار الفني وتأليف الالحان . سيضيع عليـه أيراده الضخم الذي يأتيه من العزف في الحفلات الموسيقية، وسيفقد اعجاب الناس وحفاوتهم به اذ أنهم لاشك سينسونه اذا اعتكف في داره . اذا كان سيتجرد من الثروة والمجد فانه سيتحرر أيضا مما يلقاه من الناس من غيرة وحسد وسيتحرر أيضا من نساء دأبن على ملاحقة كل رجل عظيم ، أما في تلك المدينة الالمانية الصغيرة فيعيش أناس بسطاء يهيمون كل الهيام بالموسيقى والفلسفة ويحتقرون المظـاهر البراقة الخداعة ، انهم ورثة جوته وهردر وبيتهوفن ، والحاكم الذي يظلهم بجناحيه أمير شاب يرعى الثقافة ويريد أن يجعل من ويمار كعبة العلوم والفنون . وحقا ان كل مجد آخر لا قيمة له في مدينة ويمار

وزاد اطمئنان ليست لهذا المنصب سنة ١٩٤٦ ، ذلك ان ماري داجو كانت قد بدأت تنشر قصتها «نيليدا» في « المجلة المستقلة» . لا يخامر قارئها شك بأن بطلها هو ليست بعينه ، ووجد الموسيقار

نفسه موصوفا بأشنع الاوصاف ، ولقيت القصة من الرواج ماتلقاه قصص الفضائح . أثارت القصة اهتمام الناس وأطلقت العنان لاشاعات بشعة عن ليست . أنها اهانة حز جرحها فى قلبه طويلا ، هى التى قادته فى نهاية المطاف الى أن يضمر عداء شديدا للمرأة التى أحبها ذات يوم حبا حارا متدفقا ، وهكذا وجد ليست فى نشر الفصول الاولى من هذه القصة دافعا جديدا له للاعتكاف فى مدينة ويمار ، اما مارى داجو فقد استتبت لها مكانتها فى عالم الادب فى فرنسا ، انها ولا ريب عازمة على المزيد من نقدها وتجريحها لليست بعد أن عرفته عن قرب زمنا طويلا ، اما الهردكتور ليست ـ هكذا ينادونه فى مدينة ويمار . فانه بعيد عن مجتمعات باريس ، وكان ينبغى له أن يفرغ عاما كاملا للوفاء بالتزاماته بالعزف فى حفلات موسيقية ، فاذا فرغ منها سيعتكف فى مدينة ويمار الهادئة العتيقة ويكرس نفسه بجد لتأليف الالحان

ومع ذلك تريث طويلا فى باريس خلال فصل الشتاء وألقى بنفسه فى أحضان مارى دوبليسيس ، وكان يدللها ويناديها باسم مارييت . انه كان يدلل مارى داجو باسم ماريوت . ارتبط قلبه بعشيقته ولقيت منه بشهادة الكاتب روكبلان ـ معاملة كريمة كأنه أمير روسى . لقد تمت لها السعادة لو استطاعت أن تحتفظ به بقية عمرها . ان الكسندر دوماس الابن قد أحبها ، ولا ريب انها تفتقد حنانه بعد أن غاب عن بصرها ، ولكن لاشك ان حب ليست لها هو أغلى ذخيرة فازت بها ، انه واسع الثراء وصاحب مجد بين الناس ، وفى الخامسة والثلاثين من عمره ، فهو مكتمل الرجولة يعتمد عليه ، وتلك لاتجدها لدى الكسندر لانه لا يزال فى ميعة العمر

حقا ان الكسندر فتى وسيم ، ولكن لليست هيئة أمير فلورنسى فى لوحة من عهد النهضة . كل من خالطه خضع لسحره ، وكان اعجابها به واكبارها له لايقفان عند حد وهو يعزف لها بحماس على البيانو فى دارها

وكان ليست يغادر باريس بين الحين والحين ليعزف فى الارياف أو فى بلد خارج فرنسا ، فما يكاد يفرغ من العزف حتى يهرع اليها ويلقى بنفسه تحت اقدامها . ليس فى قلبه مكان لاحد سواها ، ومع ذلك فان مارى أقدمت فى غمرة هذا الحب على الاقتران برجل آخر . أن زواجها هو اغرب حادث فى حياتها ، وقد ماتت هى وزوجها دون أن يكشف أحد منهما الغموض الذى يكتنف هذا القران . لقد أحبها زمنا الفيكونت ادواردى بيريجوه ، ولكنها مالبثت أن ضاقت ذرعا

بصحبته . ولكن هيامه بها بلغ حدا جعله يقدم على عمل يثير الدهشة بأن طلب اليها الزواج منه . هل كانت تعتقد أن فوزها بلقب نبيل يزيد من سلطانها على ليست ؟ أنها كانت كلما أعربت لهعن رغبتها فى زيارة ويمار وجدته يعمد الى تغيير الحديث الى موضوع آخر، وفهمت انه لايود ان يراه الناس فى ويمار بصحبته امرأة لها شهرة مثل شهرتها . لعلها قدرت أنها لو ذهبت الى ويمار متسمية باسم الفيكونتيس دى بريجوه ، وحرصت على ألا تجهر بصلتها بصاحبها، فقد لايكشف سرها أحد من أهل ويمار وهم يجهلون منشأها . ومهما يكن من أمر فان مارى قبلت الزواج من الفيكونت وسافرت معه الى لندن فى شهر فبراير حيث تم عقد القران . وسكن الاثنان فى دار فى شارع بروميتون ، وفى يوم ٢١ فبراير وقعا على عقد الزواج أمام الموثق فى مكتب البلدية فى حى كنزنجتون . والظاهر لنا ان الفيكونت ودعها بعد الزواج فلم يرها مرة أخرى الى يوم وفاتها .

وعقد الزواج بينهما عقد صحيح معتمد فى نظر القانون الانجليزى، ولكن كان لابد من القيام بمراسم أخرى من أجل ان يكون صحيحا معتمدا أيضا فى فرنسا ، غير أن هذه المراسم لم تتم وعادت مارى الى باريس لتستأنف حياتها فى دارها فى شارع المادلين ، وبقيت تحمل اسمها القديم مارى دوبليسيس .. من الجائز أن يكون كل منهما قد وجد أثناء اقامتهما فى لندن سببا داعيا للعدول عن اتمام الزواج أو أن يكون قد نشب بينهما عراك ، وبين أيدينا اليوم خطاب لاريب أن مارى كتبته لصاحبها فى ذلك العهد ، ولكنه لايلقى الا ضوءا قليلا على هذا السر . واليك نص هذا الخطاب :

عزيزى ادوار

أراك فى رسائلك لاتريد منى الا الاجابة على سؤال واحد ، فاليك اجابتى . انك تطلب منى أن أسلم بأنك حر تستطيع ان تفعل مايحلو لك . هذا ما كنت أقوله لنفسى أول أمس ، وهأنذا اعيد قوله اليك كتابة وأوقع عليه بنفسى

مارى دوبليسيس

لم تطالب مارى بعد عودتها الى باريس بحقها فى حمل لقبها النبيل ولكنها وجدت شيئا من التسلية بوضع شعار النبلاء على مقتنياتها . ولدينا اليوم كشوف بعض مشترياتها فنجدها معنونة باسم السيدة الكونتيسة دى بليسيس « ويختلف هجاء هذا الاسم فى كشف عن آخر » وارتضت مارى هذا اللقب الموهوم ولكنها بقيت تسمى فى

المجتمعات التى تفشاها باسم المموازيل دوبليسيس

لاندرى ماذا حدث لها فى لندن ، ولكنها عادت وهى بائسة تعيسة، وكانت صحتها قد ساءت مدى عامين ، ثم اخذت تتدهور سريعا . وكان ليست مضطرا لمغادرة باريس بين الحين والاخر فاستسلمت الى اليأس وعذاب الوحدة . وكان الكونت دى ستاكلبرج قد كف عن الانفاق عليها منذ زمن . لعله ضاق ذرعا بدأبها على خيانته، وبأنها لاتجود عليه الا بالقليل وهو الذى يجود عليها بالكثير . وانقطع أيضا بعض أصدقائها عن زيارتها ، وجدوها قد تبدل حالها وفقدت سحرها وفتنتها ، ولكن جمالها زاد فى نظر ليست حين أطبقت عليها الهموم ، انها وهى فى سن الثانية والعشرين تجد الحياة فارغة لاجدوى منها ، ان بقاءها على قيد الحياة مأساة يثقل عبؤها كاهلها ، هذا هو لب الرومانسية وعطرها المصفى . ان ليست لا ينجذب الى أناس يرفعون من قدر الحياة فى هذه الدنيا ويقنعون بها ، فلما رأى حال مارى تدفق من قلبه حب لها واجم حزين ، هو الذى يفتح له مغاليق الشعر والموسيقى ، فكان يقضى معها كل وقته كلما جاء الى باريس ، ولكنه لم يضح من أجلها بحفلة موسيقية واحدة تهمه ، ولم يستجب لها كلما رجته ان تسافر معه .

وروى عنها أنها كانت تقول له «أعلم انى لن أعيش . اننى فتاة عجيبة . اننى عاجزة عن متابعة نمط من الحياة هو الوحيد الذى اعرف كيف أعيشه ، وفى الوقت ذاته لا احتمله . خذنى معك ، خذنى اينما شئت ، لن تضيق بى فسأنام طول النهار ، فاذا جاء المساء أذنت لى بالذهاب وحدى الى المسرح ، ثم أنا لك بعد ذلك ملك يديك بقية الليل » فكان ليست يضيق ذرعا برغبتها الملحة فى مصاحبته ويحار ماذا يفعل وأخيرا اهتدى الى حل . وعدها بالسفر معها فى الخريف القادم الى القسطنطينية فهى مدينة لايقصدها معارفهما فيتاح لهما أن يعيشا بها معا دون اثارة فضيحة كبيرة . وسرت مارى بهذا الوعد سرورا كبيرا . وكان ليست قد قرر ان ينهى اقامته بباريس فى مطلع الربيع ، فلم تغتم لسفره لانها كانت تأمل أن يحقق لها شهر اكتوبر احلامها ، وافترق الاثنان وخيال كل منها تطوف به رؤى المآذن تحت سماء ملبدة بالغيوم ، وقصور مرمرية وحدائق يفوح منها عطر الازهار .

وتذكر السيدة « جانكا واهل » فى كتابها عن سيرة ليست انه افضى اليها فى شيخوخته بأن أشد ندم عرفه فى حياته هو ندمه على

حرمان ماری من هذه الرحلة معه

ومع ذلك لم تفلح بهجة الامل الجديد فی منع تدهور صحتهـا ، واطالت مكوثها أمام المرآةلتحسن زينتها وتتألق فی مقصورتها الامامية بالمسرح كل ليلة. ولكن اهتمام الناس لم يعد منصرفا الى التطلع لثيابها الجميلة وجواهرها الغالية ، انما الذی يلفت نظرهم اليها الآن هـو عيناها الغائرتان ، ونحولها الشديد ، وسعالها الجاف الحاد المتكرر ، فكانوا يرثون لها ويتحسرون عليها . اما بالنهار فتخرج للنزهـة فی صحبة كلبيها توم وداك ، فاذا بلغت غابة بولونيا بقيت فی عربتهـا وتولی السائق عنها مماشاة الكلبين

واقبل شهر يونيو واشتد الحر ، واصبح من عادة الاميرة الشابة الدوقة أومال والدوقة نيمور والاميرة دی جوانفيل الخروج الی حدائق القصر الملكی والتسلی بجمع قش القمح وتكويمه ، أما الملك فمسرور من انتصاره فی قضية الزواج الملكی الاسبانی الذی كان موضـع مؤامرات دول عديدة . وكان الملك قد اكد لانجلترا انه لن يرضی أن يتزوج ابن له بالملكة ايزابيلا ، تلك الفتاة الصغيرة التی تتربـع علی عرش اسبانيا ، وانه اذا كان فی نية الملك أن يزوج احد أبنائه من أختها الاميرة لويزا فرناند فانه سيؤخر هذا الزواج الی أن ترزق ملكة أسبانيا بولی عهد . وهكذا دبر الملك خطة يخدم بها مصلحة أسرته

واخيرا وقع الاختيار علی دون فرانسيسكوری أسيس ليكون زوجا للملكة ايزابيلا ، وهو نبيل أسبانی فاسد الخلق ، معتل الصحة، عنيد، له صلة قربی بالملكة . ولـما أصبح من غير المنتظر ان ترزق الملكة بولی عهد من هذا الزواج ، فقد رأی ملك فرنسا أنه فی حل من وعـده بانتظار مولد ولی عهد لاسبانيا فمن حقه أن يتقدم ابنه بخطبة أخت الملكة ، ورغب أن تتم فی وقت واحد عقد قران اختها بابنه دوق دی مونبنسيه

وسافرت ماری دوبليسيس من باريس الی مدينة سبا للاستشفاء بمياهها . انها قد غرقت فی الديون فی العهد الاخير ، اذ ان أصدقاءها الذين يسددونها بالنيابة عنها قد هجروها حينما رأوها أسيرة لسحر ليست ، وتجاهلت ماری ـ علی غرار ما كانت تفعله مثيلتها بطلة قصة مانون ليسكو ـ أن هذه الديون ينبغی سدادها ولم تنقطع عن الشراء نسيئة ، وحصلت علی كل ماتريده من القبعات والجواهر والثيـاب والقفازات ، وكانت شهرتها بأنها مليئة تحول دون اقدام البائعين علی مطالبتها بدفع الثمن مقدما ، فلما غادرت باريس لم تكن قد سددت دينـا واحـدا من ديونها

وتعاون المرض واضطراب نفسها على اصابتها بقلق شديد . انها تتنزه بالنهار أماماشية أو راكبة التماسا للشفاء ، أمابالليل فتقضيه فى الرقص ولعب القمار ، تقبل عليهما بنشاط وحماس لا يتوقعهما أحد من مريضة مثلها يمزق السعال رئتيها : فكأنها غير حريصة على البرء من دائها . ولكن حين شاخ الخريف عرف ساعات تمر بها وهى فى جزع شديد ، وبدأت تتكشف للمرض عوارض عجيبة مخيفة فأحست أنها تقترب من القبر .

ودفعها قلقها الشديد الى السفر لمدينة بادن ثم الى مدينة وسبادن وتسلم نفسها للاطباء وتطيع أوامرهم . انها الان تنتقل من فندق الى فندق ، كأنما تهرب من شبح اثمها الذى يلاحقها . انها تعيش الآن في كابوس متصل تتجرع المنقوعات وتشرب لبن الماعز وترقد وحيدة فى فراشها ساعاتطويلة ، وتملكها رعبشديدمنيوم الحساب بين يدى خالقها . ماذا عساه يكون جزاؤها ومصير روحها ؟ تقض مضجعها ذكرى فعلة لها ابان مكوثها فى لندن مع زوجها . لا نعرف ماهى هذه الفعلة ، ولكنها كانت لاريب تحس بأنها ارتكبت اثما عظيما، بدليل هذا الكتاب الذى بعثت به حينئذ الى ادواردى بيريجوه :

« اغفر لى يا عزيزى ادوار . اننى ألتمس صفحك وأنا جاثية على ركبتى . أرجو أن يكون قد بقى فى قلبك من الحب لى ما يعينه على أن تكتب لى كلمتين لا أسألك عليهما مزيدا غفرانك ومودتك.اكتبلى بعنوان صندوق البريد بمدينة ايمس مقاطعة ناسو . اننى وحيدة هنا ومريضة جدا . فأسرع يا عزيزى ادوار وقل انك غفرت لى. أستودعك الله . . .

ماري دوبليسيس »

وكان ألكسندر دوماس الصغير يعمل فى باريس بجدوحماسشديد فى تأليف قصة طويلة من ستة أجزاء أطلق عليها اسم « مغامرات أربع نساء وببغاء » . ورضى عنها أحد الناشرين فأرسل ألكسندر الجزءين الاولين الى المطبعة . وكان يوافى أيضا «مجلة البنات» بقصائدعاطفية وينشر كذلك مقالات أخرى فى الصحف . استقام له أسلوب واضح سهل ، وبفضل مكانة أبيه فى عالم الادب وصلاته العديدةبالناشرين سهل عليه بيع مقالاته ، فانكب على العمل ، ولكنه احس بارهاقشديد لانه ملزم بالكتابة من أجل أن يستطيع تسديد ديونه . ومع ذلك فانه لا يسدد منها الا جانبا ضئيلا ، حتى خيل اليه أنه سيعجز عن سدادها وسيظل عبئها يثقله طول عمره مالم يلق أحدمؤلفاته رواجا

كبيرا وسيكون شأنه فى الافلاس شأن بلزاك . ولكن أقادر هو على أن يشــق طريقه ويزاحم أباه العظيم ؟ لقــد مضى الاب بالمجــد كله فماذا بقى منه لابنه ؟

وظل دوماس الكبير يدهش الناس بضخامة انتاجه . وبلغ نجمه ذروة التألق فى سنة ١٨٤٦ . فإن شهرة قصة الكونت دى مونت كريستو قد سارت فى جميع أرجاء الدنيا ، ولم ينقطع تهافت الناس على قراءة قصصه المنشورة فى الصحف الكبرى — كالعهد بهم من قديم — وأشهرها لديهم قصة «جوزيف بلسامو» . اما بقيـة مؤلفى قصص المغامرات فوقفوا وقفة المتفرجين ، أحسوا أن اللقمة سرقت من أفواههم فامتلأت قلوبهم بالحقد وشدوا على بطونهم على حـين يكاد دوماس ينفجر من شدة امتلائه بالمـال والمجد الى درجــة فظيعة . وعاد أيوجين دى ميركور الى تتبع انتاج دوماس واحصــاء مؤلفاته ، فوجد انه قد نشر باسمه خلال سنة ١٨٤٥ مالا يقـل عن ستين كتابا ، فحسب الحساب ووجد لو ان ناسخا متمرسا فى عمله ، يجرى قلمه جريا ، اشتغل بجد مدة اثنتى عشرة ساعة كل يوم فى نسخ مؤلفات دوماس لا فى تأليفها لعجز عن الفراغ من عمله فى سنة كاملة وبشرط الا ينقطع عن العمل دقيقة واحدة على مدى أيام السنة

واصبحت المتعة المحببة لاهل باريس فى صيف تلك السنة هى ذهابهم الى شارع القرم ليشهدوا المسرح الجميل الذى يشيده دوماس او قضاؤهم النهار فى الضواحى ليراقبوا العمال وهم يشتغلون فى بناء قصره المنيف فى بورمارلى وقد تعالت جــدرانه المرمرية وبدأ النحات امبرواز شوازليه بمعونة مساعديه يزين هذه الجدران بنقش بارز على نسق مدرسة النحات جان جوجون ، فتوالت الاشكال البديعة وصور كبار الكتاب ، ورسم الشعار الذى اتخذه دوماس لاسرته والقائل « اننى أحب من يحبنى » . واقيم فى الحدائق عدد كبير من نافورات تتلاعب بمخارج الماء ، وصرفت أموال طائلة فى شق جدول يتهادى حول شاليه صغير بنى على مسافة يسيرة من القصر اعتزم دوماس أن يكون هذا الشاليه هو المكان الذى يلجأ اليه اذا طاب له أن يفرغ الى التأليف ، وكان هذا الشاليه بمثابة لعبة من اللعب الصغيرة التى يلهو بها الاطفال ، وهو مشيد على الطراز القوطى الذى يهيم به الرومانسيون

واخذ الرجل العظيم ينتقل وهو يبتسم بين المسرح والقصر ، وهو سعيد كل السعادة بأن أهل باريس يهتمون أشـد الاهتمام بشئونه . لم تكدر صفو سمائه الا سحابة رقيقة ، اذ أن صديقه القديم هاريل

مات فى بؤس شديد فى شهر أغسطس وكان لم يشف من جنونه.
لقد نصب عليه هاريل من قبل كثيرا ، ولكنه كان نعم الصديق أيام البهجة ومنازلة مصاعب الحياة ، حين كان دوماس يزاحم المؤلفين المسرحيين من أجل الوصول الى مكانته التى بلغها . أحزنه أن يرى هذا الصديق يمضى الى قبره بعد أن أفل نجمه وأصيب بالجنون .
وناجى دوماس نفسه قائلا : « إن كان هناك نصب فأنا الذى ارتكبته ولم يرتكبه هؤلاء اللصوص من الناشرين ومديرى المسارح » وتنهد دوماس بأسف عميق على موت هاريل المسكين وانقضاء أيام لن تعود أبدا
ومر شهر سبتمبر والجو هادىء دافىء والسماء ملبدة بالغيوم .
لاحديث لاهل باريس الا عن الزواج الملكى الاسبانى ، الذى كان سيتم فى الشهر التالى ، وامتلأت قلوبهم سرورا بما حسبوه انتصارا أساسيا لبلادهم على انجلترا
وعادت مارى دوبليسيس الى شارع المادلين وهى مريضة جدا ، واستدعت اليها الدكتور كوريف ، ولكن لم يكن فى يده أو فى يد طبيب سواه أن يفعل لها شيئا . استفحل داء السل واوشكت على الموت.
ولكنها كانت تهفو الى الشفاء والى اللحاق بليست فى شرق أوروبا.
وتفد صبرها فطردت الدكتور كوريف ورفضت أن تدفع له أجره. وجاءها أطباء آخرون أدلى كل منهم اليها بنصيحة . أوصوها ألا تأكل الا أطيب المآكل التى تعدها لها المطاعم القريبة من دارها ، وألا تشرب من النبيذ الا أجود أنواعه . وكانت اذا أشرقت الشمس خرجت للتنزه فى عربتها لا تتكلم ألا قليلا ، وتنام على حشية من الشعر . ولكن لم ينجع دواء واحد وتدهورت صحتها بخطا سريعة
لم يتحدث ليست بصراحة عن حبه لمارى دوبليسيس الا مرة أو مرتين طول حياته ، قال انه كان حبا هصر فؤاده كما لم تهصره قط من قبل عاطفة اخرى . وكتب عنها بعد وفاتها فقال : « لو قيض لى ان أكون فى باريس وقت مرضها اذن لقمت بالدور الذى قام به دى جريو، بطل قصة مانون ليسكو ، وحاولت انقاذها مهما كلفنى الثمن ، فانها كانت فتاة رقيقة بشوشا سليمة الطوية ، فاذا كان الناس يصفون مسلكها فى الحياة بأنه فاسد – ولهم كل الحق – فان هذا الفساد لم يمس روحها » . ولكن بالرغم من علمه بمرضها وبالرغم من ثروته الكبيرة ونجاته من اى قيد يحد حركته فانه لم يكلف نفسه مؤونة السفر عبر أوروبا من المجر ، حيث كان يقيم وقت مرضها ، ليذهب اليها ويراها . لو مرضت وهو فى باريس لما تكلف جهدا ولقام خير قيام

بدور البطل فى قصة عاطفية . اما وهو بعيد عنها فلماذا يتحمـــل المتاعب والمشاق فى سفر طويل لا لشىء الا ليرى امرأة أحبها ، وماهى فى نهاية الامر الا محظية من الجائز ان تكون فى ذلك الحين عشيقة لرجل آخر ، كما يجوز له أن يقع فى حب جديد أثناء سفره .

لم تأمل مارى فى أغلب الاحتمال ان يزورها ليست ، فانها جـد عليمة بأنه حين يكون للمرأة ألف عشيق فهيهات لها أن تجد من بينهم واحدا يؤمن باخلاصها ، فاستسلمت الى الوحدة . ليس الذى يشغلها الآن معاملة العشاق لها بل خوفها من يوم الحساب ومصير روحها ، لان أغلب أحوال طبعها كانت تشهد بأنها فتاة بسيطة لم يجرفها تيار الالحاد الذى كان سائدا فى ذلك الوقت . لما أحست أنها مشرفة على الموت خيل اليها أن عينا ترى كل شىء ترقبها . وكان مما لايخـالف طبعها أنها حينئذ اشترت نسيئة كرسى صلاة جميلا لتركع عليه وهى تناجى ربها ، واشترت تمثالا مذهبا للعذراء وضعته فى حجرة نومها، لتردد أمامه دعواتها وابتهالاتها واعلان توبتها الصادقة ، ملتمسة من العذراء أن تكون شفيعتها . أما ابتهالات الدائنين اليها فلم تجد استجابة منها . يطالبها محل شابرون ودوبوا بثمن ملابسها الداخلية ، ومحل ريفيون بثمن فرائها ، ومحل الآنسة سيلينى أمابل بثمـــن أثواب جميلة ضاع فى صنعها وقت طويل . وجاء كل من مسيو سـيرف ومسيو بيشون ، وهما من تجار الخردوات وأدوات الزينة . يطالبانها بدينها ويعتذران بأدب عن ازعاجها . لم تدفع شيئا لاحد منهم ، لان مواردها المالية قد نضبت . ومع ذلك ظلت تعيش كما كانت تعيش من قبل . محل الغسيل والكى ومصففة الشعر والطبيب البيطرى، وصانع السروج ، كلهم يعملون من أجلها بالدين . بل ان خدمها كفوا عن مطالبتها بأجورهم ، لطيبة قلوبهم ولانها كانت تعاملهم دائما برقة وعطف . انهم الآن فى حزن شديد وهم يرون السعال يمزق رئتيها ويدفع بها الى قبرها ، ومع ذلك بقى جمالها ، فلو انهم طالبوها بأجرهم الذى هم فى حاجة شديدة اليه لاخرستهم ابتسامتها الحلوة التى تكسو وجهها بسهولة ، فبقوا على اخلاصهم لها بغير تذمر أو شكوى

وكانت ترى وهى تشق أحيانا شوارع قلب العاصمة فى عربة مغلقة . الجو دافىء ومع ذلك فانها تشعر ببرد شديد ، فكانت تحتمى بفرائها البديع . ان جولتها لاتخرج عن تلك المنطقة الضيقة التى شهدت من قبل مجدها القصير العمر . تتوالى أمام عينيها مشاهد مفاتن باريس

وملاهيها . المسارح والمطاعم الفاخرة والمتاجر التى طالما احبتهـــا . هاهوذا على ناصية شارع دى لابيه محل تاهان الذى يبيـــع التحف الانيقة. وها هو ذا محل جاجلان الذى يبيع أفخر الشيلان الهندية . وها هو محل ماير الذى كان يبيع لها قفازاتها من الجلد الابيض ،ومن بعده محل موتيه الذى يبيع المراوح ذات المقبض العــاجى . كم من مرة ذهبت الى هذه المتاجر لترى ماذا عندها من جديد ، يروقها أن تشترى كل نادر وجميل . أما اليوم فقد اقعدها المرض عن النزول من عربتها .

ويروى عنها فى تلك الفترة أن الناس كانوا يرونها الساعات الطوال وهى بالنافذة مرتدية قميصا منزليا أبيض ومحتضنة توم كلبهـــا الانجليزى الضخم الذى يأنس اليها ويمنحها صابرا وده ، لاتصدرمنه أقل حركة تنبىء بأنه ضاق ذرعا بسجنه وانه يتحسر على تلك الايام التى كان يلعب فيها مع رفيقه داك فى غابة بولونيا . انقطع عن زيارتها رجال طالمـا رددوا على مسامعها ببلاغة آيات حبهم واخلاصهم. لم يبق لها الا كلبها توم المخلص ، والا أن ترقب فى صمت وحزن من وراء نافذة مغلقة مرور الناس من تحتها .

لم يذهب الكسندر دوماس الصغير لزيارتها .أنه اعتمد على قصة زواجها وحكاية غرامها بليست ، وحكم بأنها كانت غير مبالية به،وجعل عمله يطردها من ذهنه . فاذا فرغ منه ذهب الى بورمالى ليشهـــد آخر ماجد فى تشييد القصر الجديد ، ثم يجلس الى أبيــــه ويدور النقاش بينهما حول « جوزيف بلسامو » التى كان يكتبها هـذه المرة بقلمه هو . ولكن الكسندر كان لا يغيب عن عمله طويلا .

وصادف اباه ذات يوم فى شارع الايطاليين . شمس الخـــريف الدافئة يحجبها غيام يضفى على الشارع المألوف منظرا تستغربه العيون لعل أباه كان يحس حينئذ بالغربة فى باريس فنزع فجأة الى الترحال انه يريد أن يرى بلادا بعيدة ، فلما أتيحت له فرصة السفر لم يتردد فى اغتنامها ، بالرغم من أن مشاغله كانت تقتضيه اليوم أكثر من أمس أن يبقى بباريس . وقد واتته الفرصة حين دعاه دوق دى مونبنسيه لان يكون شاهدا فى عقد زواجه القريب بمدريد . ولكن استمع الى الوصف الذى اعطاه دوماس لتلك الدعوة فيما بعد ، قال « لمـا رأى الدوق ان زواجه هو تاج شرف له ولفرنسا كلها أبى فى هذه المناسبة الرسمية الجليلة الا أن أكون معه بمدريد . » وعلى أثر هذه الدعوة

الملكية تلقى دوماس اقتراحا من مسيو سلفاندى وزير التربية والتعليم بأن يقوم بمهمة له فى شمال أفريقية بعد أن يحضر حفلات الزواج الملكى بمدريد ، ذلك أن الجزائر فى ذلك الوقت كانت تتحول الى مستعمرة فرنسية ، ومع ذلك فان أغلب الفرنسيين لايعلمون عنها شيئا ، فالحاجة ماسة اذن الى كتاب عن رحلة الى الجزائر يصف أحوالها لاثارة اهتمام القراء بهذا البلد الجميل الآخذ فى الازدهار الواقع على الشاطىء المقابل للبحر الابيض المتوسط ، وأخبره أنه سيدفع للمؤلف ٤٠٠ جنيه نظير نفقاته . وقال له الوزير أنه قد وقع اختياره عليه لانه صاحب موهبة كبيرة فى الوصف ، فهولذلك خير من يصلح لهذه المهمة . ومهما بلغ من تواضع دوماس بين يديه فانه سارع الى التأمين على كلامه والموافقة على حكمه . سره الاقتراح فلم يتردد وقبل المهمة ، ولكنه اشترط أن توضع تحت تصرفه فى البحر الابيض المتوسط بارجة حربية . فاذا كان الوزير قد قبل من فوره هذا الشرط الذى ينم عن الافراط فى الخيلاء ، فهذا دليل على الشهرة التى كان دوماس يتمتع بها فى ذلك الوقت .

فلما قابل ابنه فى شارع الايطاليين أهوى بيده على كتفه وقال له « ستأتى معى بطبيعة الحال يا ألكسندر » . فأجابه وهو يظن أن أباه يدعوه الى الذهاب معه لتناول الغداء :

ــ «الى أين يا أبتى ؟ أتحب أن نذهب الى مطعم الاخوة بروفنسو؟»

فشبك ذراعه بذراعه وأخذ يشرح له مهمته .وهما يسيران على مهل . كم كانت فرحة الكسندر حين علم أنه سيسافر خارج فرنسا وسيقوم برحلة تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر وسأل أباه :

ــ « وماذا سيحدث لقصرك ومسرحك وقصة جوزيف بلسامو ؟

أجابه : « القصر والمسرح سيتم بناؤهما أثناء غيابى ، اما قصة جوزيف بلسامو فلا ضير أن تنتظر شهرا أو شهرين . » .

ــ « وما الحال فى بقية ارتباطاتك ؟ »

ــ « اننا سنرى أسواقا شرقية ملأى بالعجائب والتحف الجميلة، فهذه الرحلة هى من قبيل المصادفات الحسنة ، لان بناء القصر قد اوشك على التمام ولابد من تأثيثه . فكر فى الستائر والسجاجيد التى سنعود بها . وأظن أن الخزف فى الشرق بديع أيضا »

وانصرف ذهن الكسندر الى التفكير فى عمله ، وكيف يفرغ من تأليف قصته « مغامرات أربع نساء وببغاء » . لقد تم نشر الجزءين الاولين وارسال الجزءين التاليين الى المطبعة وبقى عليه أن يتم تأليف

الجزءين الاخيرين أثناء سفره ، ولا بأس ان يطلب من المطبعة أن توافيه بالمسودات حيث يكون .
وعلم ألكسندر أن أباه قد باع من أسهمه فى شركات السكك الحديدية ما يساوى ألفى جنيه من أجل ان يكون فى جيبه مبلغ آخر من المال يستعين به على الرحلة ، فانه مساو فى القيمة لخمسة أمثال مقداره اليوم ، وقال لابيه أنه من الحكمة أن نكتفى بالمبلغ الذى دفعه له وزير التربية والتعليم وان يجعل من تدبيره أن يربح شيئا من المال أيضا من الكتاب الذى سيؤلفه عن الرحلة ، ولكن أباه لم يأبه لنصحه. انه أعد برنامج الرحلة وفق ذوقه وهواه ، بأنه سيصحب معه بعض أصدقائه وعددا من السكرتاريين وخادما زنجيا ، واعتزم أن يشترى فى الطريق أقدر الجياد على السرعة ، واذا نزل بلدا أن يحجز فندقها كله على حسابه ، وأن يزور أعيانه وأن يشترى الهدايا لعشيقاته ، يبعث بها اليهن مع رسول خاص ، فهيهات أن تغل يده نصيحة ابنه المطبوع على الحرص والامساك
قال له : « ألم تعلم بعد يابنى العزيز أننى لاأحب السفر الا اذا توفرت لى أسباب الراحة ، فالخروج الى الطريق سيرا على الاقدام يدك فى يد حاشيتك ، شىء جميل حقا اذا كنت طالبا فى مدرسة ، أو اذا كنت شاعرا سارح الذهن لايطلب الشهرة الابعد وفاته، أما نحن فاننا ضيوف فى زفاف ملكى ، فينبغى أن نسافر كما يسافر النبلاء وينبغى ألا تنس آننا مطالبون باعلاء اسم فرنسا والبرهنة على عزها وأمجادها »
وسافر دوماس وابنه وصحبه وحاشيته بعد ذلك بقليل بالقطار من باريس الى مدينة تور وهى آخر بلد تصل اليها السكك الحديدية الفرنسية . وكان لزاما عليهم اتمام الرحلة الى مدريد بالسفر فى عربات البريد التى تجرها الجياد . وكان يتأجج بالفرح والسعادة، فهو لا يزال شابا صغيرا تبهجه رحلة خارج بلاده . ومن حسن حظه أن خلف وراء ظهره هموم ديونه وذكرياته المريرة عن حبه لمارى دوبليسيس . أمامه أيام عديدة تمده بالمتعة والسرور . سيمر بمناظر وتجارب جديدة . ومن ورائه باريس التى شاعت فيها بين الشبان المترفين مودة ارتداء معاطف سود فضفاضة تقليدا لنبلاء اسبانيا ، كما أن السيرك فى الشانزليزيه قد أعد حفلات مصارعة الثيران . كل هذا لاحياء سياسة الملك العظيم لويس الرابع عشر الذى قال : « لن تفصل جبال البرانس بين فرنسا واسبانيا »

الزواج الأسبانى

كانت أيزابيلا الثانية الملكة الشابة المتربعة على عرش أسبانيا تنتظر فى مدريد وصول قرينها العليل الفاسد دون فرنسيسكودىأسيس دوق قادس ، كما كانت أختها الاميرة لويزا فرناندا تنتظر وصول قرينها دوق دى مونبنسيه لتصبح أصغر أميرة متزوجة فى أوروبا ، وتجاوبت فى الطرق المؤدية الى مدريد أصداء وقع حوافر الخيل السريعة ، فقد تقاطر اليها الامراء والنبلاء والدبلوماسيون ومشاهير الكتاب والرسامون والمكلفون بتصوير حفلات الزواج وكبار الموسيقيين وعلى رأسهم شتراوس ، وعلا دوماس العظيم موجة تدفقهم فحملته الى مدريد . واذا كان دوماس قد طلب الى ابنه أن يكون فى رفقته فقد حرص أيضا على أن يصحب معه ماكيه (لعله اعتزم أن يعهد اليه بتأليف كتاب الدعاية للجزائر الذى كلفه به وزير التربية والتعليم) وصحب معه أيضا الرسام بولانجيه ليتولى اعداد صور الكتاب

سافرت جماعته بالعربات من تور الى بوردو ، فوجدت عربة البريد المسافرة الى بايون قد فاتتهم فاشترى دوماس عربة خاصة ، ورفض دوماس كالعهد به أن يساوم البائع ، ورضى له أن يغشه ويستغله، أنه قرين أدمون دانتيس بطل قصة الكونت دى مونت كريستو الذى لا يبالى بالمال اذ لاحد لثرائه الفاحش ، دفع دوماس ثلاثة أمثال ثمن العربة وهو رضى النفس غير مبال ، وتابع الجمع رحلتهم . ونمت تصرفات ألكسندر كذلك عن طبعه فقد أراد أن يشترى خنجرا له مقبض مرصع بالصدف فطالبه البائع بجنيه كامل ، فأخذ يساومه مساومة عسيرة حتى اشتراه بربع هذا المبلغ ، وسر بحصافته سرورا كبيرا

وأصل الجمع السفر طول الليل حتى وصلوا الى مدينة بايون عند الظهر فى اليوم التالى . تعذر عليهم العثور على جياد تحل محل جيادهم المتعبة فنبذوا عربتهم واستقلوا عربة البريد التى حملتهم عبر مقاطعة الباسك يرون من النوافذ جبال البرانس تدنو منهم شيئا فشيئا ، ومروا بمدينة بياريتز ـ وكانت لم تشتهر بعد ـ ثم بمدينة سان جان دى لوز ، وعبروا نهر بيداسو الى مدينة ايرون حيث يقوم الجمرك .

ما أعجب شأن دوماس .. انه ليستطيع أن يؤلف الكتب بالسرعة التى تطيق بها يده تحريك قلمه المطواع دون أن يتلجلج أو يفقد قدرته على الامتاع . هو مستغن عن النوم ، قادر على الكتابة أينما وجد نفسه ، حتى داخل عربة بريد معتمة تقلقه عبر طرق زراعية وعرة ـ كالعهد بها سنة ١٨٤٦ ـ هكذا ألف دوماس أثناء السفر جانبا كبيرا من الكتاب الذى يعده عن الرحلة ويعتبره شاغلا ثانويا يضاف الى مشاغل رحلته الاولى ، جعل كتابه على هيئةرسالة يبعث بها الى صديقة مزعومة له خلفها فى باريس ، واتخذ أسلوبا خفيفا بسيطا ينقاد له بسهولة ويترك فيه نفسه على سجيتها ، وجعل الحديث ينتقل من وصف المناظر التى يمر بها الى سرد بعض وقائع التاريخ التى يحليها بأكاذيب من صنع خياله ، ثم يمزج هذا كله بذكر بعض النوادر التى كان بطلها ابنه ألكسندر أوماكيه أو بولانجيه أو خادمه الزنجى المرافق له . ولم ينس وصف انتصاره فى الجمارك .. اذ ينبغى أن تكون الرحلة سلسلة من الانتصارات المتتابعة ، فقال :

« لك يا سيدتى أن تتصورى مقدار دهشتى حين تقدم الى مأمور الجمرك بعد أن قرأ اسمى المكتوب على جميع حقائبى وصناديقى بأحرف من النحاس ، فاذابه يعبر عن تحيته وتهنئته بسلامة الوصول بلغة فرنسية فصيحة وبلغة أسبانية أفصح منها ، وأمر موظفيه ألا يمسوا متاعى . وكما كان نطق اسم واحد يكفى فى قصص ألف ليلة وليلة لفتح الابواب المغلقة ، فان ذكر اسمى وحده كذلك كان كافيا لمنع فتح حقائبى . لقد كنا حقا قد بلغنا أرض أمة توارثت قديم تقاليد الفروسية وأنجبت النوابغ من الكتاب والرسامين أمثال لوبى دى فيجا وسير فانتيس وفيلاسكيه . ولو حدث أن جاء هؤلاء النوابغ الى فرنسا وحرصوا على كتابة أسمائهم فوق حقائبهم بأبرز خط وأوضحه ، فأنى لا أضمن لهم ألا يخضعوا لتفتيش دقيق قد يتطلب منهم خلع ثيابهم »

وتابع دوماس رحلته ، وصدى تحيات مأمور الجمرك الاسبانى لا يزال يرن فى أذنيه ، وواصل الجمع السفر ليلا ونهارا ـ هذا شأنهم منذ غادروا باريس ـ حتى وصلوا مدريد . لقد مروا فى فرنسا واسبانيا بمناطق لا تسلم من الضباب وبرودة جو الخريف ، أما مدريد فكانت تسطع فى سمائها الزرقاء شمس حامية . واذا كان المسافرون حين هبطوا من العربة فى فناء المنزل الذى وقفت عنده وهم يعانون آثار التعب والارهاق ، فانهم لم يبقوا على هذا الحال طويلا ، فقد

استأثرت مدريد بانتباههم وألهبت خيالهم بمآثر وصور عجيبة ومناظر غير مألوفة لديهم حتى انهم نسوا كل مطالب أبدانهم

لم يتأت لدوماس أن يحجز قبل سفره من باريس مكانا له ولرفقائه فى أحد فنادق مدريد ؛ لذلك كان أول هم لهم ان يجدوا مسكنا يأوون اليه . وكانت مدريد غاصة بالوافدين عليها ، ليس بها حجرة واحدة شاغرة . يمر بهم سكان المدينة وهم فى أزياء طريفة متباينة فلم يعرهم واحد منهم انتباهه . يلتزم الجميع الصمت والانفة ، وكان من الواضح ان الشعب لم يبتهج للتحالف مع فرنسا نتيجة لزواج أميرته . فلما وفد عليه ألوف الزائرين الفرنسيين تجاهلهم بكبرياء وترفع ، حتى ان الدوق مونبنسيه نفسه حين وصل قبلئذ بيوم أو يومين وجد أن الناس تستقبله باستعلاء فتضايق وامتعض

واخفق دوماس رغم سعيه الطويل فى العثور على مسكن فرأى أن لا مفر من الاستعانة بذكائه وحيلته ، فقد لحظ أثناء تجواله مكتبة فرنسية يملكها — كما يدل الاسم المخطوط على بابها — رجل فرنسى اسمه مونيه ، كما لاحظ أن بعض مؤلفاته معروضة فى واجهة المكتبة . فاجتاز بابها مسرعا وهو يبتسم وقال لصاحبها :«يا عزيزى مسيو مونيه ، ان لم توفر لنا مسكنا ، فلن يبقى لنا الا أن نشترى خيمة وننصبها فى ميدان القلعة »

أجابه صاحب المكتبة : « عفوا اذا سألتك سؤالا ، لقد ناديتنى باسمى فهل يعرف أحدنا الاخر ؟ »

قال له دوماس : « لا ريب في ذلك فهأنذا قد ناديتك باسمك »

— لا غرابة فى ذلك فاسمى منقوش على باب المكتبة

— واسمى أيضا فى واجهتها

— فى واجهة المكتبة ؟ ما اسمك اذن ؟

— ألكسندر دوماس

فانبعثت من الرجل على الفور صرخة تنم عن الدهشة والفرح وهتف :

— ماذا تقول ؟ الكسندر دوماس ؟ دوماس العظيم ؟ دوماس كاتبنا النابغة ؟

انحنى دوماس امامه متصنعا التواضع وأخذ الرجل يصافحه بحرارة ثم لم يلبث ان عرض عليه أن ينزل هو ورفقاؤه ضيوفا على بيته وقال له :

— يا سيدى الاجل ، بيتى بيتك .

وكان فى بيت مونيه حجرتان صغيرتان شاغرتان لانهما تزيدان عن حاجته ، فأسرع وأثثهما بما يلزم لضيوفه من المضاجع والكراسي والسجاجيد . ومن الصدف الحسنة التى تملأ حياة دوماس كما تملأ قصصه أن مسيو مونيه كان قد سلفه له أن استضاف أيضا اثنين من مواطنيه ، وتبين لدوماس أنهما من أعز أصدقائه . وهكذا التقى دوماس بصديقيه بلانشار وجيراردیه وهما رسامان أوفدتهما الحكومة الفرنسية رسميا لتصوير حفلات الزواج ، وتنازل لهما مسيو مونيه عن أكبر حجرة فى داره ليتخذا منها مرسما لهما . ورأى دوماس أنهما سرعا فعلا فى رسم لوحاتهما ، فاقترح عليهما من فوره أن يشاركهما هذه الحجرة ، فمن حق كاتب مثله أن يسلك نفسه فى زمرة أساتذة فن التصوير

قابل الرجلان اقحام دوماس نفسه عليهما بدهشة وكذلك بسرور ولا ريب ، فرضخا لطلبه عن طيب خاطر وسارعا الى زحزحة لوحاتهما الى طرف قصي فى الحجرة ، ورسما باللون الابيض على الارض حدود المساحة الضيقة التى يستقل بها كل واحد من شاغليها ، فسارع بولانجيه الى نصب لوحاته ، وصف دوماس وماكيه مالديهما من كتب وأوراق على منضدة من الخشب الابيض ، أما الكسندر فقد تولى اشاعة البهجة بين الجميع بضحكاته ومزاحه ، لانه اعتزم ألا ينشغل بعمل أثناء السفر . وأضاف دوماس الى الكتاب الذى يؤلفه عن الرحلة فقره تصف حالهم فقال :

« وجعلنا همنا تنظيم هذه الفوضى البديعة التى تبلغ القمة فى مرسم مصور أو مكتب أديب »

ورضي دوماس بما فعله فان الجو البوهيمى الذى كان يسود الحجرة أفضل لديه من جو الفنادق : هاهى المنضدة الخشبية تنتظره وتومىء اليه وقد صفت فوقها أشكال والوان من الاقلام وتلال عالية من الورق الابيض . ان ذهنه قد بدأ ينشغل بتأليف وصف بديع لحفلات مصارعة الثيران والراقصات الاسبانيات اما قصة جوزيف بلسامو التى خلفها وراءه فى باريس فقد نسيها تمام النسيان كما نسى ارتباطات له أخرى عديدة

حقا ان مدريد مدينة شيقة جميلة ، ولكنها ليست معروفة بجودة مطبخها وبخاصة فى تلك الايام التى غصت فيها بجموع الوافدين اليها ، فليس فى المطاعم من المآكل التى تهفو اليها نفس الفرنسى . انه لا يجد بها كبد الخنزير المدهوك بدهنه ، ولا سرطان البحر قد أجيد

طهيه ، ولادجاجا مخدوما بالفطر . لم يتذوق دوماس الطعام وعافته نفسه ، فقرر أن يستولى على مطبخ مسيو مونيه . ولما لم يجد طاهيا فرنسيا شهيرا فى مدريد يستأجره ، فقد صح عزمه على أن يتكفل هو بوظيفته ، وأخذ يصحب خادمه الزنجى ويخرج معه الى الاسواق . لا يفوقه أحد فى حسن اختياره للدجاج والبط والبقول ، ثم يعود محملا بأكداس من السمان ولحم الخنزير المقدد والبيض والجبن ويسرع فى اعداد وجبة شهية فيعمل فى المطبخ بجد ، يبعثر الصحاف وينثر القشور من حوله . انه يعتمد على خادمه الزنجى ان صحا من خماره ليعيد ترتيب المطبخ بعد أن يفرغ الاستاذ الطاهى العظيم من عمله . لا شك ان ذكرى زيارة دوماس قد بقيت عالقة فى ذهن مسيو مونيه أمدا طويلا .

ان ألكسندر دوماس هو من هذا الصنف من الناس النادر وجوده حتى فى ذلك العهد ، صنف الذواقة الخبير بالطعام الطيب .. هكذا كان شأنه ، وأنه أيضا استاذ فى فن الطهى . ان كان الناس قد وجدوا فى بعض قصصه غلطات كثيرة لا يقرونه عليها ، فانه كان يفخر دائما بأن الطعام الذى يعده بيده لا تعيبه غلطة واحدة تمنع الاقرار له بأنه استاذ لا يبارى فى فن الطهى . وكان ان سلف له أن دعا الدكتور فيرون لتناول عشاء بديع أعده بنفسه ، فأخذ ضيفه يتهمه من قبيل المزاح بأنه استعان بطاه مجرب اتخذه شريكا له فى عمله . حقا أن عبارة اتخاذ شريك له فى العمل ليست خفيفة الوقع على أذن دوماس قد يغفرها اذا كانت كناية عن طريقة تأليفه لقصصه ، ولكن هيهات له أن يغفرها اذا قصد بها قائلها تجريح مهارته فى المطبخ ، فأصر دوماس على اعداد عشاء مماثل أمام شهود محايدين . فلما فعل جاءت النتيجة مثبتة لاستاذيته . ولكن هيهات لشباب ذلك العهد مجاراة الاباء فى تقديرهم للطعام الطيب . وقد أرجع دوماس العلة الى عادة التدخين التى بدأت حينئذ فى الانتشار ، فانها أفسدت تذوق الالسن للطعام ، كما عكرت على الناس صفو ذلك الفن الجميل ، فن مجاذبة أطراف الحديث فى الصالونات والمجتمعات ، فان ابنه الكسندر مثلا لا تطاوعه نفسه أن يدخل المطبخ ليقلى بطة أو يضع فى الفرن فطيرة بالجبن فيعرف اللحظة التى ينبغى فيها اذا انتفشت أن يخرجها منه . انه كان يسخر بوقاحة من عمل أبيه فى المطبخ وان لم يمنعه ذلك من أن يتناول الطعام بشهية كبيرة . انه ينتمى الى الجيل الجديد ، فهو وقرناؤه من الكتاب يأنفون لشدة اعتدادهم بأنفسهم من الدخول الى المطبخ ولبس فوطته ، كما

كان يفعل ابوه وبلزاك فى عهد سمته البساطة ورفع الكلفة
ولما فرغ دوماس من شواغله واطمأن لمسكنه وطعامه ذهب لزيارة السفير الفرنسى ليعلم منه أين ومتى تقام الحفلات التى ينبغى له حضورها .

وتلاحقت هذه الحفلات واحدة أثر اخرى · مآدب فى السفارة الفرنسية وفى القصر الملكى ، واجتماعات للعشاء فى قصور النبلاء . وقد تم عقد القران المزدوج فى يوم ١٠ أكتوبر وهو يوم عيد بلوغ الملكة سن السادسة عشرة ، وأقيمت الحفلة فى القصر الملكى فى الساعة العاشرة مساء . ووجد الكسندر نفسه فى القصر يرقب العروسين البهيتين سليلتى الملوك . الملكة الشابة بدينة لا يعلم أحد عنها شيئا الا انها تحب الحلوى ، وأختها فتاة جمالها وليد التأنق ، ضئيلة الجسم لانها لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها . تقف بجانبهما أمهما الملكة كريستينا وهى امرأة مشهورة بأن لا خلق لها ولاضمير ، وأمامهن القرينان المتباينان ، دون فرنسيســـكو دى أسيس الجلف الغبى ، والدوق دى مونبنسيه الانيق الرشيق الفرنسى من قمة رأســه الى اخمص قدميه ، ووقف الى جانب الامير الفرنسى أحد شاهدى عقــد زواجه ، أنه الكسندر دوماس الاب وقد زين صدره بأوسمته العديدة. انه يتأمل كل شىء حوله ويبتسم باعجاب ورضا ، كأنما يدير فى ذهنه كيف يضفى على هذه الحفلة المملة معالم البهجة حين يصفها فى كتاب ينشر باسم الكسندر دوماس . انه لايرى للحفلة الا الصورة التى يتخيلها ، فانه لا يستطيع ان يروى التاريخ الا روايته لسجل حافل بأمجاد الفروسية ونواجع المآسى ونزوات الرومانسية ، ولا بأس أن يضيف عليه حواشى من صنع خياله ، وانك لتجد مثالا لهذه الحواشى العجيبة فى وصفه لعهد الملك هنرى الثامن . واصطف حول الجميــع طائفة من الساسة الدهاة الذين أعانوا الملكة كريستينا على تلفيــق زواج ابنتها الملكة ايزابيلا بالدوق فرنسسكو المأفون والقاء أختها فى أحضان قرين لم تقابله من سابق ولا تعرف عنه شيئا .

وفى اليوم التالى ركب دوماس وابنه عربة شقت بهما شوارع المدينة المزدحمة الى أن بلغت بهما كنيسة أتوكا حيث يقام قداس بمناسبة هذا الزواج الملكى الذى لفقه رجال السياسة . وكانت مدريد تحتفل بهذا الزواج ببهجة الشعوب البدائية ، ففى كل ناد عام ، وفى خارج كل مسرح يجتمع الراقصون والراقصات من مختلف مقاطعات أسبانيــا يرتدون ملابسهم الوطنية ويؤدون رقصاتهم الجميلة، من بينهم جماعة

من المغاربة ، يتميزون برشاقتهم وثيابهم المبهرجة ، رقصهم يعبر عن قتال بالسيف أو بالخنجر . شقت العربة بدوماس وابنه طريقها بجهد وسط جموع من الناس مزدحمة فى الشوارع .الكسندر ينظر فيما حوله كأنه فى حلم ، تصل الى اذنيه همهمة الجموع تتخللها الاغانى ، فكأنما يخوض تيارا متدفقا بالموسيقى فيه دقات الصاجات والكعوب الخشبية للراقصين والراقصات ، بل ان هز النســاء لمراوحهن له حفيف لا ينقطع • ان اللحن الذى يصل الى أذنه يتنقل من النقرة السريعة لرقصة التارنتيلا الى عزف متمهل خافت على الجيتار ، الاجراس القديمة تدق ، وأذيال أثواب النســاء تدور . اما النبلاء فيستقلون الى الكنيسة فى أبهة وبين الحشم والخدم عربات ثقيلة مزخرفة ، وارتدت العامة ملابس العيد من كل لون بهيج ، ويخالط الحشد هنا وهناك رجال تنطق وجوههم بالكبرياء والانفة ، ثيابهـم خرق بالية ، جيوبهم وبطونهم خاوية ، فقراء جائعون ضائعون رغم كرم محتدهم فى ذلك البلد الذى يعج بالارستقراطية المتعالية والوان من المظالم الصارخة والفروق الكبيرة بين الطبقات . تلمح عين الكسندر من وراء نوافذ البيوت وجوه حسان هيهات له أن يراهن مرة أخرى ، أما التى أحبها فراقدة فى بلد قصى فى الشمال ، تموت على مهل ، تذكره بها فتيات أسبانيات لهن مثلها شعر يجمع بين اللون الاسود والازرق ، هو اللون الذى اختصت به مارى فكان من اكبر أسـباب سحرها ، ولكنه لم يأت لاسبانيا الا لينسى مارى دوبليسيس فنفى طيفها من ذهنه . ان حسانا كثيرات تطل من النوافذ لا لتراه بل لترى الجموع المحتفلة بالعيد ، وجوههن فى اطار من شعر لامع من تحت طرح سود من الدانتلا فيزيد سوادها فى تألق لون وردة أو قرنفلة حمراء تزين مفارقهن ، ولكنه لم ير زهرة الكاميليا البيضاء التى تذكره بالماضى ، هى زهرة باريس وزهرة مارى حبيبته ، لامكان لها حيث هو الان فى أسبانيا فى جو حار ووسط حفل يموج بالموسيقى والالوان. توالت عليهما شوارع لها بهجة تبهر الابصار حتى بلغت بهما العربة باب الكنيسة ، فدخلا اليها ، فاذا بهما فجأة وسط جو لا الف لهما به ، جو كآبة غامضة غارقة فى البخور

واقيمت حفلة مصارعة الثيران اثر عقد القران ، وجلس دوماس وابنه وماكيه وبولانجيه فى الجانب المظلل من الســاحة بالقرب من المقصورة الملكية . لم يسبق لهم من قبل أن شاهدوا مصارعةالثيران، فاتخذوا مقاعدهم وأعصابهم متوترة . ان المعنى الذى تنطوى عليه

حتى هذه الحفلة يغيب وسط مظاهر الفخفخة والزينة وبين الالحـان الرنانة والالوان الزاهية . جلس عشرون ألفا من المشاهدين في هذه الحلقة التي ورثت السيرك . أنهم جميعا متلهفون أشد التلهف على رؤية الخطر والقسوة ، لذتهم انهم يرونها بأعينهم وأنهم هم أنفسهم في منأى منها . رمال الساحة تلمع بوهج شديد ، ومصارعو الثيران وأعوانهم يتخايلون في ثياب أنيقة زاهية ، والثور الهاجم متفجر بالقوة والغضب . على مقبض السهم الذي انغرز في ضلوعه اليسرى ترفرف شرائط حريرية من ألوان هي شعار مالك هذا الثور الدوق أوسونا ، ان حفيف عشرة آلاف مروحة وتألق آلاف من الزهور القرمزية التي ينطق جمالها بفضل انعكاس الوانها على رمال الساحة ، وتعبير ضجة المشاهدين موجة بعد موجة عن مشاعرهم المتباينة لهو منظر يستبد بالنفوس . واجلس دوماس وصحبه وهم مسحورون تنتابهم الدهشة والاعجاب ، رأوا حصانا أثر حصان ينفق أمام أعينهم ، ورأوا من المصارعين وأعوانهم من يحمل خارج الساحة وهو جريح أو قتيل ، والثور الهائج الذي يثير الفوضى من حوله يستفزه اللاعبون الى حـد الجنون ، ثم يعلق نظرته بمصارع ويثبتها عليه ، ويندفع نحوه لا يصرفه عنه محاولة بقية أعدائه لفته اليهم ، لا يواجهه غريمه الا بوشاح من لون زرقة السماء مصنوع من الحرير الثقيل ، طارده الثور حتى دفع به الى حافة الساحة ، وأخيرا هجم عليه وقد أحنى رأسه الى الارض ، فما كان من المصارع الا أن استند بقدمه على جبهته بين قرنيه وقفز ونزل من ورائه . تعالت من الجموع هتافات بحماس جنوني ، والقيت الى الساحة أكداس من المراوح والزهور . نظر دوماس الى أصحابه فوجد وجوههم قد شحبت وتندت بالعرق ولكنهم يشاركون الآخرين في هتافهم المخبول

الثور مصمم على الانتقام . أعرض عن حيل بقية أعدائه ، ولم يبق له هم الا أن يلحق صاحب الوشاح الازرق واندفع نحوه . فيتجنبه المصارع بقفزة الى جانب ، ورمى بوشاحه الازرق فوق رأس الثور ، وجرى ليتناول سيفه ، وأخذ الثور يهز رأسه في حنق شديد حتى أطار الوشاح عن رأسه بعد أن مزقه ، وتلفت يبحث عن غريمه ، فرآه بعيدا عنه فاندفع نحوه ، فاذا بقدم المصارع تنـزلق فوق باقة من الزهور التي ألقيت في الساحة ويقع على الارض ، حينئذ انبعثت شهقة واحدة من عشرين الف حلق ، ثم خيم على الساحة ومن فيها صمت رهيب

قام الرجل على قدميه والثور مندفع نحوه ، هيهات له أن ينجو . حمله الثور على قرنيه وطوح به فى الهواء ، ثم انصرف الثور الى تصفية حسابه مع راكب جواد كان يحاول منذ زمن أن يلهيـــه عن غريمه ، وظل المصارع راقدا على الارض رقدة الميت . انه قاصد أن يمتع المشاهدين ، وكأنه يعلم ان دوماس من بينهم ، فاذا به يهب من رقدته وهو يضحك . ان نجاته من طعنة قرنى الثور معجزة ، ولم يصبه القاؤه على الارض بأقل ضرر . نظر دوماس مرة أخرى الى ابنه ورفقائه فوجد ماكيه يكاد يغمى عليه ، وجىء له بكوب من الماء لاسعافه

وتوالت على دوماس وصحبه لمدة اثنى عشر يوما حفلات المصارعة التى تعتبر أهم مظاهر البهجة بعيد الزواج الملكى ، وكان بطل تلك الحفلات المصارع الشهير فرنشيسكو مونتيز . فاذا أقبل الليـــــل أطلقت الالعاب النارية يوما بعد يوم ، وأقام النبلاء مآدب فخمة فى دورهم . وكذلك أقامت السفارة الفرنسية حفلة تولى فيها جوهان شتراوس قيادة الفرقة الموسيقية . وتلاحقت المآدب وحفلات الرقص بحيث لم يكد يبقى لدوماس وصحبه وقت يبدلون فيه ثيابهم بين حفلة وأخرى ، أو يظفرون بسنة من النوم . لقد فاق الأب ابنه فى قوة الاحتمال ، فظل محافظا على نشاطه لايرهقه التعب ، يجرى خلال الحفلات بجسمه الممتلىء ووجهه الباسم وصدره المزدحم بالنياشين . فاذا اقترب الفجر وتضعضع رفقاؤه فوق الفراش بدل هو ثيابه بسترة قديمة وخرج فى صحبة بول خادمه الزنجى الى السوق ، لقد حان وقت قيامه بدور أستاذ الطهى ، فاذا فرغ من مشترياته عاد وجلس على منضدة من الخشب الابيض وتابع تأليف كتاب الرحـلة يملأ صفحات كبيرة من الورق الابيض بخط منتظم دقيق ، فيخرج من قلمه كلام ليس فيه ترتيب للحوادث أو ترابط بينها ، ولكنه ممتع شهى . ويحق لنا أن نتحسر على الروائع التى كان يمكن له تأليفهـا حينئذ لو لم يشغل نفسه بحضور حفلات المصارعة بحيث لا تفوته واحدة منها ، وباستعراض نفسه بخيلاء فى كل حفلة ومأدبة ، وبأن يؤدى فى الوقت نفسه وظيفة المشرف العام ورئيس الحسابات فى منزل مضيفه الفرنسى

وأخيرا آن أوان مغادرة مدريد . ان رفقاء دوماس سعداء وان كانوا فى شدة من الاعياء ، فهم يتطلعون الى الايام القادمة التى يقضونها فى هدوء أثناء سفرهم الى فرنسا ، وان كانت أمامهم رحلة شـاقة

مليئة بالمخاطر الى أن يبلغوا مدينة قادس . وكان دوماس قد دعا صديقين جديدين لمرافقته فى رحلته فى شمال افريقية ، هما المصوران دسبارول وجيرو وكان قد لقيهما فى مدريد .

وسافر الجميع على ظهور البغال مدججين بالاسلحة ، ذلك لان طريقهم لا تعمل فيه عربات البريد ، فاذا جاء الليل نزلوا بفنادق قروية حقيرة ، سحنة أصحابها تثير الريبة ، فاذا بلغوا مدينة تريثوا بها أياما ونزلوا فندقا يظفرون فيه بقسط أوفى من الراحة ، ويتولى بول الخادم الزنجي نقل الحقائب وفتحها واعداد الاوراق والاقلام لدوماس وماكيه وكراسات الرسم لرفقائهما المصورين الاربعة ، ثم لا يفوت دوماس البحث عن أعيان المدينة وزيارتهم ، فيتلقى منهم الهدايا ويسمع منهم ثناءهم عليه واعجابهم به ، وكلما وجد منهم واحدا يستجيب لالحاحه دعاه الى المجيء لفندقه وتناول الطعام معه ، ولا يفوتهم كذلك دراسة كل علم فى المدينة يستحق الرؤية فيرسم بالخطوط والالوان ويوصف بالكلمة . وهكذا زاروا طليطلة وغرناطة وقرطبة واشبيلية وقادس .

فى كتاب الرحلة الذى يؤلفه دوماس حديث كثير عن ابنه يدل على محبة له كبيرة . لقد أبى من قبل أن يدفع له ديونه ، ولكن حديثه عن هذا الابن يدل على أنه فاق كل أب فى اعزاز الابوة ومحبته . ان مارى ألكسندر ابنته غير الشرعية من بل كريبسامر قد خيبت لسبب مجهول أمله فيها ، أما حبه لابنه واعجابه به فلاحدلهما . اذا مال الابن الى الدعابة قهقه الاب بملء فمه ، انه شديد الاعجاب بمقدرة ابنه على نظم الشعر بسهولة ، وببراعته فى ركوب الخيل ، وتفتح شهيته اذا جلس للطعام ، فلا غرو أن أحس الابن بسعادة كبيرة . انه لم يعهد من قبل مثل هذه الاسابيع التى قضاها فى حبور متصل . لم يسبق له أن قام برحلة ، فكان كل شيء يراه يبعث فيه السرور . انه بعيد عن باريس التى ترتبط فى ذهنه بذكرى أحزان كثيرة . لقد نسى الان انه ذاق يوما مرارة البؤس والتعاسة . أن أفراد الزمرة والخادم الزنجي المرح هم نعم الرفقة فى السفر . لقد دعا دوماس الاب أصدقاءه من المصورين لمصاحبته لانه يرتاح الى معاشرة الفنانين ويترك معهم نفسه على سجيتها ، اذ لهم طبع سمح وانبهار بكل جديد يرونه ، واطاعة على الفور لكل خاطر يبشر بمتعة فلا يفوت أوانها ، ورضا بتصاريف الحياة يتلقونها كيفما جاءت . يالها من رحلة بلغت مسرتها حد الكمال ، لا حساب للوقت . لا موعد محتم لعمل من الاعمال ،

لا حاجة فى يوم للتدبر فى أمر غده ، وكان ماكيه هو الذى شذ عن الجميع فى حمله لساعة فى جيبه .

ولو كان دوماس رجلا يعنى بأعماله لترك ماكيه فى باريس ليرعى مصالحه . انه حقا قد دبر أمور مسرحه فعهد بها الى مدير قدير، ولكنه ترك أشغاله مع المطابع والناشرين مفلوتة الزمام ، ترك شركاءه فى التأليف ومساعديه دون أن يزودهم بتعليمات كافية ، أو لعلهم كانوا بسبب تخلف دوماس عن دفع أجورهم منشغلين بالبحث عن عمل آخر . نسى دوماس أعماله فى باريس فدبت فيها الفوضى وأخذ الناشرون يشدون شعرهم من شدة الغيظ . لو بقى فى باريس شريكه ماكيه الدءوب لقدر على موالاة نشر ست روايات مسلسلة على الاقل ولايقظ قصة جوزيف بلسامو من سباتها وأضاف اليها كثيرا من المغامرات التاريخية ولاستطاع ان يرضى الناشرين ويصحح المسودات ويحضر تجارب المسرحيات . ولكن لا يسعنا نحن الا أن نشعر بالغبطة لماكيه المسكين الذى ظفر من حيث لايحتسب بأجازة تريحه من اعماله المرهقة لفترة غير قصيرة من الزمن . أن دوماس يعطف عليه ولكنه يستغله أسوأ استغلال ويسوقه الى العمل بلا هوادة ، انه حقا يكرمه فيطعمه فطيرة بالجبن من صنع يديه ويسقيه النبيذ سخاء كأسا بعد اخرى ، ثم لايدفع أجرا لهذا المسكين الذى يضنى نفسه وموهبته فى تأليف كتب تصدر باسم رجل غيره . ولكن حسبه انه حضر الزفاف الملكى فى مدريد وتكشفت له مباهج أسبانيا وهو يقطع ربوعها فوق ظهور البغال ، ويطوف بالبحر الابيض المتوسط راكبا بارجة حربية

استعاد دوماس الابن بعد ثلاثين سنة ذكرى هذه الأيام السعيدة فكتب يصفها :

« كنت الاصفر سنا فى هذا الجمع من الرفقاء الذى لم يستهلك واحد منهم مرحلة الشباب ، عاملونى معاملتهم لابن مدلل ، فكنت أكثر الرفاق كسلا واستهتارا ، وخيل الى أن الشباب والقوة والبهجة متع هيهات لها ان تنفذ . كنت بالنهار أضحك ملء فمى وبالليل أنام ملء جفونى اللهم الا اذا وسوس لى شيطان الشعر »

ان فنادق المدن محتملة ولكن فنادق الريف فظيعة ، ودوماس الاب لا يتخلى عن القيام بدور طاهى الرحلة ، فاذا بلغ فندقا فى الريف استولى عليه كله ليتأتى له اعداد عشاء شهى ينتظره رفقاؤه بفارغ صبر بعد رحلة طويلة فى الهواء الطلق ، وكيف يشق اعداد العشاء على

رجل شديد الثقة بنفسه ، عامر الجيب بالدنانير الذهبية ، فى صحبة رفقاء أقوياء كلهم مدججون بالسلاح . فى الكتاب الذى وضعه عن الرحلة صور طريفة عديدة تبين المؤلف فى مطبخ وهو يشعل النار فى فحم موقد خامد ويهز مروحتين فوقه ، ويثبت آلة شى اللحم على الموقد ويوزع العمل على رفقائه ، فديبارول ــ لانه وسيم يتكلم الاسبانية بطلاقة ــ مكلف فى كل فندق بأن يؤانس صاحبته ، ولا بأس أيضا أن يطارحها الغرام اذا لزم الامر ، وجيرو يتكفل بتقشير البطاطس ، وماكيه يتولى نتف ريش بطة ، وبولانجيه منهمك فى كسر عدد ضخم من البيض فيملأ منه اناء كبيرا ويدفعه الى دوماس فيصنع منه عجته الشهيرة ، ويكون ديبارول قد أغرى صاحبة الفندق أن تنزل معه بمفاتيحها الى القبو فيعود لرفقائه بأجود ما لديها من نبيذ . أما دوماس فهو الذى يجهز العشاء ويعد السلاطة . انه لا يتذوق خل أسبانيا ويجد زيتها زنخا ، لذلك اخترع لخلط السلاطة سائلا هو مزيج من البيض المضروب وعصير الليمون . أما الكسندر الابن المدلل فكل الذى يعمله هو أن يذهب الى فراشه وينام بعد أن ينبه على رفقائه الا يوقظه أحد الا اذا وضع الطعام على المائدة

ويمضى وقت غير قليل فى عمل شاق الى أن يتم فى ساعة متأخرة من الليل اعداد عشاء يليق بجمع ذكى من ابناء فرنسا . كل واحد منهم ذواق خبير بالطعام الطيب . ويبدأ العشاء بعجة بديعة يتصاعد بخارها من طبق كبير . الصحون الفارغة أمام الجالسين قد تمت تدفئتها لئلا تفسد برودتها طعم الاكل الساخن ، والنبيذ أيضا قرب الى النار بالقدر الذى يضفى عليه أجود نكهة ، وفوق الموقد أوان أخرى تحتجز وعودا جميلة . ويوقظ دوماس ابنه ويجلس الجميع على المائدة ، من حولهم طهاة الفندق من الاسبان فغروا أفواههم من شدة الدهشة . الذى كان يمكن أن يخرج من أيديهم هو أن يعدوا لضيوفهم حساء رقيقا فاترا ، وطبقا من لحم أعجف مقلى فى الزيت لا طعم له . لا عجب ان كل من شهد دوماس حينئذ حسبه طاهيا محترفا جاء فى حاشية نبيل فرنسى من ضيوف الزفاف الملكى

وتكفل ألكسندر الابن بتسليه رفقائه بحديثه المرح . انه فى القمة من البهجة والحبور . بينه وبين ابيه طوال الرحلة مبارزة فى التنكيت ، فكان يصمد لابيه او يتغلب عليه . انه فى هذه السن التى تحبب لصاحبها أن يدبر المقالب لرفقائه ، وكان أشهى مقلب عنده أن يكون أبوه هو ضحيته . من أمثلة هذه المقالب ان دوماس الاب حين وجد

نفسه فى حدائق قصر الحمراء بغرناطة تحرك شوقه الى احدى عشيقاته فى باريس فقطف زهرة جميلة وبعث بها مع رسول خاص الى عشيقته رفق قصيدة كتبها لها من وحى الساعة وعفو الخاطر جعلها كلاما على لسان الزهرة ، ونصها كالاتى :

« سلاما يا شقيقتى ، قد قطفتنى فى حدائق غرناطة يد رجل طال غياب قبلاته عن فمك ، وان ظلت ذكراه باقية فى قلبك . ما بعثنى اليك الا ليقول على لسانى أنه لو حدث ذات يوم أن نودى على بيع غرناطة فى المزاد فانه لن يتوانى عن شرائها ليقدمها هدية لك » . .

وسر دوماس أشد السرور لتوفيقه فى نظم هذه القصيدة عفو الخاطر واشتاقت نفسه أن يسمع الثناء والاطراء على موهبته ، فجلس – قبل أن يبعث الرسالة – وقرأها على صحبه بنطقه الفصيح المعبر عن خلجات قلبه . لم يكد يفرغ من القاء قصيدته حتى جرى الكسندر الى زهرة أخرى وقطفها ، واستوقف الرسول ودفع اليه الزهرة ليسلمها الى المرأة ذاتها ، وأرفق بهذه الزهرة الجديدة قصيدة له تقول :

« انني من شموس غرناطة ، ومثواى فى احدى حدائقها ، انحنى على ابن المسيو دوماس ومد يده الصناع حتى قطفنى . انه بعثنى ليقول لك على لسانه انه اذا حدث أن نودى على بيع غرناطة فى المزاد فمن المحقق أنه لن يشتريها لك . . »

وفى قرطبة لم يجدوا فى الفندق الا حجرتين بينهما ردهة ضيقة ، فحشروا أنفسهم فيها . ان اغتم دوماس لانه لم يجد فى الفندق حماما وقد سره أن عثر على طاه فرنسى مجرب من مدينة ليون أتاح له أن يأخذ أجازة من عمله فى المطبخ . ووجد ابنه الكسندر فى الردهة صندوقا اذا فتح انبعث منه لحن رقصة البولكا فى ضجة مزعجة

فأخذ لا ينفك عن ادارة هذا الصندوق المرعب طول النهار ، بل اذا نام الجميع بالليل قام هو من فراشه ومشى على أطراف أصابعه وفتح الصندوق

بهذا المزاح الصبيانى بعث الكسندر البهجة فى قلوب رفقائه وخففه عنهم مشاق السفر ، ولكنه لم يسلم أحيانا من الوقوع فى المآزق : فقد حدث له وهو فى قرطبة أن لمح فتاة اسبانية جميلة من وراء سياج من الحديد يستر نافذة توحى أن وراءها عالما مليئا بالاسرار . وافتر ثغر الفتاة حين رأته عن ابتسامة كلها اغراء : واستطاع الكسندر أن يلقاها . كانت زيارة صحبه لمدينة قرطبة قد انتهت وأعدت العدة

للرحيل الى بلنسية ، فلما بلغوها تحرق قلب الكسندر للقاء صاحبته من جديد ، واقترض من أبيه ما يكفيه وعاد وحده الى قرطبـــة . وتابع رفقاؤه ســـــفرهم حتى بلغوا مدينة قادس حيث لبثوا يترقبون رجوع ألكسندر اليهم ، ووجدوا فى الميناء بارجة حربية تنتظرهم تحقيقا لوعد مسيو سالفاندى وزير التربيـــة والتعليم . وعرفوا أن اسمها هو « الشهاب الثاقب » . وظل دوماس يترقب عودة ابنه يوما بعد يوم الى أن يئس منه فدب فى قلبـه القلق ولم يدر ماذا يفعل لأن ألكسندر لم يترك له عنوانا له . واضطر دوماس الاب ان يستقل البارجة هو وصحبه بعد ان اودع مبلغا كبيرا من المال لدى مواطن له رضي ان يتأخر فى قادس الى أن يصلها الكسندر فيعنى به ويركبه سفينة تكون متجهة الى جبل طارق ..

وأقلعت البارجة من مدينة قادس . ليس لدوماس ورفقاؤه من حديث الا التعجب لهذه المغامرة الغامضة التى حرمتهم من صحبـة الكسندر . واعترف دوماس أنه وجد نساء اسبانيا يبالغن مبالغة فظيعة فى الاحتفاظ بعفافهن . وقال ديبارول أنه جاء لأسبانيا على أمل أن تصادفه مثل هذه المغامرة ولكنه عاد بخفى حنين . أن دوماس قلق منزعج لا يكف عن ذكر ابنه الذى تقع قمرته الشاغرة الى جوار قمرته . تتراءى لذهنه المعذب صور مفزعة للقتل والاغتيال ما الحال اذا كانت لهذه الفتاة الاسبانية عشاق آخرون . لا جرم أن لها عشاقا آخرين بدليل أن الكسندر لم يجد مشقة فى لقائها . انه عليم بأن الاسبان يدافعون عن الحب بأعنف الوسائل : لا يتورعون عن جذب الخناجر وطعن غرمائهم والقاء جثثهم فى آبار مهجورة . ولكن قلق دوماس لم يمنعه من الاقبال على العمل الذى ينتظره . فكتب آخر سطور مؤلفه عن اسبانيا ثم تناول ورقة بيضاء وخط عليها اسم مؤلفه الجديد عن افريقيا . لقد قرر ان يكتب هذا الكتاب بنفسه لان ماكيه كان فى الغالب مشغولا بتأليف رواية ستصدر باسم دوماس .

كتاب دوماس العنوان هكذا : « الشهاب الثاقب » وبدأ تأليف الكتاب الذى كلفه به وزير التربية والتعليم والذى ينبغى أن يكون فذا بين كتب الدعاية . ويبدأ الكتاب بذكر قلق مؤلفه وانزعاجه المفضوح بسبب وقوع ابنه فى شرك مغامرة عاطفية . وملأ الصفحات كالعهد به فى كل كتاب يؤلفه بنفسه بحكايات لا رابط بينها مما يحدث له منها أثناء الكتابة ويضيف اليها عديدا من نوادر أصدقائه

وأمثلة عن مقدار شهية ابنه للطعام ، فلا عجب أن لم يرد فى الكتاب عن الجزائر — المستعمرة الفرنسية الجديدة — الا قدر ضئيل من المعلومات الأكيدة النافعة

وعبرت بهم البارجة البحر فى جو بديع ثم ألقت مراسيها فى ميناء طنجة ، حيث أمضى دوماس وصحبه بضعة أيام فى التجول بالمدينة ومشاهدة معالمها ، ثم اقلتهم البارجة الى جبل طارق ، فوجدوا البلدة مغلفة بالضباب ، فقال دوماس فى كتابه : « لم يكن البحر الابيض المتوسط يعرف الضباب الى ان جاء اليه الانجليز .. واذا لم يكن لهم قدرة على الحياة الا وسط الضباب فقد أبوا الا أن ينشئوا الضباب لاجل جبل طارق. ولكن كيف تأتى لهم ذلك ؟ ما جدوى توجيه هذا السؤال الى قوم يخرج من ايديهم فعل أى شيء بشرط أن يكون بعيدا عن الحكمة والصواب » . ملأ دوماس كتابه بمثل هذه الدعابة وهذا المزاح ، ولا نعلم هل كان الضباب مخيما حقا على جبل طارق أو كان من ابتكار خيال دوماس ، وأخيرا وصل الكسندر ، كان قد أرهقته صحبة الانجليز فى جبل طارق فلم يكد يرى أباه حتى القى بنفسه فى حضنه هاتفا :

— لو تأخرت يوما واحدا لوجدتمونى مقتولا

— ومن هو قاتلك ؟

— الملل

— أتكون جبل طارق فظيعة الى هذا الحد

— انها لمرعبة

تحدث دوماس فى الكتاب عن انجلترا بلهجة غير ودية تعكس الشعور السائد بين الفرنسيين فى ذلك العهد نحوها . لم يكن أحد منهم يحب الانجليز لانهم غضبوا — سواء كان ذلك صحيحا أو أن ذلك كان اعتقاد الفرنسيين — من نجاح الملك لويس فيليب فى مسألة الزواج الملكى الاسبانى

وقال الكسندر لابيه أنه وصل الى مدينة قادس بعد أن أقلعت البارجة بوقت قليل : ورحب به مواطنه الذى أودع أبوه عنده المال وأركبه سفينة الى جبل طارق حيث اضطر الى البقاء يومين وناول أباه ما كتبه ليقرأه ، فاذا بها قصيدة من ٣٧ نشيدا يروى فيها كيف لاحق فتاة أسبانية جميلة وعزف لها الجيتار تحت نافذتها وأسمعها اجمل أغانى الحب وكيف تسلل فى النهاية الى حجرة نومها بالقفز الى شرفتها .. انها قصيدة تافهة سخيفة من هذا الصنف من القصائد

التى كان ألكسندر يوافى بها مجلة « البنات » . ولكن دوماس كان قد ذكر فى كتابه قصة اختفاء ابنه ووصف ما أحس به هو من فرح وغبطة حين عاد اليه ، فدفعه افتخاره بابنه الى أن يضمن كتابه هذه القصيدة بنصها وفصها . لعله ــ وهو مكلف من قبل غيره بتأليف الكتاب ــ رحب بكل استرسال سهل يعينه على ان يصل بالكتاب سريعا الى الحجم المتفق عليه ، او لعله لم يقو على مقاومة اغراء قلبه له بأن يحدث الناس بفخر عن براعة ابنه . وحين احتل ألكسندر مقعده فيما بعد عضوا فى الاكاديمية الفرنسية حمد ربه ولا ريب ان كتاب « الشهاب الثاقب » ليس من المؤلفات التى يكتب لها البقاء .

ها هى ذى افريقية الغامضة تتراءى لدوماس وصحبه فأخذوا يطوفون بسواحلها ببارجة حربية وأبهة رسمية : وزاروا مدنها الرئيسية . وتحدث دوماس فى كتابه بقدر كبير من الفصاحة وبقدر قليل من العلم فى رواية الوقائع التاريخية عن هومر وبلينى وقرطاجنة وشبه قرطاجنة بانجلترا ، أما فرنسا فى نظره فهى تشبه روما التى لا تقهر . ولما بلغوا مدينة وهران علموا أن جماعة من الاسرى الفرنسيين قد أطلق العرب سراحهم بعد تسلم الفدية وبعثوا بهم الى ميناء ميليلا انتظارا لسفينة تقلهم الى فرنسا ، فأصر دوماس على أن تتجه اليها البارجة الحربية فورا لاسعافهم ، فلما بلغوها علموا ان الاسرى قد رحلوا الى ميناء جامع الغزوات فتتبعتهم البارجة ، ولحق دوماس وصحبه حضور المأدبة التى اقامها لتكريم الاسرى الكولونيل مكماهون الذى ذاع اسمه أيام الامبراطوية الثانية وحرب السبعين . تأجج حماس دوماس كالعهد به دائما وانطلق لسانه بالحديث فقد حركت هذه الواقعة خياله حتى بدأ يظن أنه هو الذى أنقذ الجنود الفرنسيين من قبضة عدوهم . فلما بلغ باريس ارتفع الظن الى مرتبة اليقين وأكد لسامعيه أن خلاص الاسرى ثمرة بسالة البارجة الحربية التى كانت تحت أمرته . هكذا بلغ به حب العظمة والافتتان بالنفس .

لم ينقطع دوماس وماكيه خلال الرحلة الافريقية عن العمل بجد ومثابرة . كذلك عكف المصورون المرافقون لهم على تسجيل مناظر عديدة بالرسم . أما ألكسندر فلم يكن له من عمل الا طلب اللهو والمتعة . كان يرافق أباه أحيانا فى رحلات الصيد أو يذهب الى الحفلات الراقصة فى السفارات أو يتجول متسكعا فى الاسواق يبحث

عن تحف يشتريها بعد مساومات بأثمان بخسة .
ولكن الاسابيع المشمسة الساحرة انقضت سريعا وبلغت الرحلة نهايتها . ففى يوم ٣ يناير أقلعت بهم الباخرة من الجزائر الى فرنسا . واصطحب دوماس معه اثنين من أرباب الحرف من عرب تونس ليشتغلا فى زخرفة قصر دوماس . عادوا ومعهم متاع منوع عديد : سجاجيد من أزمير وطرابلس – ستائر حريرية – أوان خزفية – سلاسل – فصوص من الجواهر – عطور ، بل وعلب من اللبن التركى أيضا – وصدارى مزخرفة – قمصان نسائية ، ومراوح وخناجر من أسبانيا . وعاد دوماس الاب أيضا بوسامين جديدين ، أولهما وسام الوشاح الاكبر لشارل الثالث ، والثانى وسام أنعم به عليه سلطان مراكش سيدى محمد
فلما وصل الى طولون سارع بالسفر الى باريس ليلم خيوط حياته المبعثرة . أما ألكسندر فقد نازعته نفسه الى التسكع قليلا على شاطىء البحر ، فمن الامتع أن يقضى شهر يناير تحت شمس مرسيليا المشرقة عن ان يقضيه فى باريس تحت سماء باردة داكنة . وقد وجد لابيه فى كل مكان أصدقاء كثيرين يفتحون له أبوابهم ، فاختار منهم الشاعر جوزيف أوتران لينزل فى ضيافته . وطابت له الحياة ، فان الشاعرين – ذلك أن ألكسندر كان يعد نفسه فى ذلك الوقت شاعرا – لم يدن لهما من عمل الا الاستمتاع ، وهما راقدان بأشعة الشمس ، أو التنزه على الشاطىء ، أو صيد السمك . وتعاهد الاثنان على الا يجرى بينهما حديث الا نظما . وكان ألكسندر قد تذكر وهو فى مدينة قادس ماخلفه من عمل فى باريس فكتب الى ناشره يسأله أن يبعث بالمسودات اليه فى الجزائر ، فكان قد تسلمها فعلا ، ولكنه لم يلق اليها نظرة ، وكذلك لم يعن بانجاز الجزءين الاخيرين من كتابه .
ووصلته انباء من باريس تفيد أن أباه بعد أن أمضى رحلته فى بهجة وسرور وجد حين عودته دعاوى كثيرة أقامتها ضده جماعة من الناشرين واصحاب الصحف الذين كانوا قد تملكهم الغضب وأصروا على الثأر منه . وقد هم ألكسندر بالسفر الى باريس مدفوعا بولائه لأبيه للوقوف بجانبه فى محنته ، ولكنه كان يرهب العودة ، فاجل الرحلة ، فهو يصور لنفسه ماسيلقاه من غم وضيق بسبب ارتباك أحوال أبيه ، فآثر التلكع انتظارا لانباء جديدة .

الفصل السادس عشر

موت محظية

كانت ماري دوبليسيس تتجرع غصص الموت • بدأت صحتها منذ الخريف تتدهور بخطا بطيئة أكيدة الى أن اقتربت النهاية ، غاضت من جسدها كل قوة تعينها على الخروج فى عربتها الزرقاء للتنزه فى شوارع قلب باريس التى طالما أحبتها ، واخذت تقضى أيامها وهى مضطجعة فى مخدعها لايعنى بها أحد سوى كلوتيلد خادمتها الوفية . أقل كلام يرهقها ، فجعلت تسليتها أن تقلب صفحات قصتى « مانون ليسكو وهلواز الجديدة » وهما القصتان المفضلتان لديها ، ثم تقرأ أيضا مؤلفات لامارتين وهوجو والفريد دى موسيه وبرناردان دى سان بيير وشاتوبريان • ان شحوبها واعياءها واناقتها تكاد تنطق بأن الذى يفترسها هو الملل بعينه .. انها مثل مجسم لعهد الملك فيليب الذى كان يقال فيه « فرنسا تعانى الملل »

حشدت كل قواها المتهاوية وذهبت مرة الى الاوبرا فكانت هى زيارتها الاخيرة . شهدها الناس ذات ليلة فى مقصورتها المفضلة فرأوا شبحا متشحا بحرير أبيض ودانتيلا مزدانا بالحلى ، حاملة باقة من زهور الكاميليا ، وكتب صحفى فى صحيفة « القرن » بعد وفاتها يقول : « وخيل للناس أنها قامت من قبرها لتلوم خلانها فى الطيش والنزق على هجرتهم ونسيانهم لها » . كما شهدها الناس بعد أسبوع أو أسبوعين فى ختام تلك السنة فى مسرح الباليه رويال حيث كانت تقدم مسرحية غنائية ناجحة اسمها « بارود القطن » كأنها شبح أبيض صامت وحيد يلفه الغموض يغشى المسارح . هذه هى مارى دوبليسيس تودع أعز شىء لديها من قبل أن تلفظ آخر أنفاسها .

وكان ادوار دى بيريجو قد بلغته أخبار تفاقم علتها وفقدان الامل فى شفائها فسارع بالعودة الى باريس ، ولكن مارى رفضت أن تراه . وشهدت كلوتيلد سيدتها تصارع الموت طوال شهر يناير فأشفقت عليها من الوحدة وتطوعت بالاذن له بالدخول اليها فلزم فراشها فى أيامها الاخيرة . وكان الكونت دى ستاكلبرج يوالى زيارتها ، فراع هذا الشيخ الهرم أن يرى أن الفتاة الصبية التى أغدق عليها من ماله

من أجل أن تؤنس أيامه الاخيرة فى هذه الدنيا هى التى تسبقه الى القبر . وقد حدث قبل وفاتها بيومين أن وقع نظرها على الفيكونت دى بيريجو فعرفته ومدت له يدها وقالت : « أجئت لزيارتى ؟ وداعا! اننى راحلة عنكم فى سفر طويل لا عودة منه » فاشتد حزنه وغمه وأخذ يتلمس كالمجنون وسيلة تعين على انقاذها فحمل سترة لها الى اليكسيس المنوم المغناطيسى الشهير الذى سبق له أن أدهش الناس بمقدرته الخارقة على شفاء المرضى . لمس اليكسيس السترة بأصبعه وقال له : « اسرع اليها . لم يبق لها فى الحياة الا ساعات قليلة »

وبدا عليها فى أيامها الاخيرة رعب شديد من الموت نجد وصفه فى مقال كتبه عنها نيوفيل جوتيه فى صحيفة « الصحافة » سنة ١٨٥٢ بعد نجاح مسرحية « غادة الكاميليا » . قال : « كانت تحس فى الايام الثلاثة الاخيرة من عمرها أنها تنزلق الى الهوة التى تنتظرنا جميعا ، فأخذت تشد بيدها على يد خادمتها كأنما لاتريد أن تتراخى قبضتها أبدا ، ولكن هيهات ! لقد تراخت قبضتها حين هل عليها ملك الموت ، تأجج فى جسدها آخر عزم لشبابها وهبت واقفة على قدميها كأنما تريد مدافعة الموت أو الفرار منه ، وانطلقت منها صرخات ثلاث ثم هوت جثة هامدة » . وكانت قد أوصت كلوتيلد أن تؤخر ما أمكنها اذاعة نبأ موتها ، لعلها كانت ترتعب من تصور موكب جنازتها . وكانت وفاتها فى اليوم الثالث من فبراير . وقيل أن جثمانها وضع فى نعش مفروش بالدانتيلا وزهور الكاميليا ، ولف رأسها بمنديل مطرز بشغل الابرة ، ذراعاها معقودتان فوق صدرها ، وبين يديها صليب وباقة من الكاميليا . ولم تنفذ كلوتيلد وصيتها فأقيمت جنازتها بعد يومين فى كنيسة المادلين ، ثم حملت الى مقبرة مونمارتر ، وسار خلف النعش حفنة من المشيعين : الكونت دى ستاكلبرج الهرم المضعضع يستند الى ذراع خادم ، والفيكونت دى بيريجو ورومان فيين وهو صديق لها من أبناء قريتها ، ورجل اسمه تونى وهو تاجر كان يبيعها خيولها الانجليزية ، ومعهم أيضا ولا ريب كلوتيلد خادمتها المخلصة. وذكر من وصـــفوا الجنازة أن الكونت أجوادو ومونجوايو وادوار ديليسير كانوا أيضا من بين المشيعين . ودفنت مارى فى قبر مؤقت ثم تولى الفيكونت دى بيريجو الذى رتب الجنازة شراء ارض لقبر خاص لها بوثيقـــة مؤرخة يوم ١٢ فبراير ، وهو القبر الذى يضم رفاتها الى اليوم

سمع دوماس الابن نبأ وفاتها يوم ١٠ فبراير وهو يهم بمغادرة

مرسيليا الى باريس . وعاد الى بيته بعد أربعة أيام . وفى يوم الثلاثاء ١٦ فبراير تم اخراج نعشها من قبرها المؤقت وأنزل الى قبرها الدائم وفوقه نصب تشاهده العيون الى اليوم . وكان يوما مقبضا تلبدت سماؤه بالسحب السود ولم ينقطع فيه هطول المطر . وكان القانون يقضى بألا يتم نقل النعش الا بحضور الفيكونت دى بيريجو للتعرف على جثمانها ، فذهب الى المقبرة مصطحبا صديقا له ، ووقف مع بعض الموظفين وفتح النعش فى حضورهم . ترى أكان هذا الصديق هو ألكسندر دوماس الصغير ؟ أغلب الاحتمال أن يكونه والا فان هذا الشاهد كان رجلا يعرف ألكسندر معرفة وثيقة وروى له ماحدث بكل تفصيلاته ، فاننا نجد فى رواية « غادة الكاميليا » وصفا أمينا دقيقا لهذا المنظر الذى ينقبض له القلب . انحنى الرجلان على الجدث لحظة ثم نكصا وهما يتخبطان فى هلع وجزع تحت طوفان مطر غزير .

وفى اليوم الثالث عشر من شهر فبراير ذاته عزف ليست فى حفلة موسيقية فى مدينة كييف . وجلست بين الحاضرين مأخوذة بسحره اميرة عمرها ثمانية وعشرون ربيعا ، هى فرع دوحة عريقة وسليلة أسرة فاحشة الثراء ، اسمها الاميرة كارولين دى ساين ويتجنستين ، وكانت تمسك ببرنامج الحفلة . ظلت الى آخر يوم فى حياتها محتفظة به احتفاظها بأيقونة مقدسة . وأرسلت فى صباح الغد الى ليست خادما لها يحمل اليه مائة روبل تبرعت بها للعمل الخيرى الذى ينوى أن يقيم من أجله حفلة موسيقية أخرى ، فذهب اليها ليست ليشكرها فوجدها ذات سحر وفتنة كأنها خلقها الله ليجد هو فيها المرأة القادرة على أن تفهمه حق الفهم . انها تشبهه فى نزعته الدينية وهى ذات دراسة مثقفة متقدة العواطف متفتحة القلب ، وكانت فى الوقت ذاته امرأة فعالة ذات عزم وارادة ، لها طبع تغلب عليه الرجولة على نقيض طبعه هو الى الانوثة وسرعة التأثر ، أمدتها الثروة بالسلطان وأمدها كرم المحتد بالحرية ، هى التى أدارت منذ أن بلغت العشرين من عمرها أملاكها الشاسعة فى بولونيا التى تضم ثلاثين ألف عبد يعملون فى خدمتها ، انها تفوق الرجال فى ركوب الخيل وتدخين السيجار ، تعلمت والفت اصدار الاوامر وتقبل كلمتها بخضوع . وقد رأت هى فى ليست فنانا نابغا تستطيع بفرض سلطانها عليه أن تسمو به وتصونه من الزلل والانحطاط . أما ليست فقد رأى فيها امرأة لاتتطلب منه الا أجود معادنه فآمن أنه من الشرف العظيم له أن يهب نفسه لخدمتها وارضائها . ومضت بقية أيام الشهر وهو

يجتاز مراحل الوقوع فى الحب ويجد مزيجا من احساسات عجيبة حين يكون الحب هو تملك عقل وجسد ، فكان عقلها الجبار لجة عميقة غرق فيها جسدها وغابت فتنته عن نظره . انه لم يصادف قط فى حياته امرأة مثلها .

وكان ألكسندر دوماس الصغير لايزال يترنح من أثر الضربة التى هوى بها عليه موت مارى دوبليسيس ، ولكن مشاغل أخرى استبدت بذهنه . فهناك مسرح أبيه الجديد المسمى « المسرح التاريخى » الذى يوشك أن يفتح أبوابه ويثير اهتمام أهل باريس كلهم ، وهناك أيضا القضية المرفوعة على أبيه . ان مراحلها الاولى تسير سيرا حسنا ، ولكن الله أعلم بنتيجتها . ان الكسندر مغموم لما يلقاه من متاعب ، ولكنه مع ذلك يشارك لا أهل باريس وحدهم بل أهل العالم قاطبة (لان صحف كل الشعوب قد روت أنباء هذه « القضية ») فى متعتهم وانبهارهم لمسلك ابنهم الكاتب المدلل وللحماقات التى يرتكبها .

فى مقدمة الخصوم الذين أقاموا عليه الدعوى أصحاب صحف لا يقل عددها عن سبعة ، فان دوماس حين سافر الى مدريد كان مرتبطا بعقود تلزمه أن يكتب كل يوم فى صحيفة «القرن» و «التجارة» و « الوطن » و « الشمس » و « ذوق الجماهير » والظاهر أنه نسى هذه الالتزامات كلها وترك أبطال قصصه وسط مواقف تبشر بمغامرات مذهلة تثير تلهف الجماهير على قراءة مايليها من حلقات جديدة ، ولكن أسوأ ما فى الامر أنه لم يكن يملك حق التوقيع على هذه العقود ، فقد تبين أنه سلف له سنة ١٨٤٥ أن تعهد بمقتضى عقد للدكتور فيرون واميل دى جيراردان ألا يكتب شيئا مدة خمس سنوات الا فى صحيفتيهما « الدستورى » و « الصحافة » ، فالدعوى مرفوعة عليه من خمسة من أصحاب الصحف لانه لم يقم بالوفاء بعقوده معها ، ومن الاثنين الآخرين لانه التزم بهذه العقود اضرارا بهما ، وطالبه الجميع بدفع تعويض كبير للخسارة التى لحقتهم من جراء الاخلال بالتزاماته . ووصف اميل دى جيراردان المتاعب التى عانتها صحيفته فى نشرها لرواية « جوزيف بلسامو » فذكر ان الحلقات تتابعت فأثارت اهتمام القراء فاذا بدوماس يعمد وسط القصة الى انهاء الفصل بقوله « ازاء هذا لم يبق للشاب الا أن يغمض عينيه ويهوى الى الارض » ثم اختفى بكل بساطة لمدة أربعة شهور . أفمن حق دوماس أن يسافر ويترك هذه الرواية دون أن يتمها ؟ وماذا

كان يفعل طول هذه المدة ؟

ماذا كان يفعل ؟ أجاب دوماس على هذا السؤال بخيلائه المعهودة ! انه فى رفقة صديق ليكون شاهدا على عقد زواجه ، انه كان يتسلم الوشاح الاكبر من وسام شارل الثالث ، لا تكريما لمكانته الادبية بل تبجيلا لذاته من أجل ذاته ، بفضل اسمه وألقابه وصداقته للدوق دى مونبنسيه . أتريدون أن تعرفوا ماذا كان يفعل أيضا ؟ انه كان يعمل لصالح وطنه ويجمع معلومات قيمة ستظهر قريبا فى كتاب باسم « الشهاب الثاقب » سيستنير به عامة القراء ، انه كان يخلص أبناء وطنه من الاسر. وقال دوماس « اننى أنقذت اثنى عشر فرنسيا من الاعدام » والعجيب أن الكتاب حين صدر فيما بعد لم يتضمن الا وصفا صادقا أمينا لحكاية الاسرى فلم يزعم المؤلف لنفسه فضل انقاذهم . ولكن دوماس أضاف فى الرد على خصومه قوله : « لقد كنت أنا الذى قمت بواجب العناية بالاسرى فى الاراضى الافريقية ، وكنت أنا الذى أتولى قيادة البارجة الحربية التى أقلتهم ، وكنت أنا الذى أمنتهم على بلوغ ميناء « جامع الغزوات » حيث اشترك ثلاثة آلاف شخص فى اقامة مأدبة لتكريمى ، لاشك أن خدمة الوطن مقدمة على فقهنة قانونية فى تفسير التزامات هى فى نهاية الامر لم تكن غائبة عن بالى »

تابع الجمهور هذه القضية باهتمام بالغ . وجاء فى أثر من رفعوها طائفة أخرى من الناشرين وتجار الكتب يطالبون دوماس بتعويض عن خسائرهم المترتبة على اخلاله بالتزاماته . واحتفظ دوماس خلال نظر القضية بمرحه وخلو باله من همها واتخذ لنفسه موقف رجل هيهات للصحافة كلها أن تستغنى عنه مهما فعل . لقد تنافست سبع مدن بعد وفاة هومير فى نوال شرف انتسابه اليها ، أما دوماس الكبير فتتنافس سبع صحف فى الفوز بمؤلفاته وهو لا يزال حيا . ان هومير كان يستجدى خبزه أما دوماس فيتناول عشاءه فى أرقى المطاعم مثل قهوة باريس ، انه يسافر فى بوارج حربية توضع تحت أمره ، ويحضر زفافا ملكيا ، ويمتطى صهوة الجياد العربية ، ويخرج للصيد فى الاراضى الافريقية . انه رجل عظيم ! فأدهشه أن يرى هذه القضية ترفع عليه وبخاصة بعد أن اعتاد أن يحاط بهذا التبجيل الذى يلقاه أدباء فرنسا حين يسافرون خارج بلادهم . دافع عن نفسه بحرارة ولكن فى مرح وبدون غضب ، وتحدث ببلاغة عن العبقرية والشرف ، وصداقة الامراء ، وأكد لخصومه أنهم لو صبروا

عليه فانه سيفي بجميع التزاماته فى الماضى والحاضر والمستقبل .
وتشابكت مطالب رافعى الدعوى وشب النزاع بينهم ، كما تجدد الخصام المتوارث بين خصومه من الناشرين وتجار الكتب ، وبين الناشرين وأصحاب الصحف ، وبين هؤلاء جميعا وبين دوماس ، فكانت قضية فذة معقدة . اين رأسها من ذيلها ؟ سؤال عسير لايعرف الاجابة عنه الا عدد قليل من الخبراء . وتعمد دوماس أن يثير المحكمة بمهارة من مشاكل القضية وعقدها ، فأخذ يدلى ببيانات كاذبة وغير منطقية يصوغها فى عبارات توحى بالصدق ولا تقبل الجدل ، فما وسع الجمهور الذى كان يحضر القضية ويرقبها باهتمام الا أن يصدقه . رأوه صاحب دعابة بديعة وحركات مسرحية خلابة ، نجح دوماس من أول القضية لآخرها أن يسيطر على المحكمة ومن فيها ، وعرف كيف يقدم للجمهور ، بهزله ونكاته ، متعة لذيذة ، فاكتسب ود الجمهور وعطفه ، وآمن هذا الجمهور أن كاتبه العظيم جدير بكل رعاية والاقرار له بأنه مميز عن غيره . لاينكر أحد أن ذمته من المطاط وأنه يستغل غيره أسوأ استغلال ، ولكن لا أحد غيره يمتع القراء مايمتعهم به هو فى قصصه كالفرسان الثلاثة والكونت دى مونت كريستو . وقد طاب للجمهور أن يشهد تحديا جريئا لطائفة من الناس ديدنها العسف بالفنانين واذلالهم . وقد رأى القضاة ولا ريب أن المدعى عليه الذى أمتعهم بفكاهاته ينبغى أن يلقى منهم معاملة رحيمة ، فلم يحكموا عليه الا بأن يدفع مبلغ ١٢٠ جنيها لكل واحد من أصحاب الصحف السبع وأن يتابع نشر قصة جوزيف بلسامو بأقصى سرعة يطيقها .
وهكذا لم يفز خصومه الحانقون بتعويض الخسارة التى لحقت بهم . صدر عليه هذا الحكم الرحيم فى يوم ١٩ فبراير فاستخفه الطرب وخرج من المحكمة ذراعه فى ذراع ابنه وذهبا سويا لحضور آخر تجارب مسرحيته المسماة « الملكة مارجو » التى كان سيبدأ بها مسرحه الخاص أول مواسمه . وتوالت الاحداث عليه ، فمن غد سيفتح المسرح أبوابه للجمهور لاول مرة ، وكان من احدى نعم القضية عليه أن أهل باريس كلهم تلهفوا على حضور ليلة الافتتاح ، فلما وصل دوماس وابنه الى المسرح بعد خروجهما من المحكمة وجدا أمام شباك التذاكر صفا طويلا من الناس .
وأتاحت لهم فرصة انتظارهم أمام شباك التذاكر ــ تمتد ٢٤ ساعة ــ ان يتفحصوا على مهل هذا المبنى الجميل الذى يخصص

لتمثيل مسرحيات دوماس : مدخل متسع على جانبيه عمودان على هيئة تمثالين يصور أحدهما الكوميديا والآخر الدراما ، ويساعد هذين العمودين أربعة أعمدة أيونية الطراز فى حمل عقد فسيح مزين برسم مخلوق مجنح يمثل عبقرية الفن الحديث ، وعلى جانبى العقد مجموعتان من التماثيل المرمرية تصور الاولى هاملت وأوفيليا وتمثل الاخرى السيد وشيمين بطلى مسرحية كورنيل . ومن بعد المدخل بهو سقفه المستدير محلى برسوم زخرفية يراها الواقف خارج المسرح ، وتمثل هذه الرسوم التراجيديا والشعر والكوميديا على هيئة مجنحة تحوم حول مذبح كنائسى ، عن يمينه ويساره جماعات من عباقرة الادب والمسرح مثل سوفوكليس وأسخيلوس وأيوريبيدس وشكسبير وكورنيل وراسين وموليير وسرفانتيس ولوبه دى فيجا وغيرهم . وقد أبى على دوماس تواضعه أن يحشر نفسه بينهم ، قانعا ولا ريب بأن أعماله ستنم عليه فوق خشبة هذا المسرح ذاته

وفى الساعة العاشرة أقبل بائع نهاز للفرص ومعه أكواب من الحساء الساخن ليبيعها للمنتظرين ، ودار عليهم بائع جوال آخر بضاعته أوراق بها قصائد تشيد بافتتاح المسرح . ولما خرج دوماس من المسرح فى منتصف الليل وجد مئات من الفوانيس قد أضيئت فى أيدى المنتظرين ، ووجدهم قد تمونوا بالخبز ، واشتروا حشايا من القش ليرقدوا عليها ليلتهم ، ولما اقترب الصباح أقبل بائعون آخرون — يقتنصون الفرصة — يبيعون أقداحا من القهوة وفطائر ساخنة للراقدين على الحشايا وهم يستيقظون على مهل وبتثاقل ، فكان الاقبال عليها عظيما ، ثم خرج السقاءون لاعمالهم فلما مروا بالمسرح تكاثر النداء عليهم حتى يتسنى للمتأنقين من المنتظرين أن يغسلوا وجوههم ولو فى الطريق . ومن الصباح الى الظهر لم تنقطع الضحكات والاغانى أمام « المسرح التاريخى » فلما حان موعد الغداء عبق الجو برائحة الكباب المتبل بالثوم ، فقد هرع الى المكان باعة الشواء الجوالون بمواقدهم ليزودوا الجمهور بوجبة تخفف من حدة الجوع . وأخيرا اقترب المساء ففتح المسرح أبوابه ومر صف طويل من النظارة بالمدخل يقدمون تذاكرهم ثم يدلفون الى المسرح ذاته وهو محلى بألوان قرمزية وذهبية تثير الاعجاب .

وصلت الفرقة الموسيقية ، وبعد ذلك بدأ نجوم الادب والفن يتخذون مقاعدهم ، من بينهم أوبير وهاليفى والرسام انجر وزميله ويلاكروا وهوراس وفيرنيه وراشيل وجول جانان وتيوفيل جوتيه

وعدد غفير من أقرانهم ، يدخلون فيتأملون فيما حولهم باهتمام كبير لأن المسرح فذ فى زخرفته المفرطة وفى صف مقاعده التى يبلغ عددها الالفين على خمسة مستويات متدرجة تواجه المسرح . أما خشبة المسرح ذاتها فعريضة جدا ، انها مهيأة لاستقبال مسرحيات دوماس الزاخرة بالاحداث ، المتلاحقة المناظر ، المتطلبة لعدد ضخم من الممثلين والممثلات . أما حلية السقف فتمثل أبولو اله الفنون يستقل عربته ويشق بها أرجاء السماء ، وستار المسرح من المخمل الاحمر الثقيل مزين بشراريب ذهبية اللون ، فلما ارتفع هذا الستار بدا من خلفه ستار خفيف آخر عليه رسم بديع يصـور مدخل ايوان فى نهايته تمثال من المرمر الابيض يفصله عن العيون براح بحر خضم من ورائه ، وكان القصد من هـذا الرسم أن يهيىء الاذهان للتطلع الى عوالم مجهولة ويعدها للاندماج فى الجو الخيالى الذى سيتكشف لهم على المسرح . والخلاصة أن هذا المسرح استوفى بصورة بديعة كل مقوماته ، فهو ثمرة عهد كان الناس فيه يذهبون الى المسرح ليلة بعد ليلة . وقد هدم هذا المسرح بعد ذلك سنة ١٨٦٣ حينما شرع الوزير هوسمان فى شق شوارع جديدة فى قلب العاصمة .

ولما اقتربت الساعة السابعة اقبل راعى هذا المسرح الدوق دى مونبنسيه ابن الملك ، فمضى أولا الى حجرة انتظار لطيفة تؤدى الى المقصورة الملكية . وفى تمام الساعة السابعة ارتفع الستار عن الفصل الاول من مسرحية « الملكة مارجو » التى كتبها دوماس بالاشتراك مع ماكيه ، ولم ينزل الستار على المشهد الاخير الا فى الساعة الثالثة صباحا . وكانت المسرحيات أطول مما هى عليه الآن ، ولكن الثمانى ساعات التى استغرقها عرض المسرحية كانت طويلة حتى بمقاييس ذلك العهد ، لذلك اختصر بعض مشاهدها فيما بعد .

وكان دوماس فى أوقات فراغه من التأليف ينشغل باعداد الزخارف الداخلية لبيته الجديد المسمى قصر مونت كريستو . انه كان يعيش وحده فى مملكته ، لا فى القصر ذاته ، حيث لم يتم بناؤه بعد ، بل فى كشك صغير أقامه مؤقتا ليسكن فيه ويرقب منه سير العمل فى بناء قصره . وجيء ببوابة ضخمة من الحديد المطروق اقيمت فى مدخل مملكته محلاة بالحرفين الاولين من أسمه ولقبه « الالف والدال » آن غرضه من اقامة هذه البوابة ليس هو صد الغرباء بل الاعلان عن فخفخة القصر . وكان مما يساير طبع دوماس آن الشيء الوحيـد الذى اغفله هو اقامة سياج حول قصره ، فان قصر الكونت دى مونت

كريستو سيظل يرحب بالناس جميعا مادام ملك يمينه . وتم بناء ملحقات القصر الصغيرة منها سلاملك لمكتبه ، ومنها حظيرة للكلاب والقرود والنسانيس والطيور وحيوانات أخرى من كل شكل ولون ، هى التى تضفى البهجة على مملكته الجديدة .

ان دوماس من العشاق المخلصين للحيوانات الاليفة ، ونحن نعرف منها عددا كبيرا ارتبط بشخصه . فهذه هى الهرة ميسوف التى كان يخيل لمن يراها وقت أن كان دوماس كاتبا فى مكتبة القصر الملكى أنها لا تعيش الا من أجله . وهذا هو ميلورد الكلب الانجليزى الذى جاب أرجاء أوربا كلها فى رفقته أيام شبابه ، وهذا هو الكلب موتون الغدار الذى بقى اسمه خالدا بفضل قصيدة كتبتها السيدة التى عقرها ذات يوم . أما فى العهد الذى نتحدث عنه فلدوماس هرة اليفة جديدة اسمها ميسوف الثانية وثلاثة كلاب هى بريتشسار وفانور ودوين ، ولم تمض شهور كثيرة حتى اقتنى دوماس كلابا عديدة . ويقال أن الكلاب تتطبع بطبع أسيادها ، فهـذا هو الكلب بريتشار من عادته أن يستضيف الكلاب الضالة لمشاركته فى طعامه . وكان دوماس يقول أن هذه الكلاب الضالة لاتكاد تدخل بيته حتى تستطيب العيش فيه وتلزمه ، شأنها فى ذلك شأن ضيوفه من الرجال والنساء . ومن بين الطيور نسر اسمه ديوجين جاء به دوماس من شمال أفريقية وأعد له برميلا ليسكن فيه . أما جماعة القرود والنسانيس فقد أطلق دوماس على كل واحد منها اسما يناسبه وأسكنها حظيرة أسماها : « الاكاديمية الفرنسية » .

وقد سبق القول أن الكسندر دوماس الصغير نزل فى مرسيليا عند عودته من أفريقية ضيفا على صديقه الشاعر جوزيف أوتران . وقد ترك هذا الشاعر صورة قلمية اسمها « البيت المتهدم » ضمنها وصفا لحياة دوماس وابنه فى ذلك العهد . ذلك أنه لحق بضيفه فى باريس وأقام فى بيته الواقع فى شارع نيف دى لوكسمبرج فوجد رب البيت مضيفا سمحا لايهتم بالمراسم والشكليات . وتدلنا شهادة أوتران على أن الكسندر الصغير لم يعكف على الحزن بسبب وفاة مارى دوبليسيس بل كان مرحا حريصا على ألا تمضى على ضيفه ساعة غير ملأى بالتسلية والسرور ويقول أوتران : « هيهات لمن لم يعرف الكسندر وهو فى سن العشرين أن يدرك ما للشباب من روعة وبهاء . لم أحاول أن أكتشف عدد مغامراته الغرامية ولكنى واثق أن المولى سبحانه قد غفر لضحاياه ، لان سحره كان لا يقاوم » وتحدث أوتران

أيضا عن طلاوة حديث الكسندر وهي صفة ورثها عن أبيه ، وتحدث كذلك عن مواهبه المختلفة العديدة ، من بينها موهبة اتقان الرسم الكاريكاتوري ، انه رسم ذات يوم صورة لاحد أصدقائه في حجم لا يقصر عن تغطية قمة المدفأة العريضة في حجرة جلوسه ، وحدث أن لامارتين الشاعر المعروف بجده ووقاره دخل البيت صدفة في غيبة صاحبه ، فلما رأى الصورة قهقه ضاحكا وترك بطاقته ومعها قصيدة تسجل زيارته وتصف اعجابه بالرسم .

وأقام أوتران بعض الوقت أيضا في ضيافة دوماس الاب ، فلما طلع عليه اول صباح جاءه الخادم الزنجي « أو دي بانجوان » برسالة شفهية من سيده يسأله بها أى صنف من الطعام يشتهيه لغدائه ، أجابه

ــ يالها من حكاية ! اذهب وقل لمسيو دوماس أن لا فارق عندي في الطعام بين صنف وصنف

ولكن الخادم لم يلبث أن عاد اليه برسالة جديدة : « يقول لك مسيو دوماس أنه سيطبخ الطعام بنفسه ولذلك فانه يصر ياسيدى أن تختار أنت ما تريده منه حتى لا تتهمه بأنه لا يجيد الا طهو الاصناف التي يعدها لك تطوعا »

فاقترح أوتران اول ثلاثة أصناف خطرت بباله ، ثم تبع الخادم الزنجي الى المطبخ فوجد دوماس منكوش الشعر مرتديا سروالا من المخمل الاسود الثقيل وقميصا أبيض يقف أمام منضدة كبيرة من خشب البلوط عليها عدد كبير من أواني المطبخ ، فأخذ وهو يكسر البيض ويحشو دجاجة يتحدث اليه بطلاقة عن أبو ريبيدس. ويقول أوتران : « مما يؤسف له ألا يحضرنا حينئذ أحد من أئمة فن الرسم ومعه لوحة وألوان وفرشة ، اذ كان المنظر جديرا بأن يسجله رسام في مرتبة رمبرانت »

واستمتع الضيف باقامته في دار دوماس ، ولكنه ذكر أنه وجد مضيفه الانيس الحفي به لايتمتع بصحة طيبة رغم مرحه ، اذ كان يوقظه في الساعات المبكرة من كل صباح ألم في أمعائه ناتج من سوء الهضم . وربما تأثرت صحته بالعناء الذى لقيه في الدفاع عن نفسه أمام المحكمة ، وفي حضور تجارب مسرحياته ، رغم الفه بأن يطرح بسهولة عن كاهله كل هم يثقله ، أو ربما تأثرت صحته بالتخمة بسبب هذا الطعام الشهي الذى يجيد طبخه فيغريه بالاستزادة منه . ومهما يكن السبب فان دوماس رفض أن يبقى معطلا في

الساعات التى أقتطعها المرض من نومه • وكان أوتران يستيقظ قبل الفجر كل يوم على صوت حركة دوماس فى الحجرة المجاورة وهو ينهض من فراشه ويوقد مصباحه ، ذلك لان جدران المبنى المؤقت الذى يقيمان فيه كانت رقيقة جدا . وحين يتحدث أوتران فيما بعد عن الليالى التى قضاها بجوار دوماس سنة ١٩٤٧ يقول انه كان يستيقظ والليل ساكن والصمت مخيم على الكون فاذا به يسمع من الحجرة المجاورة ساعة بعد ساعة صوتا منتظما لاينقطع ، وقد حيره مصدر هذا الصوت فى مبدأ الامر ثم اكتشف أنه صوت ريشة دوماس ويده تجرى بها فوق الورق المصقول سطرا بعد سطر وصفحة تلو صفحة يتابع كتابة قصة جوزيف بلسامو أوبعد الحلقات الباقية عليه من روايات مسلسلة أخرى . وكان الجو باردا ومع ذلك فهاهو ذا دوماس ينزل فى أغلب الايام الى الحديقة ويتمشى بها جيئة وذهابا وسط الثلوج ، ذهنه سارح ، رأسه عار وجسمه لا يحميه معطف ، وندف الثلج عالقة بخصلات شعره الاسود الكث . فاذا بلغ تفكيره غايته عاد الى مكتبه وبدأت ندف الثلج تذوب خلال شعره واستغرق فى العمل من جديد . ويتحدث أوتران أيضا عن الشهرة التى كان يتمتع بها دوماس فى ذلك العهد . انه صحبه لحضور جنازة الممثلة المدموازيل مارس ، ولما دخلا كنيسة المادلين انضم الاثنان الى فيكتور هوجو الذى كان يحضر الجنازة أيضا . وسار ثلاثتهم جنبا الى جنب فى موكب الجنازة حتى مقبرة الاب لاشيز . وقد لاحظ أوتران أن الناس جميعا كانوا يشيرون الى دوماس دون أن يلحظ واحد منهم فيكتور هوجو . اصطف على جانبى الطريق ألوف من الناس جاءوا لاشباع فضولهم كما يحدث عادة فى جنائز المشاهير ، فلم تنقطع همهمتهم طوال سير الجنازة : هذا هو دوماس ، هذا هو دوماس ! ولعل هوجو قد أمله سير الجنازة ببطء فانسحب فى غفلة من المشيعين فى شارع الايطاليين وشق صفوف الجماهير المصطفة حتى بلغ لافيت فارتاح لخلوه من الناس .

ومضت ثلاثة أيام منذ العرض الاول من مسرحية « الملكة مارجو » التى لاقت نجاحا كبيرا ، وفى اليوم الرابع سار ألكسندر دوماس الابن فى شارع المادلين متجها الى بيت مارى دوبليسيس . الطرقات مكتظة بالمارة والعربات . ان مقتنيات مارى ستباع بالمزاد ، ورؤيتها مسموح بها فى ذلك اليوم . انها ماتت بعد أن نسيها الناس ، ولكن الصحف تحدثت عنها طويلا بعد وفاتها لانها كانت علما من أعلام

الحياة فى شوارع قلب باريس لعدة سنوات . فلما عرضت تركتها تبيع عادت الصحف الى التحدث عنها ، ذلك لان الصحف كانت تعنى فى ذلك الوقت بأخبار المحظيات وتكثر من نشرها ، فقد نجحت لولا مونتيز أخيرا وبعد سعى دائب فى تحقيق هدفها . واصبحت عشيقة للملك لودويج ملك بافاريا . زجت بنفسها بين المشتغلين بالسياسة واعلنت ولاءها للحزب الديمقراطى واخذت تكتب الى صحيفة التايمز اللندنية رسائل تشيد فيها بجهودها وتخيط خيوط مؤامرات ودسائس كان من شأنها أن عجلت فى اندلاع ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا ، وكانت لولا مونتيز موضع اهتمام صحف كثيرة فى بلاد عديدة . ولما كانت مارى دوبليسيس صديقتها فان وفاتها اصبحت مادة تصلح للنشر أيضا . وقالت صحيفة « القرن » وهى تتحدث عنهما أنهما كانتا ملكتين غير متوجتين فى مجتمعات الطيش والنزق . والان وقد فتح باب مارى دوبليسيس على مصراعيه فقد حق للناس أن يدخلوا ليحكموا بأنفسهم كيف كانت تعيش واحدة من المحظيات الشهيرات

ودخل ألكسندر الحجرات التى كان يألفها والتى طالما ضمته فيها هو ومارى فيما مضى من الأيام خلوة تفصلهما عن الناس وتستحوذ على أفكارهما ، دون أن يخطر بباله انها ستموت عما قريب . فى الحجرة الامامية تتفتت وتتساقط أوراق الزهور الذابلة على السياج المذهب الذى يغطى الجدران ، فاجتازها ألكسندر سريعا ليصل الى البهو ، فلما دخله وجده مزدحما بالناس ، من بينهم ريتشارد والاس الابن غير الشرعى لمركيز هيرتفورد ، وفى صحبته واحد من الاخوين جونكور ، واختلطت ممثلات بنساء من الطبقة الراقية وهن يدرن فى الحجرة العجيبة الزينة نظرات تنم عن دهشة بالغة . جميع الصحفيين فى باريس داخلون خارجون . وكان أكثر شىء أثار الاهتمام هى منضدة الزينة الخاصة بمارى ، هذه هى مرايا فينيسيا التى كانت تعكس جمالها ، وهذا الاناء المصنوع من الفضة الخالصة التى كانت تغسل فيه وجهها ، وهذه هى منضدتها الاخرى المصنوعة من خشب الورد والتى أجيد صقلها ، يبلغ عرضها ستة أقدام ، عليها صفوف من القنينات والعلب والفرش والأمشاط مقابضها كلها من العاج المخروط أو من الذهب أو البللور أو الصدف . فى تلك الحجرات المترفة أوان كثيرة من الذهب الخالص ، أما المخمل والحـــرير والدانتيلا ، أما الأرائك والسجاجيد التى تغوص فيها الاقدام فانها تنطق جميعا بحياة

طابعها الاسترخاء وملذات الجسد . مازال فى خزائنها معلقة أشكال وألوان من الثياب من الحرير والمخمل ، بجانبها فراء ثمين وشيلان من الكشمير ، ومع أن مارى قد باعت أغلب جواهرها فى أواخر أيامها فان التركة بها مجموعة من الاقراط والاساور والخواتم والمشابك والساعات

وكتب الصحفيون فى وصفهم لهذه المقتنيات أن نساء الطبقة الراقية كانت ترمقها بنظرات تنم عن الحسد والغيرة . وطاب لتيوفل جوتيه أن يعبر ببلاغة لغته عما يتخيله من الحسد الذى ينهش قلوب هؤلاء النساء المترفعات وهن يرمقن تارة أوانى الخزف المستجلب من أفخر المصانع ، وتارة الساعات التى ترتفع قيمتها بقدر قدمها ، لحظ هذا كله فتنهد وترك نفسه ينساق مع التيار الذى يشيد بهذه المحظية ويضفى عليها هالة الضحية المسكينة ، ثم قال : « آه لو عرف هؤلاء النساء بأى عوض حصلت هذه المحظية المسكينة على كل قطعة من هذه المقتنيات التى تتمثل فيها نزواتها ! » سمعه ريتشارد والاس فضحك وأجابه : « لو عرفن لأسعدهن أن يقدمن العرض ذاته من أجل الحصول عليها » .

واقترب المساء ، وبدأ الناس الذين جاءوا بدافع من الفضول ينصرفون ، وأوشكت الأبواب أن توصد ، وتخلف ألكسندر فى تلك الحجرات التى كانت محتوياتها المبعثرة تنطق بأنها فى حداد على صاحبتها ، الستائر الحريرية والاثاث الفاخر والساعات ذات الهمس الخافت لا يزال جمالها هو هو ، ومع ذلك يخيم على كل منها مسحة من الحزن والخراب ، البيانو المصنوعة من خشب الورد قد خرست على خلاف عادتها ، طالما سمع منها الالحان التى كانت تعزفها له مارى ، والتى طالما عزف عليها أيضا عشيقها ليست فأسمعها روائع النغم ، أما الآن فالصمت مخيم عليها .. قد تنتقل الى يد أخرى ولكنها ستظل أبدا شبيهةبالمهاجر الغريب الذى فقد وطنه . وكذلك بقية المقتنيات ، سيملكها أناس آخرون ، ولكن هيهات لها أن تنعم عليهم بهذا الجو الذى أحاطت به مارى دوبليسيس ، لقد طويت صفحته الى الأبد ، وستبقى هذه المقتنيات فى يد الغرباء أشياء لا معنى لها ولا طعم . وانصرف ألكسندر عن الدار وعاد الى بيته .

لم يستطع أن ينفى عن قلبه ما خلفه فيه هذا المشهد من حزن يهصره . تأبى عليه النوم تلك الليلة فاشتغل فى تأليف قصيدة يرثى بها مارى ووصف حبه لها وموتها أثناء غيابه وزيارته لدارها المهجورة

وكان ألكسندر فى الأيام التالية يسمع ويقرأ أشياء كثيرة عن مارى.

فان الصحف والناس كانت تكثر من الحديث عنها . وكان شارلز ديكنز وقت وفاتها فى زيارة له لباريس فادهشه أنه لا يفتح صحيفة دون أن يجد مقالا يشيد بهذه المحظيه حتى يخيل للقارىء أن الحديث هو عن وفاة بطلة لها مقام جان دارك . لقد شاع ظن سرعان ما انقلب الى ايمان أن مارى راحت ضحية حب تتمثل فيه أفجع المآسى . لم يعلق ديكنز على هذه المقالات الا بعبارة تنم عن شدة الاحتقار وقال أن كل الأخبار التى وصلته تدل على أن هذه الفتاة قد هلكت من أثر افراطها فى المتع والملذات .

وكتب جون فورستر الذى ألف سيرة ديكنز ، وكان مرافقا له فى زيارته لباريس ، يقول : « أدهشنى ما رأيته من عطف عليها واعجاب بها بلغا ذروتهما حينما اشترى أيوجين سو فى المزاد من تركتها كتاب أناشيد الدعاء الذى كانت تملكه مارى » . وذكر كذلك أن اهتمام الناس بموتها كان أيضا محور الحديث أثناء تناوله العشاء فى السفارة البريطانية ، فكان هذا الحديث وازدياد بدع الناس حينئذ من العلامات الاكيدة التى تنذر بأن فرنسا مقبلة على عهد من التدهور والانحلال

واستمر عطف القلوب على مارى دوبليسيس زمنا غير قصير . لقد اقترن موتها بعهد انحسار الرومانسية ذاتها فلاعجب أن حمل موتها الناس على التعلق بشطحات الخيال وسط الضباب ، وسرعان مااستقر الايمان بالاسطورة القائلة بأن مارى ماتت ضحية حب دمر قلبها

أتم الكسندر كتابة الفصول الاخيرة من روايته « مغامرات أربع نساء » وسلمها الى ناشره مسيو كادو . هيهات لكاتب لا يزال فى أول السلم أن يطمع من ناشر أن يدفع له أجرا سخيا ، فلم يقبض الكسندر منه الا مبلغا ضئيلا من المال ، فحمله غرقه فى الديون على بذل مجهود جديد . انه فى أشد الحاجة الى تحقيق نجاح باهر فى عالم الادب وهو رجل من طبعه الطموح وأخذ الأمور مأخذ الجد ، فلم يغب عن ادراكه أن نجاحه يتوقف على تأليف رواية تهز القلوب وتروج بينهم . ولا شك أن فكرة تأليف روايته التالية : « غادة الكاميليا » وليدة موجة العطف على مارى دوبلسيس الذى تأجج يوم وفاتها . لعله سأل نفسه : أى نوع من القصص يهيم بها قراؤها الكسالى ؟ فكان الجواب أنهم يهيمون بالخوض فى سيرة المحظيات وتتبع حياتهن ، من أمثال لولا مونتيز ومارى دوبليسيس ، فقرر فى أغلب الظن الانتفاع بالأسطورة التى استقرت فى الاذهان عن موت مارى دوبليسيس وبدأ يدرس رواية « مانون ليسكو » استعدادا لتأليف روايته .

الفصل السابع عشر

كتابة قصة

توجه الكسندر بصحبة صديق له في مطالع شهر يونيو لزيارة أبيه في بور مارلي وكان قد انتقل حديثا الى قصر دي مونت كريستو . تم بناء القصر اللهم بعض الزخارف الداخلية . شاهداه ماليا تطل نوافذه من كل ناحية على مناظر ذات بهجة . البستانيون دائبون على العمل ليحيلوا الاراضي المحيطة الى حدائق مختلفة ألوانها تبعث السرور والمتعة الى النفوس .

وجد الشابان دوماس الاب في الشاليه ذي الطراز القوطي يعمل في غرفة مكتبه السداسية الجوانب .. أطلق على الشاليه اسم شاتو ديف (وهو اسم القصر الذي سجن فيه أدمون دانتس بطل قصة الكونت دي مونت كريستو) . وصلا اليه عبر قنطرة حجرية نقشت احجارها على شكل الورود . يسبح البط تحت ظلالها جيئة وذهابا فوق سطح جدول . نبتت آلاف زهور الصيف على جانبيه ونما نبات الاسل على حافتيه . وعلى جدران الشاليه ثبتت أحجار كبيرة نقشت بأسماء مؤلفات دوماس المتعددة . في الدور الارضي حجرة المكتب وحجرة الجلوس وفي الدور العلوي حجرة النوم وشرفة. جدران الحجرات مزينة بلوحات من ريشة الفنانين جيرو وبولانجيه . ويصل بين الدورين سلم بديع حلزوني الشكل من الحديد المطروق . حجرة المكتب يحلم بها كل كاتب ، لا تحتوي من المساحة الا ما يكفي لمكتب واحد وكرسي واحد وزائر واحد ، علقت فيها ستائر زرقاء ودهن سقفها بلون أزرق رصع بنجوم ذهبية . ملك الشاليه شاتوريف عقل دوماس الاب فشغله كأنه لن يحتاج الى شيء آخر سواه . ياحسرة على دوماس ! لو كان يدرك ما للحياة من متطلبات أخرى لما وصل الى ما وصل اليه من فاقة في أخريات حياته ولما حرم عالم الادب من عمل قيم أو عملين كان يمكن له — وهو الكاتب الموهوب — أن يكتبهما . ولكن هيهات أن نغير طبيعة الناس فدوماس هو دوماس . رغب رغبة جامحة في تشييد قصر مونت كريستو وتزويده بكل ما يخطر بباله من زخارف . بذل ما له بسخاء مهما غلا الثمن . كان القصر لديه بمثابة كتاب يؤلفه يود أن يخرجه كأحسن ما يكون . ونهض الآن

من أمام مكتبه وقاد زائريه الى الحديقة ليتفرجا على البيت الكبير.
أعجب حجرة فيه اقيمت على الطراز الاندلسي . أحضر لها عربيين من تونس هما الآن يزخرفان حوائطها بالمنمنمات العربية على غرار زخارف قصر الحمراء . كل الحجرات فسيحة بالحد المعقول . الارض من خشب السنديان المصقول . مقابض الابواب ومدفأة غرفة الاكل من الصينى السيفر . أثاث الغرف العليا على طراز العصور المختلفة. وهنا مرسم كامل الاستعداد لاى رسام للاقامة . أما وجود الخادم الاسود أو دى بنجوان وزميل له آخر يدعى كاراميل فقد أضاف للبيت ميزة فوق ميزاته. لم يطلب منهما الا أن يلبسا الملابس الزاهية الغريبة مما أعطى للمكان جوا من الرفاهية المسترخية .

وعندما دخل الكسندر غرفة الطعام شعر كأنه فى فندق لا فى منزل. رأى وجوها غريبة تجلس على مائدة الطعام . وعندما انتهت الوجبة رأى أباه يتخلص من ضيوفه . يبدو انه لا يعرف أسماء النصف منهم. ثم قاد ابنه وصديقه الى الشرفة التى تمتد حول واجهة البيت واتخذ ثلاثتهم مقاعدهم جالسين .

لم يبدأ الكسندر بعد كتابة قصته الجديدة . كان عقله لاسابيع مضت يربط فقط بين حوادثها . يسائل نفسه هل يمكنه ان يرتزق بعض المال من نشر ديوان شعر له . أحضر معه مرثيته لمارى دوبليسيس ليسمعها أباه . ما كاد أبوه يسأله عما ألف أخيرا حتى أخرجها من جيبه . تلهف دوماس كعادته على سماع الابيات من شعر ابنه . كله اعجاب بها قبل أن يسمع منها كلمة واحدة فهو لا يرى فى أعمال ابنه أى مجال للنقد ، الامر الذى لا يشعر الكسندر بالاطمئنان على حكمه . ابتدأ الكسندر فى التلاوة فأصغى اليه أبوه وهو فى قمة السعادة .

« والآن سنعيد ما ألفناه من قبل أيها الطيف العزيز الذى يطير
سنمكث معا عندما ينتصف الليل
ومن هذا الوقت الى أن يشرق الفجر
نستمع الى خطوات ساعات الليل وهى تمر »

يطل عليهم من فوق رءوسهم صف طويل من الرءوس الحجرية المنحوتة مثبتة بحائط الشرفة تمثل كبار شعراء أوروبا ابتداء من هومير وانتهاء بهوجو . يعتبرهم دوماس أخوة له بالروح يمكنه ان يقتبس من بنات أفكارهم بدون خجل اذا لم تسعفه المقدرة على كتابة ما يريد .

انتهى الكسندر من تلاوة مرثيته فصاح دوماس « نعم المبدع انته يا عزيزى الكسندر . انك لمبدع حقا ! انى أرى المستقبل أمامك فسيحا » .

فقال الكسندر والشك يساوره : « هل تعتقد ما تقول حقا يا أبتى ؟ » .

ــ انك لرائع !

وأسند دوماس الأب ظهره على كرسيه واستغرق لحظات فى تفكير ملىء بالبشر ثم قال . المسكينة مارى » وتنهد فى تأمل وقال : « مارى دوبليسيس ، كتب لاسمك الخلود أن لثم فاك شاعران » .

ــ شاعران يا أبتى ؟ من هو الشاعر الآخر ؟

فأجابه دوماس فى سماحة العظماء :

ــ انه انت نفسك يا ولدى العزيز .

واستمر مسندا ظهره على كرسيه المريح ، راضيا عن نفسه تمام الرضا ، يجيل بصره بين الحدائق المزدهرة ، ويتمتع بالشمس المشرقة مع ذكرياته العاطفية . حينئذ تذكر الكسندر أن اباه ــ عندما تعرف بمارى ذات ليلة فى المسرح القومى الفرنسى ــ سارع الى تقبيلها .

أوشك النهار أن يدبر والكسندر مستمر فى انشاد قصائد أخرى من الذاكرة . اعجب ابوه بها جميعا ووعده أن يبذل قصارى جهده فى أن تطبع وتنشر ، وأخذ بدوره فى انشاد الشعر بصوته الذى لا يبارى . يخيل لمن يسمعه أنه يحفظ كل ماقيل من شعر ، فتلا مقتطفات طويلة من نظم فيكتور هوجو وبايرون وشكسبير .

وطال بالشابين المقام فى فيللا مونت كريستو ، حتى اذا وصلا محطة سان جيرمان آخر النهار فى طريق عودتها ، اذا بآخر قطار الى باريس قد فاتهما لتوه ، فقر رأيهما على المبيت فى نزل صغير اسمه « الجواد الأبيض » وأشرق عليهما يوم جميل : السماء صافية والجو مستقر . شعرا بالاسف أن يبادرا الى ترك ذلك كله فتلكآ حتى تناولا غذاءهما شهيا فى الحديقة ، وصاحب النزل بشوش . قرعزمهما على ان يطيلا المقام فى نزله بضعة أيام فمامن حاجة تلح عليهما فى العودة الى باريس . وبعد الظهر تجولا فى الغابة على صهوة جوادين اكترياهما . وفى آخر النهار زار الكسندر أباه بينما توجه الصديق الى باريس طلبا لما يلزمهما من ملابس .

يذكر الكسندر فيما بعد أنه تجول فى هضاب سان جيرمان فى فترة بعد الظهر وأفكاره تحوم حول مارى دوبليسيس . ولما رجع الى النزل

شعر بالحاح لا يقاوم أن يبدأ كتابة قصته عنها . امسك بما وجد امامه من أوراق وأخذ يكتب ، حتى اذا رجع صديقه من باريس وجده قد سود صحائف كثيرة العدد لايلويه عن ذلك شيء .

استيقظ فى الصباح مبكرا وعاود الكتابة بعد افطاره مباشرة ، فنعم المكان نزل « الجواد الأبيض » لمن أراد الكتابة ، فهو بهيج هادىء نظيف ، الطعام شهي والخدم رهن الاشارة والحديقة ذات ظلال وفوق ذلك كله فأجرة الغرفة فرنك واحد فى اليوم . عزم الكسندر على الاقامة فيه الى أن ينتهى من الكتاب ومكث صديقه معه يسلى نفسه بنسخ فصول الرواية اولا بأول .

استمر الكسندر فى العمل يوما بعد يوم طول شهر يونيو وأظهر مقدرة على التركيز تماثل مقدرة ابيه . كتب عن مارى دوبليسيس وبيتها والاشخاص الذين قابلهم عندها والاماكن التى زاراها معا . وأعطى للبطل الحروف الاولى من اسمه « أرمان دوفال » وقلده شخصيته فرأى نفسه فيه بوضوح ، وخلق عالما على صحائف الورق يملؤه بالرضا : مارى تحبه حبا عميقا خالدا . مبتغى احلام الرومانسيين . لم تكن بطلته هى الفتاة التى تشتهى كل شخص وكل شيء ولا تدرى ما تريد ، بل أحبته هو خالصا لنفسه ولا شخص سواه . لا ذكر لزواجها من ادوار دى بيريجو ولا هيام بفرانزليست . تحول الكونت دى ستاكلبرج الى رجل وقور ذى مثل عليا يدفع عن مارى ايجار منزلها فهى تذكره بابنة توفاها الله كانت عنده عزيزة . وجعل الكسندر لأرمان أبا كان يود مخلصا أن يكون ابوه على مثاله : رجل رزين يمكن الاعتماد عليه كل الاعتماد مثل أمه . وفى القصة امتلأ قلب دوفال الاب جزعا ــ وهو الرجل المحترم المهاب ــ عندما رأى ابنه يبعثر أمواله على محظية معرضا نفسه لاثقال الدين وهمه ، فتدخل بنفسه ليفصم هذه العلاقة . لم يتهاون فيقبل هذه المحظية عندما قابلها ، بالعكس جاء يأمر فيطاع وأرغمها أن تهجر ابنه بغير رجعة .

اما حب أرمان لمرجريت جوتيه فقد جعله عميقا كعمق حب شعر هو به ، مما أضفى على الكتاب ميزته ومتعته بالرغم من أنه يحكى قصة لا جديد فيها وليس لها الا قيمة ضئيلة . تشرق الشمس وتناديه الغابة ببهجتها ولكنه لا يرفع رأسه عن مؤلفه . يظل يعمل اثنتى عشرة ساعة تزيد الى خمس عشرة أو ست عشرة فى كل أربع وعشرين ساعة ثم يسقط اعياء على فراشه فيستغرق فى النوم وعنده شعور يتملكه

ان شيئا عميقا داخل مركز تفكيره لم ينم معه مستمرا فى حبك حوادث الكتاب .

وتمت قصة « غادة الكاميليا » فى نهاية الشهر قبل أن يستكمل ألكسندر عامه الثالث والعشرين ببضعة أسابيع · استغرقت كتابتها ثلاثة أسابيع أو تزيد قليلا . سمع أباه من قبل يقول أن قلمه لا يسيل سهلا على الورق الا لأن فكره يكون قد انتهى من تأليف الكتاب . وكذلك فعل دوماس الابن فمن الواضح أنه استكمل تمام عناصر الرواية ــ ربما فى عقله الباطن ــ قبل أن يخط حرفا واحدا . شغلت القصة تفكيره دواما منذ لحظةأن حضر بيع ممتلكات مارى دوبليسيس بالمزاد فى فبراير .

وافتتح قصر مونت كريستو رسميا والصيف فى ذروته بحفلة استقبال فاخرة بالغة فى الاسراف . حضر الجميع عرضا فى المسرح المحلى المسمى « شكسبير ودوماس » · أما « المسرح التاريخى » فقد لاقى نجاحا منقطع النظير · تمتلىء مقاعده ليلة بعد أخرى · وحلق دوماس فى قمة حياته الادبية . وحلقت راشيل أيضا فى نجاح مماثل ، ولا عجب فهى الشخصية الطاغية فى عالم التمثيل المسرحى لا يدانيها فى قمتها منافس . ولكن كم فى عالم الفنون من تباينات وحظوظ لا تستمر على حال ففى مواجهة من يشار اليهم بالبنان تقبع المدموازيل جورج فى خسوف تام .

انتاب المدموازيل جورج الضياع والحيرة بعد موت هاريل . لم تدرك قيمة المال وخطره فوضعت كل همها طول حياتها فى أداء أدوارها التمثيلية ، تاركة شئونها المالية لمن يريحها من أعبائها . والآن وهى فى سن الستين تبين لها أن الشيخوخة قد أدركتها وركبها النصب والهم والاملاق . لا جدوى من تعلم شئون الحياة من جديد لرد عاديات الزمن . ووجدت نفسها بدون سند تغالب الحياة . وأخذت مجوهراتها تتسرب من بين يديها الواحدة بعدالاخرى . ذهبت ماسات بونابارت وياقوتات أمبراطور روسيا . اختفت كلها كما اختفى جمالها الذى منحها هذه المجوهرات . انظر الى خطاب تسلمه جول جانان من صديق يسائله هل من سبيل لتعتزل مهنتها مكرمة . قال :

« هذه السيدة التى عودتنا أن نراها أعظم الممثلات الفرنسيات وأجمل نساء عصرها وأبهاهن ــ انظر اليها الآن ــ هوى بها الحال وهانت الحياة فلجأت الى الصالات الريفية تعرض فيها فنها ، وهى أمكنة يخجل أى ممثل مغمور من باريس أن يشاهد وهو يعمل بها .

كنا فى سومير من وقت ليس ببعيد فاذا بها هناك تقدم عروضا مع طغمة من السفلة جمعتهم حولها . الرواية المعروضة هى «ميروب» وكتب على تذاكر الدخول أنه اذا لم يفق عدد المشاهدين عددهم فى العرض السابق فلحامل التذكرة الحق فى استرداد نقوده . أثار ذلك حب استطلاعنا ودخلنا المسرح وقمنا بحصر عددمن فيه فعددناهم أربعين شخصا . لابد أن هذا العدد كان كافيا للشرط فقد ارتفع الستار وأخذت المدموازيل جورج فى التمثيل .

بهذا صرنا شهورا لما ملئنا ضيقا وغما . ظهرت الممثلة وبها مسحة من جمال زائل . ولكن المسرح صغير ــ نصف حجم مسرح الباليه رويال ــ لا تخفى فيه خافية . فبدت تجاعيد الوجه والشعر الأبيض والقوام الضخم والحركات المرتعشة والصوت المبحوح والنفس المحشرج . كل ذلك بدا واضحا على الممثلة المسكينة فانتاب الجمهور شعور بالأسى والتقزز ، الجأهم الى الفرار من المسرح فى هول . فلم تجد المسرحية أحدا يشاهدها فى ختامها .

ورحلت الممثلة البائسة عن سومير الى شينون وأزاى . بلاد لا يزيد تعداد الواحد منها عن أربعة أو خمسة آلاف نسمة . فمثلت أمام فلاحين لم تهذبهم آداب المدينة فتركوا قبعاتهم فوق رءوسهم ولم يخلعوها أمامها ..

ودعا جول جانان أصدقاء الممثلة ليشتركوا معه فى اقامة حفلة خصيصا لصاحبها . والى أن يتم هذا قبل دوماس الطيب القلب أن يعرض سمعة مسرحه ــ المسرح التاريخى ــ للخطر بعد النجاح الذى لاقاه . عرض عليها أن يلحقها بمسرحه . ولكن المدموازيل جورج رفضت هذا العرض لانها ــ بالرغم من أفول نجمها ــ عسيرة الرضا كالعهد بها دائما . لم تول روايات دوماس التاريخية أى اهتمام . أنها من أنصار الادوار الكلاسيكية فمن غير اللائق عرضها فى مسرح جماهيرى .

وفى شهر أغسطس روع أهل باريس بجريمة قتل بلبلت أفكارهم . الجانى هو الدوق دى شوازيل براسلان . قتل زوجته ذات ليلة بقسوة بالغة ثم أزهق روحه بعدها بيوم أويومين . الشائعاتتقول أن مربية أطفاله قد شغفته حبا وانقلب على زوجته فى ثورة من غضب لا يدرى ما يفعل . ساعد هذا الحادث على صدع بنيان سؤدد الملكية المترنح . الدوق من أرقى طبقات علية القوم فاذا وقع منه ما ينبى أنه يشترك مع بقية الناس فى أحط الشهوات فقد

أعطى الجمهوريين حجة بالغة ضد الامتيازات التى يتمتع بهـــا الارستقراطيون . حادث آخر قوض بشكل ملحوظ أسس النظام الملكى ، فان ملك بافاريا ــ وقد فقد لبه هياما بلولا مونتيز ــ منحها لقب الكونتيس فون لانسفلد . ثم ان مدام أديلايد أخت الملك لويس فيليب ملك فرنسا توفيت مع انتهاء السنة ففقد فيها الناصـــح المخلص الامين ، وكانت سيدة باسلة عاقلة تحظى بكل احتـــرام وعطف . وبفقدها فقد العزم ــ وقد خيم عليه الحزن وأدركتـــه الشيخوخة ــ على النضال فى حفظ سيطرة الملك كلما تعرضت لما يوهنها .

وقبل وفاة مدام أديلايد فى الشتاء تمكن دوماس الابن من نشر روايته الجديدة واشـــعاره ومثلت رواية هـــاملت على المسرح التاريخى . ترجمها دوماس الاب شعرا وأضاف اليها من عندياته ما رأى أنه يضيف اليها طلاوة . ظهر الشبح يلقى العظات وتمتديد القدر هادية ومرشدة فى المنظر الاخير ، وتحفظ لهاملت حياته .

وطبعت قصائد دوماس الابن على نفقة أبيه فى مجلد عنـــوانه « خطايا الشباب » لم يستلفت أنظار الناس ولم يبع منه الا أربع عشرة نسخة ، بعكس « غادة الكاميليا » فقد أصابها النجاح . توجه بها الكسندر الى كادو الناشر ولم ينتزع منه ألف فرنك الا بعدعناء وسرعان ما نفدت الطبعة الاولى وكانت من ألف ومائتى نسخة تبعتها طبعة ثانية أقل عددا نفدت هى الاخرى سريعا أيضا . وشـــد موضوع الرواية ــ كما كان يأمل ــ انتباه القراء ، وصارت القصة مجالا للمناقشات الحامية ولم تخف الشخصيات الحقيقية لابطال الرواية فتجددت فى الصحف الحكايات حـــول مارى دوبليسيس .

الفصل الثامن عشر

تقلبات الحظ

استقر دوماس الاب فى قصره ببور مارلى وكرسه لاحتفالات فخمة على مستوى الملوك يقيمها لاصدقائه . وفى الحق يجدر بنا ألا نطلق عليهم هذه الصفة ، بل نقول أنهم فئة فى المجتمع نهازو فرص وطغمة من الطفيليين كشفوا كيف يستفيدون من هذا الكرم . وجدوا قصر مونت كريستو حفيا بهم دائما : غرفا مريحة ، خدما فى أحسن هندام وأتم طاعة ، عربات تحت أمرهم انى توجهوا ، قبوا مكدسا بقنينات الشمبانيا ، والمـال تحت أيديهم يلتقطون منه ما شاءوا . وترى رب البيت فى غرفته السداسية الاضلاع فى الصباح الباكر يكتب لا يغادرها طيلة اليوم اللهم الا اذا حضر التجارب فى مسرحه . لا وقت لديه لمقابلة ضيوفه الا فى المساء على مائدة العشاء . ياله من مضيف لا هم له الا أن يرى من حوله فى سعادة وحبور .

صمم دوماس منزله وهو محلق فى أحلام اليقظة وعاش فيه وهو فى نفس الاحلام . استولت على مقاليد المنزل محظية متلافة بعد أخرى تبعثر له الاموال . وما أن عرض دوماس الكبير على الناس تكدس أمواله وانتصاراته فى طرز حياته المترفة حتى أسرع يلتف حوله كل نهاز طماع يأتون اليه زرافات من باريس ينهبون أمواله بدون خوف ولا خجل . ما كان الكسندر ليستطيع حيلة وهو يرى هؤلاء الاغراب يبددون أموالا قد تؤول اليه عن طريق الميراث . لو اضرم النار فى قصر مونت كريستو مبقيا على شاتوديف لابيه لما جانب الصواب وربما لم يجد من يلومه على ذلك . اكتفى بتقديم النصح لابيه الغريب الاطوار وما عنده من أمل كبير أن يستجيب لنصائحه.

وأخذت أخبار مجون دوماس الاب وسفهه فى الامـوال تنتشر بين الناس وصارت الافواه تلوكها فى كل أنحاء باريس . وكانت كاترين لوباى تهتم دائما بتتبع أخبار عشيقها السابق وتضحك من أنبائه هذه وتقول « لم يتعلم بعد شيئا من أمور الحياة فى هذه الدنيا » .

من الحوادث الهامة التى وقعت فى الاسـابيع الاولى من سنة ١٨٤٨ تقديم مسرحية بنيت وقائعها من قصة الكونت دى مونت

كريستو . ابتدأ تمثيلها على خشبة المسرح التاريخى فى الثالث من شهر فبراير واستمر يومين . تشتمل هذه المسرحية على عشرة فصول ولا أقل من سبعة عشر منظرا مختلفا . تكلف اخراجها الفخم مبالغ طائلة من المال . اعجب بها الجمهور واستقبلها بحماس وهلل لها وكان واضحا أن المسرح سيظل مكدسا بالمشاهدين المتحمسين ليلة بعد أخرى لاسابيع عديدة ، وأقام هوستاين مدير المسرح مأدبة فى الثامن عشر من الشهر يحيى ذكرى مرور سنة على افتتاح المسرح الذى لاقى نجاحا بعد نجاح وهو واثق أن النجاح سيتلوه آخروآخر . ولكن الدنيا اثبتت مرة أخرى أنها لا تؤتمن كالعهد بها دائما . فما مريوم او يومان الا ونجد المسرحوقد انفض عنه الجمهور فجأة . لقد شبت ثورة سنة ١٨٤٨ ولم يعد يهتم بأدمونددانتيس ومغامراته . وكان دوماس الجمهورى سباقا الى غرس « شجرة التحرير » أمام مدخل مسرحه تلفت اليه الانظار ، وبالرغم من ذلك استمرت كراسيه خالية خاوية .

ولاذت العائلة المالكة بالفرار فى اليوم الرابع والعشرين وحاولت الدوقة دورليانز أمام مجلس النواب الاحتفاظ بالعرش لابنها الصغير الكونت دى بارى ولكن الشعب الفرنسى لم يعد يطيق الملكية فطرد اسرة دورليانز شر طردة ورمى بعرشهم من شباك قصر التويلرى

وخلت مسارح أخرى خلاف المسرح التاريخى من روادها ، وامتلأ الجو بالهياج والترقب . لقد مضى عصر ليبدأ آخر . انتهى عصر لويس فيليب عصر الهدوء والتأنى . لقيت الرومانسية حتفها وعفى الزمن على المدرسة الادبية التى كانت تتذوق ما يكتبه دوماس من بطولات وفروسية يزيف التاريخ لابرازها . وابتدأ الواقعيون أمثال جورج ساند ومارى داجو فى شرح وجهة نظرهم بأنهم يصفون الواقع طلبا للكمال . تغيرت أسماء الشوارع والمحال العامة . وأخذ كل من رأى رأيا يتوجه الى كل مكان وكله عزم فى أن يخرجه الى حيز التنفيذ . واقتصر آخرون على الترقب والتفكير فيما سيحل بهم .

وكان بلزاك أحد الذين اقتفوا أثر الجماهير الغفيرة الى ميدان التويلرى حيث شاهد فوضى عابثة ضاربة أطنابها فرجع وقلبه طافح بالأسى وتساءل من يشترى بعد ذلك كتابا يقرؤه . ورأى المستقبل يشيع فيه السلب والخراب والبؤس . ربما كان من الافضل له أن يجعل همه كتابة المسرحيات .

وحضر الأمير لويس نابوليون الى باريس من لندن فى آخر شهر فبراير ولبث فيها أسبوعا واحدا لا غير وغادرها وهو مطمئن أنه

لا بد عائد قريبا . كانت الفوضى تضرب أطنابهـا ورأى فى نفسه الرجل الحازم يعيد للبلاد استقرارها ويقر الامن والرخاء فى ربوعها وستحمد له الجماهير صنعه حتما وتستجيب له .

وأطلقت الثورة العنان لتخيلات دوماس الكبير . لم يضيع وقتا فى الوقوف أمام مسرحه والتحسر على خلو كراسيه . كتب خطابا للدوق دى مونبنسيه ملأه بأحاسيسه وعواطفه ثم نشره فى الصحف يلفت اليه نظر الجماهير . وتقلد قيادة الحرس الوطنى فى سان جيرمان وأخذ يروح ويجىء فى كل مكان منها على صهوة جـواد ، واسس صحيفة سماها « الشهر » ورشح نفسه لعضوية المجلس الوطنى وأخذ يقدم نفسه فى اجتماعات العمال . أما ابنه فكان على النقيض مفتما مكتئبا من الثورة مثل بلزاك وفى الحقيقة كان شعوره مماثلا تماما لشعور بلزاك الذى أصبح من أنصاره والمعجبين بأعماله. يمقت العراك والفوضى وكان مشغولا مثل بلزاك بما ستؤول اليـه شئونه الخاصة . اختفت رواية غادة الكاميليا وسط هذه المعمعة فلم يعد أحد يبالى بحياة غانية رحلت عن هذه الدنيا منذ سنة . انتهى من كتابة رواية « سيزارين » وهى الآن فى المطبعـة تحت النشر ، ورواية أخرى فرغ من كتابتها أو كاد ، ولـكن الاحقاد السياسية كانت تشغل بال كل الناس ، فهل يوجد الآن أحد يهتم بقراءة القصص الغرامية ؟

واذا نظرنا الى الفنون أثناء الانقلاب والازمات نراها تتأثر بصفـة عامة ويصيبها الكساد ولكننا نجد دائما فردا أو أفرادا قلائل ينجحون فى لفت الانظار اليهم بتقديمهم نوعا من العروض الخفيفة فتتـدفق عليهم الاموال وسط الكساد الشامل . من هذه الفئة كانت المدموازيل راشيل التى حققت فى ذلك نجاحا باهرا . كان من تدبيرها ان امتلأت مقاعد المسرح الفرنسى فى هذا الموسم ، فى حين خلت المسارح الاخرى الا من قلة من المشاهدين . والذى قادها الى هذا النجاح أن ساقهـا الحظ فى التجول فى حى من أحياء العمال ذات ليلة من شهر فبراير فسمعت الجماهير يصيحون بنشيد المرسيلييز الثورى فقررت من توها أن تجعل من هذا النشيد محورا رئيسيا للعرض الذى تقدمه فى المسرح الاهلى وقد تغير اسمه الى مسرح الجمهورية . وفى المساء التالى مباشرة تقدمت المدموازيل راشيل بعد انتهائها من تمثيل رواية « لوكريس » ملوحة بيديها علما كبيرا ثلاثى الالوان «وهو العلم الثورى الفرنسى » عاليا فوق رأسها متقدمة به فى ردائها المسرحى الكلاسيكى الى مقدمة المسرح وقد تسلطت عليها أنواره العاكسة تحت قدميها ،

فألهبت شعور الحاضرين وسرى فيهم الحماس سريان الـكهرباء ، ورسمت على وجهها تعبيرا مسرحيا متوترا مخيفا يتمثل فيه الحماس الثورى ، ثم أخذت تغنى بصوت حاد — فهى لم تكن تحسن الغناء — كلمات النشيد : « هيا بنا ابناء الوطن » فصدر عنها الصوت واطىء الطبقة خشنا . أخذ المتفرجون وجلسوا مبهوتين يستمعون لها وهى تضفى معنى جديدا وحياة لكل سطر من سطور النشيد بطريقتها الخاصة التى لا تبارى . واستمرت تلوح بالعلم بينما هى تلقى بالكلمات بصوت هو مزيج بين الخطابة والغناء . ما تكاد تمسك بقطعة من قماش حتى تتحول طياتها — فى أعين الناس — الى قطعة فنية من النحت الكلاسيكى ، فما بالك بالعلم وهو يهتز فى تموجات منسجمة حول قوامها الذى بدا كأنه طيف تمثال رائع . بدت كأنها القدر أو كأنها النقمة . تمثل فيها الجمهور ربة الحرية فاكتسحهم هذيان حماس واخذ أنصار الجمهورية منهم يعانق بعضهم بعضا بدموع منهمرة ، أما أنصار الملكية فقد اختلط عليهم الامر وأصيبوا بالذهول .

وفاق نجاح عرض نشيد المرسيلييز هذا كل ماسواه طيلة أيام الموسم المسرحى . تمتلىء مقاعد المسرح ليلة بعد أخرى. لقد صدق حدس راشيل فى أن هذا النشيد سيجذب الجماهير جذبا ويرتفع ايراد المسرح . وسمح المدير الجديد لفئة العمال بارتياده فحضروا بأعداد كبيرة . وذات ليلة خلع عامل رقيق الحال قبعته ومررها على زملائه الجالسين بجواره يلقى كل منهم بعض النقود لشراء زهور لراشيل . فجمع بهذه الطريقة عشرون فرنكا ، وأسرع فاشترى من محل الزهور فى الباليه رويال باقة منها ثم عاد وصعد على المسرح من فوق الاوركسترا وقدمها للممثلة ، فكانت سنة اتبعت فى الليالى التالية ، تسهم الفئة الفقيرة من المشاهدين فى جمع ثمن باقة تقدم « للمواطنة راشيل فيلكس » فاذا غنت تجسد فيها أمامهم كل مثلهم العليا ويرون ربة تحرق بنفسها لتقتص لهم مما قاسوه .

لم يدركوا أن ما تقوم به راشيل أمامهم انما هو صنعة منها فقط ، فهى لا تحس بأى معنى للكلمات التى تنطق بها . لا يعنيها مطلقا ما تنطوى عليه كلمات الحرية والاخاء والمساواة ، ولا تهتم بأمور السياسة . ان هى الا ممثلة مجتهدة عزمت على انجاح المسرح الذى تعمل به وسط الازمة التى يعانيها ، فأعطت الجمهور ما يشبع رغباته

واستمر عرض راشيل فصل الربيع بطوله ، بينما استمرت مسارح اخرى خالية تواجه الافلاس وفى قلوب أصحابها من الكمد والحسد

شيء كثير ، ثم غادرت باريس في إخر مايو في رحلة فنية نظمها لهــا اخوها المواطن رافاييل فيلكس تطوف فيها الاقاليم

وعند مغادرتها باريس أخرج المسرح التاريخي مسرحيــة لبلزاك اسمها «زوجة الاب» أفنى فيها طاقة كبيرة من جهده ، ولم يؤثر في عزمه على تاليفها مرضه وكلاله . كانت المرئيات تزدوج في بصره عند تصويب النظر اليها ، بل كان في بعض الاحيان يعشى عن النظر. حضر حفلة افتتاح الرواية كل من يعنى بالادب فأطروها وتنبأوا بنجاحها . وساعد فيكتور هوجو في تعديل منظر في الرواية طال بدون داع . وملأ جول جانان وثيوفيل جوتيه أبوابهما الصحفية بالثناء الجميل. امتلأ بلزاك مع مدير المسرح بالامل في ان يستمر عرض الروايةلوقت طويل . ولكن بعض الناس يوسع عليهم رزقهم فتجري الاموال في أيديهم وبعضهم يقتر عليه رزقه . كانت راشيل من الفئة الاولى في حين كان بلزاك من الفئة الاخيرة . امتلأ المسرح في حفلة الافتتاح، ولكن المشاهدين لم يتجاوزوا نصف مقاعده في الليالي التالية . وفي شهر يونيو اغلق هوستاين المسرح وفضل التوجه بممثليه الى لندن ليحيي موسما هناك . وعندما قاربت السنة على الانتهاء أعيد عرض رواية «زوجة الاب» من جديد ولكنها لم تستمر الا ستة وثلاثين ليلة فقط.

وأحكم الدائنون الحصار على دوماس الاب في قصر مونت كريستو والتزموا بابه يضيقون عليه انفاسه حتى اضطر آخر الامر الى رهنه. يالها من صدمة نكراء ، ولكن عنده من المشاغل الاخرى ما ابعده عن التذمر فقد نظم حملة انتخابية دخل فيها بكل جانحة من جسمه وقلبه. نظر الى هذه الحملة نظرة فيها كل الجد وشعر حقا انه يقدم نفســه سياسيا ممتازا لخدمة بلده ولو أن هذه الحملة بدت لغيره رواية مسلية يعرضها امامهم في حماس . وبينما كان دوماس الاب مشغولا بكل هذه الامور شرع دوماس الابن يكاتب جريدة «الصحافة» بآرائه. صحيح أن الصحفيين في باريس ملتزمون فيما يكتبون ان يحترمــوا سياسة الجريدة التي يحررون فيها ، ولكنه عندما انحاز الى الملكية يزكيها في مقالاته في جريدة الصحافة لم يكن ذلك عن عقيدة لا يرتضي بها بل كان راضيا مطمئنا لمــا يكتب لانه فعلا يفضل النظام القديم على الحكومة الديمقراطية الجديدة . ارتفعت حدة المساجلات في الصحف بين اليمين واليسار ابدى فيها دوماس الابن افكارا حية وبلاغــة لم تسفر عنها أشعاره التي يبعث بها الى « جريدة البنات » . لم يوهب الملكة الشعرية الكافية ولكنه ملك مقدرة كبيرة على قرع الحجـــة

بالحجة ومهارة فائقة فى الرد على آراء الخصوم ، استهوته هـذه المناقشات الجدلية بعكس ابيه الذى يكره المساجلات الضيقة النطاق بل ويفضل الطرق العاطفية فى جذب الناس الى صفه . نجح فى ذلك مرات وبالاخص بالكلمة المسموعة اذ جعل الحاضرين يذرفون الدموع فى احدى هذه المناسبات العجيبة : تجمع حوله ثلاثة آلاف كل منهم ثائر حانق يبدى له العداء المبين . خطب فيهم دوماس ملوحا بيديه تأكيدا لكلامه . فاذا بهم يذرفون الدموع فى نهاية الاجتماع تأثرا لما أصاب العائلة المالكة بالذات من آلام . لقد وهب الله هذا الرجل ولاشك مزايا عظيمة من نواح لاتخطر على بال ، وبالرغم من ذلك سقط آخر الامر فى انتخابات المجلس الوطنى . لم يستطع بث الثقة فى الناس ، لم يحملوه محمل الجد اللهم الا فى مقدرته على طهو الطعـــام . من الغريب حقا أنه فقد عددا كبيرا من الاصوات لانه جلب نفورهم عليه اذ أنذرهم بخطورة المانيا على فرنسا فى مستقبل الايام . قال «لقد سقطت الدانمرك وهولندة وبلجيكا الى الحضيض ، وسترون النمسا تركع أمام بروسيا وسيأتى اليوم — لاقدر الله — لتركع فرنسا أيضا» قابل الجمهور هذه الكلمات بالاستهجان والصفير وطرحوا هــــذه النذر أرضا واستيقنوا أن قائلها لم ينضج بعد فى الشئون السياسية

وسرت عدوى ثورة فبراير الباريسية الى انحاء متفرقة من أوروبا فقامت ثورات اخرى على غرارها . استرعى انتباه كل من دوماس الاب والابن منها ثورة البافاريين التى الجأت الملك لودفيج على التنـازل عن عرشه وود الثائرون ان يقطعوا لولا مونتيز اربا لولا انها خرجت سالمة من البلاد تحت حراسة مشددة من الجند أوصلوها الى الحدود . هتاف الجماهير فى الثورات هو « تحيا الجمهورية » أما فى بافاريا فاقتصر الهتاف على « تسقط العاهرة » . ولما خرجت لولا مونتيز الكونتيس فون لاند سفلد مطرودة نهبت الجماهير قصرها ووقف الملك لودفيج وسطهم متنكرا كئيبا وهو يشاهد ما ينهب من أشــــياء ثمينة يعرفها جيدا اذ هو الذى وهبها بنفسه الى صاحبته . ومن سوء حظه عرفه أحد الناهبين ونزل على رأسه الملكية بمرآة ضـــخمة فى يده فأفقدته الضربة وعيه وحمل على هذه الحال مثخنا بجراحه وأعيد الى قصره . كان دوماس الاب مصيبا فى قوله عن لولا مونتيز انها شؤم على عشاقها ، يصيبهم البؤس وتنجو هى من غير سوء كأنما ترعاها قوة شيطانية . تزوجت بعد سنة أو نحوها — على زوجها — بأنجليزى لقى حتفــه غرقا بعد قليل

وخمدت الحركات الثورية فى نهاية العام بعد أن أثارت مشاحنات قاسية ومآسي عنيفة . وعم فرنسا الهدوء وارتاح بال الفرنسيين عندما انتخب الامير لويس نابوليون رئيسا للدولة . واستقر لويس ــ المنفى السابق وسجين مدينة هام ــ فى قصر الأليزيه واحاط به البونابارتيون سواء من كان ذلك منهم عن عقيدة أو من جاء سعيا وراء المجد والنفوذ. وأقيمت حفلات الرقص والعشاء تتصدرها الامــــيرة ماتيلد بنت عم الرئيس . ورجعت أمور البلاد الى نصابها شيئا فشيئا ومحيت آثار الحرب الاهلية واعيد فتح المسارح

فشل دوماس الاب فى انتخابات المجلس الوطنى بعد أن صرف أموالا طائلة فرجع يهتم بمسرحه آملا أن يسترجع ما فقد . عرض مسرحية «شباب الفرسان» فى شهر فبراير ولم تنجح بالرغم من اخراجهــا الفخم . ذلك لان اهتمام الناس بمغامرات « الفرسان الثلاثة » قــد فتر ولم تعد تسحر ألبابهم . تبعتها مسرحيات أخرى لم تصل كذلك الى النجاح المطلوب

وابتدأت راشيل تجرى التجارب فى أوائل الربيع لمسرحية جديدة على المسرح الفرنسى « وقد استــعاد اسمه القــديم » . الرواية هى « ادريين ليكو فرير » كتبها خصيصا لها الكاتبان سكريب وليجوفيه تدور حوادثها حول شخصية ممثلة سابقة فى الكوميدى فرانسيز صديقة لفولتير وعشيقة لموريس دى ساكس . نرى فى المشهد الاخير ادريين تموت بين يدى عشيقها بفعل سم دسه لها أعداؤها . أعجبت راشيل اعجابا شديدا بالمسرحية وبذلت كل جهد لتؤدى دورها فيها بما لا يعلوه أداء ، وهى ــ الممثلة القادرة ــ اذ تصمم على التفوق تنسى انها امرأة تدعى راشيل ، بل تأخذ بمجامع عقلها وروحها وتتحول الى وسيطة للعقل المطلق فتبرز شخصيات الخيال الى عالم الحقيقــة وتتعمقها قلبا وقالبا ، خلقا وخلقا ، وكانت هى اذ تقوم بتجارب «ادريين ليكوفرير » تشعر حقا بسكرات الموت التى تنتاب الممثلة الشابة والتى نزعتها نزعا من مباهج الحياة . وفى ليلة من الليالى وهى فى هذه الحالة النفسية شعرت باحساس اكد لها أنها هى نفسها قد قاربت على الموت ، فما انتهت من تجاربها تلك الليلة حتى انهمرت فى بكاء حار أزعج زملاءها وأخبرتهم عن يقين أنها هى أيضا ستموت صغيرة كصاحبتها فى الرواية ويخلو منها عالم المسرح وهى فى ذرى مجدها . ولكن ابتدأ عرض المسرحية فى ابريل وكان دورها فيها فعــــلا من انجح الإدوار التى لعبتها راشيل . حولت المشهد الاخير ــ مشهد وفاتها ــ

الى مشهد مؤلم اشد الايلام ، مؤثرا اعظم التأثير
وشمر دوماس الصغير عن ساعد الجد والنشاط . نشر اثنتي عشرة رواية خلاف غادة الكاميليا فى الفترة بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٥٢ . لم يتأن في كتابتها جميعا ولم يضيع فيها وقتا طويلا تحت وطأة الحاجة الى المال فلم تنل اهتماما كبيرا . وهو الآن يفكر فى امكان مسرحة « غادة الكاميليا » وكان يحضه على ذلك انتونى بيرو أحد أصدقاء أبيه . هو مؤلف يقوم بكتابة المآسى العنيفة تعرض فى المسارح الجماهيرية والتى تجذب المشاهدين اليها ، وقد ألف عدة مسرحيات من هذا النوع . استمع له ألكسندر وهو يؤكد له أنها ستكون مورد رزق كبير فداعبه الامل فى ألا تفلت منه هذه الفرصة . انه الآن مثقل بالديون ولا تأتيه اعماله بما يغنيه
أخذ يقلب هو وصديقه بيرو صفحات رواية غادة الكاميليا ويعصران فكرهما عصرا عساهما يجدان هيكلا لمسرحية ناجحة. ها هما قد مضى عليهما شهر قبل ذلك قفلت فيه أبواب الرزق وأصبحا خاليى الوفاض . عرض بيرو مقترحاته واخذا يتبادلان الرأى فى كل صغيرة وكبيرة فيها . أما ألكسندر فقد حاول جاهدا أن يجد طريقة صالحة ولكن أبى عليه عقله ان يهديه اليها . وأخيرا اتفقا على الاشتراك فى المحاولة . أعطى ألكسندر اسم مرجريت جوتيه لشخصية مارى دوبليسيس فى الرواية وكان من رأى بيرو ان العنصر الدرامى ينبغى أن يبرز فى مقابلة مرجريت بالدوق مورياك وهو الاسم الذى أعطاه الكسندر لشخصية الكونت دى ستاكلبرج فتجرى حوادث القصة بأن تتوجه مرجريت الى بانيير دى لوشون للاستشفاء وقضاء فترة نقاهة من مرض ألم بها ، وينزل معها فى نفس الفندق الكونت دى مورياك الذى فقد ابنته حديثا ، ويؤخذ بالشبه الكبير بين مرجريت وبين ابنته المتوفاة فيتوسل أن تقطع علاقتها بحياتها الخليعة التى تحياها وتتركه يكرس أعوامه الاخيرة من حياته فى رعايتها ذكرى لابنته العزيزة . وقدر بيرو ان تظهر ابنة الكونت كاحدى شخصيات الرواية مثل مرجريت وتقوم نفس الممثلة بأداء الدورين معا . تبدأ الرواية بمقدمة ترى فيها الفتاة تموت بين يدى أبيها وتحمل وهى ميتة الى الكواليس ويبقى الاب الحزين على المسرح محاطا بأصدقائه وهو فى أشد الجزع لا يتقبل عزاء ولا سلوى يستغرق ذلك وقتا كافيا لتبدل الممثلة من ملابسها وزينتها وأصباغها لتمثل الشخصية الثانية ثم تظهر على المسرح باسم مرجريت جوتيه المتألقة المرحة . سيكون التأثير بالغا .

لابد أن تنجح هذه الفكرة . ويمكن ان يضاف الى المسرحيـــة بعض المشاهد بين الطلبة والفتيات العاملات تتخللها أغنيات فردية وجماعية.

أصغى ألكسندر الى هذه الفكرة وقلب فيها النظر مليا فلم تعجبه كما لم يستطع هو أن يأتي بأحسن منها . ظل عقله خاليا من كل خاطر كصفحة بيضاء حتى كاد يستيقن أنه لم يوهب أي ملكة لكتـــابة المسرحيات . سبق ان عرض على أبيه فكرة مسرحة القصة فنصحه أن ينبذها لانها لاتحوي من الحوادث ما يملأ خمسة فصول . وبالرغم من ذلك فقد امتلأ الكسندر رغبة جامحة في تحويل غادة الكاميليـا الى مسرحية واستمر يقدح زناد فكره في ذلك . ومما جعل ألكسندر يخالف رأي بيرو في أي حوادث الرواية يكمن العنصر الدرامي مشاهدته النجاح الكبير الذي حازته مسرحية «أدريين ليكوفرير» على المسرح الفرنسي . كان أساس الدراما في مسرحية سكريب يكمن في غرام البطلة وموتها . فكل حوادث القصة تتجمع وتقود الى الذروة عند وفاتها في النهاية . ولابد ان تمثيل راشيل الراقي ألهب طموحـــه وطمعه فقد تخيلها في شخصية مرجريت جوتيه على سرير الموت. وعلى كل حال ظل عقله فارغا ورجع الى كتابة قصصه المعتادة وترك بيرو وحده يفكر في الحل

وتوفيت الممثلة ماري دورفال في أواخر شهر مايو وقـد وقعت فريسة الفقر في اخريات حياتها كانت قد قامت بجولة تمثيلية في الاقاليم واخذت معها حفيدا صغيرا لها لايجد أحدا غيرها ترعاه . وأصيب الطفل بالمرض وتوفي وهو في سن الرابعة فانخلع قلبها عليـــه ولم تستطع عنه سلوا ، وهاهي الآن تموت دون أن تترك فلسا واحـــدا يصرف على جنازتها . لو كان دوماس صديقها القـديم في ميسرة من حاله كسابق عهده لما تردد لحظة في تحمل كل نفقات الجنازة ، ولكن الاوضاع قد تغيرت وأصبحت الامور عصيبة . أوشك المسرح التاريخي على الخراب ، ذلك المسرح الذي وضع فيه أموالا طائـــلة واصبح المال ينال بكل جهد . أعطى مافي حوزته واخذ يجمع باقي مصاريف الجنازة بالمساهمة ، ومع ذلك لم يتجمع من المال مايكفي فباع نيشانه المرضع الذي منحه أثناء رحلته الافريقية ، وهنا ولاشك تضحية حقيقية منه اذا عرفنا غرامه بالاوسمة . ومشى وراء الجنازة نفر قليل يتقدمهم دوماس وهوجو . بقيت هذه الذكرى الاليمة عالقة بهما مدة طويلة . والذي حز في نفسيهما بصفة خاصة غياب راشيل. لقد تنكر لماري دورفال كل أصدقائها فلم يحضر منهم ليشيعهـــا

الا المدموازيل جورج . حضرت مرتدية ثياب الحداد التى ابتاعتهـا عقب وفاة هاريل ، وارتمت باكية على قبر مارى دورفال المسكينـة تكفر عن استعلائها على هذه الزميلة التى هى ـ آخـر الامر ـ من البشر مثلها والتى كتب عليها أن تموت أخيرا ميتة بائسة

وجاءت المدموازيل جورج الى باريس لتحضر الحفلة التى ستقـام بعد أيام قليلة لصالحها فى المسرح الايطالى . لقد تأجلت اقامتهـا بسبب ظروف الثورة ، واصبح الامل الآن عظيما فى أن تأتى بايراد كبير يكفل لها معاشا يقوم بأودها فى أعوامها الاخيرة . ورؤى انظهور راشيل على قائمة فنانى الحفلة هو الضمان الوحيد لنجاحها وجذب المشاهدين اليها فى وقت لم يعد هناك ضمان بسبب انتشار الكساد وعدم الاقبال على دور الترفيه والمتعة . وعمل الترتيب على أن تظهر راشيل مع المدموازيل جورج معا على خشبة المسرح الايطالى تمثلان جنبا الى جنب فى مسرحية « أفيجينى فى أوليد » . ثم تظهر بعد ذلك راشيل وحدها فى مسرحية من فصل واحد هى مسرحيـة « عصفور من ليزبيا » وهى مسرحية سبق أن لمعت فى تمثيلهاوتألقت ورضيت راشيل على كره بالغ منهاوبعدتمنع ، واظهرت غطرسةأذلت المدموازيل جورج اذلالا بالغا . ولم تستطع الاخيرة الا أن تكظم غيظها أمامها لشدة فاقتها وحاجتها الى المال

وبثت المدموازيل جورج شكواها لكل أصدقائها . لم تأخذ الامور ببساطة الفيلسوف القانع الذى لايأمن تقلبات الايام . لم تتحمـل ما أبدته من أساليب مهينة ممثلة تحتل الآن قمة تربعت هى عليهـا بحق فى يوم من الايام . لقد لقيت من راشيل احتقارا بالغا كأنمـا هى عابرة سبيل ادركها الكبر والخرف . لم تحترم راشيل مجـد الماضى الباهر ـ فى نظر المدموازيل جورج على الاقل التى كانمجدها كله فى عالم المسارح . انها لاهانة بالغة أن تحط المدموازيل راشيل ـ التى كانت من أعوام قليلة فتاة مغمورة تمد يدها بالسؤال ـ من قدرها هى التى ركع بونابارت مبهورا أمام جمالها الاخاذ

وبالرغم من هذا كله امتلأ المسرح بالمشاهدين ليلة ٢٧ مايو وهـذا هو المطلب الاساسى .حضر الجيل الجديد لمشاهدة نجمته راشيل، وحضر الجيل المتوسط والقديم ليقدم أفرادهما احترامهم العميـق لجمال طالمـا ملك ناصيتهم وهم شباب . كانت عواطفدوماس الصغير مع راشيل يتابعها باعجاب ، اما أبوه فأخذت تطوف بمخيلته تلكالايام الجميلة التى ألف فيها رواية «نابوليون» فى غرفة زينة المدموازيل

جورج فى المسرح . أما المتفرجون الذين طال بهم العمر الى السبعين أو نحو ذلك فرأوا بعين الذكرى خطواتها الاولى على المسرح فى بدء حياتها الفنية . شاهدها الشباب كحقيقتها التى وصلت اليها : امرأة عجوز ضخمة تصر خشبات المسرح تحت وطأة قدميها ، وشاهدها العجائز بنفس العيون التى شاهدتها أول مرة : امرأة شابة ساحرة تخطر أمام بونابارت قنصل فرنسا يحدجها بنظرات الصقر من عينين طاغيتين لا تتركانها لحظة واحدة

وربما تمثل الخيال فى عينى المدموازيل جورج أيضاً واقعاحقيقيا وهى واقفة على المسرح فى باريس فى حفلة وداع له. لم تتراء صالة المسرح الايطالى ــ صالة فنتادور ــ أمامهـا بل تراء لهـا مسرح الكوميدى فرانسيز وهى واقفة على خشبته تمثل مع النجم تالما . هاهو بونابارت أمامها جالس فى المقصورة المخصصة لاستقبال قنصل فرنسا وقد أسدلت على جدرانها الستائر المخملية القرمزية ذوات الشراريب الذهبية . هاهو يتوسط المقصورة وهاهى تتيه دلالا شأن كل حسناء فاتنة مغترة بحسنها يحدقها بعينين كلهما افتتان وهمـا اللتان اعتادتا القاء الرعب فى قلوب الرجال . كان القنصل يتزيى بزى فرقة حملة البنادق فى تلك الليلة التى رأته فيها أول مرة : سترة زرقاء مع قلابات بيضاء وأكتاف ذهبية « ويتدلى من جانبه بدل السيف المستقيم حسام مقوس مصنوع فى مصر غنمه من مراد بك . تجلس بجواره جوزفين فى فستان من الموسلين قرنفلى اللون يحيط بهمـا افراد أسرته : اخوته وبعض من اخواته . وما أسرع ماحلت الليلة التى رأت نفسها تتوجه فيها الى سان كلو مقر نابوليون : شابة فى سن السابعة عشرة مرتدية ملابس من التل الابيض المزركش وتربط شعرها اللامع شريطة حمراء قرنفلية اللون ويغطى كتفيها شال من الكشمير

انتهت رواية « افيجينى فى أوليد » وحيى المتفرجون الممثلة تحية كريمة عند انتهائها ثم أخذوا يترقبون بشغف ظهور راشيل فى رواية « عصفور من ليزبيا » . انتهت فترة الاستراحة ولم تظهر راشيل. لقد ملكها الحنق ونفاد الصبر لمجهود اضطرت لتحمله فى سبيـل المدموازيل جورج فلم تكلف نفسها ان تبقى . أضجرها شىء ما بفتنه فأمرت بعربتها أن تعود بها الى منزلها دون ان تقدم أى تفسير أو اعتذار فكانت بذلك الاهانة التى أطفحت الكاس توجه لزميلة أخنى عليها الدهر . لم ير ألكسندر أباه أشد حنقا منه اليوم . أخذ أبوه على راشيل قبل ذلك عدم اكتراثها بوفاة مارى دورفال واهمالهـا

الحضور فى جنازتها وهو من التقاليد الفرنسية الواجبة المراعاة ، فاذا أضيف الى هذا اهانتها الاخيرة للمدموازيل جورج فقد أتت أمرا ادا لايغتفر . لقد استحقت راشيل منه منذ ذلك الحين مقتا شديدا

وبعد ذلك بزمن ليس بالقصير تقدم بيرو بسيناريو كامل للمسرحية المقترحة المأخوذة من «غادة الكاميليا» . درسها الكسندر ثم وضعها جانبا غير راض عنها واستمر فى كتابة الرواية التى تحت يديه . ولما أتمها عاد الى السيناريو يدرسه من جديد . رآه يزداد سوءاً كلما امعن فى قراءته . ولكنه يعلم أن لبيرو خبرة طويلة فى تقديم المسرحيات وهو العالم بما يطلبه الجمهور ويرضى عنه فمن المؤسف الا تستغل فكرته – وهو الخبير – اذا كان من رائها فرصة واسعة لكسب المال ، وما كان له أن يترك فرصة كهذه وهو فى حال من الاقتار . ثم اذا هو فجأة – وهو جالس – يشعر بصورة مايجب أن تكون عليه المسرحية وقد تمثلت واضحة فى خاطره . لقد لاح له أخيرا المنهاج الذى يبتغيه جلس لتوه أمام مكتبه وامسك بقلمه يخط على الورق الشكل المسرحى لغادة الكاميليا بطريقته الخاصة

لم يتأن فى الكتابة بل سال قلمه مدرارا . ربما لانجد أحـــدا مثله أهلا للكتابة للمسرح . لقد تردد على المسارح أعواما طويلة بدأها منذ أن كان طفلا صغيرا ونما فى أضوائها وعاش حياته جليسا للممثلين والمؤلفين . استقى منهم دروسا لابد ان أورثته معرفة غريزية لكل جوانب هذه المهنة . انه يجد الآن الشرارة التى تلهب فيه القدرة على وضع هذه الدروس موضع التنفيذ هذا فضلا عما ورثه من ابيه من ملكة التأليف الدرامى . استمر يكتب ويكتب طول وقته تقريبا لايعطى لنفسه فترة قصيرة تستريح فيها أنفاسه . اذا دخل فى النوم لاينقطع تفكيره فينهض مبكرا وقد تجلت المشاهد أمامه واضحة يسجل منها كأنها رؤية العين . لقد أتم قلمه السيال كتابة الفصل الثانى بأجمعه فى خمس ساعات . تملأ عليه حوادث الرواية سمعه وبصره وهو يكتب متخيلا بوضوح تأثير كل موقف على المتفرجين . انتهى من الكتابة بعد ثمانية أيام من العمل المتواصل فأنتج بذلك مسرحية فاقت فى نجاحها بدون نزاع كل مسرحية أخرى ظهرت فى القرن التاسع عشر

الفصل التاسع عشر

خطوات مسرحية من الورق الى خشبة المسرح

توجه دوماس الابن الى سكرتير أبيه لينسخ له مسرحيـــة غادة الكاميليا . وبينما هو فى غرفة السكرتير دخل عليهما أبوه فسمعه ، فأدلى له ألكسندر ضاحكا أنه قام بمسرحة القصة متجاهلا نصـــحه بعدم صلاحيتها ، وأنه رغم شعوره بالخجل أمام خبرة أبيه الطويلة فقد فضل أن يكتب المسرحية لتملأ عليه فراغ أسبوع بدلا من أن يمضيه معطلا لا يجد الا الكسل والتدخين والكلام الذى لا نفع فيه. فألح عليه أبوه أن يسمعها له فورا بالرغم مما هو غارق فيـه من عمل وهموم . فاستجاب له ابنه المؤلف وقرأها عليه كما هى العادة الدائمة فى تلك الايام

استقر أبوه فى مجلسه يستمع اليه مزهوا به مدللا له كعادته ، ولكن سرعان ما جذبت الكلمات أذنه الخبيرة وشدت انتباهه . كان الفصل الاول جيدا ، دخل فى الموضوع مباشرة ووضحت فيـــــه شخصيات الرواية تمام الوضوح . ورغم أن موضوع المسرحية يتبع المدرسة الرومانسية : بطل يذوب حبا ويقضى أوقاته يسبح بجمال محبوبته آناء الليل تحت نافذتها لا يبغى عنهـا حولا ، فانها كانت جديدة البناء بشكل بين لم يسبق له مثيل ، نحت جانبا التقـاليد المسرحية التى اكتسبت على مر العصور وألقت اضواء الواقعيـــة على الشخصيات وهى تنطق بلغة العصر لا تزويق ولا مبالغة .

قال دوماس : « هذا جميل حقا . استمر فى القراءة »

وقرأ ألكسندر الفصلين الثانى والثالث ووصل الى المنظر الذى يقنع فيه المسيو دوفال والد أرمان مرجريت جوتيه أن تترك ابنه نهائيا ، فبكى دوماس لهذا المنظر وسالت منـــــه الدموع بغزارة ، ولا عجب فهو امرؤ يتجاوب بعمق مع كل شعور عاطفى . ولما ملك نفسه قال « هلم اقرأ على بقية الرواية » ولكن الكسندر كان مرتبطا بموعد يضطره لمغادرة أبيه فتركه واعدا أن يؤوب اليه فى أقرب وقت ليسمعه الفصلين الاخيرين

لم ينتظر دوماس الاب عودة ابنه وانهى بنفسه قراءة المسرحيـــة فكان تأثره بها شديدا . فى مقدوره الآن أن يتصور مقـــــدار

تأثيرها وهى تمثل على المسرح . لابد أن لهذا الفتى ملكة الـكتابة ، ولا عجب أليس هو ابنه .. ولكن الذى حيره هو أن طريقة ابنه تختلف تماما عن طريقته . لم يأت فى موضوع الرواية بجديد ، ولكن علاجه له جاء بطريقة فذة لم يسبق اليه أحد بالرغم من بساطته المتناهية . لا نجد فيها العظات الرنانة التى كانت سائدة فى مسرحيات تلك الايام ، ولا نجد الحوادث الجانبية ولا المواقف المعقدة التى ميزت سكريب واكسبته شهرته ، لا تدخل الشخصيات الثانوية فى توجيه الحوادث . لم يكن من المعتاد فى مسرحيات ذلك العهد تصوير الحوادث من الحياة الواقعية المعاصرة وعرضها كما هى على المسرح خاصة اذا كانت تدور بين أفراد طبقة من المجتمع غير محافظة كالتى تنتمى اليها مرجريت ، بل كان من المعتاد أن تصور المحظيات كأنهن منتميات الى زمان سابق ، ولكن التعبيرات التى تنطق بها مرجريت والكلام الذى يجرى على لسانها يضعانها فورا فى طبقة من المجتمع تعرفه باريس جيدا وتدركه لاول وهلة . كان الفصل الرابع الذى يمثل على المسرح حفلة مسائية بما فيها من رقص ومسرا ابتكارا جديدا فلم يحصل من قبل أن انتزع مشهد من صميم الحياة التى تعيشها الطبقات العابثة المتلافة فى باريس المعاصرة وعرض على المسرح كما هو ، يشعر المتفرج عند رؤيته أن المؤلف ينظر الى هذه الحياة العابثة بشىء من الاحتقار بالرغم من أنه مزجه بقصة حب صادق يتغنى به الشعراء .

ولذلك فعندما عاد الكسندر الى أبيه عانقه بحماس وهنأه وقال « لم استطع صبرا على متابعة قراءة الرواية . اردت أن اطمئن الى ان قدرتك على تسخير القلم . لم تتخل عنك الى آخر كلمة . انها شىء فذ . انها لتلهب العواطف . انها لجريئة . انها جاءت حقا بجديد . سيحالفك نجاح كبير على شرط أن يوافق عليها الرقيب ، فانى واثق أنه لن يصرح بها يا بنى العزيز . انها تفضح حياتنا فى مجتمعنا هذا »

وكان تحت أمره المسرح الايطالى وفريقه الممتاز من الممثلين الاكفاء فلو شاء الحظ العاثر ان يتخلى عنه لاصبح فى الامكان أن يستمع الى المسرحية فيه . وفعلا قرأ الكسندر ما كتب على مسمع فريق الممثلين الذين اجتمعوا لهذا الغرض فنالت منهم جميعا — لا يشذ عنهم أحد — كل اعجاب ، وما لبثوا الا أن بكوا ، ولا عجب فقد كان من حسن حظ الكسندر أن كتب روايته وكأن الالهام ينزل عليه وهو ممسك بالقلم وكان ذا حظ سعيد أن كتب روايته التى فيها

كثير من العبث وهو صاحب العقل الرزين والطبع الصارم الجـــاد الذى يعتبر زائدا عن الحد فى بعض الاحيان ، فجاءت المسرحيـــة لا تدانيها مسرحية أخرى على طول التاريخ ، جياشة بالعواطف التى لا يملك الناس عند مشاهدتها الا أن يذرفوا الدموع ، وقليل منهم من تبقى عيناه جافتين . واذا أحصينا مقدار الدموع التى جادت بها العيون فى القرن التاسع عشر على غادة الكاميليا لوجدناها تفـــوق ما انهمر على أى مأساة أخرى فى نفس القرن وما أكثر ما ظهر فيـــه من مآس حقيقية تستحق الحزن والبكاء . بكى عليها أهل فرنسا وبكى أهل أوروبا جمعاء ، ثم رحلت بالرواية سارا برنار عبر الاطلنطى فبكى أهل أمريكا بدورهم تلك الممثلة التى بلغت الخامسة أو السادســـة فقط من عمرها حينما ألف الكسندر هذه المسرحية . وسبق أن بكى ليست على مارى دوبليسيس قبل ظهور المسرحية بوقت طويل معلنا حبه لها بلحن حزين أجراه على المقام الموسيقى الصغير . لابد أن لهذه الفتاة قدرة خارقة على جذب العطف اليها . جذبت عطف الكسندر بدون ادراك منه فكتب ما كتب بمقدرة جعلت أول سامعيه من ممثلى المسرح يبكون تأثرا وامتدت العدوى لسائر الناس فاستمروا يبكون الى اليوم ، حتى أن احدى الممثلات الناشئات أصابتها نوبة عصبية وأخذت تبكى الى أن كادت تفقد الوعى ، ولما استردت أنفاســـــها أخبرت الكسندر انها ابتاعت سرير مارى دوبليسيس فى مزاد بيع مخلفاتها سنة ١٨٤٧ وقالت أنها متيقنة من وفاتها بمرض الســــل مثلها تماما وانها رغبت أن تلفظ أنفاسها الاخيرة على سرير المحظية ، ويؤكد الكسندر أنها لم يمتد بها العمر فعلا وتوفيت كما توقعت وقد لا يأخذنا العجب من ذلك اذ اعتادت أن تنام على سرير مارى دوبليسيس الذى تحجبه ستائر سميكة ضخمة تمنع عنه التهوية

أظهر الممثلون استعدادهم لتمثيل المسرحية ، ورغب دوماس الاب فى اخراجهـــا ، ولكن كيف ذلك والحظ العاثر ملازمهم ولا أمل فى رخاء قريب . اقترب المسرح من حافة الانهيار . نحن الان فى سنة ١٨٥٠ وقد استقال هوستاين والتحق بعمل اخر وأدى المثـــلون أدوارهم بأجور مخفضة ولم تكف مسرحية « الاخوان الكورسيكيان » التى عرضت فى اغسطس ــ ولا نستطيع أن نقول انها فشـــلت ــ فى تغطية تكاليفها فتوقف أيضا دفع أجور الممثلين المخفضــــة . وكذلك الموسيقيون ومصممو الازياء ومصففو الشعر والموظفـــون الاداريون ورجال المطافىء ومغيرو المناظر وبقيـــة أفراد الفرقة ، كل

هؤلاء لم ينالوا أجورهم فتوقفوا عن العمل في شهر سبتمبر . عرضت مسرحيتان آخريان بشق النفس أثناء الخريف ، احداهما « الكابتن لاجوتكسير » ألفها دوماس الاب الذى حورها من مسرحية قديمة له باسم « بنت نائب الملك » والثانية مسرحية « بول جونز » التى سبق أن ألفها منذ اثنتى عشرة سنة . استمر عرض الاولى أسبوعين والثانية اسبوعا واحدا فكانت الطامة الكبرى . لم ينل أحد من أفراد الفرقة فلسا واحدا أجرا لعمله . فلم تعد لهم قدرة بعد ذلك على الاستمرار ، فأصبح على المسرح أن يقفل أبوابه ، وبذلك اشهر أفلاسه في يوم ٢٠ ديسمبر

ولما ضاعت فرصة عرض المسرحيــة على مسرح دوماس الاب ، سعى ألكسندر ومعه نسخة منها الى هوستاين الذى صار الان مديرا لمسرح السرور « جايتى » . رفضها هوستاين قائلا أنها نسخة من رواية « الحياة البوهيمية » خالية من ظرافتها . وكذلك لم تلق المسرحية قبولا لدى مسرح الامبيجو ثم جرب ألكسندر حظه في مسرح الفودفيل فقبلها ، الا أن هذا المسرح لم يكن حلالا لعقدتها فقد كانت حاله كحال المسرح التاريخي ولحق به فأقفلت أبوابه .

ومضت السنة كئيبة على دوماس الاب . لقد أحب مسرحه حبا طغى على حبه لمنزله الجديد الجميل ، لا يزال المسرح جديدا كأنما نزلت عنه يد البناء المزخرف لتوها . فاذا دخلت الى الصالة وجدت ستارته الفخمة المصنوعة من مخمل سميك أحمر تتدلى في طيات يخيم عليها الكآبة أمام خشبة مسرح لا يذكرها أحد الان ، وشعرت بأبوللو رب الشعر يطوف أمام المقاعد وقد خلت من شاغليها فلا يشعر به أحد ، كما أن دائرة تماثيل فطاحل الشعر والادب أهملت في صمت قاس مرير فاذا خرجت الى الشارع وجدت لافتة عليها صورة هاملت وأوفيليا يراقبان بازدراء المارة يغدون ويروحون لا يرفعون لهما بصرا ولا يعيرونهما التفاتا وهم الذين كانوا يقفون طوابير طويلة متلهفين على حجز أماكن لهم .

وأصبح قصر الكونت دى مونت كريستو عبئا ثقيلا يستهلك أموالا طائلة . أصبحت التحف الفنية التى حصل عليها دوماس بغالى الاثمان تدفع قضاء لديونه بأبخسها وهو الخاسر في هذه الصفقات دائما . وحتى مؤلفاته التى يبذل فيها كل جهده بنهاية ما يستطيع أصبحت لا تأتى بما كانت تأتى به في الماضى ، ورفض الناشرون أن يدفعوا له عنها نسيئة . صار لا يدرى كيف يحصل على ثمن ماكله

وهو الذى تعود أن يغترف من أمواله التى كان يصرف منهـــا فى السنة الواحدة ما بين عشرة وعشرين ألفا من الجنيهات . لقد أهملته باريس الغادرة بين عشية وضحاها . لم يتوقع هـــذه الضربة التى جاءته بغتة من حيث لا يشعر فامتلكته الحيرة لاول مرة فى حياته . ومع كل هذا فلم يفقد ايمانه بل كان يبدو مرحا فى بعض الاحيان ، وأخفى همومه فى نفسه ، فاتخذه الناس مثلا يستمدون منه القــوة على مجابهة محنهم . لم يجعله الغنى متعاليا فخورا ولم يملؤه الفقر بؤسا وشقاء

ومع كل ما صبر به نفسه فقد خيم على حياته الحـــزن . يموت أصدقاؤه القدامى واحدا اثر واحد . توفيت مارس ودورفال اللتان اشتركتا معه فى انتصاراته الاولى ، والمدموازيل جورج التى فتنتـه جمالها أصبحت شيئا منسيا فى شيخوختها وعوزها . لقـد انتهى بالنسبة له كل شيء ، وأصبحت الساعات تقود الى النهاية الحتمية التى لا تذر شيئا . لقد وقف مرة فى مسيرته الى هذه النهـــاية ليحضر جنازة اخرى . لقد مشى وراءها فى صف من المشاهير الذين يشـــار اليهم بالبنان .. مشى هو وفيكتور هوجو وسان بيف وباروش محنيي الرءوس وراء نعش بلـــزاك ليواروه التراب . نزلوا به الى قبره . وهكذا دفن أكبر روائيي عصرهم . قضى عليه جهده الدائب الضخم وجهل الناس بقدره . ألقى هوجو كلمة عصماء على أسماع الحاضرين بصوت جميل ضمنها اكراما وتبجيـــلا واثنى على بلزاك الذى أتى بأعمال جليلة والذى تحرر الان من جميع القيود

واستمر الاحياء فى جهادهم فى سبيل العيش . أصبح مسرح الفودفيل تحت ادارة جديدة فكتب دوماس الابن الى المدير الجديد يذكره بمسرحيته التى سبق أن قبلها المسرح واحتفظ بها . ثم بعـد ذلك بأيام مر عليه ليبحث معه ماذا تم فى الامر ، ولـــكنه فوجىء بحارسة باب المسرح وهى امراة بدينة الجســـم كبيرة السن بادية العداوة تحضر له مخطوطة من مطبخها وتسلمه اياه ملطخا بالدهون والاوساخ وتبلغه رسالة شفهية من المدير الجديد أن روايته لاتصلح لمسرح الفودفيل .

وحاول أبوه وأصدقاؤه ان يمدوا له يد المساعدة فتكلم أحـدهم الى مونتينى مدير مسرح الجيمناز ، ولكن شاء سوء الطـــالع أن مونتينى قد قبل لتوه مسرحية مقتبسة من قصة « مانون ليســكو » وأن حبكة المسرحيتين متشابهة فلا محل اذن لتقديم الرواية الثانية .

طرق ألكسندر باب مسرح الفاريتى « المنوعات » وحاول الوصول الى نجمته الناجحة ولكنها رفضت مقابلته ورد على أعقابه خائبا .
ثم فكر أخيرا فى ديجازيه الممثلة ذات القلب الطيب التى كان ابنها هو همزة الوصل بينه وبين مارى دوبليسيس . ورضيت ديجازيه فورا الاستماع الى المسرحية ودعت جمعا من الممثلين يشاركونها الاستماع ، حازت اعجابهم ورضوا بها وأجمعوا على أنها ستكون بديعة اذا مثلت على المسرح ولكن ديجازيه نبهته الى أنها لا تصلح لهذا الدور فان سنها لا يسمح لها بتمثيل فتاة فى سن مرجريت ، فضلا عن أن الجمهور قد اعتاد رؤيتها فى شخصيات سيدات القرن الماضى النبيلات تختال على المسرح فى ثياب ذلك العصر تعلو راسها تيجان من الشعور الصناعية العالية ، وهى تعتقد أن جمهورها سيصفر لها استهجانا اذا شاهدها تمثل فى أى زى آخر

ثم لاح له فجأة نور من أمل وسط حلكة الظلام الدامس . لقد بلغ راشيل ــ راشيل العظيمة التى لا ترد لها كلمة ــ بطريقة ما أخبار هذه المسرحية فرغبت فى سماعها فأرسلت اليه ورتبت معه ميعادا فى ليلة معينة يحضر لها فيها الى منزلها ويتلو عليها مسرحيته . وامتلأ قلبه أملا فلو حدث وأعجبت بها لأوصلتها حتما الى الكوميدى فرنسيز التى لها فيها الكلمة العليا ، واذا ابتغت أن تمثل دور مرجريت فلن يقف فى سبيلها رقيب ولا مدير ولا أى شخص آخر مهما ارتفع مقامه . اذ أصبحت عشيقة لرئيس الدولة لويس نابليون بعد أن اظهرت حماسها الثورى قبل مقدمه « أسرع الكسندر الى الميعاد المرتقب فى الليلة التى عينتها فى مسكنها بشارع ترودون مصطحبا نسخته من الرواية
أراد أن يعبر البوابة بدون أن ينتظر اذنا على عقيدة أن ربة البيت تنتظره فى الميعاد الذى فرضته ولكن حارس الباب نادى عليه وقال له : « أمرتنى سيدتى أن أطلب منك ياسيدى أن تتكرم بالحضور ليلة أخرى ، فانها خرجت الليلة تزور المدموازيل زيلى لتمضيا السهرة فى لعبة اللوتو »
رجع الكسندر آسفا يجر أذيال الخيبة ورمى بالنسخة فى درج من ادراج مكتبه . لقد بلغ السيل الزبى وبلغ الفشل منتهاه فلا حيلة له بعد ذلك فى الامر . ثم انكب يكتب رواية أخرى .
لم يشارك الكسندر أباه فى هدوئه الباسم أمام نكبات الدهر ، لم يتمكن من كظم يأسه من هبوط آماله ، كما ملأه يأسا على يأس الخراب

الذى هوى بأبيه الى الحضيض ولمس نضاله القاسي العنيف المنهك املا فى القيام بعد الكبوة التى أوقعته . ورأى من الناحية الاخرى جماعة الطفيليات البشرية المترددةعلى قصر مونت كريستو يلتهمون ما استطاعوا من خيراته بلا حياء وبلا كلمة شكر يبذلونها لضيفهم ، فهل هذا ما كتب على الانسان الطيب الرقيق القلب الذى طالما أنجد من وقع فى ضيق وأغاث من لا مغيث له ؟ لقد أحاط الافاقون ذكورا واناثا بدوماس وأخذوا ينهبونه بكل ما وسعهم من حيل قذرة خوفا من ألا يجدوا بعد ذلك ما ينهبون . ربما يرجع الدائنون الحقيقيون الامناء بدون أن ينالوا شيئا بينما يطالب من يدعى ماليس له بصخب وزعيق فيسكتهم رب البيت بكنوز بورمارلى .

ولاحظ الكسندر أن دائنيه هو أخذوا يضغطون عليه ولا يستمهلونه بعد ما رأوا من حال أبيه . لا بديل له اذن من أن يعمل ويعمل كثيرا من الصباح الباكر الى غسق الليل . بدت له الحياة الدنيا مسخا مخيفا . نقرأ فيما كتبه بعد ذلك أن كل ما تمناه فى تلك الايام هو أن يقضى ما عليه من ديون ثم يموت ، وأضاف انه ولد أمينا صادقا فلم يرد أن يترك الحياة قبل أن يرد الحقوق الى أصحابها ويستريح باله . ولكننا نراه بعد أن تخلص من ديونه يفقد رغبته فى الموت وصار يبغى فقط الابتعاد عن أعين الناس لا يذكرهم ولا يذكرونه .

وكثيرا ما طاف شوارع باريس فى جنح الليل يبحث ــ شأن معظم معاصريه من الكتاب ــ عن أحقر الامكنة التى يتجمع فيها الناس ليتعرف على حقيقة المعيشة التى يحياها أهل المدينة وليفهم سبل الحياة فيها . يدخل المقاهى المتواضعة مقصد أفقر العمال يحتسون فيها الخمر الرخيصة ويتجه ببصره الى ما خط على الجدران من رسوم كاريكاتورية مقذعة فى حق الامير رئيس الجمهورية . ان الطبقة الفقيرة تخشى عودة اليونابارتيين وتكرههم كرها شديدا ، ثم يطل على الكهوف المخيفة مثوى المجرمين وربما وجد نفسه فى داخل واحد منها مع المتشردين حيث يتجرعون رخيص الخمور كأسا بفلس وأحيانا يدخل المشرحة وقد بلغ منه جمود العواطف مداه فاذا وجد عددا من الجثث تجمع فيها فلا يتورع أن يقول « لابد أنهم فى سبيل اقامة حفلة لهم هذه الليلة فى العالم الاخر » . لقد أصبح بارد العواطف يلعن الدنيا وما فيها فانه رأى من جشع البشر وحقارتهم فى مونت كريستو ما تفوق بشاعته ما يشاهده الان من مناظر البؤس والفاقة والجريمة والضياع ، كتب بعدذلك عمارآه

فى هذا الوقت قال « آه ما أفظع وما أحقر ما شاهدت ! ياله من عار ! ياله من خداع ! مجرمون وعتاه من كل نوع . لا ادرى لماذا أجهد دانتى مؤلف الكوميديا الالهية نفسه فهبط الى دركات الجحيم ، لو نظر الى الارض لوجد أمامه كل مخيف وخبيث سافرا لمن كان له عين تبصر . »

ووصل العام الى نهايته . وفى يوم رأس السنة الجديدة فى أول يوم من أيامها وصل الغم والهم بدوماس الابن الى غايتهما . بيع قصر مونت كريستو فى المزاد بثمن بخس لم يغن شيئا ولم يبلغ عشر معشار ثمنه الاصلى وأوصدت ابواب المسرح الايطالى فخيم عليه صمت القبور . شرح فى احدى مقدمات مسرحية غادة الكاميليا عند نشرها كيف طاف فى ذهنه فى ذلك اليوم ذكرى مارى دوبليسيس وظلت تساوره طول الصباح واذ لم يغادره طيفها رمى بمعطفه فوق كتفيه وخرج من منزله ليجد جوا كئيبا ممطرا . اتجه ناحية الشمال لا يلوى على شىء حتى وصل الى مقبرة مونمارتر . خلا المكان من الناس الا القليل . وصل الى قبر مارى فرأى فوقه شاهدا من المرمر أقامه الفيكونت بيرجو وهو عبارة عن نصب مستطيل تغلب عليه البساطة وتعلوه قارورة جنائزية . فى ناحية من النصب يتشابك الحرفان الاولان من اسمها ا . ب . بشكل رقيق ونقش على طوله العبارة الاتية :

هنا ترقد ألفونسين بليسيس
ولدت فى ١٥ يناير ١٨٢٤
وتوفيت فى ٣ فبراير ١٨٤٧
ترحموا عليها

خلا المكان تماما من المارة وبدا القبر حزينا للغاية مهملا . ذكر الكسندر أن مجيئه هنا انما كان عذرا ليذرف الدموع على مآسيه ، ينظر الى مستقبله فلا يجد ما يبشر بخير وشعر أنه قد كتب عليه ألا يكتب الا روايات تافهة لا نفع فيها . ودخل فى ايمانه أن مارى مستطيعة أن تراه الان من عالم الموتى وأنها ستقوده الى طريق يغير مجرى حياته ، ووصل به ايمانه الى أن اعتقد أنها تتكلم معه من مكان قريب ولكنه بعيد المنال تعرب عن دهشتها وفرحها لمقدم احد احبائها لا يزال يذكرها

وعاد أخيرا الى منزله فى جو قاتم بارد وأسدل الستائر وأشعل الشموع ثم أخرج مسرحيته من الدرج — الذى ظلت مختبسة

فيه منذ تلك الليلة التى رجع فيها خائبا من زيارة راشيل . وقراها بتمامها مرة أخرى . ثم جاءه خاطر يكاد يكون غريزيا فأمسك القلم وجعل تاريخ وفاة مرجريت هو اليوم الاول من شـــهر يناير وقام بتغيير بقية النصوص التى تذكر وفاتها يصححها الى يوم رأس السنة.

ولو قرأنا ما وصـــفه عن زيارته لقبر مارى لوافق ذلك تماما ما اشتهر عنه من حب جارف لا يزول ، ولكن لم يشاهد عليـــه الذبول نتيجة لضنى حب ولى ، بالعكس ، ارتمى فى أحضان حب جديد . وقع هذه المرة فى غرام امرأة من الطبقات العليا فى المجتمع، هى مدام دى نسيلرود . لا نعرف كثيرا عن هذا الغرام ، ولكن ممـا جاء فى مذكرات فيل كاستيل نرى أنه أثار فضيحة كبيرة تشـــابه فضائح عهد الوصاية ، قال « أغراها بأحد مؤلفات الماركيز دى ساد لتبذل له نفسها »

هكذا كان نوع الاشاعات التى التصقت بهذا الشاب ، والتى ترينا كيف كان دوماس وابنه يبدوان فى أعين الناس

وقرر الكونت دى تسيلرود فى آخر الامر أن يعود بزوجتـــه الى روسيا فى شهر مارس ، ولم يصبر الكسندر على فراقها هياما بهـا فاقتفى اثرهما عبر أوربا حتى وصل الى حدود روسيا فوجد ابوابها مغلقة فى وجهه لا يسمح له بعبورها ، فتلكأ بعض الوقت فى بروسيا الشرقية ثم أدرك الا غنى ، فى موقفه هذا فضلا عن أنه يثير عليـــه السخرية فعاد الى باريس . ولن نتعدى الحقيقة اذا قلنا أنه كانت تختمر فى رأسه ــ وهو واقف على الحدود الروسية كعاشق ولهان ــ حوادث رواية « ديانا دى ليس » التى أخذ وقائعها من هذه المغامرة فسرعان ما نشرها أثر عودته ، وظهر الكتاب فى الاسواق قبـــل أن ينصرم العام

وأتى الربيع . وفى احدى أمسياته ودوماس الابن سائر على قدميه فى شارع الايطاليين ، نادى عليه جمع من الممثلين من مقهى كاردينال حيث كانوا يجلسون فى شرفته يتناقشون فيما بينهم حول مسرحيته التى استمع الى قراءتها واحد أو اثنان منهم ونالت منهما اعجابا . جلس الكسندر معهم وعلم منهم أن المدير الجديد لمسرح الفودفيل عاجز عن القيام بأعبائه وأنه فى سبيل اختيار من يشاركه فى عبئه ، وأن لاحدهم الامل فى أن يكون هذا الشريك . ووعده هذا أن أول ما سيظهر على خشبة المسرح هى مسرحية « غادة الكاميليا »

وعين هذا الممثل فعلا كما توقع بعد ثلاثة أشهر فأسرع اليـــه

الكسندر فرحا مسرورا وفى يده مخطوطة المسرحية ، فبر المـــدير الجديد بوعده وأمر بالتحضير للتجارب .

واختير أفراد فرقة التمثيل . وأسند دور أرمان دوفال لفشتر وهو ممثل صغير نابغ من المسرح التاريخي أصلا ، وسرعان ما أظهر براعته فى أداء هذا الدور الرومانسي بعمق واخـــــلاص ، ثم بدت صعوبة تحديد ممثلة يسند اليها دور مرجريت . لم ترض الممثـلة التى اختيرت لاول وهلة لهذا الفرض عن هذا الدور ولم تعبــــأ به ، ثم رفضته تماما بعد أسابيع قليلة . وتلفت المدير حواليه يبحث عن بديلة ولكن لم يجد من يحل محلها . ثم تقدم أحـــدهم واقترح أيوجينى دوش . هى امرأة بلغت من الجمال قدرا كبيرا ذات سبعة وعشرين ربيعا ومع ذلك لم يوفق حظها فى عالم التمثيل فهى تعطى دائما أدوار الفتاة البريئة الساذجة وأصبحت مرتبطة بها فلم يجرؤ أحد أن يسند اليها الادوار الجادة مما جعلها تقرر أخيرا أن تهجـــر المسرح لهذا السبب . وسافرت الى لندن لتشاهد المعرض العظيم وتتمتع بكل ماهو جليل وعظيم فى معروضاته .

وبالرغم من أن مقدرة مدام دوش على تمثيل الادوار الجـــادة لم تثبت فى نظر الجماهير الا أن السنين الطويلة التى قضـــــتها فى التمثيل شفعت لها لدى المدير الجديد فلم يفكر فى ممثـلة غيرها . وبعث اليها فشتر رسولا منه ومعه نسخة من المسرحية . وأقنعهـــا الرسول أن تستمع اليها ، فما كادت تسمعها حتى ثارت فى قلبها من جديد نيران الرغبة والطموح فى أداء التمثيليات الجادة . أن مثـــل هذا الدور هو ما كانت تصبو اليه وتطمع فيه . وسرعان ما وضعت حاجياتها فى حقائب السفر وهرعت الى رصيف الميناء لتســـتقل أول سفينة مبحرة الى فرنسا

ومع كل هذا لم تنته متاعب المؤلف ، فاذا بالرقيب يتدخـــل فى الامر ــ كما خشي أبوه ــ ومنع عرض المسرحية . وكانت الرقابة ملقاة على عاتق وزير الداخلية ليون فوشـــيه الذى رأى أن رواية « غادة الكاميليا » منافية للاداب . وصم أذنيه عن شفاعة الشافعين .

وأكب الكسندر على الكتابة لا يفتر عنها . أتم ثلاثة كتب خـــلال السنة وهى رجال أقوياء وديان دى ليس والاشباح ، وظهرت غادة الكاميليا فى طبعة جديدة ومع ذلك فلم يتمكن من التخلص من ديونه الا قليلا لا يعتد به وظل فى حيرة من أمره . وهنا تعود أمه فتظهر فى الصورة من جديد .

ألحت كاترين لوباي على ابنها أن يشاركها مسكنها في هذه الاوقات العصيبة من حياته فقبل وعاش معها في منزلها البسيط الهادىء بضعة أشهر فقلت مصاريفه وأصبح قادرا أن يوفر بعضا من المال
وقاربت سنة ١٨٥١ على الانتهاء وحل الشتاء محل الخريف وما زالت سماء السياسة معتمة . خيل للناس في باريس أن الحياة قد توقفت وان الارض قد تبدلت غير الارض وران عليهم ماجعلهم يرهصون بوقوع كارثة لا مفر منها ، تأتيهم لا يدرون عنها شيئا . احسوا ان الامير رئيس الدولة يميل الى الحكم الاستبدادى المطلق ، فتوجست الدوائر اليبرالية خيفة من هذا الأمر لما رأت أن الامير الرئيس قد استولى على هذا الشيءالذى لايدرك كنههولاتسبر أغواره الا وهو روح الجماهير . أصبحت الجماهير المتحمسة تقابله أينما توجه بالهتافات الحارة المعبرة عن الاعجاب ، وأعرضت عن شتى الشخصيات في دنيا المسارح أمثال دوماس الاب وألفريد دى موسيه وبونسار . لقد تغيرت أذواق الجماهير بين ليلة وأخرى وهي في الأحوال العادية لا تتحول الى قليلا سنة بعد أخرى .
ودأب أصحاب ألكسندر طول الوقت من تخليص مسرحيته من كل عقبة تعوق طريقها . كان حماس مدام دوش واصرارهاعلىتمثيلدور مرجريت جوثيه مهما كلفها الامر داعيا لها في أن تلجأ الى صديق ذى نفوذ كبير وتضمه في صفها : انه بيرسيني ، كما تكلم بوفيه مدير مسرح الفودفيل الجديد مع مونجويون الذى قبل رجاءه وتكلم مع دىمورنى الذى مدح الرواية لدى الأمير رئيس الدولة . ولكن لويس نابوليون يحكم فرنسا في هذا الوقت بسلطة الدستور وكان من حق وزرائه الا يستمعوا لأوامره فاستمر ليونفوشيه عند رأيه الاول رافضا عرض المسرحية
ثم اقتنع دى مورنى ليحضر تجربة من تجارب المسرحية ، فحضر واستمتع بها .. كان الكونت دى مورنى ابنا غير شرعى للملكة هورتينسوالدة لويس نابوليون وكان أثيرا عند أخيه غير الشقيق .لقد نشأ نشأة طيبة وأصبح مثقفا رقيقا واسع الافق مقداما يراعيالناس ويمد لمن يوده ويعطف عليه يد المساعدة . فلما شاهد تجربة المسرحية اهتم بها واظهر عطفا على الكسندر . واشار اليه أن يطلب من اثنين او ثلاثة من كبار المؤلفين المعروفين أن يعلقوا على المسرحية ويبدوا آراءهم ، فاذا استطاع أن يقنعهم بأن يزكوا مسرحيته ويعتبرونها خالية مما ينافي الاداب العامة فربما كان من غير العسير اقناع ليون فوشيه ليتنازل عن عناده .

كتب ألكسندر الى جول جانان الناقد المعروف والى ليون جوزلان وأميل أوجيير وكلاهما كاتب مسرحي شـــهير له مكانته واحترامه بين الناس ، فاستجابوا له وقرأوا المسرحية وأجمعوا على أنها قطعة ادبية بعيدة عما يخدش الحياء . وعرض هذا الاجماع فى الرأى على الامير رئيس الدولة الذى لفت نظر ليون فوشيه اليه

واصر ليون فوشـــيه على وجهة نظره . انه يرى قراءة الرواية شيئا وتمثيلها شيئا آخر .. ربما يجد من يتعمق فى قراءة المسرحية انها خالية من الفجور ولكنه يجد فيها عندما يشاهد حوادثها تمر سريعا أمامه على خشبة المسرح مايخدش الحياء ، والمسرحيات لاتقرأ عادة بل تشاهد فتثير التقزز بما تعرضه من العواطف المثيرة عيانا ، ان اهم ما تظهره الرواية هو امرأة بغى ، امرأة تعودت على الكذب وبيع جسدها لمن يطلب فى حين رسمت فى الرواية كشخص ملائكى محبوب فاذا اعجب الجمهور وصفق لمــا هو دنىء وحقير فى حقيقة أمره على انه خير فقد وقع تحت تأثير غير فاضل . هذا ولا ريب هو وجهة نظر ليون فوشيه ، فلم يستمع للامير رئيس الدولة ، وظل تمثيــــل الرواية ممنــــوعا

واصبح اكبر أمل لالكسندر معلقا على تشجيع صديقه دى مورنى وعطفه الذى قال له : « لا تيأس فلا تدرى ما يأتى به الغد »

كان مورنى على علم فى ذلك الوقت بما سيأتى به الغد لانه كان أحد المتآمرين على قلب النظام الدستورى لحكم الدولة ليأتى نظام جديد يمنح أخاه غير الشقيق كل السلطات الديكتاتورية وتم الانقـلاب فى اليوم الثانى من شهر ديسمبر . استيقظت فرنسا فى ذلك الصباح وقد فقدت حرياتها الدستورية . حل المجلس الوطنى عنــوة واعلنت الاحكام العسكرية تمهيدا لاجراء انتخابات رئيس للدولة تستمر عشر سنوات وقبض أثناء الليل على زعماء المعارضة وخصوم الامير رئيس الدولة ووضعوا وراء القضـــبان حتى لايجد الديمقراطيون قادة يوجهونهم أثناء الانتخابات . لقد دبر الانقلاب باحكام ، فقد أعـداء البونابارتيين كل سند لهم . وظهر قتال فى بعض الشوارع أثناء الايام القليلة التى عقبت الانقلاب ولكن سرعان ما أخمدتها طوابير الجيش

ارتفع علم عائلة بونابارت عاليا واحتفل لويس نابوليون الاميررئيس الدولة ــ الذى سيضع التاج الامبراطورى على رأسه باسم نابوليون الثالث فى وقت قريب ــ احتفل بهذا الظفر بكل مظاهر الجـــلال والخشوع فى كنيسة نوتردام فى اليوم الاول من شهر يناير سنة

١٨٥٢ . وفى نفس الوقت أخذ الجمهوريون والاحرار والاشتراكيون يغادرون فرنسا زرافات هربا من القبض عليهم حتى أن فيكتورهوجو تزيى بزى العمال ليتمكن من الهرب

وكان دوماس الكبير من ضمن من أبعدتهم السياسة عن الوطن مع انه فى الحقيقة لم يقم بأى دور طول شهر ديسمبر ، منعه من ذلك أولا ما أصابه من خيبة أمل فى تجربته السابقة الفاشلة عندما اقحم نفسه فى الشئون السياسية سنة ١٨٤٨ ، ثم ماهو فيه من مشاغل خاصة به قيدته عندما قام الانقلاب الاخير فلم يستطع حراكا لا الى اليمين ولا الى اليسار . ولكنه اتخذ من الموقف السياسى ذريعـــة ليهرب من قبضة دائنيه ، فرحل الى بروكسل لينضـــم الى زمرة الجمهوريين الذين ضموه الى صفوفهم لمـا سبق ان عرف عنه من ميوله الجمهورية وهناك اقام مرتاح البال فى المنزل رقم ٧٤ بطريق ووترلو وحمد الله ان ابتعد عن باريس التى أصبحت بالنسبـــة له كعش الدبابير . وحفزه وجوده فى مكان جديد ان يمسك بالقلم يخط به على صحائف الورق محاولا ان يلم شعث أمواله الضائعة .

اما ابنه فقد وجد فى النظام الجديد مابدد عنه كل شواغله. احتل الكونت دى مورنى منصب وزير الداخلية وكانت « غادة الكاميليا » من أول ما اهتم به من شئون . أجازها لتمثل فورا فنشطت التجارب من جديد بعد ما سقط كل عائق وجاء العرض الاول فى الليلة الثانية من شهر فبراير سنة ١٨٥٢ ثم استمر بعدها مدة طويلة . وكان هذا أول حدث مسرحى لامع قام فى ظل النظام الجديد الذى أريد له أن يظهر فى بهاء وأبهة ونجـــاح لم تر فرنسا مثله من قبل ولن تراه من بعد .

وبالرغم من وثوق ألكسندر من نجاح مسرحيته الا أنه لم يتمالك اعصابه تلك الليلة قبيل فتح الستارة . امتلأ المسرح عن آخره . وكما اتخذ أبوه من أفراد البيت المـالك سـندا وظهيرا من الدوق دورليانز ثم الدوق دى مونبنسيه ، فكذلك ، اتخذ الكسندر له سندا كريما فى شخص الكونت دى مورنى الذى جلس فى احدى المقصورات الملاصقة للمسرح وقد تجسدت فيه امارات الرفعة. كان المؤلف الشاب غير مجهول لدى المشاهدين وكانوا جميعا يتذكرون مارى دوبليسيس اما عيانا أو بالاسم ويعلمون أنها هى التى أوحت الى المؤلف بقصـة « غادة الكاميليا » فجلسـوا متلهفين على مشـاهدتها . فلما بدأ التمثيل اثارت المشـاهد الاولى دهشتهم بما حوته من مواقف واقعية فى مخدع

محظية ظهرت مهنتها الخسيسة على حقيقتها بدون مواربة وظهرت ميوعة وفسق رفقائها . ولكن المسرحية سارت سهلة وكان الممثلون فى أوج حالاتهم الفنية بالرغم مما لاقى منهم مدير الفرقة من مشاحنات ومشاغبات وتذمر أفقدته أعصابه . وقامت أيوجينى دوش بدورها بكل كياسة وظرف فأبعدت سريعا كل خطر من سخط قد يظهر بين الجماهير . وفشتر — ماذا تقول عنه ؟ — أدى دوره على المسرح فكان نعم العاشق المتيم . شاهد الكسندر كل هذا فخيل اليه — وهو جالس فى مقصورته — أن ما يراه ويسمعه هو شىء جديد لا يدرى عنه شيئا . كانت أيوجينى دوش وحيدة على المسرح تلتقط أنفاسها بعد نوبة من السعال مستندة الى حافة المدفأة فى أعياء أنيق وتحدق فى صورتها فى المرآة ، ويدخل عليها فشتر من باب فى المنظر ويقول :

فشتر — هل أنت الآن أحسن حالا ؟

دوش — أوه أنه أنت يا مسيو أرمان . أجل انى أشعر بتحسن فشكرا لك على سؤالك . وعلى كل حال فهذه النوبات تتوالى على وقد اعتدت عليها

فشتر — انك تقودين نفسك الى الهلاك . أود أن تتخذى منى صديقا بل أخا أمنعك من الحاق الضرر بنفسك

دوش — لن تقدر على ذلك . ماذا ! ما أصابك ؟.

فشتر — انه فقط — عندما أراك —

دوش — شفقتك على بادية عليك . انظر الى الآخرين تعرف مقدار ما يكنونه لى من عطف

— فشتر — انهم لا يحبونك كما أحبك أنا

دوش — هذا صحيح ، لقد نسيت كل ما يتعلق بحبك الكبير

فشتر — اتسخرين من هذا الحب ؟

دوش — حاشا لله . انى المسه يوما بعد يوم فلم يعد هزلا بالنسبة لى

لقد كتب هذه الكلمات من وحى حديث جرى بينه وبين مارى دوبليسيس من وقت مضى عليه زمان طويل ، ولكنها اليوم تطرق أذنيه كأنها غريبة عليه . وكما استغربت أذناه سماع هذا الكلام فكذلك المشاهد شدت اهتمامه وهى تتحرك أمامه فى الجو الخيالى الساحر للمسرح كما لم تشده واقعة حقيقية من صميم الحياة . أما النظارة فقد كان اعجابهم يزداد كلما تقدمت الرواية ، فلما انتهى الفصل

الاول ونزل الستار صدرت منهم اصوات كالزئير اعجابا وتقديرا .
وجاء الفصلان الثاني والثالث فأحرز فيهما كل من فشتر وأيوجينى دوش نصرا عظيما ، قاما بأداء دوريهما كأنهما ملهمين . قدما عرضـا جميلا لقيام حب قل أن يوجد له مثيل يستحق أن يتغنى به الشعراء والمنشدون ، حازا اعجاب الجمهور فأمطرهما استحسانا وتصفيقا .
أما نجاح الفصل الرابع فحدث عنه ولا حرج ، طغى على كل نجاح سبق فى الفصول الثلاثة الاولى . هنـــا ملك فشتر ناصية الاداء المسرحي عندما قام بدور أرمان بعدما تغيرت مشاعره وامتلأت روحه مرارة وتملكه الحزن من كل جانب مما ظنه خيـانة من مرجريت .
استولى عليه الدور الى حد أن مدام دوش حسبته شخصا آخر غير ذلك الممثل الذى شاركته فى التجارب . رمى بالاوراق انتقـدية فى وجهها فى هياج شديد وأمسك بها ورماها على الارض بعنف جعلها تجاهره بالغضب عليه بعد انتهاء التمثيل ، أما الجمهور فقـــد بهره هذا الموقف وقام كرجل واحد يحيي ويرحب ، فلم يكن باستطاعة هذا الممثل أن يغادر خشبة المسرح الا بعد وقت طويل
واعتلى الفصل الاخير على قصره قمة النجاح ، وفازت فيه دوش بالشهرة التى طالما داعبت خيالها : انها ممثلة تراجيدية من الدرجـــة الاولى . كان مشهد موتها فى غاية من الروعة والرقة ، يأخذ بمجامع القلوب . لقد حطم فشتر قلوب الجميع مع قلبه فبكى كل من فى المسرح ثم هبوا مصفقين مهللين . وبعد ذلك جاء دور المؤلف ليأخذ قسطه من الاعجاب والتصفيق وذهب الكسندر الى خشبـة المسرح يحنى قامته تحية للجمهور ككاتب مسرحي ناجح لا ينكر نجاحه أحد
حوصر الكسندر من كل جانب عندما خلا المسرح من جمهـوره .
أحاط به مديرو المسارح يتأدونه كل يريد ان يستخلصـه لنفسه ، وصافحه النقاد يهزون يده بحرارة . ثم وجد نفسه مدعوا الى مأدبة قد جهزت تكريما له تكريم الفاتحين . ولكن المؤلف خيب رجاء أصدقائه ومريديه المحتفلين به ، انه وعد أمه ان يتناول العشاء معها فى منزلها بعد انتهاء التمثيل وانه عازم ان يفى بوعده ، أراد أن يعوض لها ما لاقته من هجرة أبيه لها بعد بلوغه قمم النجاح . وهكذا تناول الكسنـــدر دوماس الابن عشاءه تلك الليلة السعيدة مع كاترين لوباى منفردين . .
كاترين المسكينة التى انزوت بسعادتها بعيدة عن الاضواء تراقب ابنها الكسندر وهو يتمتع بنجاحه وينضم الى زمرة الناجحين ذوى الشهرة على هذه الارض . كتب بعد ذلك يقول : « احتفلنا سويا من كل قلوبنا .

ما كان أطيبها من أكلة .. فخذ خنزير أعقبه جبن جروبير ثم البرقوق المحفوظ . لم أتناول فى حياتى أشهى من هذا العشاء » ولابد أن كاترين لوباى تذكرته وهو صبى بعدها بكل مافى قلبه الصغير من حماس وجد انه سيعمل من أجلها يوما ما ، وتذكرت ذلك اليوم الذي انتزع بعيدا من أحضانها ليقضى حياته مع أناس أغراب ، وتذكرت مخاوفها عليه اذا عاش مع أبيه ان يقتبس من أخلاقه وينحرف مثله . هاهوذا الطفل الطيب القلب عاد مرة أخرى الى أحضانها لم تر فيه تبدلا ولا تحويلا

وأرسل الكسندر تلغرافا الى أبيه فى صباح اليوم التالى « نجاح عظيم عظيم ، عظيم لدرجة أنه خيل الى انى أشاهد حفلة أولى لاحدى روائعك » فجاء الرد يقول « يابنى العزيز انما انت أعظم أعمالى »

تغير مجرى الحياة تماما عند دوماس الابن ، وفى بالجزء الاكبر من ديونه ولم يعد يحمل هم المستقبل . يلح عليه مديرو المسارح فى طلب تمثيلياته ونظر اليه سريعا الناشرون وأصحاب الصحف نظرة جديدة وادركوا ، ما لاعماله من قيمة الآن تعود عليهم بالمكاسب

ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن ينتفع الكسندر النفع الكامل من نجاحه فقد أصبح لبيرو حصة فى الارباح بموجب اتفاق سابق وكان على وشك ان يبيع حقوقه فعلا فى أرباح التمثيلية لما وجد نفسه خالى الوفاض ليلة تقديم الحفلة الاولى ، ولحسن حظه اعمل فكره وعدل عن الامر ولكنه اضطر لبيع حقوق نشر الرواية بمبلغ خمسمائة فرنك فقط لتكون فى متناول يده يصرف منها على دعوة من له اعتبارهم فى عالم المسرح وليتمكن من أن يخالط من اذا فقد ولاءهم وسندهم ، فقد معهم عوامل النجاح . ولكنه تمكن فى قابل من الايام ان يعود فيشترى حقوق النشر من الناشرين وان يشترى حصة بيرو فى ارباح التمثيل من ورثته .

وجاء ربيع سنة ١٨٥٢ متلألئا بحفلات الرقص واحتفالات آل بونابارت واشياعهم . اقيم مهرجان كبير يوم ١٠ مايو فى شان دى مارس احتفالا باعادة وضع شعار النسر فوق العلم ليكون رمزا لفرنسا . أعقبته حفلة للرقص تكريما من رئيس الدولة الى الجيش . وأقيمت فى اليوم التالى مأدبة فى قصر التويلرى حضرها ثمانمائة من ضباط الجيش العظام ، وفى اليوم الذى يليه استضاف رئيس الدولة أكثر من ألفين من الضباط من الرتب الصغرى فى المدرسة الحربية . وكان استعراض الجنود يلاحق بعضه البعض . وكثيرا ما كان يشاهد

الرئيس نفسه ممتطيا صهوة الجياد المطهمة لابسا بزته العسكرية الزاهية يتجول فى أنحاء باريس . اتخذت المدينة الطابع العسكرى بأجلى مظاهره بعد أن كانت مدينة مزوقة لا هدف لها تحت حكم لويس فيليب لاهم لاهلها الا قراءة رواية «الفرسان الثلاثة» وما شابهها من القصص الاخرى . انهم الآن يشاهدون المظاهر العسكرية فىعنفوانها ولا يجدون معنى فى حكايات الفروسية الاولى فأضربت الصحف عن نشر قصص دوماس الاب . وبدلا من ذلك أصبحت مسرحية « غادة الكاميليا » محط الانظار فى مسرح الفودفيل تعج بالمشاهدين ليلةبعد أخرى . استولت المسرحية على أذهان مجتمع المدينة وازدحم ميدان البورصة حيث يقع المسرح بعربات الطبقات العالية بأزيائهم الفريدة. هناك فى المسرح يتجمع كثرة اعضاء نادى السباق وكانوا يعرفون الاشخاص الحقيقيين الذين اقتبست منهم شخصيات الرواية ، وجاء آخرون يتساءلون عمن يكونون . عرفوا الكونت دى جيرفييه فى شخصية سان جودان أحد أصدقاء مرجريت جوتيه الفاسدين . كان الكونت دى جيرفييه رجلا فى متوسط العمر ظريفا مغرما بالنساء ولا يملك نفسه أمامهن . ملأه السرور تماما عندما وجد أن اسمه سيبقى ما بقيت المسرحية . واصل حضور التمثيل ليلة بعد ليلة شاغلا نفس المقعد فى الصفوف الامامية يرقب مدام دوش من مكانه هذا حتى وقع فى غرامها فقادته ــ كما قال فيل كاستل ــ الى الهلاك أسوة بما فعلته مارى دوبليسيس مع عشاقها

وحضر مرة الموسيقار الايطالى فيردى وشاهد المسرحية مع الجمهور المتحمس المبهور فكانت النتيجة ان بلغت الفونسين بليسيس مستوى جديدا من الشهرة . لقد أوحى حماس الجمهور لفيردى فى ليلته تلك أن يؤلف أوبرا « لاترافياتا »

أجريت الانتخابات العامة فى شهر نوفمبر وكان من نتيجتها ان أعيد النظام الامبراطورى وفى أول ديسمبر سنة ١٨٥٢ نودى بالامير رئيس الدولة أمبراطورا باسم نابوليون الثالث ودخل باريس مهيبا مخترقا قوس النصر وبذلك ابتدات الامبراطورية الثانية أيامها البراقة وأخذ الامبراطور يتأهب للزواج من الحسناء أيوجينى دى مونتيجو التى وقع فى غرامها ويعد عدته ليعيد لفرنسا أمجادها السابقة ..

الفصل العشرون

العصر الجديد

نحن الآن في صيف سنة ١٨٥٥ . وفي احدى أمسيـــاته غادر دوماس الاب مكاتب صحيفته الخاصة المسماة «الفارس» سار هابطا في شارع الايطاليين . أصبح هذا الشارع غريباً عليه بعـــد أن كان يتعرف على كل شخص فيه . لقد تغيرت باريس وامتلأت أرصفتها بالغريبين عنها وازدحمت الشوارع بالعربات الجديدة الانيقة وبالجياد يمتطيها فرسان الجيش الامبراطوري . أما دوماس فلم يلتفت اليــه أحد ، لم يعد يملك فرسا ولا عربة . استمر في طريقه يتمتع بجو المساء لا يشغله شاغل . قد يقابل جمعا من أصدقائه جالســـين خارج مقهى فينادون عليه فينضم اليهم ليقضي معهــم ســاعة أو ساعتين في تراخ يتكلمون عن المعرض الدولي العظيم الذي سيقام في الشانزليزيه ، أو عن التغيرات التي طرأت على باريس ، أو عن نجاح دوماس الابن الفذ ، أو حتى عن حرب القرم التي تدور رحاها في ذلك الوقت وان كان أهل باريس يتحاشون الحديث عنها فهي تبعث في قلوبهم الحزن والاسى

عاد دوماس من بروكسل منذ ثمانية عشر شهرا وقد ترك فيهـا انتاجا من أضخم ما صدر عنه . قام هناك بعمل الجبابرة واستطاع لاول مرة في حياته ان يضع جانبا بعضا من المـال لاهتمامه الشديد بالعودة الى باريس ، تمكن أخيرا من سداد تلال الديون التي عليـــه الى الحد الذي جعله آمنا من دائنيه اذا عاد الى وطنه ، هــو الآن يؤلف كتبا لاتلاقي اقبالا كالتي سبقتها فقل المشترون . وأخذ يحرر في الصحف ثم انه امتلك صحيفة خاصة به لايشتريها الناس الا حبا منهم في معرفة ما وصلت اليه حاله . كانت هذه الصحيفة جـديرة بأن تدر عليه بعض المال لو استطاع أن يديرها بحزم . كانت فريدة في نوعها بين الصحف ، كادت أعمدتها تتخصص في نشر أخبـــاره فيكتب معظم أبوابها ويوجه كلامه عادة «لقارئاته العزيزات» «كان يحلو له ان يتخيل أن السيدات الحسان يقبلن على قراءة مقالاته اهتماما به واستمتاعا بها » يتسامر اليهن عن تجاربه ومنجزاته وما يفضله ويحوز رضاه ويذكر ابنه من وقت الى آخر . وما أن استقر في باريس حتى عاد الى فوضى طبيعته الاولى فاختل النظام في ادارته وعادت

جيوبه كعادتها خالية من النقود

افتقدته باريس فقد ترك فيها فراغا كبيرا أثناء غيابه . ولما عاد رحب به أصدقاؤه ترحيبا حارا من أجل شخصيته المرحة ومن أجل ضحكته العالية التى تطرب قلب كل من يسمعها . حتى ويلاكروا المتعجرف ، ويلاكروا العابس الذى لايتبس بكلام ــ الذى وصف بأنه يحمل على الدوام سحنة من يشم رائحة فاسدة تبعث فيه القرف ــ ينقلب مرحا نشطا اذا احس بدوماس يقترب منه

ومع كل هذا فقد شاخ دوماس وفقد أبهته . امتلأ شحما وثقل جسمه ، شاب شعر راسه المجعد وبدا أصله الزنجى واضحا لامرية فيه . تمر عليه أوقات يشعر فيها بالتعب والهموم . وفى مرة منها توجه الى ويلاكروا فى مرسمه وقد اختفت من وجهه ضحكته المعتادة ، وبث له همومه . اعترف أنه سئم الكتابة نهارا وليلا وانه خالى الوفاض دائما ، وشكا اليه ولديه الكسندر ومارى ، كل منهما تشغله شئونه الخاصة عن ذكر الاب العجوز المسكين . بث شكواه بلسان أب يعتقد فى قرارة نفسه انه نعم الاب الذى كرس أحسن أيام حياته فى تنشئة ولديه ولم يأل جهدا فى العناية بهما خلقيا وماديا وضرب لهما مثلا جميلا من نفسه فى الحدب عليهما ، وهاهو الآن ينتظر منهما المساعدة ورد الجميل والسلوان فى أخريات أيامه ، واتهم الكسندر بأنه رده ورفض ان يعمل تحت يده فى صحيفة «الفارس» لما طلب منه ذلك مما ملأه حزنا

والحقيقة ان الكسندر كان مثال الابن البار الذى قاسى كثيرا بسبب أبيه فلم تفقده هذه القسوة ما يكنه له من عطف واحترام ، الا أنه أصبح مؤلف ثلاث مسرحيات فائقة النجاح وتخلص من الديون ومن الحياة البوهيمية التى اضلته بعيدا عن الطريق السوى ، أصبح موفقا للخيرات واستقر فى حياة منظمة فكان من المستحيل عليه ان يشارك فى أعمال أبيه أو يقحم نفسه فى مشاغله فهناك الخراب .وسوء السمعة

ولم يفهم دوماس الاب منطقَ ابنه فى انعزاله عن مشاركته احتراما له فى انه سر كثيرا لنجاحه . وفتح مرة احد دواليبه الشاب ورأى انواعا من الاحذية صفت بنظام وهى جميعا جيدة الصنع فقال وهو يفكر : « مع كل هذا فلن يصبح الكسندر كاتبا عبقريا » لقد رأى فى صاحب الدولاب اديبا ناجحا فحسب يتبع المدرسة الاكاديمية ولكنه لم يجد فيه صاحب الموهبة العبقرية

ومن مآثر الكسندر الابن البار أن وفق بين أبويه وأصلح مابينهما من جفوة واستراح دوماس الاب لهذه الصداقة الجديدة واخـــذ يتردد كثيرا على كاترين لوباى فى منزلها الجميل الذى أعده لها ابنها ولكن السنين التى فرقت بينهما غيرت من طبعهمافهوتبعاداته واخلاقه ولم يستجب لرغبات كاترين أو ابنها فى الهدوء والاستقرار وظـــل بوهيميا قلقا لايستقر على نظام أو هدوء . وكان يأتى بأعمال مخزية فى بعض الاحيان جذبا للانظار والانتباه اليه ، وتجاوزت سقطاته فى تحرير صحيفة «الفارس» كل حد معقول . أما فى غرامياته فقدأصبح يتصرف تصرف شاب مراهق فى أول شبابه . فبدأ كأنه ممثل عجوز يقوم بأدوار الشبان الذين يسلبون عقول النساء ، فى حين ان عجزه جاوز سنه ، ولذلك فقد صار ذا حساسية فائقة أمام عشيقتهالجديدة الممثلة الصغيرة ايزابيل كونستان وأخذ يهتم بها كما تهتم سـيدة عجوز بقطتهـــا الصغيرة

وفى وسط هذا الاهتمام الذى يمجه الذوق بايزابيل كونستان كان يزداد مقتا وغضبا على راشيل التى لم ينفك عن النفور منها . لاحت له أخيرا فقط فرصة ليصب عليها نيران غضبه . وفدت الى باريس الممثلة الايطالية أديلايد ريستورى لتحيى موسما تمثيليا وقدمت فى أواخر شهر مايو عرضا جميلا وهى تمثل رواية «مــيرا» . تحمس دوماس الاب لها وكان حاضرا ، وفى نشوة هذا الحماس توجه اليها فى احدى فترات الاستراحة بين الفصول وتناول طرف ثوبها وقبله. منذ هذه اللحظة كرست صحيفة «الفارس» أعمدتها لتشيــد بفن ريستورى وترفعها الى مستوى لايدانيه مستوى راشيل . لقـــد صمم دوماس أن يضع من قدر راشيل المتشامخة وهو الذى عرض عليها حبه يوما ما فرفضت هذا الحب وردته ردا غير كريم . اقنع زملاءه المحررين أن يقللوا من شأنها فى مقالاتهم الصحفية ويشيدوا بذكرى ريستورى على انها الممثلة التى بذت كل ممثلة أخرى ، ولم يكن من العسير عليه اقناعهم بذلك فقد اكتسبت راشيل عـداء كثير من الناس فمثلا تعاقدت مع ليجوفيه على تمثيل احدى رواياته وعندما حانت التجارب أهملته وسافرت الى روسيا بدون أى اهتمام به ، ورفع عليها قضية وكسبها . كما بدأ الجمهور يملها ويريد أن يولى وجهه شطر نجمة جديدة تعلو على الافق . فلذلك كله انضم النقادالى حملة دوماس على راشيل وأخذوا يرددون أن الزمان قد مضى عليها وأن ريستورى هى ممثلة عصرها الوحيدة . وظهرت هذه المواضيع

يوميا فى الصحف فتأثر بها الجمهور ـ وما أسهل ما يتأثر الجمهور بما يقرأ فى الصحف ـ فأعرض عن حفلات راشيل واستبدل بها منافستها الايطالية

ورأت راشيل أن المد لم يعد فى صالحها فى باريس . وبالرغم من ان الموسم المسرحى الجديد مقدر له نجاح عظيم بمناسبة زيارة ملكة انجلترا للمدينة فازدحمت لذلك بالوافدين اليها ازدحاما لم تشهده من قبل ، فان راشيل رفضت ان تمكث فيها خوفاً من أن ينالها اهانة أو اذلال فسافرت الى أمريكا وكلها أمل فى جمع ثروة هناك . ولكن قابلها فشل ذريع فى الولايات المتحدة لان الجمهور لم يستسغ أسلوب الكوميدى فرانسيز الكلاسيكى فى التمثيل ، فعادت الى فرنسا مهيضة الجناح منهارة الصحة ولم تلبث ان توفيت بعد عودتها بقليل . كانت حملة دوماس عليها هى الضربة القاضية التى أطاحت بها .

وكانت سارا برنار ـ وهى الممثلة الاخرى التى بذت زميلاتها ـ فى هذا الوقت فى سن الصبا لم تتجاوز الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها ، تجذب اليها الانظار من فرط حساسيتها . وفى يوم ليس ببعيد توجهت الى حديقة التويلرى مع أهلها للنزهة فلمحت امرأة عجوزا استأجرت كرسيين متجاورين لتجلس عليهما معا مستريحة لفرط سمنتها ، فلما همت سارا باظهار ما شعرت به من استهزاء وسخرية فاذا بمن يرافقها يسكتها بحدة قائلا : «لا تنبسى ببنت شفة، انها المدموازيل جورج الممثلة العظيمة »

وكانت المدموازيل جورج قد استثمرت الاموال التى نالتها من الحفلة التى أقيمت لصالحها فى فتح مدرسة للدراما ، ولكنها فشلت . ثم لجأت حديثا الى نابوليون الثالث مستجدية معونته ، لم تجد منه عونا كبيرا ، رتب لها معاشا سنويا ألف فرنك . اثقلته معاشات رتبها لعديد من النساء خصوصا عشيقاته السابقات فما كان ليضيف عليهن عشيقات عمه الشهير المسنات . لم تجد أمامها الا السؤال وطلب المنة من هنا وهناك لتحصل على بعض المال . انتهزت فرصة افتتاح قصر الصناعة فى الشانزليزيه وازدحام باريس بالزائرين يترددون عليه وطلبت أن يسند اليها وظيفة الفتاة التى تحفظ للزوار مظلاتهم ولكن الوظيفة شغلت فرضيت بوظيفة الفتاة التى تلاحظ استراحات السيدات . وهكذا رأينا كيف ان من توجتها الامبراطورية الاولى ملكة للجمال هان أمرها فى زمان الامبراطورية الثانية ..

اما الممثلة أديلايد ريستورى فقدكان الحظ فى ركابها . ارتفعت الى قمة لا تستحقها ، انما وصلت اليها بحكم الظروف . استمع الى ما قاله الدكتور فيرون « فلنعترف اننا أجلسنا ريستورى علىظهر عربة النصرودفعنا بالعربةلالشىء الا لنقص أجنحةراشيلالمسكينة »

امتازت ريستورى بالجمال وجعل دوماس يتبعها يعرض عليها فروض الطاعة . كانت تقيم مع زوجها فى فندق كبير فى شارع الايطاليين وسعى دوماس ان يقبلا عليه ولا يضيقا بوجوده حتى أنه فى يوم من أيام ذلك الموسم قام بوظيفة طباخ يحضر لهما صنفاخاصا من عمل يده يرى أنه سيستحوذ على اعجابهما . انتشرالخبرسريعا فى الشوارع المحيطة فازدحم الناس واطلوا عليه فى المطبخ من خلال النوافذ والابواب ليروا بأنفسهم مؤلف «الفرسان الثلاثة» فى سترة بيضاء يلبس مريلة على صدره وقبعة الطباخين العالية فوق رأسه وهو يباشر عمله بين الاوانى والحلل فى أتم هدوء

واخذت أيام فصل الصيف تمضى وهى تزداد تألقا . أخذنابوليون الثالث يستعد لاستقبال الملكة فيكتوريا . زين قصر سان كلود من جديد وهو القصر الذى ستنزل فيه الملكة ، كما تجدد قصر فرساى . وتزينت باريس بأقواس النصر وتعليقات من المخمل القرمزى وامتلأت بالزهور والاعلام والنسور البرونزية وبما لايحصى من صنوف الزينة الاخرى . ترد اليها قطارات السكة الحديديةغاصةبالوافدين فانتعشت التجارة ودخل السرور فى قلب الجميع اللهم الا هؤلاء النفر الذين زحمتهم هذه الجماهير وضيقت عليهم أرصفة الشوارع التى ألفوها هادئة وحسبوها ملكا خاصا لهم لاينازعهم فيها منازع

وتقود دوماس الاب قدماه فى بعض الاحيان ليتمشى فى منتزه الملكة فيجد أمامه مبنى جديدا ملحقا بقصر الصناعة والعمل فيه قائم على قدم وساق لاتفتر ضوضاء الآلات القائمة بالعمل لحظة واحدة . انه عجيبة من عجائب التقدم العلمى وضمان للسلام والرخاء ونموذج للانجازات البشرية ، ولكنه لايجد رغبة فى الدخول فهو يخشى الآلات بل يزدريها ويحمد الله على أن شيئا لا يرغمه أن يشاهد ما يبذله من مهارة لا معنى لها . ولكنه لم يكن ليستطيع أن يغفل عن التغييرات الكبيرة التى طرأت على وجهباريس فيرتدحزينا شوارع واسعة تشق من أطراف المدينة الى أطرافها الاخرى فتقضى على شوارع أخرى قديمة امتازت بجمالها الرفيع وتزيل بقسوة أمكنة تردد عليها بين حين وآخر ليتزود منها بالهامات الادب والقصص

واصبحت المنازل الجديدة تعلو أمام ناظريه . انها أشبه بالقلاع والمتاحف منها الى المنازل المعدة للسكنى . أبنية ضخمة يشبه بعضها بعضا لاتجد فيها ما يسترعي الانظار تتكون من ستة طوابق أعدت لسكنى الطبقة الغنية الجديدة التى ظهرت فى أعقاب هذا العصر التجارى الذى أشرق على البلاد . تغيرت الدنيا تماما كأنما ولد عالم جديد مع ابتداء النصف الاخير من القرن . كان النصف الاول من القرن التاسع عشر هادئا محافظا وئيدا ريفيا وكانت البساطة والاعتقادات التى لا أساس لها من شيم الناس ، يعتقدون أن عمر الخليقة هو ستة آلاف سنة فقط فلا عجب ان كان دوماس الاب فى هذه الحقبة من الزمان مثلهم الاعلى فى تأليف القصص . أما النصف الثانى من القرن فقد امتاز بتقدم العلوم التطبيقية والصناعية والمادية فلا محل للرومانسية بينها . وبازدياد المعرفة وانتشار التعليم الجماعى أخذ الناس ينظرون نظرة جديدة على واقع الحياة تبعه تذوق جديد فى عالم الادب ينحو ناحية دوماس الابن . من هنا جاء نجاح الكسندر. لم ير الاب أن الدنيا تغيرت بل رآها ثابتة لا يعتورها تبديل مهما حاول الناس فى حين اعتاد الابن على تضمين مسرحياته المواعظ الاجتماعية والدخول مع المشاهدين فى نقاش حولها ، وهو بذلك أرضى نزعاتهم الجديدة فأعطوه آذانهم الصاغية وأقبلوا على قصصه

لما عاد دوماس الاب من بروكسيل دهش أول الامر مما وصل اليه ابنه من نجاح عظيم يفوق ما قدره له . عاد فى وقت تمكن فيه من مشاهدة مسرحية الكسندر الثانية «ديان دى ليس» ـ المأخوذة من القصة التى تحمل نفس العنوان ـ وهى التى أكدت ما للمؤلف من كفاية مسرحية وها هى روايته الثالثة « انصاف الحرائر » تعرض بنجاح ليلة تلو أخرى . ابتدع الكسندر هذا النعت الجديد اسما على مسرحيته ليكون دالا على طبقة فاسدة من المجتمع وهى الطبقة التى بدأ منذ اليوم يعلن عنها حربا مقدسة شعواء فى جميع كتاباته . انها قصة ممتازة ووضعه نجاحها على قمة عالم الادب الذى اتخذه مهنة له . كانت روايته الاولى غادة الكاميليا نهاية عهد الرومانسية وبشيرا لعهد الواقعية وأخذ يتبلور على يديه أسلوب المسرحيات الهادفة الاخلاقية فأصبح قائدا لمدرسة حديثة يعطى افكارا جديدة لمجتمع جديد .

سبق أن دهش دوماس الاب من نجاح «غادة الكاميليا» لبعدها عن مفهومه الادبى ، وزادت دهشته كذلك عندما رأى كيف شد ابنه

لب الجيل الجديد فى سهولة ويسر . لقد لاحظ فى ابنه الذكاء منذ أن كان طفلا صغيرا يشاغله ويلهيه عن متابعة سيل أفكاره فى ميدان الايطاليين،وتوقع له حينذاك مستقبلا زاهيا فأعطاه اسما صالحا يتجهز به لبلوغ النجاح ، وكان يقدر أن موهبة الابن ستنحو على غرار موهبة الاب فسعى أن تكون شهرة ابنه امتدادا لشهرته هو فجاء الامر كما لم يتوقع . تتابع نجاح الابن كاملا نابعا من ذاته لافضل لاحد عليه

وسرعان ما اسكن دوماس الاب من روعه واصبح فخورا أى فخر بابنه . كتب فى صحيفة «الفارس» يقول : « آن الاوان أن أعترف أنى لست بمستطيع كتابة مسرحيات أمثال «انصاف الحرائر» وديان دى ليس وغادة الكاميليا» ثم استدرك نفسه وقال : «ولكنى مستطيع أن أحسن تأليف كتب أخرى» . وما كان أحب اليه ان يكتب فى صحيفته عن أدق تفاصيل حياة ألكسندر . فاذا تأملنا ماكتبه فى هذا الشأن فى صحيفة «الفارس» أثناء سنة ١٨٥٥ لعرفنا لم ضاق به ألكسندر ضيقا شديدا وان لم يبد ذلك بكلمة واحدة . كتب دوماس الاب فى الاسابيع الاولى من هذه السنة يصف شئون ابنه الغرامية متذرعا بأنه ماكتب الا ليبين مدى تأثير العواطف الشخصية على الانتاج الفنى للاديب . ابتدأ بالحديث عن مارى دوبليسيس التى صورها بدقة على حقيقتها . ثم ذكر مدام دى نسلرود التى لم يسفر عن اسمها كاملا وذكرها بالحرف الاول منه فقط مدام دى ن ثم عطف على سيدة تدعى مدام أدريانى التى اتخذها ألكسندر عشيقة له أثناء قيامه بجمع مادة روايته « أنصاف الحرائر » . كتب دوماس مقالاته بأسلوب شيق حقا ولكنه يدعو الى الاشمئزاز فى الوقت نفسه . وكعادته ذكر نفسه فى مقالاته مركزا عليها ، يقبل مارى دوبليسيس ويغازل مدام نسلرود التى وصف جمالها بأنه جمال مرفه فاتر . فلاعجب ان وجدنا ألكسندر ينطوى على نفسه ويتحاشى ان يرى فى صحبة أبيه الامر الذى ملأ قلب دوماس بالحزن والاسى فهو يحبه حبا صادقا . .

ووقع لدوماس الاب فى صيف هذه السنة حدث واحد فرج عليه همومه . ذلك أن الملكة فيكتوريا عندما وصلت الى باريس طلبت أن تشاهد عرضا مسرحيا لرواية « فتيات سان سير » التى سبق أن شاهدتها فى لندن ونالت اعجابها الشديد . ووصف لوكاس . دوبريتون أن خيلاء دوماس فى هذه المناسبة فاق كل حد حيث قال وعلى فمه ضحكة عالية : « انى لعليم بما يطرب الملكة أكثر من

مشاهدتها مسرحيتي ، ذلك أن تشاهدني أنا وهو ما يسرني أنا أيضا، وما أحرى لهذه السيدة العظيمة التى طبقت شهرتها الآفاق فى هذا الزمان أن تقابل أعظم رجل فى فرنسا » لاشك أنه كان يمزح ولكن طلب الملكة نفخ فيه حياة جديدة واطمأن الى أن اسمه سيكتب فى الخالدين . وهذا ما حرص عليه طول حياته وان لم يتأكد منه . أصبح الان شيخا كبيرا ونضب المعين الذى غرف منه أفكاره الوضاءة التى سحرت عقول الناس ، وولت أحسن أيام عمره . ولكن شعوره بأنه خدم مخلصا ربات الادب هونت عليه آلام الفاقة والهبوط اللذين ألما به بل جعلته فخورا بما فعل .

وبذل ألكسندر — ابن هذا الاب الضليل — قصارى جهده فى أن يعيش بعيدا عن الاضواء ما أمكنه ذلك . ان مايصدر عن أبيه من تصرفات كاستعراض مهارته فى طهى الطعام بشكل يكاد يكون علنيا أمام الجميع ، وكفرامياته المكشوفة التى لاتخفى على أحد ، كل ذلك جعل الناس يقبلون على المقارنة بين الاب وابنه . لذلك حرص ألكسندر أن يجعل بينه وبين مجتمعه جدارا لاتخترقه عيون الناس . وهذا هو السبب فى اننا لانعلم منذ ذلك الحين عن أسرار حياته شيئا — اللهم الا مانستشفه من تحليل شخصيات رواياته ومن كتبه وقصاصاته ، الى درجة أننا نجهل تاريخ ومكان زواجه الأول .

من الراجح أنه تعرف على زوجته فى هذه الاوقات . وهى روسية أرملة الامير ألكسندر دى نارشكين . كانت احدى صديقات مدام دى نسلرود التى كلفتها بزيارة حبيبها السابق فاذا بها تصبح عشيقته لبضع سنوات ثم زوجته بعد ذلك عندما اتضح له أنها تحمل بين أحشائها ثمرة هذه العلاقة . ويمكننا أن نفرض أن هذا الزواج تم فى غضون سنة ١٨٦٢ وهى السنة التى ولدت فيها كبرى بنتيه .

وفى سنة ١٨٥٥ جعل ألكسندر من نفسه داعية الى الفضيلة لا تلين له قناة فى نصرتها ، وأخذ منذ ذلك الحين يشعل نيران حرب شعواء ضد المهنة التى احترفتها غادة الكاميليا . رأى فى البغاء منبع كل شر وبذور انهيار الأمة . وأهمه كثيرا ما رأى من أحوال الامهات غير المتزوجات وأحوال الاطفال المشردين الفظيعة فتقدم الصفوف لايجاد حل لهاتين المشكلتين ولغيرهما من المشاكل الاخرى التى تواجه المجتمع . وقد أمضى حياته طالبا اصلاح الاحوال الشخصية بكل ما أوتى من عزم وايمان حتى استجاب المشرعون لبعض

مطالبه وعدلوا من قوانين كثيرة منها أحوال الطلاق ورعاية الاطفال غير الشرعيين . ولكننا نجد منه فى نفس الوقت مغالاة أفسدت عليه رأيه فى حالات أخرى وذلك من جراء ماقاساه من محن فى طفولته أصبح ينظر الى المحظيات على أنهن أصل كل فساد . لم يجد اية صعوبة فى معرفة أحوال هذا الصنف من النساء . لقد ازدهرت مهنة البغاء كما لم تزدهر من قبل نتيجة لتجمع المال سريعا فى ايدى الناس من جراء اتساع آفاق التجارة بحلول الامبراطورية الثانية مما جعلهم يقبلون على الاستمتاع بسنوات الرخاء والسلام . الا أن الكسندر كان ضمن فئة قليلة من الناس رأوا مايخبئه الدهر من نكبات تحت هذه القشرة من الرخاء وأخذ ينذر قومه بلا هوادة مغبة انتشار البغاء . فلما حلت نكبات سنة ١٨٧٠ وانهارت الامبراطورية الثانية ازداد يقينا على يقين فيما فى البغاء من شرور ، الذى لم يختبف لسوء الحظ مع زوال الامبراطورية الثانية . وانفجر ساخطا لاعنا كل انحراف جنسى بكل أشكاله وانواعه حتى أنه فى سنة ١٨٨٤ طلب من الممثل لافونتين ـ الاب دوفال فى مسرحية غادة الكاميليا ـ أن يحتفظ بقبعته فوق رأسه ولا يرفعها فى حضور سارا برنار التى تقوم بدور مرجريت جوتيه

ولم يسلم الكسندر شأن كل ناجح من بعض الزهو يشين تصرفاته ، ارتقى به معاصروه الى أعلى عليين ونادوا به نابغة لن تستطيع الايام أن تمحو اسمه من سجل الخالدين ، وصار فى بحبوحة من العيش فلا يكتب الا مايعتقده حقا ، وفعلا لم يحد ككاتب قيد أنملة عن مبادئه ولكنه أصبح رمزا باردا متعاليا بين أقرانه ينظر اليهم كما ينظر الاستاذ الى تلاميذه لايرقون الى مقامه ويضع بعضا منهم تحت كنفه كما فعل بفلوبير ، ويشهر بكل من يبتعد عن التعاليم الدينية فى شئون الزواج ، ولكنه فى الناحية الاخرى يرى لنفسه الحق أن يخفف عن نفسه قليلا من القيود وأن يسمح لها ببعض المتعة من وقت الى آخر .

ومن سخرية الاقدار أن فشله فى حملته الاصلاحية جاء نتيجة نجاح مسرحياته ، وبالأخص مسرحية غادة الكاميليا ، هذه المسرحية التى كتبها بغير عناء وبمهارة بالغة سعيا وراء التخلص من ديونه . وقفت هذه المسرحية ضده وقوضت حججه وجعلت من اعماله الجادة المتواصلة هباء منثورا بعد أن وصل الى مكانة يستطيع أن يعلن فيها آراءه بصراحة . لاقت المسرحية نجاحا منقطع النظير فكان الجمهور ينتظر مسرحياته الاخرى بفارغ الصبر ويتزاحمون عليها

بما يجلب الزهو فى قلبه ، كانوا يعجبون ويستمتعون بها لانهـــا خرجت من يد كاتب نير لماح يعرف أسرار صـنعته حق المعرفة ، ثم يناقشون آراءه ونظرياته التى يعرضها ، ولكنهم لم يأخذوا مأخـذ الجد حملته على البغاء ولم يصـــغوا الى نذره بأذن واعية ، اذ أن مسرحيته الاولى اثرت فيهم أثرا لايمحى ، لقد غفرت للمحظيـــات خطاياهن وعذرتهن فى مهنتهن . فاذا جاء الان وأظهـــر فى بعض شخصيات رواياته ما يحط من شأن من يمثلونهم فى الحياة الحقيقية ، كما أظهر المحظيات على حقيقتهن فى واقع الامر فانه لم يجد من هؤلاء ما أشعرهم بأنهم المعنيون بما أراد لهم من خزى بل رآهم يرجعون الى روايته الاولى ، يجعلون منه هو سندا ونصيرا . وفى هذا وصف دوماس الابن بحق بأن مثله كمثل طبيب أعطى مريضا سما ناقعا فأسرع باعطائه البلسم الشافى ، ولكن المريض استساغ السم لمذاقه الحلو فلم يسع وراء الترياق

وكان من نتيجة رواية «غادة الكاميليا» أن غص عالم الادب فى فترة الامبراطورية الثانية بطوفان من الاعمال الادبية التى ترفع من قدر المحظيات . ومن هنا ازداد وباء البغاء انتشـــارا . وتنبأ فلوبير عندما بدىء فى عرض هذه المسرحية انها سترضى النساء العابثات عن سلوكهن الشائن . وتحققت نبوءته فأصبح يتغنى بهن كل شاعر

ولما توفى دوماس الابن سنة ١٨٩٥ حضر جمع كبير لتشـــييع جنازته الى مقبرة مونمارتر . ولما قضيت مراســـم الدفن وترك الاقارب والاصدقاء المكان اذا بكثير من الناس يأتون ويأخـــذون من الزهور التى وضعت على قبره ، يحملونها الى قبر الفونســـين بليسيس . وهكذا جمع الناس ــ فيما اعتقدوا ــ بين عضـــو الاكاديمية المبجل وبين سيدة الكاميليا فى دار الخلود

أما هو فقد وقع فى غرام نساء كثيرات بعد انفصام صلته بمارى دوبليسيس التى لم تستمر طويلا ، وعشقته امرأة واحـــدة على الاقل حبا لايمكن أن يقارن به حب مارى ، انهـــا الممثلة ديسكليه التى رآها أول ما رآها فى سبتمبر من عام ١٨٥٥ حين مثلت فى مسرحية « أنصاف الحرائر » بدلا من الممثلة مدام روز شـــيرى ، لم تتجاوز حينئذ الثامنة عشرة من عمرها ولم تسترع اهتمـــامه حتى سنة ١٨٦٧ عندما عرفها جيدا . كانت ســـيئة الطالع لم تستطع أن تخفى شغفها الشديد به وكان هو من ناحيته يقابل ذلك ــ كأنه يعاندها ــ بتفضيل الصداقة البريئة على الحب ويقـــول أن

الصداقة ـ عكس الحب ـ تزداد توثقا مع مرور الزمن مثل النبيذ كلما عتق صلح طعمه . وكلما ازدادت شغفا زادها نصحا ، فتوجهت وجهة أخرى تفرق همومها ، وفشلت ، ثم ما ابثت أن توفيت (١).

كان الوئام يبدو على حياته الزوجية الا انه ظاهرى لم يمنعه من أن يخون زوجته من وقت الى آخر ، حتى اذا ماتزوجت ابناهما استقل هو وزوجته كل فى معيشة منفصلة . فلما توفيت زوجته سنة ١٨٩٥ تزوج مرة أخرى بمدام رينيه دى لابريير التى سبق أن أغرم بها غراما شديدا قبل ذلك بسنوات عديدة لم يفتر حبها فى قلبه طول حياته الى أن توفى بعد زواجه منها بأقل من ستة أشهر.

فاذا نظرنا اذن الى مابدر من الناس بعفو خاطرهم فى ذلك اليوم من أيام الشتاء يوم سجى فى مقره الاخير لوجدنا أنهم انما فعلوا مافعلوا تحت تأثير وهم سيطر عليهم . ولكن تصرفهم هذا قد يكشف لنا عما ترمز اليه العلاقة بين عالم الحقيقة وعالم الخيال . فاذا نظرنا الى واقع الامر المجرد نجد أن حب دوماس الابن لمارى دوبليسيس انما هو حب عابر وهى من ناحيتها فضلت عليه فرانزليست . ولكن الكاتب يعيش فى عالمين ، فاختلط عليه لسوء حظه عالم الحقيقة مع عالم الخيال وهو يكتب قصة غادة الكاميليا هناك فى سان جيرمان وظلت بطلتها عالقة به اذ لم تسعفه قريحته مرة أخرى أن يستخرج بطلة أخرى بمثل شخصيتها من عالم الافكار الذى لجأ اليه بعد ذلك طول حياته وكما قال هو مرة « كم من رجل أهلكه الحزن والهم ولو استطاع أن يؤلف كتابا أو مسرحية لأمكنه أن يتغلب عليهما . وتنزل عليه السكينة بقدر مايمتد وعيه ويتسع ادراكه »

تمت

---

(١) من الصدف العجيبة ان كل من قام بالتمثيل فى مسرحية انصاف الحرائر خلال سنة ١٨٥٥ التى كانت سنة رخاء . لاقى حتفه فى ظروف متناهية فى الشناعة. توفى أحدهم مسلولا وانتحر آخر ودفن الثالث بمحض الصدفة حيا . وتوفيت مدام روز شيرى صغيرة السن فى عنفوان صحتها تاركة أطفالا صغارا . وعشقت ديسكليه وتحطمت على جلمود صخر قلب دوماس الابن الذى لم يعرها أدنى اهتمام. وقد سجل دوماس الابن ما حل بالفريق الاهلى الذى ابتدأت به الرواية « انصاف الحرائر » فى تعليقاته على كتابة « الاعمال الكاملة » ذكر فيها قصة حب ديسكليه ونصائحه لها . تلك النصائح الممتازة التى أظهرته صاحب فكر ثاقب وبصر ناقد على طبيعة الحب المتبادل بين الرجال والنساء. والظاهر ان واقعة حب ديسكليه كانت صحيحة تماما مثل واقعة غادة الكاميليا الا انها فاقتها فى مأساتها اذ أن الحب قام فيها من جانب واحد فقط .

هـذه الـروايـة

لن تجد فى هذا الكتاب انسانا هو مجرد اسم ، او حتى مجرد شبح ، بل كل من تحدث عنهم اشخاص ينبضون بالحياة ٠ يروى هذا الكتاب أخلاقهم ونزواتهم ، فضلهم وحمقهم ، جانبهم البطولىوصغائر طبعهم٠ ان هذا الكتاب يفيض بوصف العواطف الانسانية المختلفة ، من حب ومقت ، ونبل وخسة وسمو وضعة ، من كرم وحسد وغيرة ونفاق ، فهو ان تحدث عن عصر مضى فهـــو يؤرخ للانسان فى كل زمان ومكان ٠ سيحرك هذا الكتاب همة كل أديب ناشىء عندنا ويبصره بالفن والجمال ، وما فى الحياة من متناقضـــات وعواطف متضـاربة ، سيجعله يلمس بيديه ان الفن هو ايضا نجاة للنفوس وتطهير لها ٠ سيعرف أن الفقر ليس عائقا ، بل ينبغى أن يكون حافزا له على مواصلة الجهاد من أجل خدمة الفن الذى يملك عليه نفسـه ، فيخلص له ، وسيرى أن جهده مثمر ٠

« من مقدمة يحيى حقى »

